

الدكتور اجان عباس

تاريخ الأدب الأندلسي

عشر زيادة قرطبة

طبعة ثانية منقحة ومزودة

دار الثقافة

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

المكتبة الأندلسية

٢١

تاريخ الأدب الأندلسي

هذه الطبعة الثانية

منذ مدة غير قصيرة فقدت الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، والناشر يراجعني في شأنه وأنا أسوف وأماطل ، فقد مضت حتى اليوم مدة تقرب من ثماني سنوات ، تكفي لتغيير كثير من النظرات وتتطلب إعادة النظر في كثير من الأمور ، وكنت أحس أن إعادة طبعه تتطلب مني أن أعيد كتابته ، وليس لديّ من الوقت ما يجعل ذلك أمراً ممكناً .

وأخيراً وجدت أن التعلل بالمعاذير لم يعد يقنع الناشر أو يرضيه ، فاخترت حلاً وسطاً ، وقمت بمراجعة الكتاب فحذفت منه ما رأيت غير ضروري وزدت فيه أشياء كثيرة رأيت إضافتها إليه ، وغيّرت مسائل لم تعد تثبت للتمحيص بعد ترديد النظر فيها ؛ وعدّلت في ترتيب فصوله ، وأضفت إليه في الملحقات مختارات شعرية جديدة ، بحيث أستطيع أن أقول : إن هذا الكتاب في شكله الجديد يكاد يكون غير ذي صلة قوية بالطبعة السابقة .

على أنني قمت بكل ذلك وأنا بعيد عن مصادر وكتبي ، ولهذا أقيت الإشارات إلى المصادر السابقة على ما هي عليه ، وإن كان بعض المخطوط قد طبع ، وبعض المطبوع قد ظهر في شكل علمي محقق ؛ ومن الحق أن أنوه بكتابين جديدين أمدّاني بالشيء الكثير في هذه الطبعة وهما :

١ - كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس لابن الكثاني

٢ - ديوان ابن درّاج القسطلي

فالأول منهما قدّم نماذج جديدة للدراسة والحكم ، والثاني جعلني
أعيد القسم الأعظم من الفصل الذي كنت قد كتبتة عن ابن درّاج .
وبعد : لقد كنت أكثر رضّي عن هذا العمل لو توفر لي الوقت اللازم
لكتابته من جديد ، ولكن هذه أمنية لم أستطع تحقيقها ، فأرجو أن يكون
في بعض ما حققته منها بعض الرضى لنفسي والقراء ، وذلك حقاً هو جهد
المقلّ ، وفي هذا القدر منه لا أشكو التصير .

استانبول في ١٥ سبتمبر (أيلول) ١٩٦٨

إحسان عباس

مقدمة الطبعة الاولى

هذه فترة من تاريخ الأدب الأندلسي لا يكاد الدارسون يقفون عندها حتى يتجاوزوها عابرين أحببت أن أطيل اللبث في دراستها وأن أجلو بعض الغموض عن نواحيها لعل أضع في أيدي قراء الأدب صورة منظمة لفترة هامة من فترات الأدب الأندلسي حقيقة بالدرس والعناية والتوضيح .

وأنا موافق أن الخوض في كبريات المسائل لا يسلم من النقص ولا يبرأ من الخطأ ، غير أنني أرى أنه لا بد للدارسين من أن يكتبوا في الموضوعات العامة مثلما يتفرون على الموضوعات الدقيقة الخاصة ، بل إنني لأعتقد أن أخطائي قد تكون حافزاً للتصحيح والتوجيه ، وبذلك تكون الفائدة المرجوة أكبر من الخطأ . على أنني فيما حاولته لم أشأ أن أطلق العنان للأحكام الواهمة بل قيدت نفسي بالنصوص جهد المستطاع ، وحكمت على ما بين يديّ دون مغالاة ، حسبما تسمح به المصادر المتيسرة .

وقد أصبحت هذه المصادر تسمح بشيء من الحكم الصائب بعد أن أبرزت من مكانها ونشرت على الناس ، لما تلقاه المكتبة الأندلسية اليوم من عناية الناشرين والمحققين سواء يبعث ما لم ينشر من قبل أو بإعادة نشر ما نشر منذ زمن بعيد . وقد كان إخراج طبقات الزبيدي والحدوة والمغرب - مثلاً - خير معين على الكتابة في هذه الفترة ، كما أن تقريب المخطوطات للدارسين وجمعها في صعيد واحد بهمة معهد المخطوطات التابع للجامعة

العربية يسر للدارسين فرصاً لم تكن متيسرة من قبل وذلك لهم عقبات لم يكن تذليلها سهلاً عليهم .

وسيجد القارئ أني صدرت هذا الكتاب بمقدمة تاريخية عرضت فيها لبعض الحقائق التي يجب أن يلم بها من يقرأ الأدب الأندلسي ، دون أن أوغل في النواحي التاريخية فهي متشعبة مستقصاة في المصادر . ثم حاولت أن أصور كيف نشأ الشعر الأندلسي في حضن ثلاثة أبعاد : مجالس المؤدبين ومجالس الغناء والبيئة الثقافية ، وكيف اتجه الشعر في تيارين : طريقة العرب وطريقة المحدثين ، وكيف تضاعفت الطريقة الأولى إلى جانب الثانية ، ووقفت عند تبلور الشخصية الأندلسية من الداخل برغم ذلك الاتجاه الشديد نحو المشرق ، ورسمت ظلالاً صغيرة لتطور الشعر حتى قيام الفتنة البربرية ، ثم صورت ذلك الشعر في مظاهره الكبرى وفي تقليد الشعر المشرقي المحدث . ثم ميزت بعض طبقات الشعراء حسب الزمن ، وترجمت لبعضهم مستقصياً حيث أسعفت المصادر على الاستقصاء ، واستكثرت أحياناً من حشد الأمثلة الشعرية ، دون تحليل ، لكي أقرب هذه الأمثلة على القارئ وهي متناثرة متياعدة في المصادر ، ولكي لا أستقل في الحكم على شيء لا يملك القارئ شواهدة ، وهو صنيع ما كنت لأجأ إليه لو توفرت لدينا دواوين أولئك الشعراء .

وبعد ذلك تعرضت لدراسة الفتنة البربرية وأثرها في الأدب وتوزيع الثقافة ونشأة فن التراجم الذاتية وتقوية حركة النقد وترجمت للشعراء الذين تأثروا بها ، ثم عقدت فصلاً تحدثت فيه عن الكتابة في الأندلس ، وهو فصل موجز ، لأن صورة الكتابة لم تتضح تماماً إلا في العصر التالي .

وألحقت بهذه الدراسة ملحقات ثلاثة تتصل بها اتصالاً وثيقاً وهي :
(١) مجموعة من شعر الغزال لم تنشر من قبل (٢) رسالة ابن حزم في فضل الأندلس (٣) قطعة من ديوان ابن حزم لم تنشر من قبل .

وإني لأحس أحياناً أن لابن حزم صورة طاغية على جنبات هذا الكتاب ، وهذا أمر طبيعي في رأيي وأنا أؤرخ هذا العصر ، لأن ابن حزم أرخ هذا العصر نفسه على نحو موجز متقطع حين كتب في تاريخ أمرائه وعلمائه ومؤلفاته وأنساب أهله ، وهو علم أندلسي لا يستطيع الدارس أن يغفله أو يغفل أحكامه ، وهو حجة عند الأندلسيين في الخبر ، وهو إلى ذلك كله صورة الأندلس نفسها حين أرادت لذاتها شخصية مستقلة .

ولما تحدثت بأمر هذا الكتاب إلى بعض العارفين لقيت منهم تشجيعاً كثيراً على المضي فيه ، وأنا أشكر لهم ثقتهم فيّ وتفضلهم عليّ ، وأخص بالذكر منهم أستاذيّ وصديقيّ : الدكتور حسين مؤنس والدكتور شوقي ضيف ، فقد أبديا عطفاً مخلصاً على هذه الدراسة . أما أخي الدكتور محمد يوسف نجم فلإني أعجز عن أن أقدر العون الذي يبذله حق قدره ، حتى ليتضاءل في جانبه جهدي الأصيل ، ومن حق الصديق ألا تحجب صداقته وجه فضله ، حفظه الله ورعاه . هذا ويطيب لي أن أقدم شكري الجزيل للأستاذ الدكتور صلاح الدين المنجد مدير معهد المخطوطات والأستاذ فؤاد السيد أمين المخطوطات بدار الكتب على مساعدتهما القيمة لي في تسهيل وصولي إلى ما أحججه من الأصول .

وإني لأرجو أن يجد هذا الكتاب قبولا وأن يمنحني ذلك الثقة التي تدفعني إلى تتبع أدوار الأدب الأندلسي بالتاريخ والنقد ، ليكون هذا الكتاب حلقة أولى في سلسلة من عدة حلقات ، والله الموفق .

إحسان عباس

جامعة الخرطوم - كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٩

الدولة الأموية بالأندلس

٧٨٨ - ٧٥٦	١٧٢ - ١٣٨	عبد الرحمن الداخل
٧٩٦ - ٧٨٨	١٨٠ - ١٧٢	هشام بن عبد الرحمن
٨٢٢ - ٧٩٦	٢٠٦ - ١٨٠	الحكم بن هشام
٨٥٢ - ٨٢٢	٢٣٨ - ٢٠٦	عبد الرحمن الثاني
٨٨٦ - ٨٥٢	٢٧٣ - ٢٣٨	محمد بن عبد الرحمن
٨٨٨ - ٨٨٦	٢٧٥ - ٢٧٣	المنذر بن محمد
٩١٢ - ٨٨٨	٣٠٠ - ٢٧٥	عبد الله بن محمد
٩٦١ - ٩١٢	٣٥٠ - ٣٠٠	عبد الرحمن الناصر
٩٧٦ - ٩٦١	٣٦٦ - ٣٥٠	الحكم المستنصر
١٠٠٩ - ٩٧٦	٤٠٦ - ٣٦٦	هشام المؤيد

الحجّاب في عهد هشام المؤيد

١٠٠٢ - ٩٧٧	٣٩٢ -	المنصور بن أبي عامر
١٠٠٨ - ١٠٠٢	٣٩٩ - ٣٩٢	المظفر بن المنصور
١٠٠٩ - ١٠٠٨	٣٩٩	عبد الرحمن شنجول
	٤١٨ - ٣٩٩	الفتنة البربرية ثم محاولات إرجاع الحكم الأموي

مقدمة عامة

يستغرق هذا الجزء الحديث عن الأدب الأندلسي ، شعره ونثره ، إبان سيادة قرطبة ، حين كانت الأندلس ولاية تابعة لدمشق (٩٢ - ١٣٨) ثم حين أصبحت دولة مستقلة عن خلافة المشرق يحكمها أمراء فخلفاء من بني أمية (١٣٨ - ٣٩٩) . وفي عهد الخليفة هشام المؤيد أصبح صاحب السلطان الفعلي هو الحاجب ، وذلك ما يسمى في التاريخ الأندلسي باسم « الدولة العامرية » ثم تكون الفتنة البربرية ومحاولات متكررة لاسترداد السيادة الأموية ؛ وكلها تبوء بالإخفاق ويقتسم الطامحون مدن الأندلس ويحكمونها باسم ملوك الطوائف وتضيق سيادة قرطبة بذهاب الخلافة الأموية .

١

كان الفاتحون الأول الذين دخلوا الأندلس مع طارق ومغيث وموسى بن نصير من البربر والعرب ، وكان استيطانهم في البلاد قائماً على استحسان ما يلائمهم من المناطق ولذلك آثر العرب البوادي والمفاوز ، وقد اتخذوا زوجات لهم من أهل البلاد الذين يدعوهم العرب باسم « عجم الأندلس » فإن قسماً كبيراً منهم دخل الإسلام وهم الذين يدعون « المسالمة » ، وقد

نشأ الصراع أولاً بين العرب والبربر وبين اليمنية والمضرية من العرب أنفسهم ، ثم دخل بلج بن بشر بن عياض القشيري الأندلسي وفي صحبته عشرة آلاف ، ألفان من الموالي والباقي من بيوت العرب ، ويسمى هؤلاء الطالعة الأولى من الشاميين ، أما الطالعة الثانية فهي قليلة العدد وقد وصلت بصحبة أبي الخطار الكلبي . وقد أضاف هؤلاء الشاميون عنصراً جديداً إلى عناصر الخصومة في الأندلس ، إذ اتحد ضدهم البلديون من العرب والبربر ، وأخذوا يحاربونهم ويقولون : بلدنا يضيق بنا فاخرجوا عنا^١ ، ويبدو أنهم يعنون ببلدهم مدينة قرطبة وحدها ، لأن أبا الخطار حين قدم الأندلس فرق الشاميين في الكور فأنزل أهل دمشق بالبيرة وأهل الأردن بربة وأهل فلسطين بشذونة وأهل حمص بإشيلية وأهل قنسرين بجيان وأهل مصر بياجة وقطيماً بتدمير ، وكان إنزاهم على أموال أهل الذمة من العجم^٢ وهؤلاء هم الذين يسميهم ابن حزم : « الأجناد الستة » في قوله في رسالة فضل الأندلس : « ومنها كتب مؤلفة في أصحاب المعافل والأجناد الستة بالأندلس » ، وهذه هي الأقسام التي أصبحت تسمى أيضاً « كوراً »^٣ وأضيفت إليها غيرها من الكور ، فاستعمال ابن حزم لكلمة الأجناد قد يشير إلى أن الكلمتين مترادفتان في معناهما .

وهؤلاء الشاميون كوتونا مع الأمويين عصبية واحدة ، وقد تضم كلمة « الأمويين » في هذه القرينة من كان أمويّاً صليبة ومن كان من موالي الأمويين ، ولهؤلاء الموالي مركز اجتماعي رفيع ومنهم بيوت مشهورة بالأندلس مثل بني أبي عبدة وبني شهيد وبني حدير وغيرهم ، وقد نالوا

١ ابن القوطية : ١٧ .

٢ ابن القوطية : ١٩ .

٣ الإحاطة ١ : ١٠٩ .

مقام الحظوة عند أمراء بني أمية ، ودونهم في المترلة « الخلفاء » ، وهم فتیان القصر في العهد الأموي ، وهم أول من تؤخذ منهم البيعة^١ . وكان الشاميون يسمون « السادة » ويرجع هذا التمييز إلى وضعهم في الجندية ، إذ كان الواحد من الشاميين يرزق بعد انقضاء الغزاة عشرة دنانير إن كان من بيوتات العقد ، فإن لم يكن منها رزق خمسة دنانير ، وللواء الغازي من الشاميين مائتا دينار ، وللواء الغازي من البلديين مائة . ولم يكن الديوان والكتابة إلا من الشاميين وكانوا أحراراً من العشر ، أما العرب البلديون فيؤدون العشر^٢ .

وبالإضافة إلى هذه العناصر من بلديين ومولدين ومسألة وشاميين وأمويين كان هناك عنصران آخران من أهل الذمة هما : اليهود والنصارى الذين لم يسلموا ، أما اليهود فقد وثق المسلمون فيهم عند الفتح وضموهم في كل بلد مفتوح مع حماية إسلامية ، وقد تركوا لهم حرية العقيدة وحرية التنظيم الداخلي للجماعة اليهودية ، وأما أهل الذمة من النصارى فقد ذكرنا كيف أن العرب الشاميين نزلوا على أموالهم ، وكان لهم قضائهم كما كان لهم مطران مركزه طليطلة ، وحفظ العرب لهم أديرتهم وأكثر كنائسهم ، غير أنه لم يطل بهم حتى استعربوا لساناً وزياً . وكان بعض رجالهم مثل أرتباس مقدماً في عهد الولاة يستشرونه في كثير من الأمور ، وقد ولاه عبد الرحمن القناسة أي جعله قوماً^٣ وهو الذي نصح أبا الخطاب بتفريق الشاميين على الكور . وعلى وجه الإجمال كان التسامح مع أهل الذمة هو الطابع العام للسياسة بالأندلس إلا حين كان الذميون يوالون العناصر المعادية للحكم العربي .

أما تملك الفاتحين للأرض في الأندلس فقد جرى على وجهين :

١ النسخ : ١ : ١٨٢ .

٢ الإحالة : ١ : ١١٠ .

٣ ابن القوطية : ٣٨ .

أ - اعتبر العرب ما فتحوه من الأرض غنيمة ، وهذا ما يدل عليه نص فريد لابن حزم في رسالة التلخيص لوجوه التلخيص حيث قال : « هذا مع ما لم نزل نسمعه سماع استفاضة موجب للعلم الضروري أن الأندلس لم تخمس وتقسّم كما فعل رسول الله فيما فتح ولا استطيت أنفس المستفتحين وأقرت لجميع المسلمين كما فعل عمر رضي الله عنه فيما فتح ، بل نفذ الحكم فيها بأن لكل يد ما أخذت . ووقعت فيها غلبة بعد غلبة البربر والأفارقة والمصريين فغلبوا على كثير من القرى دون قسمة ثم دخل الشاميون في طالعة بلج بن بشر بن عياض فأخرجوا أكثر العرب والبربر المعروفين بالبلديين عما كان بأيديهم »^١ . وهذا النص دقيق بعض الدقة في القول بعدم تخميس الأرض ، ولكنه غير دقيق فيما يتعلق بإخراج البلديين عن أرضهم ، لأن أبا الخطار أنزل الشاميين على أموال أهل الذمة ، إلا قلة منهم كانت قد سكنت مع البلديين ولم ترتحل من منازل استطابتها .

ب - ثم اعتبرت بقية الأرض التي لم تؤخذ عنوة أرض صلح تؤدي عنها الجزية .

وإلى ابن حزم مرة أخرى حين نريد أن نتصور توزيع القبائل العربية في الأندلس ، حيث نثر المعلومات المتصلة بهذه المسألة في كتاب الجمهرة . ويتجلى من كلام ابن حزم شدة اختلاط القبائل في المدن الكبيرة أمثال قرطبة وإشبيلية ، وإنما نذكر ثبناً ببعض القبائل على سبيل التمثيل لا الاستقصاء ليتصور القارئ صلة هذا التوزيع بالحياة الأندلسية عامة^٢ :

بنو صخر من غطفان : بناحية قرمونة .

١ رسائل ابن حزم الورقة : ٢٥٠ .

٢ أخذت هذه الجزية من مواطن متفرقة في كتاب الجمهرة لابن حزم ، ويمكن مقارنتها بما جاء في فتح الطيب ١ : ١٣٨ .

- بنو مرة : بالبيرة ولهم بإشيلية بيت واحد وهم بنو عوف بن مرة .
- بنو منذر بن الحارث من ثقيف : بياجة .
- بنو سلول : جماعة منهم بالموسطة من عمل ليلة .
- بنو نمير : بالبراجة .
- بنو قشير : بجيان ومنهم بالبيرة عدد .
- بنو عقيل : بمتيشة وجيان ووادي آش .
- النمر بن قاسط : بمحصن وضاح من عمل رية .
- عك : في الجوف شمالي قرطبة .
- دوس : بتدمير .
- بجيلة : بجهة أربونة .
- خشم : بشنونة ومنهم بالبيرة قوم .
- همدان : بالبيرة .
- بنو الأشعر : برية .
- طيء : بسطة وتاجلة وغلبار .
- عنس : بجهة قلعة محصب .
- حولان : بقرطبة والبيرة .
- المعافر : ببلنسية وجيان ومنهم العامريون بقرطبة .
- جذام : بشنونة والجزيرة وتدمير وإشيلية .
- لحم : بشنونة والجزيرة وإشيلية ومنهم بنو عباد وبنو نمارة .
- ذو رعين : بالفحص المنسوب إليهم برية .
- بنو هوازن : بالقريتين المذكورتين بهما بإشيلية .
- بلي : شمال قرطبة .
- بنو عنزة : بدلاية وبجيان منهم ، وبالغمر منهم بنو فوارتش ولهم عدد بسرقسة .

بنو قين : برية عدد عظيم منهم .

بنو خشين : بحيان وأعمال البيرة ومنهم بلبله عدد .

ويين ابن حزم كذلك أهم بيوتات البربر ومنازلهم بالأندلس^١ وهم بالثغر أكثر من العرب كما أن بعض مواطنهم تكاد تكون مستقلة منعزلة عن مساكن القبائل العربية ، ومنهم أسماء البيوت المشهورة التي سيكون لها دور في التاريخ الأندلسي بعد انقضاء الدولة الأموية مثل : بني رزين وبني ذي النون وبني مضا وبني عميرة ومنهم بنو الزجالي الذين تميزوا أيام الحكم الأموي وغيرهم^٢ .

٢

وفي عهد الدولة الأموية ظل ما نسميه « سيادة قرطبة » شيئاً نسياً ، لأن الحكام لم يستطيعوا أن يضبطوا جميع الجهات الأندلسية ولا انتهت بهم الحروب الخارجية إلى استقرار ، ولذلك كانت تلك السيادة تنبسط حيناً على رقعة واسعة ويتقلص ظلها حيناً آخر . وإذا كان عهد الولاة قد مضى في توسيع الحدود وفي الحروب القائمة على العصابات فإن عهد الدولة الأموية شغل كثيراً بثبيت الحدود وبالقضاء على الفتن التي يثيرها الطامحون في الداخل . وقد كان كثير من الثائرين من المولدين والمسألة ، كما تجددت العصية بين العرب والمولدين . وفي أيام الأمير عبد الله كانت الأحوال تنذر بتفكك الأندلس إلى دويلات صغيرة ، إذ نجم الثوار وذر قرن العصية في كثير من

١ الجمهرة : ٤٦٣ وما بعدها .

٢ من شاء التوسع في دراسة الحياة الاجتماعية في عصر الولاة فليراجع كتاب « فجر الأندلس » للدكتور حسين مؤنس ، فهو المؤرخ الحجّة في التاريخ الأندلسي .

النواحي . وقد بقيت قطعة من كتاب المقتبس لابن حيان خاصة بحكم الأمير عبد الله تصور هذه الناحية في إسهاب^١ . فثار من المولدين عبد الرحمن بن الخليقي ، واتخذ بطليوس دار مملكته وكان يدعو لعصية المولدين على العرب ، واقتعد بكر بن يحيى بن بكر مدينة شنت مرية بكورة أكشونة يدعو بمثل دعوة ابن الخليقي ، وكان جده ردلف عجمياً ، وثار محمد من بني قسبي المولدين أمراء الثغر وبلغ به الحال أن تملك طليطلة . وثار كذلك السرنباقي صاحب ابن الخليقي ونظيره في التمرد ؛ وكان أشد الثوار شوكة عمر بن حفصون وهو أيضاً من المسألة ، هذا إلى ثوار آخرين من بيوتات البربر والعرب .

واشتعلت الفتنة بين العرب والمولدين بكورة البيرة واجتمع العرب إلى زعامة سوار بن حمدون القيسي ثم إلى سعيد بن جودي من بعده ، وترأس المولدين رجل يدعى « نابل » ونشبت بين العرب والمولدين ثورة أخرى بإشبيلية ، وهكذا ، حتى كان كل شيء ينذر بتصدع أمر الأندلس . ومن هنا نرى أن نواة الانقسام الذي تم بعد الفتنة البربرية كانت موجودة في تكوين الدولة نفسها . ولقد استطاع الناصر أن يحقق للدولة شيئاً من النصر في الداخل والخارج ، وأن ينعم ابنه الحكم بثمرات السلم وينصرف إلى الاهتمام بالعلوم ، ولكن ما كاد المنصور بن أبي عامر يقبض على زمام الأمور حتى صرف همه من جديد إلى تحقيق السيادة بالغزو المتواصل ، ومشى ابنه المظفر في آثاره ، ثم عاد الأمر لإبان الفتنة إلى القوضى واشترأت الميول الانفصالية من جديد . هل كانت طبيعة التفكك ناشئة عن خلل في الإدارة الأموية ؟ هل كانت من كثرة الأعداء الخارجيين ؟ هل نشأت عن عدم الانصهار بين الأجناس المتباينة في الداخل ؟ هل للوضع الجغرافي أثر في كل ذلك ؟ هذه وغيرها

١ نشرت بتحقيق أنطونية (باريس ، ١٩٣٧) .

أستلة من حق المؤرخ أن يجد الأجوبة عليها ولكن هذه المقدمة الصغيرة تضيق عنها .

على أننا يجب أن ننصف هؤلاء الأمويين في أشخاصهم وفي مدى إخلاصهم غير المصطنع ليمثلوا دور الحكام المسؤولين ، العارفين بمحدود ما يجب عليهم نحو رعاياهم . فربما كانوا في جملتهم خير مثل للحكام الذين يعملون لخير الرعية دون أثره واستبداد ، ويغلبون الجانب الديمقراطي على جانب الحكم المطلق ، وينظرون إلى الأمور - في الأكثر - من خلال العدالة والتقوى أكثر من نظرهم إلى المصالح الذاتية ، ويقدمون جانب الشورى على رأي الفرد . وإذا استثنينا الحكم الربضي الذي سارته في نظر الأتقياء لأنه أوقع بأهل الربض حين ثاروا عليه ، فإننا نجد المصادر تفيض بالثناء على خصائص العدل في أولئك الحكام ، فكانوا يتحرون أحوال الرعية ، ويجلسون للمظالم ، ويقدمون حكم القضاء ، ويحاربون في أنفسهم ما قد يجدونه من هوى جامع - كان عبد الرحمن الداخل على سيرة جميلة من العدل^١ وكان هشام ابنه حسن السيرة متحيزاً للعدل^٢ يحاول التشبه بعمر بن عبد العزيز في سياسته^٣ . وكان الأمير يبعث إلى الكور قوماً عدولاً يسألون الناس عن سير العمال^٤ . وكان الأمير محمد عظيم الأناة متزهاً عن القبيح ، يؤثر الحق وأهله ولا يسمع من باغٍ ولا يلتفت إلى قول زائع ، محبوباً في جميع البلدان مراقباً لمصالح الرعية . أما عبد الله فكان مقتصداً في ملبسه وشكله وجميع أحواله ، مشيعاً للصدقات ، محباً للخير وأهله ، كثير الصلاة ، دائم الخشوع ، شديد الوطأة على أهل الظلم

١ الجذوة : ١٠ .

٢ الجذوة : ١١ .

٣ النفع ١ : ١٦٠ .

٤ ابن عذاري ٢ : ٩٨ .

والجور ، وقد خصص يوماً في الأسبوع يقعد فيه على باب قصره للنظر في الظلمات^١ . ومن خلال هذه الأوصاف لهؤلاء الأمراء وغيرهم ، نستشف البساطة في تناول الأمور ، وقلة الانغماس في نعيم الدنيا ، أو إهمال أمور الرعية ، وقد ظل الأمر كذلك على درجات متفاوتة حتى انقضى عهد الأمويين والعامريين بقرطبة .

٣

ومع تردد السيادة السياسية بين الامتداد والتقلص ، كان هناك شيان آخذان بالتمو المطرد ، وهما مدينة قرطبة نفسها في عمرانها وأبتها ، والطابع الحضاري العام للبلاد الأندلسية . وقد ساعدت طبيعة الأندلس وكثرة خيراتها الزراعية والمعدنية ونشاط تجارتها على ذلك ، كما ساعد عليه الاستمداد من المشرق في شؤون العلم والأدب والحضارة المادية . فكان التجار ينقلون مواد الحضارة المشرقية إلى الأندلس دون انقطاع . وفي أيام عبد الرحمن الثاني دخل الأندلس نفيس الوطاء وغرائب الأشياء من بغداد وغيرها . وعندما قتل محمد الأمين وانتهب ملكه سيق إلى الأندلس كل نفيس غريب وجوهر نفيس من متاعه^٢ . وبقدوم زرياب دخلت الأندلس الموسيقى والأغاني المشرقية كما دخلها كثير من صور الحضارة وتقاليدها وقواعدها ، والتقت هذه الحضارة مع الثراء ورخص الأسعار والشغف بالعمران فأصبحت قرطبة في هذا العصر تنافس المشرق في روعة عمرانها وفي طمأنينة الحياة في ربوعها ، وبلغت الأوج في الاتساع والتحضر أيام عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم حتى

١ ابن عذاري ٢ : ٢٢٨ - ٢٢٩ .

٢ المغرب ١ : ٤٦ .

قال ابن حوقل حين زارها في خلافة الناصر (٣٣٧) : « هي أعظم مدينة بالأندلس ، وليس بجميع المغرب لها عندي شبه ، ولا بالجزيرة والشام ومصر ما يديانها في كثرة أهل وسعة رقعة وفسحة أسواق ونظافة محال وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق »^١ . واشتهرت بمسجدها الجامع ، وبساتينها الكثيرة ، وكان لها من الأرباض واحد وعشرون . كما عرفت بكثرة علمائها ومكتباتها ورغبة أهلها في العلوم واقتناء الكتب ، وهي بهذا تتميز على سائر المدن الأندلسية .

وأخذت الموجة الحضارية تمتد إلى نواحي الأندلس . ومع أن أكثر المدن الأندلسية كان موجوداً قبل دخول العرب ، فإن أكثر المدن قد اتسع بقدم المهاجرين وأخذ يحظ من الانتعاش الاقتصادي ، وبني المهاجرون بعض المدن كالمرية وقرطبة وكثيراً من القلاع ، ولذلك فإن دور هذه المدن في الناحية الأدبية كان أقل من دور قرطبة لأن موجة التفاعل الحضاري كانت تسير وثيدة ، ولم تتسع بحيث تكون عامة ، هذا إلى انجذاب بعض الناس إلى قرطبة لأنها دار الخلافة . ولما زار ابن حوقل بلاد الأندلس ذكر أن بها غير ضيعة فيها الأوف من الناس لم تمدن ، وهم على دين النصرانية ، روم ، وربما عصوا في بعض الأوقات ولجأ بعضهم إلى حصن ، فظال جهادهم لأنهم في غاية العتو والتمرد^٢ .

ونشط المستوطنون في التعلق بالزراعة ، وجلبوا إلى الأندلس أنواعاً من المزروعات والفواكه الشرقية ، ومع الزمن أصبحت بلاد الأندلس كأنها بستان واحد متصل ، كثيرة المبنى والثمار ، وإذا سافر المرء من مدينة إلى

١ ابن حوقل ١ : ١١١ .

٢ المصدر نفسه .

أخرى ، سار في مناطق عامرة مأهولة تتخللها قرى كثيرة نظيفة مبيضة الدور من الخارج ، ولم يحتج المسافر أن يحمل معه زاداً أو ماء وربما مرّ في اليوم الواحد على أربع مدائن كبيرة عدا القرى والحصون^١ . وهذا جعل المنتجات المحلية والمستهلكات اليومية رخيصة الأسعار . ولولا سنوات من القحط والمجاعات لما شاب هذا الرخاء الأندلسي ما يعكسه . وقد نوه ابن حوقل بالرخص والسعة والتملك الفاشي في الخاصة والعامّة^٢ . وأطببت كتب الجغرافيا في تمييز كل بلد أندلسي بما فيه من الحاصلات النباتية والمعدنية والمصنوعات ، وكلّتها يدل على ما يفيض عن حاجة أهلها .

٤

وإلى جانب هذا النمو الحضاري في المجتمع كان هنالك مظهر آخذ بالتقلص ، ذلك هو الروح العسكرية العربية . ولهذا سبيان : الأول : محاولة الحاكمين أن يتخلصوا من العصبية التي كان يثيرها الجنس العربي على الزمن . وقد كانت تلك العصبية بين مضر ويمن في عهد الولاة (٩٢ - ١٣٨) من أسباب ضعف الحكم العربي حينئذ . فلما جاء عبد الرحمن الداخل ، وقاومته اليمنية وأوقع بها ، استوحش من العرب قاطبة ، وعلم أنهم على دغل وحقد ، فأنحرف عنهم إلى اتخاذ الماليك ، وأخذ يشري الموالي من كل ناحية واستعان بالبربر ، واستجلبهم من بر العدو واستكثر منهم ومن العبيد حتى كوّن جيشاً كبيراً^٣ . ثم كان الحكم الربضي ، فاستكثر أيضاً

١ النسخ ١ : ٩٧ - ٩٨ .

٢ ابن حوقل ١ : ١٠٨ .

٣ النسخ ٢ : ٧٠٦ .

من الخدم والحشم حتى بلغ مماليكه خمسة آلاف ، ثلاثة آلاف منهم فرسان
يسمون « الحرس » لعجمتهم^١ . غير أن العصية لم تمت ، إذ كانت نواة
الأجناد ما تزال قبلية ، وكانت الحاجة ماسة إلى إيقاف هذه العصية لمقاومة
ابن حفصون الذي كان يمثل الانتفاضة « العجمية » بالأندلس . وفي عهد
الناصر والحكم كثر الصقالبه ، وأصبحوا الحرس الخاص للخليفة ، حتى إذا
جاء المنصور نكبهم وقضى على نفوذهم . ولكنه من ناحية أخرى أراد أن
يضعف العصية العربية فجزأ القبائل وجعل في الجند الواحد فرقاً من كل
قبيلة ، فخفت الفتن القائمة على العصية^٢ . وأسقط المنصور زعماء العرب
لثلاثين نازعه السلطة وجند البرابرة والممالك واستكثر من العبيد وأسرى
الحرب واستدعى البربر ورتب من هؤلاء جميعاً جنده^٣ . غير أن حكام
الأندلس في محاولتهم القضاء على العصية العربية أوجدوا عيوباً جديدة تسببت
في القضاء على السيادة العامة في الأندلس وفي إشعال الفتنة بين أجناس متنافرة
من البرابرة والمولدين وبقايا العرب والإفريقيين السود والصقالبه ، وعلى يد
البربر خربت قرطبة في الفتنة .

أما السبب الثاني الذي أدى إلى ضعف الروح العسكرية فهو طبيعة
الاستقرار الزراعي وحاجة السكان إلى الابتعاد عن الحرب للانصراف إلى
الأعمال العمرانية ، بينما كان الحكام في الأندلس بحاجة إلى جيش قوي على
قدم الاستعداد دائماً ، ولذلك ابتعد الأندلسيون - نسيباً - عن الحرب ،
مما حدا بالخلفاء إلى اتخاذ جيش أكثره من العبيد والمرترقة .

١ المغرب ١ : ٣٩ .

٢ النسخ ١ : ١٣٩ .

٣ النسخ ١ : ١٨٨ .

وقبل أن تنمو قرطبة نمواً بالغاً في أيام عبد الرحمن الناصر ومن بعده كان المظهر الغالب على حياة المدن الأندلسية هو الطابع الريفي . ومن مظاهر هذه الحياة الريفية : البساطة والحشونة والطيبة وعدم التصنع في المعاملات بين الناس والنبز بالألقاب والانتفاع من الجهد اليدوي والزراعي . وكان الكسب الحلال من الزراعة يجتذب إليه كثيراً من العلماء والأتقياء ، ولذلك كثيراً ما نرى المحدثين والفقهاء في هذه الفترة يؤثرون حياة القرية ، وكان من شأن الخلفاء أن يرسلوا في القرى من يستطلع أحوال الناس ويكشف عن أهل العلم والخير منهم ، فإذا احتاجوا إلى رجل في بعض المناصب أرسلوا في طلبه ^١ . فمثلاً أرسل هشام بن عبد الرحمن في طلب مصعب بن عمران أحد الفقهاء الأتقياء ليؤليه القضاء فوجده الرسول في ضيعته بعين زوجته على عمل الوشائع وهي تنسج في منسج لها ^٢ . وكان محمد بن مسلمة الذي أصبح قاضياً في قرطبة متزهاً عن الناس ملتزماً للبادية ^٣ . وكان طلاب الحديث إذا سمعوا بهذا النوع من العلماء رحلوا إليه في قريته ليسمعوا منه ويكتبوا عنه — كان أحمد بن هشام القرطبي المحدث مستوطناً قرية اختبانه من عمل قبرة فكان طلاب الحديث أمثال ابن بشكوال والقرضي وابن المصعب يسافرون إليه لأخذ الحديث عنه ^٤ . وحكى أحدهم أنه كان يختلف مع أصحابه إلى إبراهيم

١ قضاة قرطبة : ٣٩ .

٢ قضاة قرطبة : ٤٢ .

٣ قضاة قرطبة : ١٣٩ .

٤ الصلة : ١٩ .

ابن محمد بن باز إلى النية فيقرأون عليه وهو يزرع والقفيفة في ذراعه^١ .
وكان بعض علماء اللغة كالهواري وخصيب يسكن الأرياف ، ويرسل الخلفاء
لهؤلاء المتبدين يسألونهم في اللغة أو في شيء من أمور العلم والدين^٢ .

٦

وتميزت الحياة الاجتماعية في هذا المجتمع منذ البدء بالفهم الصحيح
للمسؤولية الاقتصادية وتقدير الكسب والتدبير في موازنة الدخل والخرج ،
على نحو قد يعده المشاركة بخلاً . ولكن هذا الوعي الجيد قد حمى البيئة
الأندلسية من الكدية ، لسقوط الانتكالي في نظرهم ، كما أبعدهم الاغراق
في التصوف الانتكالي أو استحداث الدويرات والتكاييا . نعم أنشأ الحكم
المستنصر داراً سماها دار الصدقة ، ولكن يبدو أن التعرض للصدقات في
الأندلس كان قاصراً على كل محتاج معذور . أما القادر على الكسب فكان
يتجه إلى حرفة تكفيه وتعينه على الحياة . ولذلك انتعشت روح التعاون هنالك .
وهذه هي الروح التي يمثلها ابن الكتاني استاذ ابن حزم حين كان يقول لتلامذته :
« إن من العجب من يبقى في هذا العالم دون معاونة لنوعه على مصلحة . أما
يرى الحراث يحرث له ، والطحان يطحن له ، والنساج ينسج له ، والخياط
يخيط له ، والجزار يجزر له ، والبناء يبني له ، وسائر الناس كل متول
شغلاً له فيه مصلحة وبه إليه ضرورة ، أفما يستحي أن يكون عيلاً على
كل العالم ، لا يعين هو أيضاً بشيء من المصلحة ؟ »^٣ . ويعلق ابن حزم على

١ الصلة : ٣٢ .

٢ الزبيدي : ٢٨١ والصلة : ٣٤ .

٣ رسائل ابن حزم : ٧٣ .

هذا بقوله : « ولقد صدق ولعمري إن في كلامه من الحكم لما يستثير الهمم الساكنة إلى ما هيئت له ، وأي كلام في نوع هذا أحسن من كلامه في تعاون الناس ؟ »^١ . ولذلك كان الأندلسيون يتعدون عن كثير من الأمور التي يصبغها المشاركة بلون مثالي . خذ مثلاً حال المؤدب وأخذه للأجر المسمى « الخدقة » فقد كان المشاركة يختلفون حول أخذ الأجر على التعليم ، أما في الأندلس فلم يقفوا عند هذه المسألة ، لأن المؤدب كان يرى أن التعليم وسيلة من وسائل العيش ، يكفيه الاعتماد على بدوات الكرماء أو تقلبات الظروف^٢ .

٧

وفي ظل هذا المجتمع كانت المرأة الأندلسية واسعة النفوذ تتمتع بقسط كبير من الحرية . ولا تقل المرأة الأندلسية عن المشرقية في مدى النفوذ السياسي ، فكانت عجب ذات سلطان واسع في أيام هشام بن عبد الرحمن وظلت تسيطر كثيراً في أيام عبد الرحمن ابنه ، وكان لطروب جارية عبد الرحمن إِدلال كثير عليه ولكننا لا ندرى مدى أثرها في الحياة السياسية . وقد تقم الناس على القاضي محمد بن زياد خضوعه لامرأته كفات^٣ ، لا لأن هذا الخضوع كان مستهجنًا في حد ذاته ، بل لأن القاضي يجب أن يكون فوق هذا المستوى . وفي أيام عبد الرحمن الناصر كانت رسيس مقربة إليه حتى إنه جعلها تخرج معه في موكبها وهي تلبس قلنسوة وتتقلد سيفاً ، وشرق قرطبة

١- رسائل ابن حزم : ٨٣ .

٢ الزبيدي : ٢٧٨ .

٣ قصة قرطبة : ٩١ .

على هذه الحال حتى بلغ الزهراء^١ ، ولا ننس ما كان لصبح من النفوذ في أيام الحكم وفي جانب من عهد ابن أبي عامر .

وتولت المرأة المناصب أيضاً . فكانت لبني كاتبة للخليفة الحكم بن عبد الرحمن وهي نحوية شاعرة بصيرة بالحساب عروضية خطاطة^٢ . وكانت مزنة كاتبة الخليفة الناصر لدين الله حاذقة في الخط^٣ . وشارك بعضهن في رواية الحديث فكانت غالبية بنت محمد المعلمة تروي الحديث ، وكذلك كانت فاطمة ، وشارك أخريات في الشعر : ومنهن عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم القرطبية ، وكانت تمدح ملوك زمانها وتخطبهم بما يعرض لها من حاجاتها ، وقد جمعت لنفسها مكتبة قيمة ؛ وصفية بنت عبد الله الريتي ، ومريم بنت أبي يعقوب الفيصولي ، والغسانية الشاعرة التي كانت تمدح الملوك وعارضت ابن دراج في إحدى قصائده حين مدحت خيران العامري^٤ .

ولعل هذه المكانة التي بلغتها المرأة هي التي نهت الأندلسيين إلى التساؤل حول علاقة المرأة بالنبوة وأوقعت الجدل بين الفقهاء القرطبيين في هذه المسألة . وكان من أوائل الذين أثاروا القول في هذه المسألة محمد بن موهب القبري جد أبي الوليد الباجي لأمه ، في الأيام العامرية ، فشنع الناس عليه في ذلك^٥ . وقال ابن حزم في الإشارة إلى الجدل حول هذه المشكلة : « هذا فصل لا نعلمه حدث التنازع العظيم فيه إلا عندنا بقرطبة ، وفي زماننا ، فإن طائفة ذهبت إلى إبطال كون النبوة بالنساء جملة ، وبدعت من قال ذلك ، وذهبت طائفة

١ نقط العروس : ٧٣ - ٧٤ .

٢ الصلة : ٦٥٣ .

٣ الصلة : ٦٥٣ .

٤ الصلة : ٦٥٣ - ٦٥٧ ، والجنوة : ٣٨٨ وما بعدها .

٥ الجنوة : ٨٥ .

إلى القول بأنه قد كانت في النساء نُبوة. وذهبت طائفة إلى التوقف في ذلك»^١. وقد أبى ابن حزم نفسه أن يقبل إطلاق الحديث القائل بنقص الدين والعقل في المرأة في كل الأحوال ، وقصره على نقصان حظها في الشهادة وعند الحيض^٢ « إذ بالضرورة ندرى أن في النساء من هن أفضل من كثير من الرجال وأتم ديناً وعقلاً غير الوجوه التي ذكر النبي (ص) »^٣.

٨

إن كثيراً مما تقدم يمنح المجتمع الأندلسي لونا قد يكون غارقاً إلى حد ما، ويقربنا كثيراً من الشعور بالتسامح إزاء الحياة ومظاهر النمو الحضاري، ولكننا ما نكاد نقرب من الدائرة المذهبية والعلمية حتى نصطدم بروح بالغة من التشدد والتزمت ؛ لقد دخلت المذاهب إلى الأندلس ثم اندحرت أمام مذهب مالك ، فكان أهل الأندلس على مذهب الأوزاعي قبل دخول بني أمية^٤ ، ويقال إن الذي أدخله هو صعصعة بن سلام (- ٢٩٢) وكان زهير ابن مالك البلوي فقيهاً على مذهب الأوزاعي حتى حين أخذ الناس يتحولون عنه^٥. ثم غلب مذهب مالك مع الزمن لسببين ذكر أحدهما ابن حزم وذكر الثاني ابن خلدون. أما ابن حزم فيقول : مذهبنا انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان ، مذهب أبي حنيفة . . . ومذهب مالك عندنا بالأندلس ، فإن يحيى

١ الفصل ٥ : ١٧ .

٢ الفصل ٤ : ١٣١ .

٣ الفصل ٤ : ١٣٢ .

٤ ابن الفرضي ١ : ١٨١ .

٥ المصدر نفسه .

ابن يحيى كان مكيناً عند السلطان مقبول القول في القضاة وكان لا يبلي قاض في أقطار الأندلس إلا بمشورته واختياره ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه، والناس سراع إلى الدنيا^١؛ ويقول ابن خلدون: إن البداوة كانت غالبية على أهل المغرب والأندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة^٢. ومن الصعب أن نحدد من هو أول من أدخل مذهب مالك إلى الأندلس، فمن قائل إنه زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون لأنه أول من أدخل الموطأ إلى بلده^٣، ومن قائل إن الغازي بن قيس دخل الأندلس بالموطأ في أيام عبد الرحمن^٤، وفي ذلك الزمان رحل جماعة من أمثال شبطون كقرعوس بن العباس وعيسى بن دينار وسعيد بن أبي هند وغيرهم ممن رحل إلى الحج في أيام هشام بن عبد الرحمن فلما رجعوا وصفوا من فضل مالك وسعة علمه وجلالة قدره ما عظم به صيته بالأندلس فانتشر فيها رأيه وعلمه^٥. وانتشر الفقهاء ببلاد الأندلس على مذهب مالك، وكان بالبيرة سبعة سمعوا كلهم من سحنون في زمان واحد^٦، وأصبح الفقهاء يدورون حول المدونة وكتاب آخر ألفه العتبي الأندلسي ويسمى العتبية أو المستخرجة، وضافت الدائرة فأصبحوا يكرهون الحديث مع أن الحديث أصل في مذهب أستاذهم، إلا أنهم شغلوا بالتفريعات والرأي، وكان أكثرهم لا يتجاوز رأي مالك وابن القاسم أو أشهب، وأخذ بعضهم

١ النسخ ١ : ٣٣٢ .

٢ المقدمة : ٤٤٩ (ط . المكتبة التجارية بمصر) .

٣ النسخ ١ : ٣٤٩ .

٤ ابن القوطية : ٣٤ .

٥ النسخ ١ : ٣٥٠ .

٦ ابن الفرضي ١ : ١٣٩ .

يتنقصون أهل الحديث . ويمثل بقي بن مخلد التحول إلى الحديث حينئذ ، فقد ملأ الأندلس حديثاً ورواية وانفرد بإدخال مصنف ابن أبي شيبة وكتاب الفقه للشافعي وغير ذلك ، فأنكر عليه أصحابه الأندلسيون ما أدخله من كتب الاختلاف وغرائب الحديث وأغروا السلطان به . غير أن السلطان أيده في موقفه ، ومن روايته انتشر الحديث بالأندلس . ثم تلاه ابن وضاح فصارت الأندلس دار حديث وإسناد^١ ونشأ بها حفاظ مقدمون منهم خالد بن سعد القرطبي الذي كان المستنصر يقول فيه : إذا فاخرنا أهل المشرق يبغى بن معين فاخرناهم بخالد بن سعد^٢ .

وتمذهب بعض الأندلسيين بمذهب الشافعي وبعضهم بمذهب داود الظاهري ، وجاء المذهب الخارجي مع بعض المهاجرين من إفريقية وكان النكارية هم الغالين على خوارج الأندلس^٣ ، وعرف بعضهم الاعتزال ومن أوائل القائلين به أحمد بن موسى بن حدير صاحب السكة الذي كان يقول : إن الله عاقل^٤ ، وكان ابن مسرة يخلط مذهبه بأراء المعتزلة ويقول بالقدر^٥ ، كما كان منذر بن سعيد يتهم بالميل إلى هذا المذهب ، وكان حكم ابنه رأس المعتزلة بالأندلس وكبيرهم وأستاذهم ومتكلمهم وناسكهم^٦ . وقد واجه فقهاء الأندلس هذا المذهب باستنكار شديد . ولما مات خليل بن عبد الملك ابن كليب ، وكان مشهوراً بالقدر لا يتستر به ، أتى أبو مروان ابن أبي عيسى

١ ابن القرضي ١ : ١٠٨ ، ١٠٩ .

٢ ابن القرضي ١ : ١٥٤ - ١٥٥ .

٣ الفصل ٤ : ١٩١ .

٤ الفصل ٤ : ٢٠٢ .

٥ انظر الفقرة التالية رقم : ٩ .

٦ طوق الحمامة : ٤٥ .

وجماعة من الفقهاء وأخرجوا كتبه وأحرقت بالنار إلا ما كان فيها من كتب المسائل^١ .

وكذلك كان منهم من اتبع المذهب الأشعري ، ومن زعماء هذا المذهب أبو الوليد الباجي الذي ناظر ابن حزم - كل هذه المذاهب لم تكن تنافس مذهب مالك حتى قام ابن حزم يناوئ المذاهب جميعاً وينشر القول بالظاهر ويدعو إلى التمسك بالنص الحرفي للكتاب والسنة واستمداد الأحكام منهما وينكر التقليد للأئمة ويطل الأقيسة الفقهية ، إلى غير ذلك من أمور جعلت مذهبه يوصف بأنه ظاهريّ ويسمى أتباعه أهل الظاهر .

غير أن الأندلسيين من وجهة عامة كانوا يعادون كل جديد عليهم حتى إنهم ثاروا على بقي بن مخلد - كما تقدم - ونسبوه إلى البدعة ورموه بالإلحاد والزندقة وخاطبوا الأمير محمداً في شأنه ، واضطر بقي إلى أن يتستر خوفاً على دمه^٢ . ووسم الفقهاء الأندلسيون كل من درس الفلسفة والمنطق وكتاب المجسطي بالزندقة وحرصوا عليه العامة . وتعقبوا أهل القدر من أتباع ابن مسرة وأحرقوا كتبهم واستتابوهم . وقد أراد ابن حزم - وهو الفقيه العالم - أن يحطم الحاجز القائم دون دراسة المنطق والفلسفة ، فعرض نفسه لهجوم الخصوم ، ولكن ابن حزم نفسه أدركه نوع من التدين جعله يقلل من قيمة كل علم لا يقرب المرء من الله تعالى ، وحث في رسالتيه : التوقيف على شارع النجاة ومراتب العلوم على الانصراف لدراسة الشريعة . ولقي ابن حزم نفسه بسبب هجومه على فقهاء المالكية وإباحته دراسة المنطق والفلسفة وحدته في الدفاع عما يراه صواباً - لقي شيئاً غير قليل من الاضطهاد

١ ابن الفرسي ١ : ١٦٥ .

٢ ابن عذاري ٢ : ١٦٣ .

أدى إلى حرق كتبه . وكان الحسد بين رجال الدين من الأسباب التي تضيق الحرية العلمية . ومع الزمن تعدى الجدل أهل المذاهب الإسلامية وأصبح يقوم بين علماء المسلمين ورجال الدين من أهل الملل الأخرى .

٩

قد ألمنا في الفقرة السابقة إلى ابن مسرة ، وشيء عن موقف أهل الأندلس منه ومن مذهبه ، ولا بأس أن نتحدث هنا عن الرجل وعن المذهب الذي جاء به إذ أننا ، إذا استثنينا المذهب الظاهري الذي نادى به ابن حزم - وهو مذهب سني - لم نجد مذهباً آخر لقي من مقاومة الأندلسيين ما لقيه مذهب ابن مسرة .

مؤسس هذا المذهب هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مسرة بن نجيح الجبلي ، قرطبي ولد سنة ٢٦٩ وتلمذ على أبيه ومحمد بن وضاح الحشني . وفي أوائل أيام عبد الرحمن الناصر - أي سنة ٣٠١ على التحديد - خرج إلى المشرق فارتأ بنفسه ، لأنه أتهم بالزندقة ، ودخل القيروان فلبث فيها مدة ، وهناك رآه الحشني في مجلس أستاذه أبي جعفر أحمد بن نصر أحد تلامذة سحنون ، قال الحشني : « فسلم وجلس جانباً ، وأنا لا أعرفه ، ولا أحد من المجلس ، فرأيت به قلباً بصيراً في وجوه المتكلمين ، وبديل النظر فيما بينهم ، فعلم من قد رسخ في الصنعة ، وعرف ما نحن فيه ، فلم أشك أنه من أهل العلم . وما فطن بذلك منه غيري ، وغير قتي من أصحابي يعرف بربيع القطان ، وطال المجلس بنا على تلك الحال ، حتى أظهر الشيخ التحرك ، وأوماً إلى القيام . وتداعى أهل المجلس إلى النهوض ، فكرهت أنا أن أقوم حتى أعرف آخراً من الرجل الداخل علينا ، فنبت . فلما خف المجلس ،

تحول إليه أحمد بن نصر فقال له : يا شاب ، جلست منذ اليوم فهل من حاجة تذكرها ؟ فاندفع محمد بن مسرة بكلام مصنوع إلا أنه حسن من الكلام جيد فقال : أتيتك مقتبساً من نورك ، ومستمدأ بعلمك - إلى ما يشبه هذا من القول ، وأتى به شبيهاً بخطبة موجزة ، ولا عهد لأحمد بن نصر بمن يخاطبه بهذا الضرب من الخطاب ، فجعل الشيخ ينظر إليه ويفهم عنه حتى أتى ابن مسرة على ما أحب أن يتكلم به ثم سكت . فكان جواب أحمد بن نصر له في ذلك كله أن قال له : يا شاب هذه الصفة هي في القبور ، رحم الله من كانت هذه صفته . فوضع ابن مسرة يديه في الأرض ثم قام وقمنا في أثره ^١ .

وذهب بعد ذلك إلى الحجاز فحج غير مرة وزار قبر النبي عليه السلام بالمدينة ، وأقام فيها مدة يتبع آثار الرسول ، فدلّه بعض أهل المدينة على دار مارية أم إبراهيم فقصده إليها ، فإذا دويرة لطيفة بين البساتين بشرقي المدينة عرضها وطولها واحد ، قد شق في وسطها بحائط ، وفرش على حائطها خشب غليظ يرتقي إلى ذلك الفرش على خارج لطيف ، وفي أعلى ذلك بيتان وسقيفة كانت مقعد النبي (ص) في الصيف ، فصلى ابن مسرة في البيتين والسقيفة ثم قاس بشره تلك الدار ، وبني مثلها لسكناه ، لما عاد إلى الجبل بقرطبة ^٢ . وكان يصحبه في رحلته هذه إلى الحج اثنان من معتقدي مذهبه وهما محمد بن حزم بن بكر التتوخمي من أهل طليطلة ويعرف بابن المدني ^٣ وأيوب ابن فتح ^٤ ، ومعهم أحمد بن غانم وكان أسن من ابن مسرة وحج معه مرتين ^٥ ،

١ علماء إفريقية : ٢١١ - ٢١٢

٢ التكملة : ٣٦٥

٣ التكملة : ٣٦٥

٤ التكملة : ١٩٩

٥ التكملة : ١١

ورافقه أيضاً محمد بن وهب المعروف بابن الصيقل وكان أصغر منه سناً^١ .
ويروى أنه اشتغل في الشرق بملاقة أهل الجدل وأصحاب الكلام والمعتزلة ،
ثم انصرف إلى الأندلس ، فأظهر نسكاً وورعاً ، فاختلف إليه الناس وسمعوا
منه وانقسموا فيه فريقين ، فريق رآه إماماً في علمه وزهده وفريق طعن عليه
ووصف مذهبه بالقبح وسوء المعتقد^٢ .

على أي شيء يقوم مذهب ابن مسرة ؟ يبدو من الأخبار القليلة التي
تبقت لدينا عنه أنه كان يجمع بين بعض مبادئ المتصوفة وبين بعض أصول
الاعتزال ، فلم يكن معتزلياً خالصاً ولا باطنياً خالصاً ، فأما المبادئ الاعتزالية
التي كان يقول بها فهي قوله بالاستطاعة والوعد والوعيد ورؤية الله^٣ . ويقول
ابن حزم : إن ابن مسرة شارك المعتزلة في القول بالقدر ، وكان يقول إن
علم الله وقدرته صفتان محدثتان مخلوقتان وإن لله تعالى علمين أحدهما أحدثه
جملة وهو علم الكتاب - وهو علم الغيب - كعلمه أنه سيكون كفار
ومؤمنون بالقيامة والجزاء ونحو ذلك ، والثاني علم الجزئيات ، وهو علم
الشهادة ، وهو كفر زيد وإيمان عمرو ونحو ذلك ، فإنه لا يعلم الله تعالى من
ذلك شيئاً حتى يكون ، واستشهد على ذلك بقوله تعالى ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾^٤ .
وأما المبادئ الباطنية فإنه بناها على آراء منسوبة لابن دوقليس ، وليست له ،
وإنما هي بعض آراء فيلون الاسكندري وأفلوطين ، ومن هذه الآراء المنسوبة
لابن دوقليس الجمع بين معاني صفات الله وأنها كلها تؤدي إلى شيء واحد
وأنه إن وصف بالعلم والجود والقدرة فليس هو ذا معان متميزة تختص بهذه

١ التكملة : ٣٢١

٢ ابن القرضي ٢ : ٤١

٣ المصدر نفسه .

٤ الفصل ٤ : ١٩٨

الأسماء المختلفة ، بل هو الواحد بالحقيقة الذي لا يتكرر بوجه .. وتزعم الفرقة الباطنية أن لاندوقليس رموزاً قلتماً يوقف عليها^١ . وقد يستنتج ممثلاً جاء في كتب ابن مسرة أن النبوة اكتساب لا اختصاص وأنته قد يحرزها من بلغ الغاية من الصلاح وطهارة النفس ، وإن أنكر بعض أصحابه نسبة هذا القول له^٢ . وقد أبرز مذهب ابن مسرة نظرية ثابوية موجودة في تاسوعات أفلوطين وهي القول بوجود مادة روحانية يشترك فيها جميع الكائنات عدا الذات الإلهية . واعتبرت هذه المادة أول صورة برزت للعالم العقلي الذي يتألف من الجواهر الخمسة الروحانية . وقد دافع ابن مسرة عن هذا المذهب تحت ستار إسلامي من آراء المعتزلة والباطنية^٣ .

واستطاع ابن مسرة أن يجتذب إليه تلامذة كثيرين وعاش معهم في عزلة وكان ، كما تصوره الروايات ، ذا قدرة ساحرة مؤثرة في النفوس ، كما أنه ألف بعض الكتب في مذهبه منها كتاب الحروف ، وكتاب التبصرة ، ويقول ابن الأبار إن ابن مسرة لم يكن يخرج كتاباً إلا بعد أن يتعمقه حولاً كاملاً ، فلما ألف التبصرة احتال صاحبه حي بن عبيد الملك الذي كان يسكن معه في متعبده بالجبل فاستخرج كتاب التبصرة وانتسخ منه نسخة لنفسه ورد الأصل ، ثم أرى النسخة لابن مسرة وقال له : تعرف هذا الكتاب ؟ فلما تصفحه قال له : لا تفعلك الله به ! ولم يخرج كتاب التبصرة بعد ذلك إلى أحد^٤ . غير أن بعض كتبه كان معروفاً في الأندلس ، وقد رأى ابن حزم عدداً منها . وأثار ابن مسرة حوله بعض الخصومات الجدلية في المشرق وفي الأندلس .

١ التفطى : ١٣

٢ الفصل ٤ : ١٩٩

٣ بالثيا : ٣٣٠

٤ التكملة : ٢٨٤ - ٢٨٥

فممن ألف في الرد عليه من المشاركة : أحمد بن محمد بن زياد الأعرابي وأحمد ابن محمد بن سالم التستري ، وممن رد عليه من الأندلسيين ابن أبيص ، وقد جمع في الرد عليه كتاباً كبيراً حذيفاً أكثر فيه من الحديث والشواهد^١ . وللزبيدي أيضاً كتاب في الرد عليه^٢ . وللقاضي ابن زرب كتاب آخر قرىء عليه وأخذ عنه عدة مرات بقرطبة^٣ . ولم يقتصر تأثيره على تلامذته الذين لقوه واستمعوا إليه بل إن هناك أناساً انحازوا إلى مذهبه دون أن يلقوه ، منهم طريف الروطي وأضحى بن سعيد وكانا من أهل الزهد والخير^٤ ، وقد ألف بعضهم كتاباً في أخباره وأخبار أصحابه ينقل منه ابن الأبار في تكلمته^٥ . أما أشهر تلامذته الذين صحبوه أو آمنوا بمذهبه دون صحبة - عدا الذين تقدمت الإشارة إليهم - فهم :

- ١ - أيوب بن سليمان إسماعيل الطليطلي (- ٣٤٣) وكان قديم الجوار لابن مسرة طويل الملازمة له^٦ .
- ٢ . ٣ - الياس بن يوسف الطليطلي (- ٣٢١) وأخوه عون .
- ٤ - خليل بن عبد الملك (- ٣٢٣) تفقه بكتب ابن مسرة وضبطها وكان غاية في الزهد والورع وكان معلناً بالاستطاعة . مشهوراً بالقول بالقدر وربما كانت تأويلاته تفسر لنا تأويلات ابن مسرة كقوله إن الصراط هو الطريق أي الإسلام والميزان هو عدل الله^٧ .

١ الصلة : ٢٤٤

٢ الصلة : ٤٦٥

٣ ابن القرضي ٢ : ٩٧

٤ التكملة : ٣٤٦

٥ التكملة : ١١

٦ التكملة : ١٩٩

٧ ابن القرضي ١ : ١٦٥

- ٧٠٦٠٥ - محمد بن فضل الله بن سعيد ، وحكم وسعيد ابنا منذر بن سعيد القاضي وكلهم تفقه بكتب ابن مسرة . وعن حكم يروي ابن حزم ويصفه بالصدق^١ .
- ٨ - أحمد بن وليد (- ٣٧٦) من أهل بجانة يعرف بابن أخت عبدون وهو أحد النفر الذين استتابهم محمد بن يقي^٢ .
- ٩ - رشيد بن فتح الدجاج (- ٣٧٦) قرطبي ، صلى عليه محمد بن يقي ويظهر أنه استتابه^٣ .
- ١٠ - أبان بن عثمان (- ٣٧٧) من أهل شدونة^٤ .
- ١١ - عبد العزيز بن حكم الأموي (- ٣٨٧) كان مائلاً إلى الكلام والنظر وقد غرض منه انتحاله لمذهب ابن مسرة .
- ١٢ - محمد بن مفرج المعافري ويعرف بالفقي (- ٣٧١) وكان يدعو إلى المذهب ولا يقف عند حد الاعتقاد به^٥ .
- ١٣ - ابن الإمام (- ٣٨٠) وكان لا يتستر في اعتقاده ، مولعاً بالتشريق في صلاته^٦ .
- ١٤ - محمد بن عبد الله بن عمر بن خير القيسي (- ٣٨٢) وأصله من جيان ، أشهد على نفسه - في النهاية - أنه غير معتقد لشيء من مذهب ابن مسرة^٧ .

١ التكملة : ٣٧٨

٢ ابن الفرضي ١ : ٦٦

٣ ابن الفرضي ١ : ١٧٥

٤ ابن الفرضي ١ : ٣١

٥ ابن الفرضي ٢ : ٨٤

٦ ابن الفرضي ٢ : ٩٥

٧ ابن الفرضي ٢ : ٩٨

وبعض الجليل الثاني من هؤلاء التلامذة هم الذين تعرضوا من جديد للمحاكمة ، وأغلب الظن أن هذا حدث بعد وفاة الحكم المستنصر ، أي حوالي سنة ٣٧٠ . عندما كان ابن زرب قاضياً . فقد اهتم هذا القاضي بالكشف عن أتباع ابن مسرة واستتابه من علم أنه يعتقد ذلك المذهب . وتاب على يديه منهم جملة . ثم خرج ابن زرب إلى جانب الجامع الشرقي وقعد هناك وأحرق ما وجدته من كتبهم وهم ينظرون إليه في سائر الحاضرين^١ .

وآخر من نعرفه من أصحاب ابن مسرة هو إسماعيل بن عبد الله الرعيبي وهو متأخر عن الجليل الثاني منهم . وقد أدركه ابن حزم ولم يلقه « وكان من المجتهدين في العبادة . المنقطعين في الزهد » . وقد أحدث في المذهب أقوالاً سبعة فنفر عنه سائر المسرية وكفروه . إلا قليل منهم . ومما أحدثه قوله إن الأجساد لا تبعث أبداً . وإنما تبعث الأرواح . وكان يقول : إن الإنسان حين يموت . تلقى روحه الحساب . ويصير إما إلى الجنة وإما إلى النار . ولأنه لا يبعث إلا على هذا الوجه أبداً ، وكان يقول : العالم لا يفنى أبداً . وكان لا ينسب الفعل إلى الله وينزهه عن ذلك ، ويرى أن العرش هو الذي يدبر العالم . وينسب قوله إلى ابن مسرة ويستشهد على ذلك بأقوال في كتبه ، قال ابن حزم : ليس فيها لعمري دليل على هذا القول . ولما برىء منه المسرية بقيت تتبعه ابنته متكلمة ناسكة مجتهدة . وقال ابن حزم إنه (أي ابن حزم) عرض هذه الأقوال على ابن إسماعيل فأنكر كل ذلك . قال : « ورأيت أنا من أصحاب إسماعيل من يصفه بفهم منطق الطير وبأنه كان ينذر بأشياء قبل أن تكون فتكون . وهناك أمور لا شك فيها وهي أنه كان عند فرقة إماماً واجبة

١ الباهي : ٧٨ ويذكر أن ذلك حدث عام ٣٥٠ وفي التأريخ خطأ لأن ابن زرب أصبح قاضياً سنة ٣٦٧ .

طاعته يؤدون إليه زكاة أموالهم . وكان يذهب إلى أن الحرام قد عمّ الأرض وأنه لا فرق بين ما يكتسبه المرء من صناعة أو تجارة أو ميراث أو بين ما يكتسبه من الرفاق . وأن الذي يحل للمسلم من كل ذلك قوته كيفما أخذه — هذا أمر صحيح عندنا عنه يقيناً ، وأخبرنا عنه بعض من عرف باطن أمورهم أنه كان يرى الدار دار كفر مباحة دماؤهم وأموالهم إلا أصحابه فقط ، وصحّ أنه كان يقول بنكاح المتعة^١ .

١٠

ولم تنشأ عند الأندلسيين مدارس خاصة بل ظل المسجد هو المكان المخصص للدراسة . فإن لم يكن المسجد ، فبيت الأستاذ نفسه . وقد حدثنا ابن بشكوال عن أستاذ كان يقصده الطلبة في داره وهم نيف على أربعين تلميذاً ، وأنهم كانوا يدخلون داره في شهر نونبر ودجنبر وينير في مجلس قد فرش ببسط الصوف مبطنات والحيطان باللبود ووسائد الصوف ، وفي وسط المجلس كانوا في طول قامة الإنسان مملوءاً فحماً يأخذ دفته كل من في المجلس ، فإذا فرغ من تدريسهم قدم لهم الموائد عليها ثرائد بلحوم الخرفان بالزيت العذب أو ثرائد اللبن بالسمن أو بالزبد^٢ .

وكان تدريس الفقه والحديث والعربية هو الشيء الغالب على جماهير المدرسين والمؤدبين ، وهم في تدريسهم يعتمدون الكتاب المشرق في الغالب ، ولذلك هاجرت كتب المشاركة إلى الأندلس بكثرة ، وكثرت رحلة الأندلسيين إلى المشرق في طلب العلم ، وكان الواحد منهم يشرف بين بني قومه حين يروي

١ الفصل ٤ : ١٩٩ - ٢٠٠

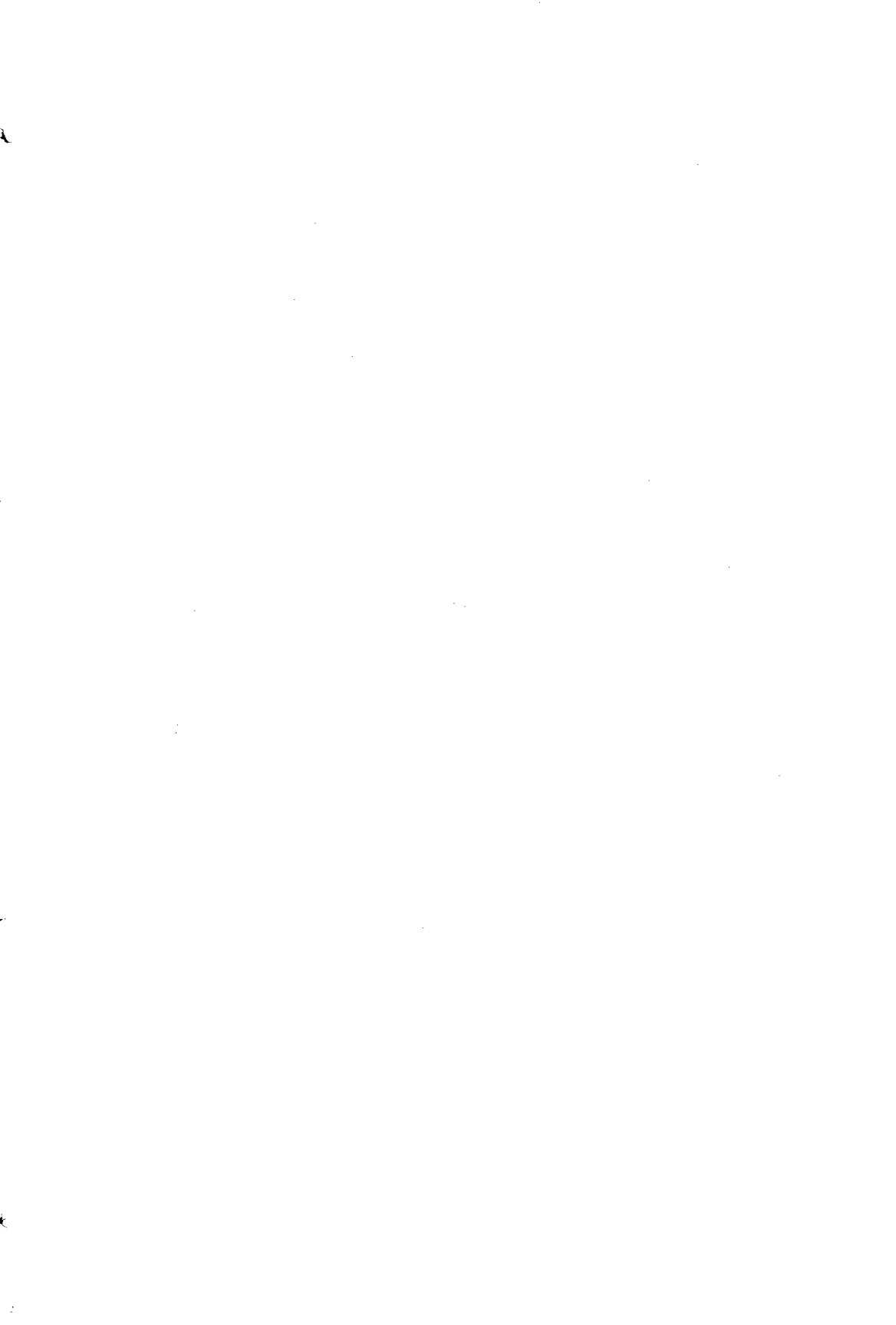
٢ الصلة ١ : ٤١

عن شيوخ مصر وبغداد وغيرهما من بلدان المشرق . وكتاب ابن الفرضي
والصلة والتكملة وما أشبهها معرض لهذه الهجرات الأندلسية على مرّ الزمن .
كما أن فيها صورة لما كان يهاجر من الكتب إلى البلاد الأندلسية تبعاً ،
وتستفيض هذه الناحية حتى تعز على الحصر ، وتجد النشاط إلى جمع الكتب
المصححة المحررة عامّاً بين المسلمين في إسبانية ، ولم تكن قرطبة وحدها مركزاً
للمكتبات الكثيرة وإن تميزت عما عداها في ذلك بل كانت تلك المكتبات في
المدن الأخرى مثل طليطلة وإشبيلية وفي القرى الصغيرة أيضاً . وقد ترك ابن
خير في فهرسته أيضاً صورة أخرى للكتب التي هاجرت إلى الأندلس ،
ويحسن بنا هنا أن نشير إلى رسالة ابن حزم التي قارن فيها بين بعض المؤلفات
الأندلسية والمشرقية في بعض الفنون ، وكلها ممّا اطلع عليه ووقع في يديه .
ولذلك وسمت الحياة الثقافية منذ البدء بالاعتماد على المشرق والتقليد
لأهله ، لأنه كان أرقى حضارة وأوسع ثقافة ، وإليه يلتفت الأندلسيون في
تجارتهم ويرونه منبع العلم والدين وموطن القداسة والحج . وقد تنمو روح
المنافسة مع الزمن بين المشرق والمغرب ولكنها لن تستطيع أن تكفل استقلال
الأندلس في شؤون الحضارة والأدب بل إنها ساعدت على توسيع دائرة
التقليد . وقد حاول الحكم المستنصر ثم ابن حزم أن يرسموا للأندلس حدوداً
ثقافية ، وأن يقفوا بها على مستوى المشرق ، ولكن تقديس الثقافة والأدب
المشركي ظل حاداً ساطعاً . ومن الخطأ الكبير ألا نحاول عند دراسة الأدب
الأندلسي إلا هذا الاستقلال في الشخصية الأندلسية لأننا ندرس أدباً يستند
إلى حضارة مشتركة في الشرق والغرب ، فلو لم يكن التقليد مقصوداً لكان

انظر عن اهتمام الأندلسيين بالمكتبات مقالة للأستاذ خوليان ريبيرا بمجلة معهد المخطوطات :
المجلد ٤ ، الجزء الأول والثاني .

التشابه أيضاً محتوماً . نعم كان الشعور « بالأندلسية » أو « المغربية » ينمو مع الأيام ، وكانت البيئة تعمق خصائصها في الخلق وطرق الحياة ، وكان الاختلاط بأمم بعيدة يدعو إلى الابتعاد عن المشرق في الزي وروح الفروسية والعادات واللهجة والأمثال . ولكن التعبير — لكن صورة الأدب الذي ندرسه ظلت أوثق شيء صلة بالمشرق . وإذا كان من الخطأ أن نقف أبصارنا على صورة الاستقلال الذاتي في الشخصية الأندلسية ، فمن الخطأ أيضاً ألا نرى في الانتاج الأندلسي إلا صورة مشوهة من أدب المشاركة .

الشعر الأندلسي في هذا العصر



العوامل المؤثرة في نشأة الشعر الأندلسي

قد يذهب بعض الدارسين إلى أن لفظة « أندلسي » حين تتخذ صفة للأدب من شعر ونثر ، تشير إلى نتاج أجيال ولدت في الأندلس ، وتشربت خصائص البيئة الأندلسية بالولادة والنشأة ، ونقلت إلى حد ما سمات تلك البيئة فيما قدّمته من صور التعبير ؛ وليس هذا التحديد خاطئاً ، ولكنه حين يوضع موضع الاختبار يعجز عن استيعاب الحقيقة كاملة . ولو ألقينا على أنفسنا الأسئلة الآتية : هل يدرس ابن هانيء بين شعراء الأندلس ؟ هل يعد نتاج أبي علي القالي مشرقياً ؟ هل يعد الحشني قيروانياً ؟ — لو فعلنا ذلك لانتضح لنا أن التحديد السابق للفظـة « أندلسي » قاصرٌ تماماً عن الوفاء بمعنى « الأندلسية » في إحاطة وشمول ، وبخاصة في هذا العصر الذي أطلقنا عليه اسم « عصر سيادة قرطبة » .

وحين عرضت هذه المسألة لابن حزم الأندلسي قال : « وذلك أن جميع المؤرخين من أئمتنا السالفين والباقيين — دون محاشاة أحد — بل قد تيقنا إجماعهم على ذلك ، متفقون على أن ينسبوا الرجل إلى مكان هجرته التي استقرّ بها ولم يرحل عنها رحيل ترك لسكناها إلى أن مات . . . فمن هاجر إلينا من سائر البلاد فنحن أحق به وهو منا بحكم جميع أولي الأمر منا الذين إجماعهم فرض اتباعه وخلافه محرم اقترافه ، ومن هاجر منا إلى غيرنا فلا حظ لنا فيه والمكان الذي اختاره أسعد به ، فكما لا ندع إسماعيل بن القاسم فكذلك لا ننازع في محمد بن هانيء سوانا ، والعدل أولي ما حرص عليه ، والنصف أفضل ما

دُعي إليه...^١ ؛ ومهما يكن نصيب هذا التفسير الذي ارتآه ابن حزم من الوجاهة والسداد ، فإن اختياره له كان يحقق أمرين هامين في نظره : أولهما أنه كان يعلم أن الثقافة الأندلسية حتى عصره - ومن ضمنها الأدب - كانت نتاج جهود شارك فيها عدد غير قليل من المهاجرين الذين ألفوا في موضوعات أندلسية أو واكبوا أحداث الأندلس ، أو أرادوا بما كتبه خدمة الطلاب الأندلسيين ، ولهذا كان استثناء هذه الحركة الثقافية أمراً غير طبيعي فضلاً عن أنه يحرم الأندلس جهود أناس عاشوا فيها حتى وافاهم الأجل هنالك . وثاني الأمرين أن ابن حزم كان ينظر إلى بعيد ، وذلك أنه حين يعدّ المهاجرين إلى الأندلس - دون ترك لها - أندلسيين فإنه يشمل بذلك جميع الداخلين إليها منذ بداية الفتح وبذلك يمنح الثقافة الأندلسية والأدب الأندلسي صفة من القدم والعراقة ويجعل للأدب الأندلسي بخاصة « موروثاً » أصيلاً بغيء إليه ، ولهذا فإنه حين تحدث عن شعراء الأندلس قال : « ونحن إذا ذكرنا أبا الأجر جعونة بن الصمة الكلابي في الشعر لم نباه به إلا جبريراً والفرزدق لكونه في عصرهما ، ولو أنصف لاستشهد بشعره فهو جارٍ على مذهب الأوائل لا على طريقة المحدثين »^٢ وجعونة هذا الذي ذكره من الطائرتين الأوائل ، وكان فارساً شجاعاً يلقبونه « عترة الأندلس » . ولم يكن يقيم في مكان معين وإنما كان يتنقل في النواحي ويحلّ أكناف قرطبة . وقد هجا الصميل بن حاتم وزير يوسف بن عبد الرحمن الفهري - في عهد الولاة - وكان الصميل من شيوخ القيسية ومن ذوي النفوذ البعيد في الأندلس . فلما ظفر به الصميل عفا عنه فأصبح مدّاحاً له ، فأقسم الصميل ألا يراه إلا أعطاه

١ من رسالته في فضل الأندلس ؛ انظر ملاحق هذا الكتاب .

٢ النسخ ٢ : ٧٧٥ وانظر ترجمة جعونة في جذوة المقتبس : ١٧٧ والمغرب ١ : ١٣١ ورسالة ابن حزم في الملاحق .

ما حضره - مثلما كان يفعل هرم بن سنان مع زهير بن أبي سلمى - ولهذا كان أبو الأجرى يعتمد إغباب لقائه فلا يزوره إلا في العيدين ؛ وقد توفي جعونة قبل قيام الدولة الأموية ، ولم يبق لدينا من شعره ما يصور مذهبه العام وطريقته ولكن القليل الباقي يدل على أنه كان كما قال ابن حزم شعراً بدويّ السمات ، فمن ذلك قوله :

ولقد أراني من هواي بمنزل عالٍ ورأسي ذو غدائر أفرعُ
والعيشُ أغيدُ ساقطُ أفنانه والماء طيبهُ لنا والمرتعُ

ولم يذكر ابن حزم من واضعي أسس الموروث الشعريّ في الأندلس سوى جعونة الكلابي ، ولا ندرى لم أغفل ذكر شاعر آخر كان أيضاً من الطارئین في عصر الولاة وهو أبو المخشّي عاصم بن زيد^١ ، وأصله من نصارى الحيرة ، ولذلك كان خصومه من الشعراء يعبرونه بالنصرانية في هجائهم له . وقد امتدّ به العمر حتى أدرك الدولة الأموية ومدح سليمان بن عبد الرحمن الداخل فظن هشام بن عبد الرحمن أخوه أنه يعرض به في بعض شعره فعاقبه عقاباً شديداً ، قيل إنه قطع لسانه ، وقيل إنه سمل عينيه ، والثاني أصحّ لأنه يتحدث في شعره عن العمى . وقد دفع له الأمير عبد الرحمن الداخل دية عينيه مضاعفة وأجازته بألفي دينار وعنف ابنه هشاماً على فعلته . ثم إن هشاماً نفسه عطف عليه ودفع له دية أخرى مضاعفة ؛ وشعره أيضاً من النسق البدوي ، ومن نماذجه قوله :

وهمّ ضافني في جوف يمّ كلاً موجيها عندي كبيرُ
فتنا والقلوبُ معلقاتُ وأجنحةُ الرياح بنا تطيرُ

١ ترجمة أبي المخشّي في المغرب ٢ : ١٢٣ والجدوة : ٣٧٧ وابن القوطية : ٣٥

ومن شعره في العمى :

خضعت أمُّ بِنَاتِي لِلْعِدَا أَنْ قَضَى اللهُ قَضَاءَ قَمَضِي
وَرَأَتْ أَعْمَى ضَرِيرًا إِنَّمَا مِثْيَهُ فِي الْأَرْضِ لِمَسِّ بِالْعَصَا
فَاسْتَكَانَتْ ثُمَّ قَالَتْ قَوْلَةٌ - وَهِيَ حَرَّى - بَلَغَتْ مِنِّي الْمَدَى
فَقَوَّادِي قَرَحٌ مِنْ قَوْلِهَا مَا مِنْ الْأَدْوَاءِ دَاءٌ كَالْعَمَى

وقد مات أبو المخشبي أيام الحكم بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦) وآخر شعره قوله :

أُمُّ بِنَاتِي الضَّعِيفِ حَوْلِهَا تَعُولُ امْرَأً مِثْلِي وَكَانَ يَعْوَلُهَا
إِذَا ذَكَرْتَ مَا حَالَ بَيْتِي بَكَتْ تَسْتَقِيلُ الدَّهْرَ مَا لَا يَقِيلُهَا

وكان لأبي المخشبي ابنة شاعرة اسمها حسانة تعدّ من أولى الشعائر اللواتي اشتهرن بالأندلس ، وقد أشبهت أباه في قوة العارضة ، وكانت جريئة لا تقبل الضيم ، فاستغلت مقدرتها الشعرية في الدفاع عن حقوقها ، فلما مات أبوها كتبت إلى الحكم ، وكانت لم تتزوج بعد ، تخبره أنها أصبحت وحيدة ، وأنها تعتمد على رعاية الحكم لها :

أَنْتَ الْإِمَامُ الَّذِي انْقَادَ الْأَنَامُ لَهُ وَمَلَكَتْهُ مَقَالِيدَ النَّهْيِ الْأُمَمُ
لَا شَيْءَ أَخْشَى إِذَا مَا كُنْتُ لِي كِنْفًا آوِي إِلَيْهِ وَلَا يَعْرُونِي الْعَدَمُ

فأمر الحكم بإجراء مرتب لها ، وكتب إلى عامله على البيرة فجهزها بجهاز حسن ؛ ووقع لها الحكم بخطه تحرير أملاكها ، فلما توفي لحقها بعض الضيم من والي البيرة جابر بن لييد ، فوفدت على الإمام عبد الرحمن بن الحكم وشكت إليه جابر بن لييد ، وكان فيما قالته :

إلى ذي الندى والمجد سارت ركائبي علي شحيط نصلي بنار الهواجر
 ليجير صدعي لته خبر جابر ويعنني من ذي الغلامه جابر
 فإني وأينامي بقبضة كفته كذي ريش أضحى في مغالب كاسر
 جدير لمثلي أن يقال مروعة لموت أبي العاصي الذي كان ناصري
 سقاه الحيا لو كان حياً لما اعتدى علي زمان باطش بطش قادر

وأبو العاصي هو الحكيم الأمير ؛ ولما سمع عهد الرحمن شعرها ورأى
 خطأ والده أخذه فقبله وقال : تعدني ابن ليهب طوره حين رام نقض رأي
 الحكيم ، وحسبنا أن نسلك سيهله بعده ، ونحفظ بعد موته عهده ؛ ووقع لها
 بمثل توقيع أبيه وأمر ابن ليهب بتنفيذ ما أجراه .

وإذا نحن تجاوزنا هذه النماذج المبكرة الطارئة ، وجدنا أن الشعر الأندلسي
 الذي رسخ أصوله أناس نبغوا في البيئة الأندلسية لم يبدأ بالظهور إلا في حدود
 سنة ٢٠٠ هـ . وهذه حقيقة هامة في نشأة ذلك الشعر وفي النماذج التي احتذاها
 والمجالات التي كان يرودها ؛ فهو من الناحية الزمنية أخذ يتكوّن حين كان
 الشعر المشرقي يشهد تجديد بشار وأبي نواس ، ويقف على مفترق الطريق بين
 مذهبي أبي تمام والبحتري ، ولما كان الأندلسيون حينئذ يلتفتون في كل شيء
 إلى المشرق فقد اتخذوا شعر المحدثين مثلاً يقلدونه ومناراً يهتدون به ، أي
 أن الشعر المحدث لا شعر العرب الأوائل هو النموذج الكبير الذي استوحوه
 في أشعارهم . وليس معنى هذا أنهم لم يعرفوا شعر العرب الأوائل ، ولكن
 نماذج الشعر المحدث نالت القسط الأكبر من إعجابهم ، وكانوا على وعي
 مستمر بأن الشعر العربي الذي وصلهم من المشرق يمثل مذهبين : المذهب

١ نفع الطيب ٥ : ٣٠٠ (ط . مصر ، ١٩٤٩) .

القديم والمذهب المحدث ، وذلك هو معنى قول ابن حزم في شعر جعونة :
« فهو جارٍ على مذهب الأوائل » ، وقول الزبيدي إن الرباعي نظم قصيدة في
الثناء على مذاهب العرب ^١ ، وقولهم إن قصيدة الزبيدي في رثاء شيخه القالي
« جزلة الألفاظ كثيرة الغريب صاغها صوغ فحول العرب » ^٢ ؛ ولو سألتهم
تحديد الفرق بين مذهب الأوائل ومذهب المحدثين ، لم يكادوا يضعون فروقاً
واضحة ، ولكنهم كانوا في أغلب الظن يعنون أن شعر الأوائل أكثر جرياناً
على الطبيعة وأحفل بالجزالة العفوية وبالغريب وأن شعر المحدثين يعتمد كثيراً
على الاستعارات والتشبيهات ويشوبه أحياناً تكلف لا يخفى في طبيعة الصباغة .
وحين أخذ الشعر الأندلسي في التكوّن كانت هناك عوامل كثيرة تسعف
على تكوّنه على ذلك النحو ؛ وفي طبيعة التفاعل الثقافي المستمر بين المشرق
والأندلس ما يفسّر كثيراً من مظاهر ذلك الشعر ، وفي حاجة البيئة نفسها عامل
آخر ، ولكن البحث في مثل هذه العوامل العامة يشبه الضرب في تيه لا حدود له ،
فلنقتصر على ثلاثة عوامل كانت ذات أثر بالغ في تكوين ذلك الشعر وهي :
جهود طبقة المؤدّين ، وحركة الغناء وتطوّره ، والنهضة الثقافية في الأندلس ،
فمن خلال الحديث عن هذه العوامل سنلمّ بالتفاعل الثقافي بين الأندلس
والمشرق ونتصوّر مدى انفتاح البيئة على ما تقبلته من ضروب ذلك الشعر .

(١) جهود طبقة المؤدّين وأثرها في نشأة الشعر والمقاييس النقدية :

وقد كان القائم بأمر هذا الشعر المحدث وتقريبه إلى دارسي الأدب طبقة
من المؤدّين ، ارتحل أكثرهم إلى المشرق ، واغترف ممّا فيه من علم وأدب ،
وعاد يدرّس في جامع قرطبة ، وقرطبة يومئذ « دار القوم » ، فإلى هؤلاء

١ طبقات الزبيدي : ٢٣٩

٢ اليتيمة ٢ : ٧١

وإلى المهاجرين من طلاب الحاجات ، وإلى تشجيع الحاكمين يومئذ ، يعزى الفضل في إدخال ضروب الثقافة الشرقية بلاد الأندلس ، من حديث وفقه ولغة وشعر وسير . وكان من أوائل الكتب اللغوية التي هاجرت بصحبتهم كتب الأصمعي والكسائي والفراء والرياشي وأبي حاتم وابن الأعرابي وكتابات الفرش والمثالي في العروض للخليل بن أحمد وكتاب يعقوب بن السكيت في إصلاح المنطق ومؤلفات ابن قتيبة وأبي عبيد القاسم بن سلام ، كما كان ثابت النحوي وابنه قاسم أول من أدخل كتاب العين للخليل^١ . أمّا في الشعر فإن محمد بن عبد الله الغازي (٢٦٩ -) جلب الأشعار المشروحات كلها^٢ ، وهاجر عباس بن ناصح لما سمع بنجوم أبي نواس ، وروى شعره^٣ . ويجب أن ننوه هنا بمقدار ما أحرزه شعر أبي تمام من قبول في البيئة الأندلسية ، فقد توفّر على نقله اثنان من المؤدبين هاجرا إلى المشرق وروياه عن صاحبه وأقرءاه بالأندلس وهما عثمان بن المثنى النحوي^٤ ، ومؤمن بن سعيد^٥ ، وللأول منهما قصة طريفة : فيقال إنّه اجتمع مع أبي تمام في مركب يبصر القلزم فأنشده أبو تمام شعره الذي يقول فيه :

اللهُ أكبرُ جاء أكبرُ منْ مَشَى فَتَعَشَّرَتْ فِي كُنْهِهِ الأوهامُ

وكان هذا البيت مبتدأ الشعر ، فقال له ابن المثنى : شعر حسن لولا أنّه

١ راجع في هذا صفحات مختلفة من طبقات الزبيدي : ٢٧٥ - ٣٣١ وابن الفرضي ١ : ٧٤ ،

٣٩٣ ، ٤٠٣ ، ٤٠٧ و ٢ : ٣١

٢ طبقات الزبيدي : ٢٨٩ وابن الفرضي ٢ : ٢٤

٣ طبقات الزبيدي : ٢٨٤ - ٢٨٥

٤ طبقات الزبيدي : ٢٨٨ وابن الفرضي ١ : ٣٤٦

٥ المغرب ١ : ١٣٢

لا ابتداء له ، فوقدت في نفس حبيب وابتدأ الشعر بقوله :

دِمْنٌ أَلْمٌ بِهَا فَقَالَ سَلَامٌ كَمَّ حَلٌّ عُقْدَةٌ صَبْرُهُ الْإِلَامُ

ثم أنشده في اليوم الثاني الشعر بهذا الابتداء إلى تمامه ، فقال له ابن المني : أنت أشعر الناس ، فعظم في نفس حبيب ، ثم لقيه حبيب في انصرافه وحبيب قد عظم قدره وجل خطره فكان يؤثره ويعرف له فضله ، وكان أول من أدخل شعره^١ وأقرأ أبو عبد الله الغابي ديوان أبي تمام وعنه أخذه أبو العباس الطبيخي^٢ وهذا الثاني شرحه كما شرح شعر صريع الغواني^٣ وأمر الخليفة عبد الرحمن الناصر بانتساخ شعر حبيب وجمع لذلك جماعة من أدباء الأندلس يومئذ ، لتحقيق ذلك^٤ ، وإزاء هذه العصبية لأبي تمام وجد أيضاً من يتعصب للبحري ويدين بتفضيله . وهذا كله ينبيء عما كان للشعر المحدث من مقام بين عرب الأندلس ، ولم يمضِ وقت طويل حتى كان الذوق الأندلسي قد ألف هذا النوع من الشعر ، وجعله مقياساً للجودة ، ولم يألف ما عداه كثيراً ، وأصبح المتأدبون هنالك يضعون خطأً فاصلاً بين طريقتين في الشعر : طريقة العرب وطريقة المحدثين ، فيقولون مثلاً إن فلاناً الشاعر كان أكثر أشعاره على مذاهب العرب^٥ ، وكانوا هم أميل إلى تفضيل ما جرى على مثال الشعر المحدث ، حتى إن الرباعي الشاعر (- ٣٥٨) حين نظم قصيدة في الرثاء ، وبناها على مذاهب العرب ، وخرج فيها على مذاهب المحدثين ، لم يرضها

١ التكملة : ١٠ - ١١

٢ طبقات الزبيدي : ٣١٥

٣ المصدر السابق : ٣٢٩ وابن الفرضي ٢ : ١٥٩

٤ طبقات الزبيدي : ٣٠٦ - ٣٠٧

٥ طبقات الزبيدي : ٣٣١

العامّة ولم يجد من يعجب بها إلاّ أبا عليّ القالي^١ ومن يذهب في طريقته .
 فعلى أيدي هؤلاء المؤدبين تم ، إذن ، شيء من تبلور الذوق الأندلسي ،
 بقبول ما يقبل ورفض ما يرفض ، وفي مجالس تدريسهم تكونت نواة حركة
 نقدية ساذجة . فهم الذين كانوا يشرحون الشعر لطلبتهم ويتكلمون في معانيه
 ويقربونها ويضربون الأمثال فيها ، ويتبعون ما فيها من المآخذ اللغوية والنحوية ،
 ومما يلفت النظر أنهم كانوا يتدارسون شعر شعرائهم كما يتدارسون شعر
 المشاركة . فكان عباس بن ناصح ، وهو أحد هؤلاء المؤدبين ، ومذهبه في
 شعره مذهب العرب الأوّل في أشعارهم ، كلما ورد قرطبة ، جلس في
 جامعها يقرأ على الطلبة ما كان نظمه من شعر . ورفد مرة على قرطبة فجاء
 أدباؤها للأخذ عنه فمرت عليهم قصيدته :

لعمرك ما البلوى بعارٍ ولا العدمُ إذا المرء لم يعدمُ تقي الله والكرمُ
 حتى انتهى إلى قوله :

تجاف عن الدنيا فما لمعجزٍ ولا حازمٍ إلا الذي خطّ بالة م

فاعترضه يحيى الغزال وقال : وما الذي يصنع مُفَعَّلٌ مع فاعل ؟
 قال : فكيف تقول أنت ؟ قال : تجاف عن الدنيا فليس لعاجزٍ ، فاستحسن
 عباس ذلك منه وقال « والله لقد طلبها عمك ليالي فما وجدها »^٢ .
 وأنكر على عباس أيضاً في مجلس أحد النحويين أنه خفّف ياء النسب
 في قوله^٣ :

١ المصدر نفسه : ٣٣٩

٢ المغرب ١ : ٣٢٤

٣ طبقات الزبيدي : ٢٧٨ - ٢٧٩

بشهادة بالإخلاص نوتيتها لله فيها وهو نصراني

فاحتج عباس على المنكرين بقول عمران بن حطان :

يوماً يمان إذا لاقيتُ ذا يَمَنٍ وإن لقيتُ معدياً فعدناني

وكاد الذوق في هذه البيئة يجمع على أن الشعر إنما يتقدم لغرابته وحسن معناه ، وأن من خير الشعر وصف أبي تمام للقلم^١ لما فيه من غرابة . على أننا يجب ألا نغلو في تقدير ما كان يحسنه هؤلاء المؤدبون ، فإنهم - في الأكثر - كانوا سطحيين حتى في ميدانهم من لغة ونحو ، قال الزبيدي يصفهم : « وذلك أن المؤدبين إنما كانوا يعانون إقامة الصناعة في تلقين تلاميذهم العوامل وما شاكلها ، وتقريب المعاني لهم في ذلك ، ولم يأخذوا أنفسهم بعلم دقائق العربية وغوامضها ، والاعتلال لمسائلها ، ثم كانوا لا ينظرون في إمالة ولا إدغام ولا تصريف ولا أبنية^٢ » ، وهذا كلام يصدق عليهم حتى منتصف القرن الرابع ، على وجه التقريب .

وقد ساعد بعض المهاجرين من غير الأندلسيين على ترسيخ أثر المحدثين في البيئة الأندلسية مثل إبراهيم بن سليمان الشامي الذي دخل الأندلس في أخريات أيام الحكم بن هشام ، وكان قد أدرك بالمشرق كبار المحدثين كأبي العتاهية^٣ ، ومثل أبي اليسر إبراهيم بن أحمد الشيباني الذي لقي من الشعراء أبا تمام والبحري ودعبلاً وابن الجهم ، وقدم الأندلس في إمارة محمد بن

١ المصدر السابق : ٣٠٧ ووصفه للقلم من قصيدة يمدح بها ابن الزيات وأوله :

لك القلم الأعلى الذي يشبته تصاب من الأمر الكلى والمفاصل

٢ طبقات الزبيدي : ٣٣٦ - ٣٣٧

٣ النفع ٢ : ٧٤٨

عبد الرحمن ، وعنه رواية لشعر أبي تمام بالأندلس^١ .

(٢) حركة الغناء وأثرها في تكوّن الشعر الأندلسي^٢ :

وكان الغناء من أكبر العوامل التي مكنت للنماذج المشرقية في البيئة الأندلسية ، فإن التفاعل بين الموسيقى والشعر ذو قدرة على توجيه الشعر وتحديد قوالبه ، وقد كاد اعتماد الأندلس يكون كلياً على التلاحين المشرقية ، وكان أمراؤهم يؤمنون بتفوق الجوارى المشرقيات في هذه الناحية ، ويبدلون في استقدامهن الأموال الكثيرة ، فابتاع عبد الرحمن الداخل جارية تسمى العجفاء وكانت تغني بالمدينة عند أحد موالي بني زهرة ، كما اشترى عبد الرحمن نفسه جارتين مدينتين أيضاً هما فضل وعلم ، وأساف إليهن جارية رابعة بشكنسية اسمها قلم ، وكان يؤثرهن لجودة غنائهن ورقة أدهن . وهاجر في أيام الحكم بن هشام اثنان من المغنين المشاركة هما علون وزرقون^٣ .

ويعد الحكم بن هشام من أكثر أمراء بني أمية عناية بالغناء . وكان لديه عدد من الجوارى المغنيات منهن عزيز وبهجة (أو مهجة) وفاتن ، وكان هو يقترح عليهن الأشعار التي يغنين فيها ، كما كان بعضهن ينظم الشعر ويلحنه ، وقد نظمت عزيز مرة هذه الأبيات :

قد تقضى النهار إلا بقايا من شعاعٍ مخلّق للأصيل
وأنا الظلام من قبل الشر قِ فأهلاً منه بخير نزيل
دام هذا وذا بطول بقاء الـ حكم السيد الفتي المأمول

١ المصدر السابق ٢ : ٧٥٥ - ٧٥٦

٢ انظر بحثاً لنا عن أخبار الغناء والمغنين بالأندلس (مجلة الأبحاث : السنة ١٦ ، الجزء الأول ، آذار ١٩٦٣) .

٣ انظر التفتح ٢ : ٧٥٨ - ٧٥٩ .

فأعجب الحكم بشعرها وأمرها فعملت فيه لحناً أجازها عليه بمال ومتاع .
وجمع الحكم يوماً جواريه وأمرهن أن يغنين في شعر الفرزدق :

فقالوا إن عرضت فأغنِ عنا دموعاً غير راقئة السجام
فكيف إذا مررت بدار قومٍ وجيران لنا كانوا كرام .
أكفكف عبرة العينين مني وما بعد المدامع من ملام

فعملن فيه أصواتاً وكانت مهجة أكثرهن إجادة فقال لها : اقترحي
حكمتك ، فقالت : ألا يغنين اليوم إلا من أصواتي ، فأمرهن بذلك وأمرها
بأن تلقي عليهن حتى حفظن ذلك عنها .

وكانت هجرة الكتب المشرقية ناشطة في أيام الحكم المذكور ، ومرة وصلت
مجموعة من الكتب عرضت عليه فرمى بطرفه ديواناً منها قد ضمَّ شعر المقلين
الثلاثة الذين فضلوا في الجاهلية ومنهم المسيب بن علس ، فأخذته الحكم بيده
وقرأ فيه قصيدة للمسيب مطلعها :

بان الخليطُ ورقعَ الحرقُ فقؤاده في الحيِّ معتلقُ

فأمر سليماً مولى ابنه المغيرة أن يغني أبياتاً منها فصنع فيها صوتاً في
مزموم الرمل فأجازه بمطرف خز بنفسجي كان عليه مبطناً بالفنك وأمر له
بمائتي دينار .

وكان المغيرة بن الحكم يشبه أباه في حبه للغناء وفي الإقبال عليه وتشجيعه ،
وكانت لديه من الجوارى المغنيات واحدة تسمى رغد كما كان سليم مولاه من
مشهوري المغنين .

ويستنتج من الأخبار التي وصلتنا عن هذه الطبقة من المغنين والمغنيات
أن كل محسن منهم كان يستقل بطريقته في الغناء ، وأن كل واحد كان

يتقاضى جرايات محددة وجوائز أخرى في بعض المناسبات ، ومن الطريف أن الإقبال على تلحين الأشعار القديمة - أشعار العرب الأوائل - كان أكثر من الإقبال على تلحين الأشعار المحدثه ، وقد عدت ما غناه جوارى الحكم وابنه المغيرة فوجدته يتضمن أربعة أصوات لابن الرومي وصوتين لكل من جرير والقطامي وذي الرمة وعمر وأبي تمام وصوتاً في شعر كل من عروة ابن حزام ونصيب والبحري والفرزدق ومسلم وابن الدمينه والحطيئة والمسيب والصة القشيري وأبي دهب الحمحي ؛ ووجدت أن بعض الأصوات التي كانت تغنى بالأندلس قد غنيت بالمشرق - غناها معبد أو مالك أو ابن سريج ، وأن جهد المغنين والجوارى بالأندلس لم يتعدّ التقليد المتقن للصوت الأصلي أو التحوير الجزئي في بعض نغماته^١ .

ثم دخل زرياب الأندلس هو وأبناؤه وجواريه فعغى على آثار من سبقه بتجديداته وبدعه في الغناء والآداب العامة . وكان زرياب تلميذاً لإسحاق الموصلي فأبعده حسد أستاذه له عن بغداد ، فطلب حظّ نفسه في بلاد بعيدة . وكتب الحكم بن هشام بالقدوم عليه ، فسر الحكم بذلك وأرسل لتلقيه مغنياً يهودياً كان عنده اسمه منصور ، ولكن الحكم توفي قبل أن يصل زرياب . ولم يكن خليفته عبد الرحمن بأقلّ ميلاً منه إلى هذا المغني الجديد فحثه على القدوم ، وأجرى عليه راتباً شهرياً مقداره مائتا دينار ، وجعل له وظيفة سنوية أخرى ورسماً في كل عيد ، وكان كلما غناه وأطربه وهبه مالاً غير الذي فرضه له ، وأقطعهُ أيضاً من الدور والمستغلات والضياع ما يقوّم بأربعين ألف دينار . وزاد زرياب في أوتار عوده وترّاً خامساً ، واخترع له مضرباً اتخذهُ من قوادم النسر معتاضاً به من مرهف الخشب . وجعل للغناء مراسيم ،

١ انظر البحث الذي أشرنا إليه في الغناء .

فكل مغنٍ لا بد من أن يبدأ بالنشيد أول شذوه ، بأي نقر كان ، وبأي إثره
 بالبسيط ، ويحتم بالمحركات والأهاريج ، وهذا ما يسمّى بالنوبة الغنائية وهي
 تعتمد على التنوع في الألحان . وأخذ في تعليم الغناء واختبار صلاحية
 الأصوات ، وتلقف أبناؤه وبناته وجواريه صناعته وأشاعوها في الأندلس ، وكان
 ابنه عبد الله خير أبنائه صوتاً ، ويتلوه عبد الرحمن ، أما قاسم فكان أحذقهم
 غناءً ، وعلمٌ جارية له تسمى منفعة أحسن أغانيه ثم أهداها لعبد الرحمن
 ابن الحكم ، أما حمدونة ابنته فكانت محسنة لصناعتها متقدمة فيها على أختها
 عليّة ، لكن عمر عليّة طال بعد أختها حمدونة ولم يبق من أهل بيتها غيرها
 فكانت مرجعاً لمتعلمي الغناء ، وإليها يشير زيادة الله الطنبجي بقوله يصف طائراً
 مفرداً :

أذنت إليّ صباباتي مفردة أذكى الجوى بين أضلاعي ترنمها
 كأنما مكثت في عشّها زمناً عليّة بنت زرياب تعلمها^١

وممن خرّجهن أيضاً مصابيح جارية الكاتب أبي حفص عمر بن قهليل^٢ .
 وقد تعلم بعض رجال الأندلس أصول هذا الغناء المشرقي فكان عباس بن
 فرناس الشاعر مجيداً له ، وكان لعقيل بن نصر الشاعر أغان يجري فيها مجرى
 الموصلي^٣ . وألف أسلم بن أحمد بن سعيد كتاباً في أغاني زرياب^٤ إذ أصبح
 لزرياب طرائق مخصوصة في هذا الفن يتناقلها الناس .

١ كتاب التشبيهات : ٦١ .

٢ انظر ترجمة زرياب في النسخ ٢ : ٧٤٩ وما بعدها ، ويجد القارىء ما استحدثه زرياب في
 الآداب العامة والأزياء هنا مفصلاً .

٣ الجذوة : ٣٠٤ .

٤ الجذوة : ١٣٧ ، ١٦٢ .

وتلقانا في هذه الفترة أيضاً شخصية الزامر ، وهو رجل لا يستغنى عنه في الحفلات والأعراس ، وقد كان من مشهوري الزامرين النكوري الذي كان يزمر لعبد الرحمن الناصر ، ومن زيه أن يلبس قلنسوة وشي وثوباً من الخز ، وموضعه من الناس في وسط الحفل^١ ، ومنهم ابن مقيم الزامر وكان طيب المجلس صاحب نوادر^٢ . ومن الطنبوريين زربوط الطنبوري الذي قتل هو وقنبوط الملهي في وقعة قتيش (قنطيش) أيام فتنة البربر مع سليمان المستعين^٣ ، وقد كان هؤلاء الزامرون ينغمون الألحان السائرة في أحداث مشهورة لأنها تجد إقبالاً من الجماهير ، وفي تلاحين زرياب وطرائقه في النوبة قد نجد الأساس الذي انبثق عنه الموشح من بعد ، في التنغيمات الشعبية التي كان يرددونها الزامرون قد نجد أصول الأزجال .

وقد وجد الغناء بالأندلس قبولاً يكاد يكون شاملاً ولم يتحرج فيه قوم حتى لقد توفّر عليه جماعة من أبناء الطبقة الارستقراطية ، ويحدثنا ابن حزم أن المطرف ابن الأمير محمد كان عالماً بالغناء ، وكان له أخوان آخران عارفان بالغناء جداً^٤ . ومن العسير أن نثبت أن رجال الدين هنالك كانوا يكرهون الغناء ، أو يشددون النكير على أهله ، بل لعلهم كانوا في هذه الناحية أقرب الناس شبيهاً بفقهاء أهل المدينة ونساكها ، ومن الحكايات الدالة في هذا الباب قصة قاضي الجماعة محمد بن أبي عيسى وكان عند رجل من بني حدير وجارية للحديري تغنيهم هذه الأبيات :

طابَ بطيبِ لِيَتاتِكَ الأقداحُ وَزَهَتْ بِجمرةِ خدكِ التناحُ

١ الجذوة : ١٣٤

٢ الجذوة : ٣٧٤

٣ الذخيرة ١/١ : ٣١

٤ جمهرة الأنساب : ٩١ (الطبعة الأولى) .

وإذا الربيعُ تنسَمَتْ أرواحُهُ . طابَتْ بطيبِ نسيكِ الأرواحِ
وإذا الحنّادسُ التَّيسَتْ ظِلْماءُها . فضياءُ وجهِكِ في الدُّجى مِصباحُ

فكتب القاضي هذه الأبيات في يده ، وخرج للصلاة على جنازة ،
والأبيات مكتوبة على باطن كفه^١ . وكان ابن عبد ربه - وهو ذو الديانة
والصيانة - ماراً ذات يوم ببعض الأحياء فسمع مصابيح تغني . فاستماله
غناؤها ووقف تحت الروشن منصتاً . ثم مال إلى بعض المساجد وأخذ لوحاً
لبعض الصبية وكتب عليه :

يا مَنْ يَبْضِنُ بصوتِ الطائرِ الغرِّدِ . ما كنتُ أحسبُ هذا البُخلَ من أحدِ
لو أنَّ أسمعَ أدلَّ الأرضِ قاطبةً . أصغتُ إلى الصوتِ لم ينقُصْ ولم يزدِ

فلما قرأ سيدها الأبيات . خرج إليه مسرعاً ، وأدخله بيته ورحب به^٢ .
ويصف لنا الإمام ابن حزم مجالس الغناء ويذكر الشعر الذي كان يغنى به
ويصور شدة تأثيره بما يسمع^٣ . وكلفته حفنى العامرية إحدى كرائم المظفر
عبد الملك بن أبي عامر صنَّعَ أبيات تلحنها ، ففعل ، وذكر أن لها فيها صنعة
في طريقة النشيد والبيسط رائقة جداً^٤ . وتناول ابن حزم الغناء من الناحية الفقهية
في رسالته : الغناء الملهي وهل هو مباح أو محظور ، ورد الأحاديث التي
تقول بحظره جميعاً^٥ ، إلا أن هذا الميل ليس عاماً فقد وجد بين الناس من ينكر

١ الخدوة : ٧٠ .

٢ الخدوة : ٩٥ .

٣ طوق الحماسة : ٣١ ، ١١٠ .

٤ طوق الحماسة : ١١٤ .

٥ رسائل ابن حزم : ٩٣ وما بعدها .

هذا المذهب ، ولما شاء ابن حيان أن يثلب أحد الفقهاء قال فيه : « من رجل مرخص في السماع ، صبّ بإنشاد الأغاني الفاتنة ^١ فجعل ذلك بعض عيوبه . ومهما يكن من شيء فقد شاع الغناء في البلاد الأندلسية عامة ، ولم يقتصر احتفال الناس به على قرطبة ، بل لعل المدن الأخرى بذتتها في هذا الشأن ، وأحرزت إشبيلية بعد هذا العصر الذي نتحدث عنه قصب السبق في كثرة الإقبال على اللهو وآلات الضرب والغناء ، حتى لقد قال فيها ابن رشد : « إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حُمِلت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حُمِلت إلى إشبيلية » ^٢ . وفي سنة ٤٠٦ كان التجيبي شارح المختار من شعر بشار مريضاً بمدنة مالقة فقال يصف حاله في تلك المدينة : « وكنت إذا جنني الليل اشتد سهري وخفقت حولي أوتار العيدان والطنابير والمعازف من كل ناحية » ، وقد أعجب بغناء جارية كانت تغني أبياتاً منها :

ما بالُ أنجُمِ هذا الليلِ حائرةٌ أضلّتِ القصدَ أمٌ ليست على فلنكِ
عادتُ سواريه وقفاً لا حراكَ لها كأنها جئتُ صرعى بهُ معتركِ

فلما سأل عنها عرف أنها جاريةٌ بغداديةٌ من جواري المنصور بن أبي عامر ، صارت إلى أحد الوزراء ^٣ .

ويمكننا القول بأن الغناء من الناحية الفنية لم يتطور كثيراً بعد زرياب ، وقد عرفنا عدداً من المغنين الذين عاشوا بعده منهم وضيق بن عبد الأعلى الذي

١ الذخيرة ٢/١ : ١٠٠

٢ النضج ١ : ٧٦

٣ شرح المختار : ١٥ - ١٦

كان في زمن هشام المؤيد ومعاصره سعيد بن كامل ، وساعدة بن بريم الذي رحل إلى المشرق وزار مصر والشام والعراق ، وغير هؤلاء من المغنين ، ولكن الأصوات التي يغنونها كانت جميعها من الشعر المشرقي ، وليس هناك من إشارة إلى أثر ألحان زرياب فيها ؛ وقد تغذى الغناء الأندلسي بالألحان والأشعار المشرقية لأن كثيراً من حملة ذلك الغناء كانوا من الطراء المهاجرين ، ولكن هل تلقى ذلك الغناء أثراً آخر غير مشرقياً ؟ إننا لا نستبعد تأثيره بالنغمات المحلية على نحو عفوي خالص ، كذلك نقل صاحب مسالك الأبصار أن سليماً مولى المغيرة بن الحكم « أخذ الطرب عن رسل أتوه من قبل النصارى وأمر بتأخيرهم ووكل بهم إلى حين مسيرهم ، وأتقن الفن وحقق الظن ، ثم أتى المغيرة بجارية عراقية وكانت تطارحه الغناء حتى برع ، وجمع الغناء العراقي مع ما جمع »^١ ، فهذا النص - إن صح - يدل على أن الغناء الأندلسي تلقى تأثيراً أجنبياً قبل دخول زرياب إلى الأندلس ؛ وقد كانت عملية الاسترقاق تقوي من هذا الأثر الأجنبي ، كذلك ساعد على تقويته بعض المغامرين ، وشاهد ذلك قول صاحب المسالك أيضاً في ترجمة المغني حصين ابن عبد بن زياد : « ولج بلاد النصارى وتوغل في ولوجها ، وسكنها وسكن إلى علوجها ، ثم عاد إلى حوزة المسلمين ، ورجع ما كسب إلا الغناء بعد طول سنين »^٢ . والحق أن الأندلس أصبحت بوتقة انصهرت فيها التيارات الغنائية المختلفة ، وكما كان العرب يرتاحون إلى التلاحين الوافدة كانت الأغاني العربية تردّد في البلاطات الأجنبية ويجد سامعوها فيها متعة روحية ، فقد وهب المستعين سليمان بن الحكم لشانجة بن غرسية عدداً من الجوارى ، وذكر من

١ مسالك الأبصار ١٠ : ٣٨٥ (مخطوطة آيا صوفيا رقم : ٣٤٣٣)

٢ المصدر السابق : ٣٩٠

زار بلاط بنت شانجة ملك البشكنس (زوجة شانجة بن غرسية) أنها أمرت
إحدى الجواري بالغناء ، فأخذت العود وغنت :

خليلي ما للريح تأتي كأنما يخالطها عند الهبوب خلوقُ
أم الريح جاءت من بلاد أحبتي فأحسبها ريح الحبيب تسوقاً

وتكفيننا هذه الأمثلة في تصوير ما كان للغناء من شأن كبير لا في نشر
النماذج الشعرية المشرقية وحسب بل في تقريب الشقة بين ضروب مختلفة
من الصور الأدبية ، وفي رسم أسس جديدة للاتجاهات الشعرية في الأندلس .
وقد ظلت « النوبة » التي استحدثها زرياب هي أكبر ما يلفت النظر في
الغناء الأندلسي ، وهي ما يسمى أحياناً « التبديل » ، ولهذا نسمع الرمادي
يقول في وصف الطائر المعروف بأمر الحسن ٢ :

مُسَمَّعةٌ من غيرِ أوتارٍ إلا ارتجالاً فوقَ أشجارِ
يقترحُ الناسُ عليها وما يقترحُ الناسُ على الطاري
تبدلُ إن قيلَ لها بدلي طائعةً من غيرِ إصغارِ
كأنها في حينِ تبديلها تأخذ في أهزاجِ أشعارِ

فهذه المغردة تؤدي « النوبة » وتستجيب لاقتراح أهل الطرب بعكس
الطراء - وأكثر المغنين من الطراء - فإنهم يستكبرون ويدلون بفنهم
ولا يستجيبون لما يطلبه الناس ، وقد كرر الرمادي هذا المعنى نفسه ، وغمز
الطراء مرة أخرى فقال :

١ الذخيرة (القسم الثالث) : ١٠٧ - ١٠٨

٢ كتاب التشبيهات : ٥٥

تبدلُ الحاناً إذا قيلَ بدلي كما بدلت ضرباً أكف الصواربِ
 تغني علينا في عروضين شعرها ولكنَّ شعراً في قوافٍ غرائبِ
 إذا ابتدأت تشدك رجزاً وان تقل لها بدلي تشدك في المتقاربِ
 وليس لها تيه الطراء بصوتها ولكن تغني كل صاحٍ وشاربِ

(٣) النهضة الثقافية وأثرها في الشعر الأندلسي :

في هذا الجهد من جهود المؤدبين من القياس على الطرائق الغنائية المشرقية ، كان الشعر ما يزال في حاجة إلى ثالث هذه الأبعاد ، أعني إلى العمق الثقافي ، لكي ينأى - ولو قليلاً - عن روح التقليد وعن سطحية الغناء وخفته . وقد قام أولو الأمر بتشجيع الثقافة وتقريب أصحابها من المقيمين والوافدين ، وهياؤا الأسباب التي تكفل تقدمها ونماءها ، فرعوا أمر الفقه واللغة والطب والتنجيم ، وشجعوا المؤلفين على التأليف . فقد رأينا كيف كانت هجرة الكتب المشرقية أيام الأمير الحكم ناشطة على أيدي تجار مشاركة كانوا يتكسبون ببيعها في الأندلس . وكان الحكم هو الذي عني بتخريج ابنه عبد الرحمن في العلوم الحديثة والقديمة ولذلك كان شغوفاً بالثقافة وجمع الكتب ، وهو الذي وجه إلى المشرق عباس بن ناصح الجزيري في التماس الكتب القديمة فجاءه بالسند هند وغيره منها ، وهو أول من أدخلها الأندلس ، وعرف أهلها بها ونظر هو فيها^١ . وفي وسط المائة الثالثة ، أيام الأمير محمد ابنه ، تحرك أفراد من الناس إلى طلب العلوم ولم يزلوا يظهرون ظهوراً غير شائع إلى أواسط المائة الرابعة^٢ ، وممن اشتهر بطلب العلوم في هذه الفترة أبو عبيدة

١ المغرب ١ : ٤٥

٢ طبقات الأمم : ٧٣

البلسي المعروف بصاحب القبلة وكان فلكياً دارساً للجغرافيا وقد هاجمه ابن عبد ربه واهمه بأنه ينسب الرزق إلى الكواكب ، وأنه يقول بكروية الأرض وتحالف الفصول في نصفها الجنوبي والشمالي . واهم بالمنطق والحساب محمد ابن إسماعيل الملقب بالحكيم ، صديق القلظاط الشاعر النحوي . إلا أن الأندلسيين ظلوا ينظرون في ريبة إلى من يشتغل بعلوم الفلسفة والمنطق والجدل ، ولا يتقبلون من علوم الأوائل إلا الطب والحساب حتى مضت عدة سنوات من حكم الناصر ، ونصب ابنه الحكم نفسه لتشجيع العلوم دون تفرقة . وإليه يعود الفضل في ظهور نهضة علمية شاملة بالأندلس .

كان الحكم شاباً متقفاً واسع الاطلاع ذا لذة في شهود مجالس العلماء والسماع منهم والرواية عنهم ، سمع من قاسم بن أصبغ وأحمد بن رحيم ومحمد ابن عبد السلام الحشني وزكريا بن خطاب وأكثر عنه وأجاز له ثابت بن قاسم وكتب عن خلق كثير سوى هؤلاء ، وكان نظاراً في الكتب كثير التعليق عليها ، وقلما تجد كتاباً في خزائنه إلا وفيه قراءته وتعليقاته عليه ، ويكتب فيه بخطه إما في أوله أو آخره أو في تضاعيفه نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به ويذكر أنساب الرواة له ويأتي من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لكثرة مطالعته وعنايته بهذا الفن وكان موثقاً به مأموناً عليه حتى صار كل ما كتبه حجة عند شيوخ أهل الأندلس وأئمتهم ينقلونه من خطه . قال الحميدي في ترجمة ابن عبد ربه : « توفي أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة [وعين اليوم والعمر بالسنوات والأشهر والأيام] ومدح الأمير محمداً والمنذر وعبد الله وعبد الرحمن الناصر . هذا آخر ما رأيت بخط الحكم المستنصر ، وخطه حجة عند أهل العلم عندنا » ٢ .

١ الحلة السيرة : الورقة ٤٨

٢ الحنفية : ٩٤

وذكر ابن الأبار أنه اجتمع له جزء مفيد مما وجدته بخطه وأنه وجدته يشتمل على فوائد جمّة في أنواع شتى ، وكان قد قيد كثيراً من أنساب أهل بلده^١ ، ومن تقييداته أمثلة منقولة في طبقات الزبيدي والمراقبة العليا للنباهي وغيرهما^٢ . وقد كانت خطة الحكم فيما يتأتى له من نهضة علمية ، تمتد إلى أمور متشابكة منها إغراء العلماء بالقدوم إلى الأندلس أو بالتأليف من أجل خزائن الكتب الأندلسية ، ونقل الكتب من الخارج ، وتشجيع الثقافات المختلفة من أدبية ودينية وفلسفية ، ودفع الملكات الأندلسية إلى جمع التراث الأندلسي ، قبل أن يتناول عليه الزمن ويتحيفه النسيان .

فمن إغرائه للعلماء والأدباء أن قدم عليه كثير من المشاركة ، تميز من بينهم أبو علي القالي اللغوي ، ولا يستبعد أن يكون الحكم هو الذي كتب إليه ورغبه في الوفود عليه ، فتلقاها مرحباً وبالغ في إكرامه ، وهو يومئذ ولي عهد إذ كان قدوم القالي في خلافة الناصر سنة ٣٣٠ ، وظل على تعهده له وتشجيعه بعد أن أصبحت الخلافة إليه ، وكان ينشطه بوسع العطاء ويشرح صدره بالإفراط في الإكرام^٣ وباسمه طرز أبو علي كتاب الأمالي وهو المسمى بكتاب النوادر وقد رواه عنه جماعة من العلماء منهم الزبيدي وحكم ابن منذر بن سعيد وأحمد بن أبان بن سيد والقزاز والقاضي ابن مغيث وغيرهم ، وكان أبو علي يمليه على طلبته من بني ملول وغيرهم بالزهراء كل يوم خميس ، ثم زاد فيه فجعله ستة عشر جزءاً للعامّة ، ثم زاد فيه فبلغه عشرين جزءاً للحكم

١ الخلة : الورقة : ٤٨

٢ انظر المراقبة : ٦٥ وابن أبي أصيبعة : ٢ : ٤٢ وابن الفرضي : ١ : ١٥١ ، ٢٦٦ ، ٣٦٧ ،

و ٢ : ١٤

٣ الجذوة : ١٥٦

المستنصر^١ . ولا ريب في أن قدوم القالي إلى الأندلس كان يمثل نهضة في الدراسات اللغوية والأدبية وعنه تلقى الأندلسيون واتخذوه حجة . ولم يكن قبله لديهم إلا ابن القوطية وثابت وابنه قاسم والازبيدي وهذا الأخير ، على علمه ، تتلمذ على القالي وأفاد منه علماً جماً . وأثر القالي في الأندلس بحاجة إلى دراسة مستقلة ، ليس هذا مكانها ، ولكن يكفي أن أشير هنا إلى كثرة ما هاجر معه من كتب إلى الأندلس . فيها من الدواوين عدد جم وبخاصة دواوين الجاهليين والأمويين والمجموعات الشعرية الهامة كالمفضليات وشعر الهذليين والنقائض ، فمما أدخله من دواوين الشعر : شعر ذي الرمة وعمرو ابن قميئة والحطيئة وجميل وأبي النجم والنابعة الذيباني وعلقمة بن عبدة والشماخ والأعشى وعروة بن الورد والنابعة الجعدي والمغيرة بن حبياء وكثير عزة وأوس بن حجر والقطامي والأخطل ، وغير هؤلاء كثير ، كما أنه نقل معه كتباً من الأخبار والفنون المختلفة^٢ ، وكل هذا يشير إلى قوة التيار الثقافي الذي أخذ يتجه بالمتقنين إلى التعمق في الدراسات القديمة والتقليل من الإعجاب بالمحدثين . ومن العلماء الذين أغراهم كرم الحكم وتشجيعه محمد بن يوسف أبو عبد الله التاريخي الوراق الذي ألف له كتاباً ضخماً في مسالك إفريقية وممالكها وألف في أخبار ملوكها وحروبهم والغالبين كتباً جمّة^٣ . ومنهم أيضاً أبو الحسين محمد بن العباس مولى هشام بن عبد الملك وقد أجرى عليه المستنصر رزقاً موسعاً . فقرأ عليه الناس كثيراً شيوخاً وشباناً ، ومن تلامذته الزبيدي ، وأهم ما رواه عنه الأندلسيون ديوان الصنوبري^٤ .

١ الفهرسة : ٣٢٥

٢ الفهرسة : ٣٩٥ - ٤٠٠

٣ الخنوة : ٩٠ والنفع : ٢ : ٧٦٩

٤ الفهرسة : ٤٠٨

وكذلك أكرم الحكم أندلسياً من الذين هاجروا إلى المشرق هو أبو سليمان الهواري وأنزله بالزهراء ووسع عليه وقرأ عليه ناس كثيرون^١ .
وأغدق الحكم العطايا على البعيدين من العلماء والأدباء والفقهاء لكي يؤلفوا من أجل خزائنه أو يضيفوا كتبهم إلى ما فيها ، فمن وصلتهم صلته أبو إسحاق محمد بن القاسم بن شعيان بمصر وأبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي فيلسوف العرب وأبو الفرج الأصبهاني ، وهذا الأخير تلقى منه . فيما يقال ، ألف دينار ذهباً عيناً ليرسل إليه نسخة من كتابه الذي ألفه في الأغاني ، فأرسل أبو الفرج من كتابه هذا إلى الأندلس نسخة منقحة ، قبل أن يظهر الكتاب لأهل العراق أو ينسخه أحد منهم ، وألف له أيضاً أنساب قومه بني أمية موشحة بمنابيحهم وأسماء رجالهم . وأنفذ معه قصيدة يمدحه بها ويذكر مجد قومه بني أمية وفخرهم على سائر قريش فجدد له عليه الصلة الجزيلة^٢ .

أما في جمع الكتب من الأمصار فكان شأنه في ذلك عجيبياً ، إذ اتخذ له وراقين بأقطار البلاد يتخبون له غرائب التوليف ، ووجه رجالاتهم إلى الآفاق بحثاً عن الكتب . وكان من وراقيه ببغداد محمد بن طرخان ، وكان يدفع فيها أثماناً عالية . فحملت إليه من كل جهة حتى غصت بها بيوته وضامقت عنها خزائنه وحتى جمع منها ما لم يجمعه أحد قبله ، وكاد يضاهاه ما جمعته ملوك بني العباس في الأزمان الطويلة ، وكان عدد فهارس مكتبته أربعاً وأربعين فهرسة في كل واحدة خمسون ورقة^٣ وربما بلغ عدد الكتب أربعمئة ألف مجلد .

١ الفهرسة : ٣٥٨

٢ الحلة السيرة : الورقة ٤٨

٣ هذا هو ما جاء في الحلة : ٥٩ وكذلك جمهرة الأنساب : ٩٢ والرقم يختلف في مصادر أخرى :

انظر المغرب ١ : ١٨١

ولم يكن يفضل علماً على آخر ، ولذلك امتلأت خزائنه بكتب الحكمة والفلسفة والمنطق والطب ، وأقبل الناس على قراءة علوم الأوائل^١ ، وكانوا من قبل ينفرون منها ، وأصاب العمل في هذه الناحية العلمية شيء من التنظيم منذ أن وصلت الأندلس هدية رومانوس أمبراطور البيزنطيين (٣٣٧) وفيها كتاب ديسقوريدس في النبات مصوراً ، مكتوباً بالإغريقية . ولم يكن يومئذ بقرطبة من نصارى الأندلس من يقرأ هذه اللغة . فسأل الناصر - وهو الخليفة يومئذ - أمبراطور القسطنطينية أن يبعث إليه برجل يتكلم الإغريقية واللاتينية ليعلم له عبيداً يكونون مترجمين . فبعث راهب يدعى نقولا (سنة ٣٤٠) تولى مع نفر من الأطباء بالأندلس البحث عن أسماء عقاقير ذلك الكتاب ، والوقوف على أشخاصها . وتصحيح النطق بأسمائها . وعاش نقولا الراهب حتى صدر دولة الحكم^٢ . وكان في هدية الأمبراطور كتاب آخر في التاريخ هو كتاب هروسيوس أو هروشيوش (Paulus Orosius) واسم الكتاب : *Historia adversus paganus* وقد قال الأمبراطور حين أرسله مخاطباً عبد الرحمن : « أما كتاب هروسيوس فعندك في بلدك من اللطيين من يقرأه باللسان اللطيني وإن كاشفتهم عنه نقلوه لك من اللطيني إلى اللسان العربي » . ويقول ابن خلدون إن هذا الكتاب ترجم للحكم المستنصر ، ترجمه قاضي النصارى وقاسم بن أصبغ^٣ . وقاضي النصارى بقرطبة المعروف في أيام الحكم هو وليد ابن حيزون الذي كان ترجماناً للحكم عند وفود أردون

١ طبقات صاعد : ٧٥

٢ ابن أبي أصيبعة ٢ : ٤٧

٣ انظر مقدمة طبقات ابن جليل ، وانظر ترجمة قاسم بن أصبغ في الجذوة : ٣١٢ وكانت وفاته سنة ٣٤٠ أي في خلافة الناصر ، ومن هذا يستبعد اشتراكه في الترجمة إلا أن تكون ترجمة كتاب هروسيوس قد تمت قبل مجيء نقولا الراهب .

ابن أذفونش^١ . ومما يلحق بهذا النشاط العلمي كثرة الأطباء وعلماء التنجيم الذين تجمعوا حول الناصر والمستنصر ، وكان الأسقف القرطبي ابن زيد مختصاً بالمستنصر وله ألف كتاب تفضيل الأزمان ومصالح الأبدان^٢ . أما الطبيب حسداي بن إسحاق اليهودي فقد استغل حظوته عند الحكم وتوصل من ذلك إلى استجلاب ما شاء من تأليف اليهود بالمشرق ففتح بذلك يهود الأندلس باب علمهم من الفقه والتاريخ وغير ذلك ، وكانوا من قبل يعتمدون في فقه دينهم وسني تاريخهم ومواقيت أعيادهم على يهود بغداد^٣ .

وخصص الحكم جانباً من دار الملك يجلس فيه العلماء للتأليف أو الترجمة أو مقارنة النسخ الوافدة ، وفي هذه الدار جمع مرة علماء اللغة وهم محمد ابن أبي الحسين وأبو علي القالي وابنا سيد وطلب إليهم أن يقابلوا نسخ كتاب العين للخليل بن أحمد ، وأحضر من الكتاب نسخاً كثيرة ، كان فيها النسخة التي كتبها القاضي منذر بن سعيد البلوطي رواية عن ابن ولاد بمصر^٤ . ولعل أبرز ما أداه الحكم في تاريخ الثقافة الأندلسية هو حفزه الملكات

الأندلسية على التأليف وجمع التراث الأندلسي ، فجمعت له كتب كثيرة في أخبار شعراء الأندلس ، رأى منها ابن حزم أخبار شعراء البيرة في نحو عشرة أجزاء^٥ ، وأمر بجمع شعر ابن عبد ربه وقد رأى منه الحميدي نيفاً وعشرين جزءاً مما جمع للحكم^٦ ، وأمر إسحاق بن سلمة وكان حافظاً لأخبار

١ النسخ ١ : ١٨٤ ، وهناك يذكر مطران طليطلة باسم عبيد الله بن قاسم .

٢ النسخ ٢ : ٧٧٨

٣ ابن أبي أصيبعة ٢ : ٥٠ .

٤ الخدوة : ٤٧

٥ النسخ ٢ : ٧٧٣

٦ الخدوة : ٩٤

الأندلس أن يجمع كتاباً في أخبارها^١، وألف له ابن فرج كتاب الحدايق وضمنه شعر الأندلسيين فقط معارضاً فيه كتاب الزهرة لمحمد بن داود ، مريباً عليه في عدد الأبواب والأبيات^٢، وألف له أيضاً خالد بن سعد كتاباً في رجال الأندلس ، اتخذه ابن الفرضي مصدراً له في تاريخه^٣، وطلب إلى محمد بن الحارث الحشني (- ٣٦١) وكان الحكم ما يزال ولياً للعهد ، أن يؤلف كتاباً في قضاة الحاضرة العظمى - قرطبة ، فكتب كتابه المعروف بـ « قضاة قرطبة » وأوضح في مقدمة ذلك الكتاب مدى رغبة الحكم في التذكير بالمنسي من الأبناء والإشارة للسالف من القصاص وبخاصة ما كان في الأندلس قديماً وفي عصر الحكم حديثاً ؛ قال الحشني حاكياً عن غيره أيضاً : « فتحرك أهل العلوم بما حركهم إليه الأمير الموفق ، فاستحفظوا ما أصاعوا من غرر الأخبار وقيدوا ما أهملوا من عيون المعارف »^٤. وللحشني كتب كثيرة ألفها للحكم^٥ . ولم يكن الحكم يدع فرصة تفوته ، إذا أمكته ، في تشجيع التأليف ، وله في هذا الباب أخبار تدل على استغراق شديد واندماج نفسي في هذا الأمر ، من ذلك أنه أراد الغزو مرة (٣٥٢ هـ) فاعتذر عن مصاحبته في تلك الغزوة ابن الصفار لضعف جسمه ، فأرسل إليه أحمد بن نصر وقال : قل له إن ضمن لي أن يؤلف في أشعار خلفائنا بالمشرق والأندلس مثل كتاب الصولي في أشعار خلفاء بني العباس أعفيت من الغزاة ، فلمّا اختار ابن الصفار التأليف على الغزو خيره بين أن يكتب الكتاب في بيته أو في دار الملك ، فاختر أن يكتبه في

١ ابن الفرضي ١ : ٨٩

٢ الخنوة : ٩٧ والمغرب ٢ : ٥٦

٣ ابن الفرضي ١ : ١٥٥ - ١٥٦

٤ قضاة قرطبة : ١٠ - ١١

٥ ابن الفرضي ٢ : ١١٥

دار الملك ليكفل الانقطاع والوحدة وينفرد دون الزائرين والمترددين إلى بيته . ولما كمل الكتاب في مجلد واحد لم يبقه أحمد بن نصر إلى حين عودة الحكم من غزاته بل حمله إليه ليسره به ، فلقبه بطليطلة عائداً ، وتلقى الحكم الكتاب مسروراً^١ . وليس بمستبعد أن يكون الحكم هو الذي شجع الشطجيري على جمع شعر الغزال الشاعر الأندلسي وترتيبه على الحروف ، لأن الشطجيري هذا أدرك خلافة الحكم وتوفي قريباً من الثلاثين وأربعمئة عن سن عالية^٢ . وكثيراً ما كان الحكم يتجاوز حدّاً اقترح الموضوع على المؤلف فيشاركه أو يرسم له طريقة تقسيمه ، كما فعل مع الزيدي عندما طلب إليه أن يكتب كتاباً في طبقات النحويين ، وعرفه المنهج الذي يريده في تأليف الكتاب ؛ قال الزيدي في مقدمته : « وإن أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله - رضي الله عنه - لما اختصه الله به ومنحه الفضيلة فيه من العناية بضروب العلوم أو الإحاطة بصنوف الفنون ، أمرني بتأليف كتاب يشتمل على ذكر من سلف من النحويين واللغويين في صدر الإسلام ، ثم من تلاهم من بعد إلى هلم جرّاً إلى زماننا هذا وأن أطبقهم على أزمانهم وبلادهم حسب مذاهبهم في العلم ومراتبهم . . . فألفت هذا الكتاب على الوجه الذي أمرني به . . . وأقمته على الشكل الذي حده ، وأمدني رضي الله عنه في ذلك بعنايته وعلمه ، وأوسعني من روايته وحفظه ، إذ هو البحر الذي لا تعبر أواديه ولا تدرك سواحله ولا يتزح غمره ولا تنضب مادته »^٣ . ولم ينس الحكم أن يفرد للنحويين واللغويين الأندلسيين قسماً خاصاً في ذلك الكتاب . وحرّصُ الحكم على الزيدي الذي هاجر إليه من إشبيلية ، عندما استأذنه في العودة إلى أهله ، يدل

١ الخلوة : ٢٣٥

٢ الخلوة : ١٨٦ - ١٨٧

٣ طبقات الزيدي : ٩ - ١٠

على مدى تعلقه بالعلماء ، وفي ظل الحكم وربما بوحى منه كتب الزبيدي كتاب لحن العامة إذ يقول في مقدمة هذا الكتاب : « وكان الذي دعانا إلى تأليف هذا الكتاب ما أملناه إلى المولى الإمام الفاضل والخليفة العادل الذي لا إمام في الأرض غيره ولا خليفة لله على الخلق سواه ، الحكم المستنصر أمير المؤمنين وسيد المسلمين محيي العلم وراعيه ، الراسخ في فنونه ، الموفى على دقيقه وجليله ، المشرف له ولحامليه ، الحافظ لهم والذاب عنهم »^١ .

وقد شجع الحكم أيضاً التأليف في الفقه والحديث ، فعهد إلى يعيش ابن سعيد بن محمد الوراق بتأليف مسند حديث ابن الأحمر وكان قد سمعه من صاحبه^٢ ، وجمع له ابن المكوي بالتعاون مع المعيطي كتاباً سميّاه الاستيعاب ، من مائة جزء ، جمعا فيه رأي مالك وأقوابله ، فسر بذلك ووصلهما وقدمهما إلى الشورى في أيام القاضي محمد بن إسحاق السليم^٣ وأمر من بوب له مستخرجة العتي في الحديث ، وهي مجموعة كثر فيها مؤلفها من الروايات المطروحة والمسائل الغريبة الشاذة^٤ ولم ينس أمر التعليم فاتخذ المؤدبين ليعلموا أولاد الضعفاء والمساكين القرآن وأنشأ لذلك حول المسجد الجامع وفي أرباض قرطبة سبعة وعشرين مكتباً وأجرى عليهم المرتبات . وعهد إليهم بالاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم^٥ . وفي ظل هذا التسامح الذي أشاعه الحكم استطاع الأندلسيون أن يدرسوا

١ لحن العامة : الورقة ٣

٢ الجذوة : ٣٦٤

٣ الصلة : ٣٨ ، وانظر الجذوة : ١٢٤ ، فإن الحميدي ينهب إلى أنها كتابه للمنصور ابن أبي عامر .

٤ ابن الفرضي ٢ : ٧٦ ، ٨

٥ ابن عذاري ٢ : ٢٥٨

الفلسفة والمنطق ، وكان كل من درسهما قبل عهد الحكم مذموماً ملحداً خارجاً عن الملة في نظر الناس ، وممن أتجه إلى هذا النوع من الدراسة ملحان الذي كان ذا نظر في حد المنطق كثير المطالعة لكتب الفلسفة^١ ، وكذلك كان إدريس ابن ميثم بصيراً بحد المنطق كثير المطالعة لكتب الأوائل حاذقاً بعلم الحساب والتنجيم^٢ . أما محمد بن يحيى الرباحي فإنه كان قد طالع كتب أهل الكلام ونظر في المنطقيات فأحكمها إلا أنه كان لا يتقلد مذهباً من مذاهب المتكلمين ولا يقود أصلاً من أصولهم ، إنما كان يقول على ما يميل إليه في الوقت ويؤثره في الحضرة^٣ . وممن عرف بالدراسات المنطقية والفلسفية في هذه الفترة ابن حفصون^٤ ومحمد بن عبدون الجبلي الذي درس على أبي سليمان المنطقي بغداد ، وأبو عثمان سعيد بن فتحون السرقسطي الملقب بالحمار ، وقد ألف رسالة في المدخل إلى علوم الفلسفة سماها شجرة الحكمة ، ورسالة في تعديل العلوم ، ونالته في أيام المنصور محنة شديدة حبس من أجلها وبعد انطلاقه من السجن غادر وطنه إلى صقلية^٥ .

ويقول ابن حزم في رسالته في فضل الأندلس إن أستاذه محمد بن الحسن المعروف بابن الكتاني كانت له رسائل في الفلسفة متداولة مشهورة وتامة الحسن فائقة الجودة عظيمة المنفعة ، وبتأثير هذا الأستاذ نجد ابن حزم لم يتخرج من دراسة المنطق والفلسفة كما كان يفعل غيره من الفقهاء ، بل إنه ألف في المنطق كتاباً سماه «التقريب لحد المنطق» ليفيد من يقرؤه في إدراك

١ الزبيدي : ٢٢٧

٢ الزبيدي : ٢٢٢

٣ الزبيدي : ٢٢٦

٤ ابن أبي أصيبعة ٢ : ٤٦

٥ طبقات الأمم : ٦٧ (ط . اليسوعية) والجذوة : ٣١٦ ، وبغية الملتبس رقم : ٨٢١ .

الأسس التي قامت عليها أصول التشريع .

وكان للأندلسيين إسهام أوضح في علم الهندسة والعدد ، وقد تميز في هذه الناحية أبو القاسم مسلمة المرجيطي (المجريطي) (- ٣٩٨) الذي كان إمام الرياضيين في وقته وأعلم من عرف بعلم الفلك ، وكان مشغولاً بتفهم كتاب المجسطي وعلم العدد وله مؤلفات عديدة منها واحد في علم العدد يعرفه أهل الأندلس باسم « المعاملات »^١ ، وينسب إليه كتاب غاية الحكيم ، وهو خليط من العلم والسحر والخرافة ، ينقل فيه عن أفلاطون وأرسطو وجابر بن حيان وابن وحشية وغيرهم^٢ ، وليس ببعيد أن تصحَّ نسبة كتاب مفاخرة الأحجار إلى مسلمة^٣ ، ففيه يصوّر المؤلف كيف تجتمع أنواع المعادن في مجلس واحد ، ويأخذ كل معدن بتعداد مزاياه ، وهي طريقة استغلها الأندلسيون في الأزهار أيضاً .

وعلى يد مسلمة المرجيطي تخرج عدد من التلامذة كان من أشهرهم :

١ - ابن السمع : (- ٤٢٦) وكان متحققاً بعلم العدد والهندسة والفلك مع عناية بالطب ، وله كتاب المدخل إلى الهندسة فسر به كتاب أوقليدس ، وكتاب ثمار العدد وآخر في طبيعة العدد وكتاب كبير في الهندسة وغير ذلك من المؤلفات .

٢ - ابن الصفار : أحمد بن عبد الله بن عمر ، عالم بالهندسة والتجوم ، وكان يعلم هذين العلمين بقرطبة ، وله زيج مختصر على مذهب السند هند ، وكتاب في العمل بالاسطرلاب ، وقد أدرك الفتنة البربرية فغادر قرطبة إلى

١ طبقات الأمم : ٦٩ (ط . اليسوعية) .

٢ منه نسخة بمكتبة آيا صوفيا (رقم : ٢٤٤٣)

٣ منه نسخة رقم ٢٢٣٧ بمكتبة بغداد ولي وهبي باستانبول في ٣٩ ورقة ، وهي ناقصة ، ومنه نسخة بنور عثمانية رقم ٢٧٩٤ ومعها كتاب رتبة الحكيم المنسوب إليه أيضاً ؛ ومن هذا الثاني نسخة مستقلة رقم ٣٦٢٣ في المكتبة نفسها ، وتدل مقدمته على أنه ليس للمجريطي لأن المؤلف يذكر أنه كتبه بين سنتي ٤٣٩ - ٤٤٢ .

مدينة دانية وعاش فترة في كنف مجاهد العامري^١ .

ومن تلامذة المجريطي أيضاً الزهراوي الذي اتجه نحو الطب ، والكرماني الذي تميز في العدد والهندسة ، وقد رحل إلى المشرق ، وهو الذي أدخل رسائل إخوان الصفا إلى الأندلس وعمّر فأدرك صدرأ كبيراً من دول ملوك الطوائف وتوفّي سنة ٤٥٨ .

وأما الطب فقد كان الأندلسيون في بادئ الأمر يعولون فيه على كتاب مترجم يسمى « الإبريشم » أو Aphorismi (أي الفصول) ، وكان المتخصصون بصناعة الطب جماعة من النصارى يقول فيهم القاضي صاعد إنّه لم يكن لديهم تحقق بالطب ولا بشيء من سائر العلوم^٢ ، حتى كانت أيام عبد الرحمن الناصر ودخلت الكتب الطبية من المشرق وقامت الهمم ، وظهر الأطباء المشهورون^٣ ومنهم ابن عبدون الجبلي ، وكان في زمانه وبعده إلى آخر الدولة العامرية جماعة لهم نفوذ في صناعة الطب إلا أنّهم كانوا جميعاً مقصرين عن شأو ابن عبدون^٤ .

وفي أيام الحكم المستنصر أقام أحمد بن يونس الخرائفي خزانة بالقصر للطب ، ورتب لها اثني عشر صيباً صقالبة طبّاحين للأشربة ، صانعين للمعجونات ، واستأذن أمير المؤمنين أن يعطي منها من احتاج من المساكين والمرضى فأباح له ذلك^٥ .

تلك صورة موجزة لذلك النشاط الثقافي الذي شهدته الأندلس أيام عبد

١ طبقات الأمم : ٧٠ (ط . اليسوعية)

٢ طبقات الأمم : ٧٨ (ط . اليسوعية)

٣ طبقات ابن جليل : ٩٧ - ٩٨

٤ طبقات الأمم : ٨١ (ط . اليسوعية)

٥ طبقات ابن جليل : ١١٣

الرحمن الناصر وابنه الحكم ثم في أيام من بعده - على نحو أقل - ولا ريب في أن ما لقيته الدراسات اللغوية والفقهيّة وعلم التفسير والحديث وسائر العلوم العربيّة من تشجيع كان أوضح ممّا لقيته علوم الأوائل ، ولكن تاريخ هذا متعذر في هذا الموضوع الذي توخينا فيه الإيجاز^١ .

واستمر الجانب الأدبي من هذه النهضة التي انتعشت في عهد الحكم فظل على انتعاشه أيام المنصور بن أبي عامر ؛ أمّا جانبها العلمي فقد أصابه شيء من ركود ، وذلك أن المنصور أول توليه أمرَ الحجابة عمد إلى خزائن الحكم فاستخرج جملة ما فيها من كتب بمحضر خواص من أهل الفقه ، ثم ميز من بينها الكتب التي تتعلق بعلوم الأوائل مستثنياً ما كان منها في الطب والحساب ، وأمر بإحراقها وإفسادها فأحرق بعضها وطرح بعضها في آبار القصر وهيل عليها التراب والحجارة ولم ينج منها إلا القليل ، فعل ذلك تحبباً إلى العامة واستئلافاً لقلوبهم^٢ ، ومحاولة للغض من شهرة الحكم في نفوسهم ، وقيل إن ذلك لم يكن إلا على أعين الناس ، أما في حقيقة الأمر فقد ظل المنصور يشجع التوفر على هذه العلوم^٣ ، وفيما عدا هذه الحادثة استمر تشجيع المنصور للدراسة والتأليف ، في العلوم الدينية واللغوية والأدبية ، وكان يقرب العلماء والأدباء ويفرط في تكريمهم ، وكان له مجلس معروف في الأسبوع يجتمع فيه أهل العلوم ، كلّما كان مقيماً بقرطبة ، لأن غزواته كانت تبعده عن قرطبة كثيراً^٤ ، وله كتب زيادة الله ابن علي كتاب الحمام^٥ ، وضمت

١ راجع صورة موجزة لذلك في رسالة ابن حزم ، في ملاحق هذا الكتاب .

٢ طبقات الأمم : ٧٥

٣ النفع ١ : ١٠٤

٤ المنورة : ٧٣ والمغرب ١ : ١٩٤

٥ المنورة : ٢٠٥

دولته عدداً كبيراً من الفقهاء والعلماء والكتّاب والشعراء والأطباء والمنجمين فلم يكونوا أوفر عدداً ولا أسنى أرزاقاً منهم في أيامه^١، وربما كانوا أكثر حرية في تصرفهم منهم في عهد الحكم المستنصر لأن المنصور انصرف كثيراً إلى التجنيد والعمل بالسلاح حفظاً للرسوم والتماساً لجميل الذكر^٢.

ودخل الحياة الأدبية في عهد المنصور شيء من تنظيم لم نسمع به قبل عهده، فقد جعل للشعراء ديوان، قيدت فيه أسماؤهم، وقدرت أعطياتهم بحسب مراتبهم من الشعر، وكان أمر الديوان موكولاً إلى واحد من النقاد، هو عبد الله بن مسلمة، فعلى يديه كانت تخرج الصلوات وعلى حسب ترتيبه كانت تجري أمور الشعراء^٣، ومن السهل أن يتخيل المرء كيف كان هذا التنظيم مثيراً للتنافس مؤثراً لنار الحسد بين الأدباء أنفسهم، مشعباً لروح التذمر بينهم، ولكن الرزق المنظم خير من ذلك الذي يجيء حسب البواعث والظروف، غير أنه من الصعب علينا أن نتخيل المقاييس النقدية التي كانت تحكم لهذا الشاعر بالتقدم وعلى ذلك بالتأخر، ويبدو أن المحاكاة أو المعارضة كانت تؤخر صاحبها أو تحرمه أحياناً من التسجيل في الديوان، وحادثة ابن دراج قد تكون شاهداً على ذلك، فإنه عندما تقدم بأول قصيدة له في مدح المنصور وعارض بها صاعداً، اتهم بالتقصير والانتحال والسرقة ولم يثبت اسمه في ديوان العطاء^٤، ويقوي هذا الظن أيضاً حال الشاعر أبي المطرف عبد الرحمن ابن أبي الفهد فإنه كان شغوفاً بالمعارضة والناقضة حتى إنه لم يكذب بيقني شعراً

١ أعمال الأعلام : ٨٤

٢ المصدر نفسه .

٣ الجفوة : ٢٣٩ ، ١٠٣

٤ الجفوة : ١٠٣

جاهلياً ولا إسلامياً إلا عارضه وناقضه ، وكانت مرتبته في الشعراء دون مرتبة عبادة في الزمام^١ .

وتشاء الأقدار أن يفد على قرطبة صاعد بن الحسين البغدادي في أيام المنصور فيحاول المنصور أن يخمل به ذكر القالي ، وكانت هذه المحاولة مخففة لسبيين : الأول أن صاعداً كان نديماً حسناً ذا نواذر وحكايات وشعر ومعرفة بالموسيقى ولم يكن من طبقة أبي علي ، والثاني : أن القالي كان قد أحرز في قرطبة مكانة لا يستطيع طمسها أو التقليل منها ، وبخاصة أن صاعداً وقع بين تلامذة أبي علي ومحبيه وعارفي فضله ، ولذلك « دفعوه بالجملة عن العلم باللغة وأبعده عن الثقة في علمه وعقله ودينه ، ولذلك ما رضى أحد من أهلها أيام دخوله إليها ولا رأوه أهلاً للأخذ عنه والاعتداء به »^٢ ، ولم يخفق صاعد في تلمس دنياه ، ولكنه أخفق من الناحية اللغوية ، وفي محاولته أن يحاكي كتاب النوادر للقالي ، ومن هذا الوجه اتهم بالكذب ، ولم يصحح القرطبيون كلمة واحدة مما ضمنه كتاب الفصوص ، ومن يتبع النوادر التي تقال عن كذبه يجدها منسوجة على غرار واحد لتدل على الجهل باللغة وعلى دعوى العلم^٣ . ولا تخلو المسألة من قياس النادرة على النادرة ، ولكن من المستبعد أن نصدق احتفاء المنصور بأمره بعد أن يتكرر منه الكذب مراراً ، إلا أن يكون صاعد قد عرف ذلك وجرى فيه مجرى التندير ، ليسر صاحبه ، ولقد حاول الأندلسيون أن يدعوا عليه سرقة الشعر ، فما أفلحوا في إسقاطه من هذه الناحية ، ولكن تهمة السرقة في الشعر لم تفارقه . ومقطع القول في وصفه أنه كان « بديع الجواب حاضره طيب المعاشرة فكه المجالسة ممتعاً

١ الخدوة : ٢٥٨ - ٢٥٩

٢ من كلام ابن حيان في الذخيرة ١/٤ : ٢ - ٣

٣ أطلقة ذلك منشورة في الذخيرة والنفع والخدوة في ترجمة صاعد .

محسناً للسؤال حاذقاً في استخراج الأموال»^١ ، وقد عرف المنصور حسن ندامته فأضافه إلى مجلس الندماء ، وكتب - عدا القصوص - اثنين من كتب الأسمار وهما أشبه بطريقته وقوة خياله وأولهما كتاب المهجفجف بن غدقان ابن يثربي مع الخنوت بنت مخزومة بن أنيف والثاني كتاب الجواس بن قعطل المدحجي مع ابنة عمته عفراء وكان المنصور شديد الشغف بالكتاب الثاني حتى رتب له من يخرج له أمامه في كل ليلة^٢ .

ويبدو أن المنصور كان يجد ارتياحاً في قراءة كتب الأسمار وأنه كان يعجب بكتاب أبي السري الذي ألف في أيام هارون الرشيد ، ودخل عليه حسان بن أبي عبدة ذات يوم فلماً رأى إعجابه بكتاب السري ألف له كتاباً سماه « ربيعة وعقيل » وصفه ابن حزم بقوله : « وهو من أملح ما ألف في هذا المعنى »^٣ .

ولم يكن عبد الملك كأييه ولا مقارباً له بأي حال في تذوق الأدب وتقديره وتمييز جيده من رديئه ، فقرب إليه الجلالقة والبرابرة . قال ابن حيان : « إلا أنه مع زهده في الأدب تمسك بمن كان استخلصه أبوه من طبقات أهل المعرفة من خطيب وشاعر ونديم وشرطي ومعدّل وتاريخي وغيرهم حفظاً لصنائع والده وقياماً برسومه ، فقرروهم على مراتبهم ، ولم ينقصهم سوى الفوز بخصوصيته ، وكانت ترفع إليه بطائق أهل الشعر ويصلهم . على تساهلهم في مدحهم لأمانهم من نظره فيها ، وأحرز لهم مع الفائدة عفو القريحة ، وذلك بين لمن تأمله في أشعار مادحيه لفتورها »^٤ . والحق أن الشعراء من حيث الإنشاد

١ الذخيرة ١/٤ : ١٦

٢ الجذوة : ٢٢٣

٣ الجذوة : ١٨٤

٤ الذخيرة ١/٤ : ٦٠

كانوا في أيامه فريقين : فريق رسمه إنشاد الشعر بين يديه وفريق يرفع إليه القصائد ولا ينشدها^١ وكلهم ينال من جوائزها ، ولكن يبدو أن منزلة الشعراء في أيامه كانت متأخرة عن طبقات معينة ، ففي ترتيب الدخول عليه كان يدخل المروانيون ثم القضاة والحكام والفقهاء والعدول ثم وجوه أهل الأرباض والأسواق من أهل قرطبة ثم الشعراء والأدباء^٢ . وقد شجع المظفر وصف الأزهار لإعجابه بهذا الفن كثيراً حتى كان يقترح على الشعراء أن ينظموا فيه لكي تغني فيه القيان ، وقدم إليه الشعراء كثيراً من المقطعات في وصف مختلف الأزاهير^٣ .

ومن الطبيعي بعد هذه النهضة العلمية التي استغرقت في تطورها قرنين من الزمان على وجه التقريب ألا تبقى الأندلس عالة على الكتاب المشرقي والثقافة المشرقية ، وإن هي لم تقطع صلتها بهما على مرّ الزمن ؛ فإنها في الفترة الواقعة بين عبد الرحمن الناصر وآخر الدولة العامرية وجدت ذاتها ، والتفت لماضيها واهتمت بحاضرها ، وأدركها شيء يشبه الشعور القومي ، ودفعها الحكم المستنصر في هذه السبيل دفعة قوية ، فإذا المكتبة الأندلسية تزخر بالمؤلفات عن الأندلس بأقلام أهلها ، وهكذا وجدت الأندلس رجالها وتاريخها وعلمها وأدبها ، فتحدثت عنه وخلدته ، ولترك جانباً ما كتب في التاريخ والتنجيم والطب وطبقات العلماء والقضاة والنحويين ، وما ألف في اللغة ، وتناول من الكتب ما يمس الأدب شعره ونثره وسير الأدباء والنقد الأدبي ، فنجد الكتب التالية من إنتاج تلك الفترة :

١ ابن عذاري ٣ : ٩

٢ المصدر السابق .

٣ ابن عذاري ٣ : ١٨

- ١ - طبقات الشعراء بالأندلس لعثمان بن ربيعة (- ٣١٠) .
 - ٢ - طبقات الكتاب بالأندلس للأفشتين (- ٣٠٩) .
 - ٣ - أخبار شعراء الأندلس لمحمد بن هشام الأموي (أيام الناصر) .
 - ٤ - اللفظ المختلس من بلاغة الكتاب بالأندلس لعبيدس الجياني .
 - ٥ - طبقات الكتاب بالأندلس لسكن بن سعيد .
 - ٦ - كتاب الحداثق لابن فرج الجياني .
 - ٧ - كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس لعلي بن أبي الحسين .
 - ٨ - أخبار شعراء الأندلس (أو كتاب طبقات الشعراء) لابن القرضي .
 - ٩ - حانوت عطار لابن شهيد .
 - ١٠ - أخبار شعراء الأندلس لعبادة بن ماء السماء .
 - ١١ - كتاب في شعراء الأندلس لعثمان بن سعيد الكناني (- ٣٢٠) .
 - ١٢ - كتاب في شعراء الأندلس لمحمد بن عبد الرؤوف الأزدي (- ٣٤٣) .
 - ١٣ - كتاب في شعراء البيرة لمطرف بن عيسى الغساني (- ٣٥٧) .
 - ١٤ - كتاب الشعراء من الفقهاء بالأندلس لقاسم بن نصير (- ٣٣٨) .
- هذا عدا الدواوين الشعرية المجموعة حينئذ ، ك شعر ابن عبد ربه وديوان الغزال وديوان يحيى بن هذيل وديوان قاسم بن نصير وأكثر شعره في الزهد ودم الدنيا وفي شواهد الحكم والتذكير والوعظ ، وديوان النصائح وهو أيضاً مجموعة من الأشعار الزهدية لابن أبي زمين ، وغير ذلك من الدواوين والمجموعات الشعرية ، فهذه المآثر كلها تشير إلى تبلور الشعور « بالأندلسية » وإلى أن الأدب الأندلسي شعره ونثره أصبح موضوعاً يمكن أن تتوفر على تأريخه وتقويمه أقلام كثيرة .

ومن هذا - ومن مظاهر التأليف الغزير في الموضوعات الأخرى - يتبين لنا مدى بطلان تلك التهمة التي وجهها ابن الريبب القروي إلى الأندلس والأندلسيين حين ذكر أنه ليست لديهم مؤلفات وأن هممهم قد قصرت عن تخليد مآثر بلدهم ومكارم ملوكهم ومحاسن فقهاءهم ومناقب قضاتهم، واستدل على صحة رأيه بأن تلك التأليف لو كانت موجودة لوصلت إلى القيروان والمسافة بين البلدين قريبة والشقة غير نائية. وهذه التهمة دفعت الفقيه أبا محمد ابن حزم إلى كتابة رسالة يدون فيها « تاريخ الفكر الأندلسي » ويحصى في كل موضوع أهم الكتب المؤلفة فيه، فجاءت رسالته فهرساً حافلاً لا يستغني عن معرفته من شاء أن يتصور مدى ما أسهمت فيه القرائح الأندلسية في شتى الموضوعات، وهي رسالة كفيلة بأن تطلعنا على نمو الشخصية العلمية الأدبية في الأندلس نمواً بالغاً يفردتها في كثير من المظاهر عن المشرق، بل يميزها عن كثير من الأقطار الإسلامية التي كانت مشاركتها العلمية يومئذ ما تزال ضعيفة أو ضئيلة.

وكانت السمات المميزة للشخصية الأندلسية في مدى ذينك القرنين قد اتضحت بقوة في كثير من النواحي، ومن الطبيعي أن تستقل الأندلس - ذات السيادة الخاصة والنظم المنضردة - بكثير من العادات والأزياء وضروب الإدارة وطرق الحرب والجندي وأساليب الزراعة والصناعة والبناء وطرق التعليم وطبيعة العلاقات الاجتماعية والاقتصادية وغير ذلك من شئون، وبكفيينا هنا أن نلمح مظهرين من مظاهر ذلك الاستقلال، هما أوثق شيء صلة بالأدب ولغة التعبير، وأعني بهما استقلال الأندلس - بحكم التفاعل الطبيعي مع البيئة - في أمثالها ولقنتها :

(١) وقد وصلنا قليل من الأمثال الأندلسية، وهو يدل على أنه نتاج بيئتهم، لاتصاله بأشخاص وأحداث ومظاهر منها. فمن ذلك أنهم كانوا

يقولون حين يضربون المثل في الفصاحة : « ما هذا إلا أبو حَرَشَن » و « أفصح من بكر الكناني » و « أفصح من الرشاش »^١ ، وكل هؤلاء من لغويي الأندلس وقدامى المؤدبين . ويقولون في تصوير اختلاف ما تجيء به الحال : « ستة عقص وسنة بلوط »^٢ . ومن سائر أمثالهم : « شتان بين خلة وسعاد »^٣ . وكانت خلة زوجة أحد القضاة وهي قبيحة الشكل بينما كانت خادمتها واسمها سعاد فائقة الحسن . وجاء في أمثالهم : « ومن ثور حي لا يلبس هراكيس »^٤ أي أنه لا يمكن أن يستفاد من جلد الثور إلا بعد أن يذبح . وبعض أمثالهم بين مميزات مدتهم كقولهم « من دخل شريش ولم يأكل بها المجينات فهو محروم »^٥ . ومن أمثالهم أيضاً « غررت بي يا إسحاق » وكان إسحاق من رجال ابن حفصون فغلب مع صاحب له ، فقال صاحبه له هذه الكلمة وهما يرفعان على الخشبة فذهبت مثلاً^٦ .

(٢) أما ظاهرة الاستقلال اللغوي فلست أعني بها فحسب تميز اللهجة الأندلسية الدارجة ونموها مع الزمن ، وإنما أعني أيضاً ما نبت في البيئة الأندلسية عامة من تعبيرات ومصطلحات لو سمعها أهل المشرق لما عرفوا مدلولها ، وهذا شيء وإن لم يكن خاصاً بالأندلس فإنه يستحق التمييز والتنويه ، وتشمل تلك المصطلحات والتعابير شؤون الإدارة والمال ، والمسميات الجديدة ، وأسماء النباتات ، بل وما يدل على الأدوات والأمور اليومية . ويكفي أن يقرأ المرء كتاباً مثل « قضاة قرطبة » للخشني ، حتى يجد أن هناك تعبيرات تختص بالبيئة

١ الزبيدي : ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤

٢ قضاة قرطبة : ٧٧

٣ قضاة قرطبة : ٣٥

٤ التبيان : ٦١ ، أما كلمة « هراكيس » فإنها تعني المراكب ، أي الأحذية .

٥ النفع : ١ : ٨٧

٦ ابن عذاري : ٢ : ٢١١

الأندلسية في الأحوال والهيئات والحركات ، وأنها غامضة على القارئ
المشركي ، وقد أدرج دوزي في ملحق المعاجم العربية من تأليفه عدداً
كبيراً من هذه الألفاظ والتعبيرات وهذه نماذج منها :

المسدد : هو القاضي أو الحاكم الذي يتولى شئون بلدة صغيرة^١ .
الدرابون : هم الطوافون بالليل للعسس . وإنما سموا بذلك لأن بلاد
الأندلس لها دروب بأغلاق تغلق بعد العتمة . ولكل زقاق
بائت فيه « دراب » له سراج معلق . وكلب يسهر . وسلاح
معد^٢ .

الأقرووف والغفارة : قال الحشني يصف أحد القضاة : « فجلس للحكم . . وفي
رأسه أقرووف أبيض وغفارة بيضاء »^٣ ويبدو أن الأقرووف
مخروطي الشكل . أما الغفارة فالأرجح أنها نوع من الكوفيات .
وكانوا يلبسون غفائر الصوف حمراً وخضراً والصفير مخصوصة
باليهود .

الهرب : الرقيب العتيد في كلام أهل الأندلس^٤ .
الفقيه المقلص : هو الذي يضع على رأسه القالص^٥ ، وهو « القالس »
ويعرفها المشاركة باسم « القلنسة » ولذلك يسمى القضاة في
الشرق بذوي القلانس ، أما في المغرب فيسمونهم « المقلصين »
ولا يكون الفقيه مقلصاً إلا إذا حفظ الموطأ أو عشرة آلاف
حديث وحفظ المدونة .

١ النفع ١ : ١٠٣

٢ المصدر نفسه .

٣ قضاة قرطبة : ٩٤

٤ النفع ٢ : ٨٨٩

٥ النفع ١ : ٢١٦

الخطارة : قال الخشني : « فنظر بعض خواص الأمير إلى يحيى بن معمر وهو في جنان له يستقي الماء بخطارة ويسقي بقل الجنان »^١ . وقد عرفها المقرئ بأنها الاسم الذي يطلقه الأندلسيون على صنف من الدواليب يستقون به من الأودية .

خطة الرد : وهم يطلقون الخطة على ولاية الأمر ، فهناك خطة القضاء وخطة السوق وخطة الشورى وما إلى ذلك ، فأما الرد ، فإنها تعني رد المظالم على أصحابها ، أي انصافهم ، وهي تقابل عند المشاركة « النظر في المظالم » ؛ قال الخشني في أحدهم : ولاة الأمير الشرطة والرد^٢ .

المجشر : في اللسان أن المجشر هم القوم يخرجون بدوابهم إلى المرعى ويبتون مكانهم ولا يأوون البيوت ، فهم يعزبون بدوابهم ، ولعل المجشر في استعمال الأندلسيين هو المرعى : قال الخشني « حكم عمرو بن عبد الله على هاشم بن عبد العزيز في مجشر كان في يده بجانب جيان »^٣ وفي النفع « سلم إليه المجشر الذي لنا على وادي شوش بما لنا فيه من العبيد والدواب والبقر وغير ذلك »^٤ وقال ابن حزم : إن المجشرة عندهم هي ما يعرف بالديسكرة عند المشاركة^٥ .

القطيع : الضريبة التي يؤديها المسلمون في بلاد الأندلس ، وبخاصة بعد الفتنة . قال ابن حزم : « وأما في زماننا هذا وبلادنا

١ قصة قرطبة : ٧٦ ، وانظر النفع ٢ : ٩١٢

٢ قصة قرطبة : ١٣٧

٣ قصة قرطبة : ١٠٢

٤ النفع ١ : ١٢٧

٥ الأحكام ٥ : ١٢٢

هذه . . . فإتما هي جزية على رؤوس المسلمين يسمونها القطيع
ويؤدونها مشاهرة^١ ويفهم من كلام ابن حزم أنها ضريبة
على الرؤوس وأنها شيء آخر غير الضرائب على الأموال من
الغم والبقر والدواب والنحل .

والأمثلة كثيرة لمن شاء أن يتبعها . وهي حقيقة بالدرس والجمع^٢ .
ويضاف إلى هذه المصطلحات توسعهم في الاستعمال ، كتسميتهم البريد
« ركاضاً » ، وتسميتهم أعيان الناس « بياض البلد » - قال الحشني : « وتشاهد
عليه بياضُ البلد وشيوخ مصر عازمين على سفك دمه وقطع أثره »^٣ .
وقولهم « خلت إلى هاهنا » يعني أقدم متجاوزاً الناس^٤ . وإطلاقهم على
القدان من الثيران اسم « زوج » : قال الحشني : « فواقفه وهو يقف على « ازواج »
له تحرث بفحص البلوط »^٥ . وتسميتهم المحصول باسم « الرفع » أي لأنه هو
ما يرتفع إليهم من الأرض : « ثم سألتني عن رفعه في ذلك العام فقلت له :
رفع القاضي سبعة أمداد من شعير وثلاثة أمداد من قمح »^٦ . وهكذا .

أما اللغة المحكية فقد ظلت مزدوجة إلى عهد طويل ، وكان الناس في
قرطبة يتكلمون اللغة اللاتينية في أحد أشكالها الرومانية إلى جانب العربية .
والعرب يطلقون على اللغة السائدة في الأندلس اسم « الأعجمية » ، ومنها
ثلاث لهجات كبرى وهي الأرغونية والبلنسية والقشتالية ، كما كانت اللهجة

١ رسائل ابن حزم : الورقة ٢٥٠

٢ هناك قائمة بالألفاظ الأندلسية وهي تمثل عهداً متباعدة استخرجها الدكتور عبد العزيز
الأهواني من كتاب لحن العامة لابن هشام ونشرها بمجلة تمهد المخطوطات (المجلد الثالث،
الجزء الأول والثاني) .

٣ قضاة قرطبة : ١٠٧

٤ قضاة قرطبة : ١٥٦

٥ قضاة قرطبة : ٩٣ - ٩٤

٦ قضاة قرطبة : ٩٢

البشقية لغة الأكثرية من أهالي بنبلوثة والمنطقة الجبلية من حولها^١ . ولم تقص العربية على هذه اللهجات ، بل ظلت هي الغالبة في بعض الأرياف والبوادي .
ويحدثنا ابن حزم في الجمهرة أن قبائل بلي لا تحسن الكلام باللطينية لكن بالعربية فقط نساؤهم ورجالهم^٢ ، كأن شيوع اللاتينية بين القبائل الأخرى كان أمراً طبيعياً . وتعلم لغة السكان الأصليين كثير^٣ من العرب ، حتى كان بعض القضاة يتكلمونها . حكى الخشني عن رجل من الشهود يدعى ابن عمار كانت له بغلة هزيلة تلوك لحامها طول النهار على باب المسجد ، فتقدمت امرأة إلى القاضي فقالت له بالعجمية : يا قاضي انظر لشقيتك هذه (تعني نفسها) . فقال لها بالعجمية : لست أنت شقيتي إنما شقيتي بغلة ابن عمار التي تلوك لحامها على باب المسجد طول النهار^٤ . وتقيض هذا أن والد نصر الفتي صاح بالعجمية على القاضي وهو منصرف ليقف ، فقال القاضي : قولوا له بالعجمية إن القاضي قد أدركته الملالة والسامة^٥ . فقوله : قولوا له ، يعني أنه لا يعرف العجمية . وكان بقرطبة شيخ أعجمي اللسان مقدماً عند القضاة مقبول الشهادة^٥ .
وعلى الرغم من تعرب السكان الأصليين تدريجاً فقد بقيت الألقاب اللاتينية والأسماء تلحقهم كما تلحق بعض أبناء العرب أنفسهم مثل لقب : شنجول ويوانش وبطرة شقة (أي الحجر الصلب) وغيرها .

وظهر أثر الاختلاط بين العرب الفاتحين والسكان الأصليين في الشكل الجديد الذي اتخذته لهجة عرب الأندلس ، وكان أكثرهم ابتعاداً عن العربية الصحيحة أقربهم إلى المناطق التي تغلب فيها غير العربية . ومع الزمن ، أصبحت

١ انظر نكل : ٣ ، والروض : ٥٦

٢ الجمهرة : ٤١٥

٣ قضاة قرطبة : ١١٨

٤ المصدر نفسه : ٩٦

٥ المصدر نفسه : ٨٤

لغة التخاطب تمثل هذه التأثيرات المتباينة قوة وضعفاً . وأخذت الفصحى تنكمش فلا تمثل إلا الجانب الرسمي في الدولة ، وغدت لغة أدبية لا يتذوقها إلا الطبقات المثقفة ، إلا في جزائر صغيرة وسط هذا البحر من الاتجاه إلى اللغة الدارجة ، كما كانت الحال في شلب فإن سكانها وسكان قراها وأكثرهم من عرب اليمن ظلوا يحافظون على اللغة العربية الصريحة إلى عهود متأخرة^١ .

وقال ابن حزم يصف لهجة أهل فحوص البلوط : « ونحن نجد من سمع لغة أهل فحوص البلوط وهي على ليلة واحدة من قرطبة كاد يقول إنها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة ، وهكذا في كثير من البلاد ، فإنه بمجاورة أهل البلدة بأمة أخرى تبدل لغتها بتديلاً لا يخفى على من تأمله »^٢ . وقد سجل ابن حزم أيضاً شيئاً من تبديل العامة للغة الأصلية . فقال^٣ : « ونحن نجد العامة قد بدلت الألفاظ في اللغة العربية بتديلاً . وهو في البعد عن أصل تلك الكلمة كلغة أخرى ، ولا فرق ؛ فنجدهم يقولون في العنب : العنبيب ، وفي السوط : أسطوط ، وفي ثلاثة دنانير : ثلثنا . وإذا تعرب البربري فأراد أن يقول الشجرة قال : السجرة ، وإذا تعرب الحلبي أبدل من العين والحاء هاء فيقول : مهمدأ ، إذا أراد أن يقول محمداً » .

وقد حاول المتمسكون بصحة اللغة أن يقفوا في وجه هذا التطور اللغوي ، فألف الزبيدي كتابه لحن العامة ليوقف الناس على الصواب والخطأ ، وربما تحمس لذلك لأنه رأى هذا اللحن يدخل في المكتوب . وهاجم ابن شهيد الأندلسيين فيما يكتبون وقال إن كتابتهم ليس للفراهيدي فيها عمل ولا لسيبويه إليها طريق ، وحاول الناثرون أن يلتزموا حدود الصحة والفصاحة

١ الروض : ١٠٦

٢ الأحكام ١ : ٣١

٣ الأحكام ١ : ٣٢

ما أمكنهم في النثر الفني .

ويكفي في هذا المقام أن أضرب أمثلة قليلة تصوّر بعض مظاهر اللهجة الأندلسية : نقل صاحب تثقيف اللسان عن الزبيدي أن الأندلسيين يقولون في التين : تَيْن ، وفي النوتي : نَوْتِي ، وفي القبيط : قَبَيْد ، وقال إن مثل هذا لا يخطيء فيه الناس في صقلية^١ ، وذكر أبو حيان الجياني في تفسيره البحر المحيط ، في موضع شذ عن الآن ، أن أهل بلدهم أي الأندلسيين عامة يرققون القاف حتى تلحق بالكاف^٢ . ومن الطريف أن نعلم أن بعض مدرسي اللغة والنحو - في عصر متأخر - كانوا يشرحون الدروس لطلبتهم باللهجة الدارجة .

وكانت الصورة الأدبية لهذا التبلور في الشخصية الأندلسية هي الموشحات والأزجال التي منحت الأندلس تميزاً خاصاً على الشعر المشرقي ، ففي هذا العصر نبتت أصول الموشحات على نحو غامض ، ولا يزال النص الذي أورده ابن بسام عن نشأتها في حاجة إلى توضيح ، إذ قال : « وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقتنا و اخترع طريققتها - فيما بلغني - محمد بن محمود القبري الضرير ، وكان يصنعها على أشطار الأشعار غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة ، يأخذ اللفظ العامي والعجمي ويسميه المركز ويضع عليه الموشحة دون تضمين فيها ولا أغصان . وقيل إن ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد أول من سبق إلى هذا النوع من الموشحات عندنا . ثم نشأ يوسف ابن هارون الرمادي فكان أول من أكثر فيها من التضمين في المراكز ، يضمن كل موقف يقف عليه في المركز خاصة . . . ثم نشأ عبادة هذا [ابن ماء السماء]

١ تثقيف اللسان : الورقة ٤

٢ انظر النسخ ١ : ٦٠١ ووصف فيه أبا حيان بقوله : عبارته فصيحة بلغة أهل الأندلس يعقد القاف قريباً من الكاف . . . وسعته يقول : ما في هذه البلاد من يعقد حرف القاف .

فأحدث التغيير، وذلك أنه اعتمد مواضع الوقف في الأغصان فيضمونها، كما اعتمد الرمادي مواضع الوقف في المركز^١. ويحتاج هذا الكلام المغلق حلاً، ويزيد من صعوبة الموقف أننا لا نملك أمثلة من موشحات القبري والرمادي، ولما كانت الموشحات مما استفاض بعد هذا العصر فمن الأنسب إرجاء الحديث عنها إلى جزء تال. ولكن الدارس لا يملك إلا أن يشك في هذه النشأة المبكرة للموشحات، غير أنه لا يستبعد أن يكون الرمادي قد حاولها أولاً كما طور من تأليفها عبادة بن ماء السماء؛ وبعد الموشحات شاعت الأزجال في الأندلس باللغة المحكية، وكان قبولها يعني منح اللغة الدارجة وجوداً أدبياً، وفي الأزجال استطاع الأندلسيون أن يعبروا عن شئون حياتهم اليومية بطريقة قريبة إلى نفوسهم، فجاءت أزجالهم أدق من الشعر الكلاسيكي في طابعها الأندلسي وتمثيلها للروح الأندلسية. غير أن للحديث عن الموشحات والأزجال موضعاً آخر، فلنكتف بهذا القدر هنا للدلالة على أهم المظاهر التي اتضحت فيها السمات الفارقة للشخصية الأندلسية.

مجالات الشعر الأندلسي ومظاهره الكبرى

كان الشعر الأندلسي في هذا العصر وافرأ غزيراً يحتل من نفوس الناس مقاماً عالياً على اختلاف طبقاتهم ، أما وفرته وغزارته فتعود إلى أنه تغفل في كل ناحية من نواحي الحياة الأندلسية على مستوى الأفراد والجماعات ، فحاول أن يكون شاملاً في نقل تلك الحياة والتعبير عنها ، وأما إحرازه المقام العالي فيعود إلى رغبة طبيعية فيه لدى أناس تربى أذواقهم على محبته والتغني به ، وإلى تقدير الحكام ورجال الدولة له ، لا لأنه يتغنى بأمجادهم وحسب بل لأن أكثرهم شعراء يعرفون مواقع الجمال في صور التعبير ويستمتعون بها ويحاولون الاستزادة منها .

فلقد كان كثير من الحكام الأمويين والأمراء بالأندلس شعراء ومنهم المتفوق المكثر ومنهم المقل ، ولكنك قلما تجد من بين الأفراد المشهورين من لا يمارس قرض الشعر ، ابتداء من عبد الرحمن الداخل حتى آخر العهد الأموي . وبعد كتاب الحلة السيرة معرضاً واسعاً لهذا النشاط ، وقد فعل مثل ذلك ابن فرج - من قبل - في كتاب الحداثق ، ومر بنا أن الحكم المستنصر قد طلب إلى أحدهم أن يؤلف كتاباً في شعر الأمويين بالمشرق والأندلس ، وزعم ابن فرج بعد أن أورد جملة من أشعار الخلفاء الأمويين أن منهم « من يجلبون عن الشعر في أقدارهم كما يرتفعون عن أن يروى عنهم أو يؤخذ من أفواههم . وإتما ينبسطون في سرائرهم فليس يظهر عليهم منه

إلا الشيء القليل ولعل ما سقط عنا أفضل مما سقط إلينا»^١ ، ويبدو أن ابن فرج كان يمهّد بهذا للاعتذار عن أمير المؤمنين الناصر وعن قلة ما يعرفه هو من أشعاره .

وتراوح أشعار هؤلاء الأمراء بين الغزل بجواريمهم والشعر الحماسي . ويتميز منهم الشريف الطليق والمستعين ، وهذا الثاني كان قبل أن يطمح إلى الخلافة ، شاعراً يمدح الخلفاء والكبراء . وذكر ابن أبي الفياض أن له قصائد طويلة في فنون كثيرة مع المعاني العجيبة والألفاظ الغريبة . . . قال : « وكأني أراه قائماً بين يدي ابن عمه المهدي القائم على بني أبي عامر ، والمهدي جالس على مقعد الخلافة ، وهو أمامه ، قد لبس ثوب خز ، وعليه طاق خزّ ملوّن وأقروف وشي . وقد رمى بشيابه على عاتقه ، وبيده سيف ، وهو ينشد شعراً طويلاً يهنئه فيه بالخلافة »^٢ . وكثير من أشعار هؤلاء الأمراء يتضاعل في صدق العاطفة إزاء مقطوعتين نظمهما عبد الرحمن الداخل في التشوق إلى معاهده والحنين إلى أوطانه وأولاهما :

أيتها الراكبُ الميمّمُ أرضي	أقرّ منْ بَعْضِي السلامِ لبعْضِي
إن جسمي كما علمتْ بأرضي	وفؤادي ومالكه بأرضي
قدّرَ البينُ بيننا فافترقنا	وطوى البينُ عن جفوني غمضي
قد قضى اللهُ بالفراقِ علينا	فعمسى باجتماعنا سوف يقضي

والثانية قالها لما نزل بمنية الرصافة من قرطبة ونظر فيها إلى نخلة ذكرته وطنه :

تَبَدَّتْ لَنَا وَسَطَ الرِّصَافَةِ نَخْلَةٌ
تَنَاءَتْ بِأَرْضِ الْغَرْبِ عَنِ بَلَدِ النَّخْلِ

١ الخلة السيرة : الورقة ٥٩

٢ الخلة السيرة : الورقة ١٢٩

فقلتُ شبيهي في التغرّب والنوى وطولِ التناهي عن بنيّ وعن أهلي
نشأتِ بأرضٍ أنتِ فيها غريبةٌ فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي

ولم يكن سائر الأمراء والوزراء والحجاب بأقل من الأمراء الأمويين في
هذه الناحية ، كهاشم بن عبد العزيز حاجب الأمير محمد ، وسعيد بن جودي
أمير العرب الذي عرف في زمانه بعشر خصال لا يدفع عنها : الجود والشجاعة
والفروسية والجمال والشعر والخطابة والشدة والظعن والضرب والرماية ،
وله شعر كثير ، وأكثره في جارية سمعها بقرطبة تغني للأمير عبد الله بن
محمد فهام بها ، واشترى جارية سماها « جيجان » باسمها ، فلم يُسَلِّه
ذلك عنها وهام بها دهرأ ، ومنهم أيضاً الوزير أحمد بن عبد الملك بن شهيد ،
وجهور بن عبيد الله بن أبي عبدة وكان شاعراً مكثرأ ، وجعفر بن عثمان
المصحفي ، والمنصور بن أبي عامر ، وغيرهم ممن يقصر دونهم العد . ولسنا
نميزهم بشيء في هذا المقام ، فإن مراكزهم الاجتماعية ومنازلهم السياسية ،
وإن كانت ذات أثر في شعرهم ، وفي تقدير الناس له ، لا تقوم بينهم مقام
الرابطة الفنية ، إذ ليسوا هم أهل مدرسة أو مذهب خاص ، ولكن هكذا
نظر الأندلسيون إلى شعرهم حين صنفوه ، واهتموا - كما فعل ابن سعيد
في المغرب - بتدريج الشعراء حسب المقامات الاجتماعية . على أن الإشارة
إليهم في هذا السياق قد توضح مدى التجاوب بين الشعراء والطبقات الحاكمة
بما ينتج أثرأ في التحمس للشعر والتهيؤ له ، وقد تدل على أن الشعر كان من
العناصر التي تقدم المرء في الحياة السياسية ، وترقى به إلى المناصب الرفيعة .
وقد عاش الشعر في هذه الفترة مع الحياة السياسية وغدا ظلأ لها ، لا يكاد

١ الخلة : الورقة ٤٥

٢ الخلة : ١٢٠

ينفك عنها ، ويمكن أن نتصور هذه الحياة السياسية في ألوان مختلفة : فهي صراع خارجي في صورة غزوات مستمرة ومرابطة وجهاد في الثغور ، وهي صراع داخليّ يتمثل في الفتن والثورات التي يحاول أصحابها بها الانشقاق عن طاعة قرطبة ، وهي أيضاً معارك بين العناصر المختلفة على أساس العصبية ، وهي إلى ذلك كله معارضة أو نقد للحكم القائم أو محاولة للتأمر في سبيل غايات فردية ، كذلك يجب أن لا ننسى أن من متممات هذه الحياة السياسية قيام الشعراء بين يدي الحاكم في الأعياد والمناسبات العامة وأيام استقبال الوفود والسفارات الخارجية .

(١) أما في الصراع الخارجي فإن الشاعر كان رفيق الأمير أو الخليفة في الجهاد ، وبلغ الأمر بالمندرج بن محمد أنه كان يستمع إلى الشعراء ينشدونه غازياً وراجعاً ؛ وإذا تذكرنا عدد غزوات الناصر مثلاً والمنصور بن أبي عامر - هذا عدا الغزوات الكثيرة الأخرى التي قام بها حكام الأمويين وقادتهم في مدى قرنين من الزمان - لاح لنا مقدار الشعر الذي مزج بين المدح ووصف المعارك والإشادة بالانتصارات والاعتذار عن الانكسارات ، والتمثيل على هذه الناحية إنما يعد استثناءً ببعض النماذج الأندلسية ، وإلا فإن الشعر الممثل لهذه الناحية يكاد يعزّ على الحصر .

فمن ذلك غزوة وادي سليط وهي من أمهات الوقائع في أيام الأمير محمد وفيها يقول عباس بن فرناس ٢ :

وَمُؤْتَلِفِ الأصواتِ مَخْلِيفِ الزَّحْفِ هومِ القَلا عَبلِ القَبائِلِ مُلْتَفٍ
 إذا أومضتْ فيه الصّوارمُ خَلَّتْها بروقاً تراءى في الغمامِ وتَسْتَحْفِي
 كأنْ ذُرَى الأعلامِ في مِيلانِها قراقيرُ في يَمِّ عَجَزَنَ عنِ القَدْفِ

١ ابن عذاري ٢ : ١٨٠

٢ ابن عذاري ٢ : ١٦٦

وفيها يقول العتبي^١ :

سائلٌ عن الثغرِ الصوارمِ تَصْدُقِ واستنطقِ السمرَ العواليَ تَنْطِقِ
تَرَكَتْ وقائعَ في الثغورِ وقد غَدَتْ مثلاً بكلِّ مغربٍ ومُشرقِ
وأداخَ أهلَ المشركينَ بوقعةٍ تركتهمُ مثلَ الأشاءِ المحرقِ
جادتْ عليهم حَرْبُهُ بصواعقِ تركتهمُ مثلَ الرمادِ الأزرقِ

ويقول صاعد مهنتاً المنصور وقد غزا سنة ٣٩٠ في صائفة ، وكانت من أشد غزواته وأصعبها مقاماً ، وتعرف بغزوة جريرة^٢ :

جَدَدْتُ شُكْرِي للهوى المتجدِّدِ وَعَهْدْتُ عندكَ منه ما لمْ يُعْهَدِ
اليومَ عاشَ الدينُ وابتدأ الهُدَى غَضّاً وعادَ المُلْكُ عذبَ الموردِ
ووقفتُ في ثاني حُنَيْنٍ وقفةً فرأيتُ صنَعَ اللهِ يُؤخِّدُ باليدِ
من فاتهُ بدرٌ وأدركَ عُمُرُهُ جريبرَ فهو من الرَعيلِ الأَسْعَدِ
فوددتُ لو حَتَمَ القضاءَ بأنبي في القومِ أوَّلُ طالعِ مُسْتَشْهِدِ
ما أستكينُ لروعةٍ ، ومحمدٌ وبنوهُ أنصارُ النبيِّ محمدِ
عهدي به ، واللهُ ينظرُ صبره والموتُ بينَ مُصَوِّبٍ ومُصَعَّدِ
غطى عليه المشركون فلم يَكُنْ في القومِ إلا صخرةً في فدْفَدِ
حتى تَحَصَّنَ بالملائكةِ التي حفَّتْه بينَ معفرٍ ومرددِ

ولابن درّاج في هذه الغزوة نفسها^٣ :

تبلجُ عنْ إشراقِ غرَّتكَ الصبحُ وأسْفَرَ عن إقداميكِ النصرُ والفتحُ

١ ابن عذاري ٢ : ١٦٩

٢ أحوال الأعلام : ٧٢ - ٧٣

٣ ديوانه : ٣٨٧

وقرَّت عيونُ المُسلمينَ بأوبئةِ
 كأنَّ شعاعَ الشمسِ من نورِ هديها
 ضربتَ بحزبِ الله في الأرضِ مقدماً
 ورويتَ من ماءِ الجمجمِ والطلّي
 مصادرها عزّ وموردها نبح
 وعرو، نسيم الروض من طيها نبح
 إلى متجرٍ، جناتُ عدنٍ له ربح
 متون جياذ نفقها الظمأ البرح

ونختم هذه الأمثلة بقول ابن درّاج في إحدى غزوات المنصور إلى منطقة ليون^١ :

وتركتَ أرضَ ليونَ وهيَ كأنها
 مرفوعة لك في العلأ أعلامها
 شيعٌ حواها حدٌ سيفك عنوة
 وفلول من فات الفرار بتفسيه
 من بعد ما عاذت بحفظ حياتها
 واستعصمت بمعاقل قد أصبحت
 والخيلُ والأبطالُ تجهدُ خلفها
 حتى عبرن خليجَ دوير^٢ كأنها
 بقواضبٍ قضبت بين حياتها
 لم تغن بالأمس القريب ديارها
 لما غدت بك عافياً آثارها
 أضحت عقيب الانتقام قصارها
 جاءت يعاجلها إليك فرارها
 بروج منع للنجوم جوارها
 للحين وهي قيودها وإسارها
 ألا يشط على الخليل مزارها
 سفن ترامي بالحتوف بحارها
 وصورم صرمت بها أمارها

ويدخل في هذا اللون من الشعر التفتن في وصف الخيل ومناظر الفرار ووصف السفن الحربية وصور الحراب والتدمير وآلات الحرب ، فمن ذلك قول الشاعر علي بن أبي الحسين في وصف الرماح^٣ :

بروجٌ من الخطي فيها كواكب لها من قلوب المجرمين منازل

١ ديوانه : ٤٠٩

٢ يعني نهر الدويره : (Ducro) .

٣ كتاب التشبهات : ٢٠٠

تردّت نحول العاشقين كأنّما
 كأنّ ضراماً في الوغى متأججاً
 بها يكتب الفتح الذي صحفه العدا
 تخطّ خطوطاً في الأعادي مدادها
 كأنّ شذا أطرافها إذ ترفعت
 بها من تباريح الغرام بلابل
 ومنها لبيب والدخان القساطل^١
 فأقلامه عند الكماة الذوابل
 نجيعٌ ومخشيٌ الحِمام الرسائل
 شذا ألسن الحيات حين تصاول

ومن وصف السفن قول الرمادي^٢ :

والسفنُ قد جلّلتها قارها
 كأنّها في دار مضمّارها
 كأنّها وأماء ميدانها
 ترى المقاذيف بأحنائها
 لذلك تمشي مشي صاحٍ فلو
 جاوز أمست شبه نشوان
 كالأعين الحور ، مجاذيفها
 من حولها أشفار أجفان
 كأنّما أبراجها في الوغى
 ترمي من النفط بركان
 كأنّها أعراء^٣ حبشان
 خيل يصنعن لميدان
 في الجو منقضة عقبان
 كأنّما ترمي بنيران
 ترمي من النفط بركان

(٢) أما الأحداث الداخلية فالمشهور منها كثير ، والشعر الذي أثارته
 غزير كذلك ، فمنها وقعة الربض التي أوقع فيها الحكم بناسٍ من أهل قرطبة
 ثاروا عليه (١٨٩) و (٢٠٢) وللحكم نفسه في هذه الواقعة شعر كثير
 يسوّغ به ما قام به من قتل وتشريد ، كقوله :

ولما تساقينا سجالَ حروبنا سقيتهمُ سُمّاً من الموتِ ناقعا

١ القساطل : جمع قسطل وهو الفبار الساطع

٢ كتاب التشبيات : ١٧٩

٣ الأعراء : الجماعات

وهل زدت أن وفيتهم صاع قرصهم فوافقوا منايا قُدِّرتْ ومصارعا
فهاك بلادي إنتي قد تركتها مهاداً ولم أتركْ عليها مُنازعا

وأكبر نائر كاد يعجز الأمويين هو عمر بن حفصون زعيم العجم ،
وقد دامت فتنته هو وأبناؤه اثنتين وخمسين سنة ، وكان يتحصن بمدينة بيشتر
وأطاعه أكثر بلاد الموسطة بين رية والحضراء والبيرة ، وخرجت جيوش
قرطبة لإخضاعه مرات عديدة ، ولم يتمكن الأمويون من القضاء عليه ، إلا
في زمن عبد الرحمن الناصر ، وقد غزاه الأمير عبد الله في إحدى المرات
وانتصر عليه فقال في ذلك ابن عبد ربه :

رام ابن حفصون النجاة فلم يسرُ والسيفُ طالبُهُ فليس بِنِاجِ
ما زالَ بِلِقِحِ كُلِّ حَرْبٍ حَائِلِ فَالآنَ أنتَجَها بِشَرَ نِجِاجِ
ركبوا الفِرارَ بعصبةٍ قد جَرَّبُوا غِيبَ السُّرى وخوافَتَ الإدلاجِ
وإذا سألتهمُ مواليَ مَنْ هُمُ قالوا : مواليَ كلِّ ليلٍ داجِ

وهذا باب متسع ، تخصص فيه الشعراء الملتصقون بالخلفاء والأمراء ،
كابن عبد ربه والعتبي والعكي وابن الشمر وعباس بن فرناس وكثير من الملتفين
حول المنصور بن أبي عامر ، وكانت فتنة المستعين التي انقضت بها الخلافة
الأموية من أشد هذه الأحداث الداخلية أثراً في الأدب ، وسنفردها فصلاً
خاصاً .

(٣) وفي وقفة الشعر مع العصبية كان يمثل صورة من النقائص الشرقية
إذ أنه عبّر عن الصراع الأدبي بين العرب والمولدين ، إلى جانب الصراع
السياسي ، وفيه في الجانب العربي الفخر بالقبيلة ، وكان شعراء العرب هم
قادتهم مثل سوار بن حمدون القيسي النائر بناحية البراجلة ، وقد انضمت إليه

بيوتات العرب من كورة البيرة وجيان ورية وغيرها فتغلب على المولدين ،
وافتخر بنصره وامتداد سلطانه وبقومه قيس في قصيدة طويلة أولها :

حَرِمَ الغواني يا هُنَيْدُ مَوَدَّتي إذ شاب مَفْرِقُ لِمَتي وَقَدالي

ثم وجته سوار همته إلى محاربة ابن حفصون وأتباعه وانتصر عليهم في
وقعة المدينة ، وكان صاحبه سعيد بن جودي أحد الشعراء الذين تمدحوا بذلك
الانتصار فقال :

يقولُ بنو الحمراء لو أنْ جُنَحْنَا يطيرُ لغشاكُمْ بشؤبوبِ وابلِ

وفيها يصف انهزام المولدين بقوله :

ولما رأونا زاحفينَ إليهمُ تَوَلَّوْا سِرَاعاً خَوْفَ وَقَعِ المناصِلِ
فَصِرْنَا إليهمُ والرماحُ تَنوِشُهُمُ كوقعِ الصياصي تحتَ وَهَجِ القسائلِ
فلم يَبَقَ منهمُ غيرُ عانٍ مُصَفَّدٍ يقادُ أسيراً موثقاً في السلاسلِ

ولسعيد قصائد أخرى في وصف تلك المعارك وفي مدح سوار . وكان
للمولدين شاعرهم المحامي عنهم ويعرف بالعلي ، واسمه عبد الرحمن بن أحمد
وينسب إلى قرية عبلة ، ويناظره الشاعر الأسدي واسمه محمد بن سعيد بن
مخارق الأسدي ، أسد بني خزيمة ، وكان كل منهما يحرص قومه ويناضل
عن مذهبه ويصف ما يجري لقومه على أصدادهم من الوقائع المخزية ، ولهما
في ذلك أشعار كثيرة ، فمن شعر العلي يذكر أحد الانتصارات :

قَدِ انْقَصَفَتْ قَنائُهُمْ وَذَلُّوا وَزَعَزَعَ رُكْنُ عِزِّهِمْ الأذَلُ

فأجابه الأسدي :

قد احتَمَلَ الأَحْبَةُ واستَقَلُّوا لِطِيَّتِهِمْ بِلِيلٍ واحزَأَلُوا
 فظلَّ الدَّمْعُ مِنْ جَزَعٍ عَلَيْهِمْ إِذِ احْتَمَلُوا يَسِيحًا وَيَسْتَهِيلُ
 سأَصْرَفُ هَمِّي عَنْهُمْ وَأَسْلُو بِهِجْوِي مَعَشْرًا كَفَرُوا وَضَلُّوا

وقصيدة العبلي ناقضها شاعر عربي آخر بقصيدة مطلعها :

لسواري على الأعداء سيفٌ أباد ذوي العداوة فاستقلوا

وتمخضت هذه العصبيات عن قصائد في التحريض والإثارة وقصائد في رثاء السادات الذين قتلوا في تلك الحروب ، وقد رثى الأسديُّ سعيدَ ابن جوديَّ أمير العرب بقصيدة منها :

لا سَأَغِ الرَّاحُ لِي مِنْ كَفِّ سَاقِيهَا حَتَّى تُقَرَّبَ نَفْسِي مِنْ تَمَنِّيهَا
 وَأَنْ أَرَى الحَيْلَ تَرْدِي فِي أَعْنَتِهَا لِثَارٍ مَنْ كَانَ قَبْلَ اليَوْمِ يَرْضِيهَا
 يَا قَاسِمَ بِنِ عِيَاضٍ دَعْوَةً فَلَقَّتْ صُمَّ الصَّخُورِ فَلَمْ يُسْمَعْ مَنَادِيهَا
 أبلغ ربيعةَ والحِينِ مِنْ مُضَرِّ وَآلَ عَكَ إِذَا أُحْلِلْتَ وَادِيهَا
 وَآلَ سَعْدٍ فَقَدْ أَضَحَتْ وَلَيْسَ لَهَا رَاعٍ يَحِيطُ فِضَاهَا بَعْدَ رَاعِيهَا

ورثى سعيداً الشاعر مقدم بن معافى بقصيدة مطلعها :

مَنْ ذَا الَّذِي يُطْعِمُ أَوْ يَكْسُو وَقَدْ حَوَى حِلْفَ النَّدى رَمْسُ

وهذا الشعر مؤسس على القوة والجزالة ، وهو يتميز بذلك عن كثير من ضروب الشعر الأندلسي لأن البداوة فيه أظهر .

(٤) وفي نقد الحكم القائم أو الإخفاق في الدور السياسي أو القيام بالمؤامرات في سبيل غايات فردية ، مثل هذا الشعر الصراع بين الدولة من جهة وبين الناقمين عليها ، كما صور مدى الصراع بين الطامحين من الأفراد

للاستئثار بالمناصب العليا ، وفي كل ذلك عبّر الشعر المتصل بهذه الأحداث عن آلام السجن ؛ ونجد بين الذين تعرضوا لعقوبة السجن عدداً كبيراً من الشعراء لأنهم كانوا دائماً في صفوف المعارضة ، وإنما لأن الشاعر كان في الوقت نفسه شخصية سياسية . يصيبه ما يصيب رجل السياسة عند تقلب الأوضاع واصطدام المطامع المتباينة ، واضطراب حبال الأهواء من حال إلى حال في فترات متقاربة ، والأمثلة على ذلك كثيرة . وسندرس جانباً منها عند الحديث عن شعراء عانوا آلام السجن مثل الغزال والرمادي والطلق . ونورد هنا أمثلة أخرى على سبيل التوضيح لا الحصر : فقد حبس الوزير هاشم بن عبد العزيز لأشياء حقدتها عليه المنذر بن محمد بعد أن كان هو الحاجب المقدم في زمان الأمير محمد ثم أُخرج من سجنه وضرب ، وهدمت داره وقتل ، ومن شعره ، وكتب به من محبسه إلى جاريته عاج :

وأتي عَداني أنْ أزوركِ مُطَبَّقٌ	وبابٌ مَنيعٌ بالحديدِ مُضَيَّبٌ
فإن تعجبي يا عاجُ ممّا أصابني	ففي ريبِ هذا الدهرِ ما يتعجب
وفي النفسِ أشياء أبيتُ بغمّها	كأنّي على جَمَرِ الغصا أتَقَلَّبُ
تركتُ رشادَ الأمرِ إذ كنتُ قادراً	عليه فلاقيتُ الذي كنتُ أرهبُ
وكم قائلٍ قال انجُ ويحكْ سالماً	ففي الأرضِ عنهم مُسترادٌ ومذهب
فقلتُ له : إنَّ الفرارَ مَدَلَّةٌ	ونفسي على الأسواءِ أحلى وأطيب
سأرضي بحكمِ الله فيما يتوبُّني	وما مِنِ قضاءِ الله للمرءِ مهربُ
فمن يكُ مسروراً بحالي فإنّه	سينهلُ في كأسِي وشيكاً ويشربُ

وسجن أحمد بن محمد بن فرج الحياي صاحب كتاب الخدائق لكلمة عامية نطق بها نقلت عنه وأقام في السجن بيمان أعواماً سبعة أو أزيد منها ، وكانت له أشعار ورسائل في محبسه إلى الحكم إلا أنها لم تكن تصل إليه ، فلما توفي

الحكم أطلق من سجنه ، وكان أهل الطلب يدخلون إليه في السجن ويقرأون عليه اللغة وغيرها ، ولم تصلنا أشعاره ورسائله أو شيء منها^١ . على أن أشد الناس خوراً عندما سجن ، الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي ، الذي أدلّه ابن أبي عامر ، ورماه بالمطبق لمنافسة بينهما ، وأحداثه مشهورة مشروحة في كتب التاريخ^٢ وقد استشفع كثيراً فلم ينل شفاعه ، من قوله يخاطب المنصور بن أبي عامر :

عفا الله عنك ألا رحمة	تجودُ بِعَقْوِكَ إن أَبْعَدَا
لئنْ جَلَّ ذَنْبٌ ولمْ أَعْتَمِدْهُ	فَأَنْتِ أَجَلٌ وَأَعْلَى يَسَدَا
ألمْ تَرَ عَبْدًا عَدَا طَوْرَهُ	وَأَنَّى عَفَا وَرَشِيدًا هَدَى
أَقْلَبْتِي أَقَالَكَ مَنْ لَمْ يَزَلْ	يَقِيكَ وَيَصْرَفُ عَنْكَ الرَّدَى

وله أشعار كثيرة تتقلب بين اليأس والأمل ، ومن قوله في ذلك :

صبرتُ على الأيام لما تولت	وألزمتُ نفسي صبرها فاستمرت
فيا عجباً للقلب كيف اضطاره	وللنفس بعد العز كيف استدلّت
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى	فإن طمعتُ تاقّت وإلا تسلّت
وكانت على الأيام نفسي عزيزة	فلما رأّت صبري على الذلّ ذلّت
وقلت لها يا نفس موتي كريمة	فقد كانت الدنيا لنا ثم ولّت

وحبس عبد الملك بن إدريس الجزيري الكاتب الشاعر ، ومن مشهور ما صدر عنه وهو في السجن قصيدة له في الآداب والسنة ، كتب بها إلى

١ الصلة : ١١

٢ انظر ابن عقاري ٢ : ٣٩٩ وما بعدها ، والحلة : ١٢٣

بنه (أو إلى ابنه عبد الرحمن) ^١ ، مطلعها :

أَلْوَى بِعِزِّ تَجَلَّدِي وَتَصَبَّرِي نَأْيُ الْأُحِبَّةِ وَاعْتِيَادُ تَذَكَّرِي

ويذكر فيها كيف فقد صبره ، وذهب سروره وتلذذه بالعيش ، ويتشوق إلى ابنه الأصغر ، ويتذكر ساعة فراقه فيقول :

عَجِبًا لِقَلْبِي يَوْمَ رَاعَيْتُنَا النَّوَى وَدَنَا وَدَاعَكَ كَيْفَ لَمْ يَتَفَطَّرِ
مَا خَلِئْتُنِي أَبْقَى خِلَافَكَ سَاعَةً لَوْلَا السُّكُونُ إِلَى أَخِيكَ الْأَكْبَرِ

ومنها في النصائح والأمور التعليمية :

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ أَرْفَعُ رُتْبَةً وَأَجْلٌ مُكْتَسَبٌ وَأَسْنَى مَفْخَرٍ
فَاسْلُكْ سَبِيلَ الْمُقْتَنِينَ لَهُ تَسُدُّ إِنَّ السِّيَادَةَ تَقْتَنِي بِالذَّفْرِ
وَالْعَالَمَ الْمَدْعُوَّ حَبِيراً إِنَّمَا سَمَاهُ بِاسْمِ الْخَبِيرِ حَمَلُ الْمَحْبِرِ
وَالْعِلْمُ لَيْسَ بِنَافِعٍ أَرَابَهُ مَا لَمْ يُفِدْ عَمَلًا وَحَسَنَ تَصَبَّرِ

ومنها أيضاً :

وَاحْزَنْ لِسَانَكَ وَاحْتَرَسْ مِنْ نَطْقِهِ وَاحْزَرْ بُوَادِرَ غِيَةِ ثَمَّ احْزَرْ
وَاصْفَحْ عَنِ الْعُرَاءِ إِنْ قِيلَتْ وَعُدُّ بِالْحِلْمِ مِنْكَ عَلَى السَّفِيهِ الْمُعْوَرِ
وَكَيْلِ الْمَسِيءِ إِلَى إِسَاءَتِهِ وَلَا تَتَعَقَّبِ الْبَاغِيَّ بِيغِي ، تَنْصُرِ
وَإِذَا سُئِلْتَ فَجُدْ وَإِنْ قُلَّ الْجَدَا جُهْدُ الْمُقَلِّ إِزَاءَ جُهْدِ الْمُكْتَرِ

وإنما أعرض هذه الأمثلة لأنها تدل على الجوانب التي أيقظها السجن

١ انظر الجدوة : ٢٦١ ، وبيضة الدهر ١ : ٤٣٧ . وقد وجدت هذه القصيدة إقبالا كثيراً من الأندلسيين وميزها بعضهم بأنها من مروياته . انظر التكملة : ٢٣١ وفهرسة ابن خير : ٤١٠

في حياة الشعر الأندلسي ، فإلى جانب الحزن العميق ، والتشوق إلى الانطلاق ،
والبكاء على الحياة ، نجد تعميق المشاعر بالحياة وقيمتها مع شيء من نغمة
زهديّة ، وفلسفة مستمدة من القلق والحيرة ، وأثارة من الحكمة التعليمية
كالذي نراه في قصيدة الجزيري ، وقد نجد أن الصبر أقوى من الثورة في
هذا الشعر ، وأن الاستشفاع المتذلل أشيع من العزيمة العزيزة ، وأن الجزع
من الموت أقوى من القدرة على استقباله ، وكل هذا يشير إلى صورة حزينة
قلقة باكية .

(٥) أمّا في مواكبة الشعر للمقامات الكبرى في المواسم والأعياد وأيام
استقبال الوفود فيكفينا إيراد مثل واحد على ذلك من عهد الحكم المستنصر ،
وذلك في عيد الفطر سنة ٣٦٣ ؛ ويطنب الأرخ ابن حيان^١ في وصف الترتيب
الرسمي الذي كان يجري في مثل هذه المناسبة ، وفي تصوير الإذن لمختلف
الناس بحسب منازلهم للتسليم على الخليفة ثم يقول : « وقامت خلاله الخطباء
والشعراء مرتجلين منشدين فأكثروا وأطالوا وأجادوا ، فكان من أحسن ما
أنشد به الشعراء يومئذ قول مقدمهم طاهر بن محمد البغدادي المعروف بالمهند^٢
وهذا الشاعر هاجر إلى قرطبة من بغداد فوصلها بعد دخول القالي لها بحوالي
عشر سنين (حوالي ٣٤٠) وكان عمره يومئذ يناهز الخامسة والعشرين ، وقد
انقطع للمدح المستنصر وتقدّم عنده حتى إن ابن حيان يسميه شيخ الشعراء ،
وكسب كثيراً من المال بمدائحه غير أنه ترهد في آخر عمره وأنشأ شعراً ورسائل
في معاني الزهد على مذهب المتصوفة واعتزل حياة المدينة وأخذ يلزم ضيعة له
(توفي في عهد المنصور بن أبي عامر سنة ٣٩٠)^٣ ؛ وفي ذلك اليوم المشهود قام

١ انظر المقتبس : ١٥٥ وما بعدها (ط . بيروت) .

٢ المقتبس : ١٥٦

٣ انظر الجفوة : ٢٢٩ والنجية رقم : ٨٥٩ وابن الفرضي ١ : ٢٤٥

ينشد قصيدة تلمح فيها معارضة لأبي العتاهية في مدح الرشيد ، يقول فيها :

تَوَلَّى الخِلافةَ في عَصْرِها فَأَحْسَنَ تَقْوَاهُ إِكْمالِها
وكانت دِيانتهُ زِينِها وَأَيامه الزهر أشْكالِها
فلو رفعت خِطَّةَ فَوْقِها لَمَّا كانَ يصلحُ إِلا لها
وما صفة حَسنت في الهدى من الذِكرِ إِلا وقد نالها
فَهتأه اللهُ أعياده وبلغه اللهُ أمثالها

وهي قصيدة طويلة ؛ ثم قام بعده رسيه محمد بن شخيص منشداً شعراً له مطولاً أنحى فيه على بني حسن^١ الموقومين بقهر الخليفة لهم فأسرف في ذلك ، وأول شعره :

أتم شعبان ما أبدا به رجبُ من قبل ما كانت الآمال ترتقبُ
ومنها يعرض بحسن بن قنون :

أشابةٌ تدعي في هاشم نسباً وما يصح لها في معشر نسبُ
عُمي البصائر لم يُسلس معاطفها إلى مساعي التقى دين ولا حسب
وزادها في عماها أن أولها ألقى العصا حيث لا علم ولا أدب

ثم قام بعده عبد العزيز بن حسين القروي فأطال أيضاً في ذكر حسن بن قنون ، ومن قصيدته :

لقد طلعت بالغرب شمسُ خلافةِ أضاء لها في المشرقين شروقُ
فتلك الشام استشرقت لورودها وكانت لها قدماً عليه حقوق

١ كان حسن بن قنون الحسيني من النائرين في هذه الفترة في المغرب ضد الدولة الأموية بالاندلس ، وقد وجه له الحكم المستنصر جيوشاً كثيرة حتى استطاع القضاء على حركته .

ليجلو عنها ظلمة الكفر بالهدى إمام على الدين الخفيف شفيق
أطلت على أهل العراق ومن بها مذاهب فيهن الضلال عريق

وتلاه عبد القدوس بن عبد الوهاب بقصيدة أولها :

يا عصمة الدين والدنيا وحافظها وواحداً في التقى والمجد والكرم
قرت عيون بني الإسلام إذ سخنت بوقع بأسك عينا جاحد النعم

وقام ابن مجاهد الاستجبي الشاعر منشداً تهنئة الخليفة بالظفر بحسن بن قنون
في أرجوزة منها :

لما رأيت السعد قد توالى وعزّ دين الله قد تعالى
وراق ملك الحكم اقتبالا واعتدل الدين به اعتدالا
وعاد صفو شربه زلالا وانثال صنع الباري انثيالاً...

وهذا منظر نموذجي في تصوير تلك المواقف ؛ فهؤلاء خمسة شعراء
في نسق يهتئون الخليفة بالعيد ويشيدون بانتصاره على حسن بن قنون ، ويتفننون
في هجاء ذلك الثائر والشماتة به ، بل إن بعضهم يحاول أن يخرج من الانتساب
إلى الحسينين ، ويذهب البعض مذهب العصية المطلقة لهذه الخلافة الأندلسية ،
فهو يعتبرها قضيته الكبرى ، ويرى أن هذه الخلافة المباركة ستنقذ الشام ،
وتجلو ظلمة الضلال التي رانت على العراق ، وكلهم يحاول أن يشعرنا بأنه
لا يمدح ابتغاء رزق أو جائزة وإنما هو نصير قضية مقدسة ، وأن شعره
إنما ينبع من شدة ولائه لخليفة حري بالخلافة قادر على القيام بأعبائها في سبيل
المسلمين وخيرهم ومصلحتهم الكبرى . كانوا جميعاً يشتركون في صنع التاريخ
ولهذا فربما كانت الحاجة المادية هي أضعف الحوافز في إثارة الشعر الذي
رافق حركات الغزو الخارجي والقضاء على الفتن الداخلية وشهد مجد الخلافة

وتراحم الوفود على بابها طلباً لرضاها .

وهذا الإحساس بالتاريخ هو الذي حفز يحيى بن حكم الجياني الملقب بالغزال على أن ينظم في فتح الأندلس أرجوزة مطولة ذكر فيها السبب في غزوها وتفصيل الوقائع بين المسلمين وأهلها وعداد الأمراء عليها وأسماءهم^١ ؛ ولتمام بن عامر الثقفي أرجوزة في ذكر افتتاح الأندلس وتسمية ولائها والخلفاء فيها ووصف حروبها من وقت دخول طارق بن زياد إلى آخر أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم^٢ . ونظم ابن عبد ربه أرجوزة في غزوات الإمام عبد الرحمن الناصر من سنة ٣٠١ - ٣٢٢^٣ وهي مدرجة في كتاب العقد ؛ وذلك كله يضاف إلى الشعور « بالأندلسية » ومحاولة تخليد كل ما يتصل بالجزيرة من أخبار ومآثر .

غير أن الحياة السياسية على تعدد جنباتها لم تستطع أن تستغرق جميع جهود الشعر الأندلسي ، بل ظل ذلك الشعر ذا علاقة وثيقة بطبيعة بجوانب الحياة الأخرى كالغنى بالطبيعة والحمر والحب أو السخرية من أوضاع الناس والحياة أو الترهيد فيها وغير ذلك من شئون .

وقد كان الارتياح إلى الطبيعة من الموضوعات الكبرى التي سيطرت على الشعر في هذه الفترة ، ومن الخطأ أن ننظر فحسب في هذا الموضوع إلى شعر المشهورين فيه كإبن خفاجة من بعد ، فإن شيوعه في الفترة الأموية ، يكاد يجعله أقرب أنواع الشعر إلى نفوس الأندلسيين ، ومعرضه كتاب الحدائق لابن فرج ، وكتاب البديع في فصل الربيع لحبيب ، والارتياح بوصف الراح لابن مسلمة ، وكتاب التشبيهات لابن الكتاني، وكتاب الفرائد

١ النسخ ١ : ١٢٣ و ٢ : ٧٧٧

٢ الحلة السبراء : ٤١

٣ ابن عذاري ٢ : ٢٢٦

في التشبيهات لعلي بن الحسين القرطبي ، فهي حافلة بـصور الطبيعة في الشعر الأندلسي ، وربما كان وصف الحمر والغناء أقل منزلة في هذا الشعر من وصف الطبيعة وبخاصة وصف الربيع عامة ، والغيم والمطر والبرد والحماثل ، والنواعير ، والأزهار جملة وتفصيلاً ؛ ومما أكثروا من وصفه أزهار الورد والبهار والياسمين والنيلوفر . وإذا ميزنا هذا النوع من الشعر بالكثرة فليس معنى هذا أننا نميزه بالجودة ، فإن الغرام فيه « بالصورة » قد صرف الأندلسيين عن حب الموضوع نفسه ، أما الصورة فيه فإنها شبيهة بأختها المشرقية في نواحي جمودها ، وحديثها عن الزهر الحي بالتشبيهات الجامدة المستمدة من الوشي والأحجار الكريمة وما أشبه ، من ذلك قول ابن النظام ١ :

وقد بدتُ للبهارِ ألويةٌ تعقبُ مسكاً طلوعها عجبُ
رؤوسها فضةٌ مورقةٌ تشرقُ نوراً ، عيونها ذهبُ
فهو أميرُ الرياضِ حَفَّ بهِ من سائرِ النورِ عسكرُ لجِبُ

أو كقول ابن القوطية ٢ :

وكانما الروضُ الأنيقُ وقد بدتُ متلونات غضةً أنوارهُ
بيضاً وصُفراً فاقعاتٍ ، صائغُ لم ينأ درهمه ولا دينارُهُ
سبكُ الحميلة عسجداً ووذيلةً لما غدتْ شمس الظهيرة نارُهُ

وربما أدى الشغف بالصورة لديهم إلى استخراج صورٍ غريبة ، كقول المصحفي في وصف سوسة ٣ :

١ الجذوة : ٢٦٧

٢ الجذوة : ٣٦٩

٣ الحلة : ١٢٤

يا رَبِّ سوسنةٍ قد بُتْ أَلْثُمُها وما لها غيرُ طَعْمِ المِسْكِ من ريقِ
مصفرةِ الوَسْطِ مبيضِ جوانبِها كأنها عاشقٌ في حِجرٍ مَعشُوقِ

وقد تضرب بعض الأشعار بسهمٍ في الحيوية كقول ابن حصن في
النيلوفر^١ :

كلما أقبلَ الظلامُ عليه غَمَصَتْ أنجمُ السما عَيْنَيْهِ
فإذا عادَ للصبحِ ضياءُ عادَ روحُ الحياةِ مِنْهُ إليه

وتزداد هذه الحيوية كلما اتصلت بفكرة زوال الورد سريعاً ، لانصال
ذلك بفكرة زوال الربيع وانتهاء اللذائذ ، من ذلك قول الوزير أبي عثمان
ابن إدريس^٢ :

أقام كرجعِ الطرفِ لم يَشْفِ غَلَّةٌ ولم يروِ مشتاقَ الجوانحِ شائِقةُ
فما كان إلا الطيفَ زار مُسَلِّماً فَسُرَّ ملاقيه وسيءِ مُفارقةِ
على الوردِ من إلفِ التصابي تحيةٌ وإن صرمتَ إلفَ التصابي علائقه

وإذا اختلط الحديث عن الطبيعة ببعض المشاعر الإنسانية الأخرى وتوفرت
له نعمة توحى بالانفعال لم يكن حظّه من الحيوية ضئيلاً ، وذلك كقول ابن
هذيل يصف تعانق قضبان الرياض عند هبوب الرياح^٣ :

هبّت لنا ريحُ الصبا فتعانتقتْ فذكرت جيدك في العناقِ وجيدي
وإذا تألّف في أعاليها الندى مالَتْ بأعناقٍ ولطفٍ قدودِ

١ الخذوة : ٣٧١

٢ الخذوة : ٢٥١

٣ كتاب التشبيهات : ٤٤

وإذا التقت بالريح لم تبصر بها إلا خُدوداً تلتقي بخُدود
فكان عذرة بيتها تحكي لنا صفة الخُضوع وحالة العمود
تيجانها ظلٌ وفي أعناقها منه نظامٌ قلائدٌ وعقود
فرشتي منه الصبا فكأنه من ماء وردٍ ليس للتصعيد

وقد يستعيضون عن طلب الاستطراف في الصور بتصوير المبالغة في
حبّ الزهور كقول أحدهم ١ :

صاحبي إن كنت ترغبُ حباً طُفُ بعرشِ الياسمين مكيّاً
واستلم أركانهُ فهو حجٌ ليس يُخطيه القبولُ لديّاً

أو كقول آخر في وصف الياسمين ومبلغ حبه له :

ولو سقيتهُ من ماء وجهي لما وقّيتهُ ما يستحقُّ

ولا يخطيء الناظر في هذا الفن كيف أكثر الأندلسيون من وصف الطبيعة
في مقدمات قصائدهم مستعيضين به عن الغزل ، وكيف أن إعلاءهم من شأن
الورد بين الأزهار يكتف النظر حقاً . ومن ذلك قول الرمادي :

لآس والسوسان والياسمين الغصّ والخيري فضلٌ شديدٌ
سادت به الأرض ومن بينها وبين فضل الورد بون بعيدٌ
هل لك في الآس سوى شمة تطرحه من بعدها في الوقود

وبعد أن يعدد الشاعر مساويء كل زهر يختم بالفوز للورد قائلاً :

فالورد مولى الروضِ لكنّه في قدره عبدٌ لورد الخدود

والسبب في هذا الموقف أن شعراء الأندلس تأثروا في وصف الطبيعة
 - وفي الحديث عن الأزهار خاصة - بموقف ابن الرومي الذي افتتح باب المناظرة
 بين أنواع الأزهار ، واستغل القضايا المنطقية في تحقيق المفاضلة بينها ، وكان
 ابن الرومي يفضل الرجس على الورد فعارضه الشعراء الأندلسيون وأكثروا
 من القصائد التي يفضلون بها الورد على بقية الأزهار ، من ذلك قول أحد
 شعرائهم ١

تغايِرَ السوسانُ والجلَنارُ والأقحوانُ الغصُّ بينَ البهارِ
 مبتسماً ذاكَ وذا مُوضِحاً عن حُسنِ توريدِ بدا واستثار
 واستحکم الوردُ ببرهانه وانتحلَ الفضلَ معاً والفقار

ولسعيد بن محمد بن فرج أخي صاحب الحداثق قصيدة طويلة يرد
 فيها على ابن الرومي في تفضيله الرجس جاء فيها ٢ :

عني إليكَ فما القياسُ الفاسدُ إلا الذي ردَّ العيانُ الشاهدُ
 أزعمتَ أنَّ الوردَ من تفضيله خجلٌ وناحلُهُ الفضيلةَ عاند
 إن كان يستحبي لفضلِ جماله فحياؤه فيه جمالٌ زائد
 والرجسُ المصفرُّ أعظمُ ريبةً من أنْ يحولَ عليه لونٌ واحد
 ليسَ البياضَ بصفرةٍ في وجهه صفةً كما وُصِفَ الحزينُ الفاقد

وفد برزت روح المفاضلة والمناظرة بين الأزهار عندما شجع المظفر
 الشعراء على الإكثار من القول في أنواعها المختلفة لي طرح أشعارهم فيها لثغناء ،
 فمن قول صاعد البغدادي يفاضل بين البهار والرجس ٣ :

١ الجذوة : ٣٦٣ .

٢ الجذوة : ٢١٢ .

٣ ابن عذاري ٣ : ١٩ .

جُمَلُ الْفَضِيلَةِ لِلْبَهَارِ بِسَبْقِهِ وَلطالما خَلَفَ الْبَهَارَ التَّرْجِسُ
أرْبَى عَلَيْهِ طَيْبُهُ وَنَسِيمُهُ لكنّه عن نَشْرِهِ يَتَنَفَّسُ
كَالْحَاجِبِ الْمَيْمُونِ شُبَّةً فِي الْعَلَا بِأَبِيهِ لَكِنَّ فِعْلُهُ هَذَا أَنْفَسُ

ومن طريف الأمور أن المنصور كان قد سُمي بناته بأسماء الزهور ،
فنظم الشعراء في وصف الأزهار قصائد تبين فضيلة كل نوع منها ، وهم
في هذا يحكون خصائص بنات المنصور نفسه ^١ .
ومن أغرب الأمور أن يكون شعر أبي تمام محرّكاً في وصف الطبيعة
الأندلسية ، وأموذجاً للأندلسيين في هذا المقام . وبخاصة قصيدته التي يصف
فيها الربيع ومطلعها :

رَقَّتْ حَوَاشِي الدَّهْرِ فِيهِ تَمَرَمَرٌ وَغَدَا الثَّرَى فِي حَلْيِهِ يَتَكَسَّرُ

من ذلك قول أبي بكر ابن نصر الكاتب ^٢ :

انظُرْ نَسِيمَ الزَّهْرِ رَقَّ فَوَجْهُهُ لك عن أُسْرَتِهِ السَّرِيَّةِ يَسْفِرُ
خَصِيلٌ بِرَبْعَانِ الرَّبِيعِ وَقَدْ غَدَا للعَيْنِ وَهُوَ مِنَ النَّضَارَةِ مَنظَرُ
وَكَأَنَّهَا تَلْكَ الرِّيَاضُ عَرَائِسُ مَلْبُوسُهُنَّ مَعْصَمَاتٌ وَمُرْعَفَرُ
أَوْ كَالْقِيَانِ لَبِيسُنَ مَوْشِيَّ الْحُلَى فَلَهْنٌ مِنْ وَشِيِّ النَّبَاسِ تَبَخَّرُ

فالمشاركة ليست في المعارضة وحسب وإنما هي أيضاً في جزئيات القصيدة
كقوله « وقد غدا للعين وهو من النضارة منظر » وإنما هو ناظر فيه إلى
قول أبي تمام :

١ الذخيرة ١/٤ : ٢٢ ، ٢٣ ، والنفع ٢ : ١٠٢٤
٢ الجذوة : ٣٦٩

دُنْيَا مَعَاشٍ لِلوَرَى حَتَّى إِذَا جُلِيَّ الرَّيْعُ فَإِنَّمَا هِيَ مَنْظَرُ

وشتان بين ما ذهب إليه أبو تمام من فهم لطبيعة الحياة وترجح الإنسان بين العمل والمتعة ، وبين وصف الشاعر للربيع بأنه منظر . وكذلك تشبيهه الرياض بعرائس ذوات ملبوس معصفر أو مزعفر ، يذكر بقول أبي تمام :

مُصْفَرَّةٌ مُحْمَرَّةٌ فَكَأَنَّهَا عَصَبٌ تَيَمَّنُ فِي الوغَى وَتَمْضَرُ

وكلام الشاعر الأندلسي أرق ، وصورة أبي تمام أغرب .

ولابن قليل البجائي أبيات يعارض بها قصيدة أبي تمام وهي :

ضَحِكَ الرَّيْعُ بِرَوْضَةٍ وَسَمِيَةٍ وَافْتَرَّ عَنِ نَوْرِ أُنَيْقٍ يَزْهَرُ
فَكَأَنَّهُ زَهْرُ النُّجُومِ إِذَا بَدَتْ وَكَأَنَّهَا فِي التُّزْبِ وَشَيْءٌ أَخْضَرُ
وَكَأَنَّ عَرَفَ نَسِيمِهَا عِنْدَ الصَّبَا عَرَفُ الْعَبِيرِ يَفُوحُ فِيهِ الْعَنْبَرُ

ومما يضاف إلى وصف الطبيعة اهتمامهم بوصف المباني والقصور الجميلة من مثل الزهراء والزاهرة ، وما يلحق بها من بساتين ومن تماثيل على هيئة الأسود تقذف الماء من أفواهها إلى غير ذلك من مظاهر حضارية كانت تسحر الأبصار بروعتها وحسن إتقانها وتنوع طرائفها ، فمن ذلك قول ابن هذيل يصف صفوف أشجار الصفصاف في أحد المصانع التي كانت للمنصور بن أبي عامر :

وَكَأَنَّ صَفَّ وَصَائِفٍ بَرَزَتْ إِلَى ٱلْأَعْنَاقِ مَنَافِرَةٌ مِنَ الْأَخْشَافِ
رِيحُ الصَّبَا مِنْ رُوحِهَا فَغُصُونُهَا حَرَكَاتُ أَيْدِيٍّ بِالسَّلَامِ لَطَافِ

وتعلقتُ أوراقها وتدافعتُ إن السوالف ملعب الأسياف
عرضت عليك زمرداً وتحولت فأرتك لوناً كاللجين الصافي

ومن ذلك قول محمد بن شخيص يصف الزهراء :

فاتت محاسنها مجهوداً واصفها فالقول كالسكت والإيجاز كالخلط
بل فضلها في مباني الأرض أجمعها كفضل دولة بانيها على الدول
كادت قسي الحنايا أن تضارعها أهلة السعد لولا وصمة الأفل
تألفت فعدا نقصانها كلاً وربما تنقص الأشياء بالكمل
كم عاشقين من الأطيوار ما فتنا فيها يرودان من روض إلى غلل

ومثل ذلك أيضاً الحال في وصف الخمر ، إلا أن هذا الموضوع أدق
من سابقه وأبين حدوداً ، وبخاصة وأنه عند أبي نواس زعيم هذا الفن ينقسم
من حيث شكله في صورتين : الوصف للخمر وما يتصل بها ، وقصة المغامرة
مع الندمان في زيارة الحان ، وفي الأول من هذين القسمين يستأثر أبو نواس
بمعان وتوليدات إذا اقتبسها غيره أعلنت عن نفسها ، كقول الشريف الطليق :

رُبَّ كاسٍ قد كست جُنْحَ الدُّجَى ثوبَ بُردٍ مِن سَنَاهَا يَقْتَا
قام يَسْقِيهَا رَشاً في جَفْنِهِ سِنَةٌ تَوْرَتْ عَيْنِي أَرْقَا
أَشْرَقَتْ في ناصعٍ مِن كَفِّهِ كَشْعَاعِ الشَّمْسِ وافي الفَلَقَا
خَفِيَتْ للعَيْنِ حَتَّى خَلَّتْهَا تَتَّقِي مِن لِحْظِهِ مَا يُتَّقِي
أصبحت شمساً وفوه مغرباً وبدُ السَّاقِي المُحَيِّتِي مَشْرِقَا
فإذا ما غرَبت في فَمِهِ تركت في الخلد منه شققا

فإن نورانية هذه الخمر . وسريّة «روحانيتها» التي خفيت وهي ظاهرة ،
ثم هذه الصورة التي تجعل منها شمساً تغرب في الفم بعد أن تطلع من المشرق
- الذي هو يد الساقى - لا تزال تستمد من شعر أبي نواس الشيء الكثير .
وأبين من هذا حكمنا على قصة المغامرة في الحانات . فهذا اتجاه نواسي
لا ينازع فيه صاحبه متقدم عليه ، فإذا قرأنا قصيدة يجيى الغزال ١ :

ولما رأيتُ الشَّرْبَ أَكَدْتُ سَمَاؤَهُمْ تَأْبَطُ زِقِي وَاحْتَسِبْتُ عَنَائِي
فلَمَّا أَتَيْتُ الحَانَ نَادَيْتُ رَبَّهُ فَهَبَّ خَفِيفُ الرُّوحِ نَحْوَ نِدَائِي
قَلِيلُ هَجْوَعِ العَيْنِ إِلَّا تَعَلَّةً عَلِيٌّ وَجَلِيٌّ مَنِيٌّ وَمَنْ نُظْرَائِي
فَقَلْتُ أَذْقْنِيهَا فَلَمَّا أَذَاقَنِي طَرَحْتُ إِلَيْهِ رِبْطَتِي وَرِدَائِي
وَقَلْتُ أَعْرِفُنِي بِذِلَّةٍ اسْتَتَرْتُ بِهَا بَدَلْتُ لَهُ فِيهَا طَلَاقَ نِسَائِي
فَوَاللَّهِ مَا بَرَّتْ يَمِينِي وَلَا وَقَفْتُ لَهُ غَيْرَ أَنِّي ضَامِنٌ بوفَائِي
وَأُبْتُ إِلَى صَحْبِي وَلَمْ أَكُ آيِباً فَكَلُّ يَفْدِينِي وَحَقُّ فِدَائِي

وجدنا محاكاة متعمدة لأبي نواس ، وإن لم تقلل هذه المحاكاة من إجادة
يجيى الغزال وتفرد به بعض الجزئيات .

وافتنان الأندلسيين بأبي نواس قد يقوّي القول بعمق أثره في الشعر
الأندلسي ، فقد رأينا كيف أن رواياتهم تنسب إلى عباس بن ناصح الرحلة
للمشرق من أجل أن يلقاه حين سمع بنجومه ، وهذا هو الغزال يحاكيه ،
ويرى الأندلسيون في محاكاته شيئاً لا يقل مستواه عن شعر أبي نواس ، ومن
الحكايات الدالة على افتتانهم به ، قول ابن شبلق الإشبيلي : رأيت في النوم
كأني في مقبرة ذات أزاهير ونواوير ، وفيها قبر حوالية الريحان الكثير ، وقوم

١ المطرب : ١٣٨ والحذوة : ٢١٢ والريحان والريحان : ١٥٥

يشربون فكنت أقول لهم : والله ما زجرتكم الموعظة ولا وقرتم المقبرة ،
قال : فكانوا يقولون لي : أو ما تعرف قبر من هو ؟ فكنت أقول لهم : لا .
قال : فقالوا لي هذا قبر أبي علي الحكمي الحسن بن هانيء . قال : فكنت
أولِّي ، فيقولون والله لا تبرح أو ترثيه ، قال : فكنت أقول :

جارك يا قبرُ نَشَاصُ الغَمَامِ وعاد بالفقيرِ عليكَ السلامُ
ففيكَ أضحى الظرفُ مُستودِعاً واستترتُ عنَّا عيونُ الكلامِ^١

فاستعاروا بعض معانيه في الغزل بالمدكّر وفي وصف الخمر ، فمن المعاني
التي اقتبسوها : ان الكأس تكون ثقيلة فإذا صبت فيها الخمر خفت ، قال
إدريس بن اليمان^٢ :

ثَقَلْتُ زجاجاتُ أتننا فرغاً حتى إذا ملئتُ بصرفِ الرَّاحِ
خَفَّتْ فكادتُ أن تطيرَ بما حوتُ إن الجسومَ تخيفُ بالأرواحِ

ومنها قول آخر في وصف كأس^٣ :

هواء صبيغٍ من ضدّ الهواءِ وشكلٌ مائلٌ في شكّلِ ماءِ
إذا عاينتهُ ملآنٌ أخفى عليكِ إناؤهُ ما في الإناءِ
وإن مُزجتَ به كأسٌ تبدّى كَنُورِ الشمسِ في ثوبِ الهواءِ

وقد تصحّ لهم بعض صور فيها قسط من الجدة والابتكار كقول جعفر
ابن عثمان المصحفي^٤ :

١ الخذرة : ٢٥٥

٢ الخذرة : ١٦٠

٣ الخذرة : ٢٤٣

٤ كتاب التشبيهات : ٩٠

صفراء تطرق في الزجاج فإن سرت في الجسم هبت مثل صلّ لادغ

فإن اكتمال هذه الصورة بين إطراق الصل وانبعائه وتشبيه الخمر به ،
ليست من الصور التي نجدها في المشرق . ومن هذا القبيل قول الرمادي :

كأن الكوس إذ حثت بإثري كواكب إثر شيطان رجيم

أما الحديث عن رقتها وقدمها ولونها وفعالها وهديرها . . . الخ ، فإنه
كله متصل بما عرفه المشاركة ، وليس من فرق إلا في طرق التعبير عن
المعنى الواحد ، وأكثر ما ينفرد به الشاعر الأندلسي لا يتعدى لمحة جزئية في
الصورة .

أما شعر الزهد في الأندلس فقد ولد في أحضان الثورة على الحكم الربضي
إذ كان الأتقياء ينظمون أشعار الزهد ويتغنون بها في الليل ويضمنونها التعريض
به ، ثم أخذ هذا الأدب يقوى رداً على الحياة اللاهية في المدن أو انقياداً لداعي
التقوى في النفس أيام الشيخوخة كما في زهديات الغزال وممحصات ابن عبد
ربه وهي قصائد تكفيرية نظمها لينقض القصائد اللاهية التي قالها في أيام الشباب .
ووجد من الأتقياء من تخصص في هذا النوع من الشعر مثل ابن أبي زمنين
صاحب ديوان النصائح وقاسم بن نصير ، الذي ألف أيضاً كتاباً في
الشعراء من الفقهاء تكملة لهذا الاتجاه الذي كان قد انتهجه في شعره . وفي
هذا الموضوع الزهدي نحسُّ بشخصية أبي العتاهية وأفكاره ونظراته في الحياة
والموت ، ولكن هذا الموضوع مشترك بين أناس ينظرون إلى الحياة الدنيا
من خلال نظرهم إلى الموت والحياة الخالدة . ومن العسير أن يحكم المرء بأن
الأندلسيين استعاروا هذا الموضوع من أبي العتاهية أو اقتبسوا تماماً منه الشعري ،

لأن الزهد نزعة لها أصولها الاجتماعية وليست تجيء كلها اقتباساً ، ولكن أثر أبي العتاهية في تقوية النزعة والاتجاه الشعري لا يمكن إنكاره ، وإذا سمعنا الزبيدي يقول^١ :

لَقَدْ فَازَ الْمَوْفَّقُ لِلصَّوَابِ وَعَاتَبَ نَفْسَهُ قَبْلَ الْعِتَابِ
وَمَنْ شَغَلَ الْفَوَادِ بِحُبِّ مَوْلَى يُجَازِي بِالْحَزِيلِ مِنَ الثَّوَابِ
فَذَاكَ يَنَالُ عِزًّا لَا كَعِزِّ مَنْ الدُّنْيَا يَصِيرُ إِلَى ذَهَابِ
تَفَكَّرْ فِي الْمَمَاتِ فَعَنْ قَرِيبٍ يُنَادِي بِالرَّحِيلِ إِلَى الْحِسَابِ
وَقَدَّمَ مَا تُرَجِّي النِّفْعَ مِنْهُ لِدَارِ الْخُلْدِ وَعَمَلٌ بِالْكِتَابِ
وَلَا تَغْتَرَّ بِالدُّنْيَا فَعَمَّا قَرِيبٍ سَوْفَ تُوذَنُ بِالْخِرَابِ

إذا سمعنا هذا الشعر وجدنا الموضوع والشكل قد اتفقا على النظر معاً إلى أبي العتاهية في مثل قوله :

لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْتِنُوا لِلْخِرَابِ فَكَلِّكُمْ يَصِيرُ إِلَى تَبَابِ

وإذا راجعنا قول ابن أبي زمنين^٢ :

أَيُّهَا الْمَرْءُ إِنَّ دُنْيَاكَ بَحْرٌ طَامِحٌ مَوْجُهُ فَلَا تَأْمَنَنَّهَا
وَسَبِيلُ النِّجَاةِ فِيهَا مُبِينٌ وَهُوَ أَخَذُ الْكِفَافِ وَالْقَوْتِ مِنْهَا

على أشعار أبي العتاهية أدركنا فرقاً بينهما ، وإن اتفق الموضوع ، وهذا الفرق إنما ينتج عن صورة الدنيا عند كليهما ، فأبو العتاهية يتصور الدنيا داراً أو ظلاً متقلصاً أو مرعى أو سراياً وقلماً يتصورها بحراً في مثل قوله^٣ :

١ يتيمة الدرر ١ : ٤١٠

٢ المصدر السابق نفسه .

٣ ديوان أبي العتاهية : ١٧١

كلُّ أهلِ الدنيا تعومُ على الغفِّ لمةٍ منها في غمَرِ بحرٍ عميقٍ
يتبارون في السِّباحِ فهُمُ منْ بينَ ناجٍ منهمُ وبينَ غريقٍ

فالصورة التي يرسمها ابن أبي زمنين للدنيا أقرب إلى أن تكون صورة أندلسية أصيلة من تلك الصور التي عرضها لنا الزبيدي في زهديته السابقة . ويقابل هذا المظهر العابس الباكي ناحية فكهة ضاحكة ولكنها أضعف ظهوراً وتميزاً وإن قال صاحب النفع : « ولأهل الأندلس دعاية وحلاوة في محاوراتهم وأجوبة بديمية مسكتة والظرف فيهم والأدب كالغريزة »^١ ، وقد يكون في هذا الكلام عن الأندلس عامة قسط من الحق غير قليل . إلا أننا نتحدث في هذه الفترة عن قرطبة ، ولم تشتهر قرطبة كثيراً بهذه الروح مثلما اشتهرت إشبيلية مثلاً^٢ . وتشير النواذر الأندلسية إلى الحدة وشيء من البذاءة اللفظية وكثير منها يعتمد على أساس عملي حركي لا لفظي ، وهي تبلغ في حدتها منطقة الهجاء نفسه ، وكان يمزجها بالهجاء كل من القلقاط والغزال ومؤمن بن سعيد وابن الشمر ، وهم أظهر الشعراء ميلاً إلى الدعاية في هذا العصر . وكان القلقاط وهو أحد المعلمين ذا ولوع بالمؤذنين يعبث بهم ، وكان الغزال ومؤمن بن سعيد لا يدعان فرصة من العبث تفوتهما ، وكثيراً ما تكون ضحايتهما من القضاة أنفسهم ، غير أن النادرة المروية سرداً أقوى مما هي في الشعر . ومن أمثلتها أن ابن الشمر طرح ذات يوم بين سحيات القاضي يخامر الشعباني سحاة مكتوباً فيها : يونس بن متى والمسيح بن مريم ، فخرجت السحاة إلى يخامر فأمر أن يدعى بهما إلى مسجد القضاء ، فهتف الهاتف : يونس بن متى والمسيح بن مريم ، فصاح ابن الشمر : نزولهما من أشراف

١ النفع ٢ : ٨٧٦

٢ النفع ٢ : ٧٩١

الساعة ؛ ثم أخذ سحابة وكتب فيها :

يخامرُ ما تنفكُ تأتي بفضحة دعوت ابن متى والمسيح بن مريما
قفاك قفا ضرب ووجهك مظلم وعقلك ما يسوى من البعر درهما
فلا عشت مودوداً ولا عشت سالماً ولا مت معفوياً ولا مت مسلماً

ومن نوادر مؤمن بن سعيد مع قاض آخر يلقب « قبعة » أن رجلاً أتى
إلى مؤمن وسأله أن يكتب له اسمه في رقعة ، فسأله عن اسمه فقال « عقبة » ،
فاستولى حب النادرة على مؤمن وكتب : « قبعة » وأعطاها للرجل ، فقدمها
هذا إلى القاضي ، فجعل القاضي يقدم غيرها من الرقاق ويؤخرها . فلما خفَّ
الناس نادى : من عقبة ؟ فجاءه الرجل ، فقال له : من كتب اسمك ؟ فوصف
له صفة مؤمن فقال له : لا تقعد إليه ثانية ^٢ .

ومن الحكايات المروية في مداعباتهم أن الناصر مازح وزيره لياً أبا القاسم
وقال له : يا لب ، اهج الوزير عبد الملك بن جهور ، فأبى ، فقال لابن
جهور : فاهجه أنت ، فتوقى ، فبدأ الناصر يهجو بقوله :

لبُّ أبو القاسمِ ذو الحيةِ طويلةٍ في طولها ميلٌ

ثم طلب إلى ابن جهور أن يزيد فقال :

وعرضها ميلانٍ إن كُسرَتِ والعقلُ مأفونٌ ومدخولٌ
لو أنه احتاج إلى غسلها لم يكفه في غسلها النيلُ

ثم قال الناصر للب : إنه قد سبب لك القول فقل ، فقال لب :

١ قضاة قرطبة : ٨٣

٢ المصدر السابق : ١٠٣

قال أمين الله في خلقه لي لحية أزرى بها الطول
وابن عمير قال قول الذي مأكوله القراطيل والقول
لولا حيائي من إمام الهدى نخست بالمنخس شو... .

فلما بلغ إلى قوله شو سكت فقال الناصر : قولوا ، فأمم له على نحو
ما أضمر ، فقال له : أنت هجوته يا مولاي^١ .

وتدل هذه الحكايات على توفر الروح الفكاهية والاستعداد النفسي لها ،
ولكن يبدو أن التعبير الشعري عنها لم يكن دائماً موفقاً لأن الشعر سرعان ما
يتزلق إلى منطقة الهجاء ، وبين الحين والحين تلقانا صور ضاحكة تشبع في
جوانبها سخرية جميلة سواء أكانت لاذعة أو خفيفة ، فمن ذلك قول مؤمن
ابن سعيد يحن إلى عهد المصيف^٢ :

لهفي على أنف المصيف وطيبه وحصائد منسوجة بالسنبيل
أيام أقبل والسفا في لحيي فتخالها ذنب الحصان الأشعل

أو كقول مؤمن أيضاً^٣ :

فها أنا ذا قد جيت أحمل لحية إليك لها خطب وشأن من الشأن
كأنّي تيس قد تطاول عمره وأفنى فنوناً من تيوس وجديان

ولعبد الله بن فزح قصيدة في طفيلي يدعى ابن الإمام ، ويسمى أتباعه
الإماميين - كأنه صاحب مذهب - يقول فيها^٤ :

١ ابن عذاري ٢ : ٣٣٩ - ٣٤٠ ، وانظر النفع ٢ : ٩٩٢ ففيه تخريج خاص لمعنى هذه
الناودة .

٢ كتاب التشبيهات : ٢٧٨

٣ المصدر السابق : ٢٦٣

٤ المصدر السابق : ٢٥٦

فقرى الإمامين حول ركابه كالحليل صائمة ليوم رها

ويذكرنا هجاء عبد الله بن كليب لأنف الزهيري ، بصور ابن الرومي ،
وذلك في قوله ١ :

أنفك يا زهري في قبحة كأنه في صورة البوق
يقعد في البيت لحاجاته وأنفه يمضي إلى السوق

وربما كنا نتوقع أن يرحب الشعر صدرًا بالثقافات الجديدة وأن يتأثر
بها ، ولا ريب في أننا لا ندفع هذا التأثير وإن خفيت مواطنه ودقت مساره ،
ولكن الذي يلفت النظر حقاً هو ثورة الشعر على الثقافات الجديدة ، ومواجهتها
بالغضب والاستنكار ، والسخرية منها ومن أصحابها . وفي هذا المظهر كان
الشعر يمثل روح المحافظة ، ويقوم بدور الخصم العنيد للعناصر العلمية أو ما
كان حينئذ يعد ضرباً من الثقافة العلمية ، كالجغرافيا وأقليدس والمجسطي
وعلم النجوم والفلسفة ، ويمثل ابن عبد ربه هذا الاتجاه خير تمثيل ، فقد
أعلن سخظه على الذين يقولون بكونية الأرض ، وباختلاف الفصول حسب
المناطق المناخية المختلفة ، فمن ذلك قوله يسخر بمسلم بن أحمد بن أبي
عييدة وأصحابه ٢ :

والأرض كربة حف السماء بها فوقاً وتحتاً وصارت نقطة مثلاً
صيف الجنوب شتاء للشمال بها قد صار بينهما هذا وذا دولا

وقال ابن عبد ربه أيضاً في مهاجمة المشتغلين بالفلك والحساب :

١ المصدر السابق : ٢٦٠

٢ طبقات الأمم ٦٤ - ٦٥ (ط . اليسوعية) .

أَيْنَ الزَّيْجِ وَالْقَانُو
 وَأَيْنَ السَّنْدُ هِنْدُ ابْطُ
 سَوَى الْإِفْكِ عَلَى اللَّهِ
 إِذَا كَانَ أَخُو النِّجْمِ
 إِلَى مَ يَطْلُبُ الرِّزْقَ
 وَهَذَا الْأَرْضُ قَدِ وَاوَرَتْ
 فَلَا وَاللَّهِ مَا لِلَّهِ
 نُ وَالْأَرْكَانُ وَالْكَمَّةُ
 لُ وَالْجَدُّوَلُ هَلْ ثَمَّةُ
 تَعَالَى مُنْشِرِ الرَّمَّةِ
 يَرَى الْغَيْبَ بِمَا ضَمَّتْهُ
 طِلَابَ الْعَاجِزِ الْهَيْمَةِ
 كَنُوزًا عِدَّةً جَمَّةُ
 خَلَقْتُ بِخَتْمِي عِلْمَهُ

ودخل ابن عبد ربه ذات يوم على الوزير جهور بن الضيف ، وكان القحط قد ألحَّ والغَيْثُ قد احتبس ، واغتمَّ الناس لذلك . وتحدث المنجمون بتأخر الغيث مدةً طويلة ، ومن هؤلاء ابن عذراء وأصحابه ، فقال ابن عبد ربه للوزير : هذا من أمور الله المغيبة ، ورجا الله أن يخلف حساب المنجمين ، فما كان إلا قليل حتى نزل الماء ليلاً ، فأفاق ابن عبد ربه وقربَ المصباح ودعا بالدواة والقلم وكتب للوزير :

ما قَدَّرَ اللَّهُ هُوَ الْغَالِبُ
 قَدِ صَدَّقَ اللَّهُ رَجَاءَ الْوَرَى
 وَأَنْزَلَ الْغَيْثَ عَلَى رَاغِبٍ
 قَلَّ لِبْنِ عَدْرَاءِ السَّخِيفِ الْحِجِيِّ
 مَا يَعْلَمُ الشَّاهِدُ مِنْ حُكْمِنَا
 فَقُلْ لِعَبَّاسٍ وَأَشْيَاعِهِ
 خَانَكُمْ كَيَوَانُ فِي قَرَسِهِ
 فَكَلُّكُمْ يَكْذِبُ فِي عِلْمِهِ
 مَا أَنْتُمْ شَيْءٌ وَلَا عِلْمُكُمْ
 لَيْسَ الَّذِي يَحْسِبُهُ الْحَاسِبُ
 وَمَا رَجَاءُ عِبْدِهِ خَائِبُ
 رَحْمَتُهُ إِذْ قَنِطَ الرَّاغِبُ
 زَرَى عَلَيْكَ الْكُوكِبِ الثَّاقِبُ
 كَيْفَ بِحُكْمِ حُكْمِهِ غَائِبُ
 كَيْفَ تَرَى؟ قَوْلُكُمْ الْكَاذِبُ
 وَغَرَّكُمْ فِي لَوْنِهِ الْكَاتِبُ
 وَكَلُّكُمْ فِي أَصْلِهِ كَاذِبُ
 قَدْ ضَعُفَ الْمَطْلُوبُ وَالطَّالِبُ

تغالبون الله في حكمه والله لا يغلبه غالب

ولم ينفرد ابن عبد ربه بهذا الموقف من الثقافة الجديدة بل شاركه فيه غيره من الشعراء ، وكان أكثر هجومهم موجهاً إلى علم النجوم ، فمن ذلك قول عيسى بن قرمان :

لو كان عند النجوم الساجحات بما
لم يحتليل بذراهم ربُّ حادثة
بل كان يُنجيهم الإنذارُ والحدَرُ
ما كان يتنجل منهم عالمٌ ولدأ
يَجري على الخلقِ من أنبأهم خبرُ
في ساعةٍ ما بها تحسُّ ولا كدرُ

ويقول سعيد بن العاص المرادي :

مُسْتَحِيلٌ أَنْ تُدْرِكَ الْأَوْهَامُ
كُلُّ مَنْ قَالَ إِنَّ لِلنَّجْمِ حُكْمًا
عِلْمَ غَيْبٍ تَغِيبُ عَنْهُ الْأَنَامُ
سَطَرَ الْأَوْلُونَ فِيهِ أُسَاطِيرَ
لَمْ يَجْزُ ، فَاعْلَمَنْ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ
إِذْ أَرَادُوا بِالسُّنْدِ هِنْدَ وَبِالْأَرِ
وَلَمْ يُلْهَمُوا الرَّشَادَ فَهَامُوا
خَبَطُوا فِي أُمُورِهَا خَبَطَ عَشْرًا
كَنْدِ وَالزَّبِيجِ رَوْمَ مَا لَا يُرَامُ
لَيْسَ يَقْضِي كَيَوَانُ أَمْرًا كَمَا قَا
حِينَ ضَلَّتْ فِي كُنْهَيْهَا الْأَوْهَامُ
إِنَّمَا الْأَمْرُ لِلَّذِي خَلَقَ الْخَلْدَ
لَوْا وَلَا الْمُشْتَرِي وَلَا الْبَهْرَامُ
قَ وَتَحْضِي بَعَزْمِهِ الْأَحْكَامُ

ومن ناحية ثانية نرى التعمق في العلوم قد أوصل صاحبه إلى ساحل الإيمان ، وعن هذه الحقيقة تحدث سعيد بن عبد ربه (وهو ابن أخي صاحب العقد) فقال ٢ :

١ هذه الأمثلة مستخرجة من كتاب بهجة المجالس لابن عبد البر ، مخطوطة دار الكتب المصرية .

٢ طبقات ابن جليل : ١٠٥

أمن بعد غوصي في علوم الحقائقِ وطول انبساطي في مواهب خالقي
وفي حين إشرافي على ملكوته أرى طالباً رزقاً إلى غيرِ رازقي
فأيام عمر المرء متعة ساعة تمرُّ سريعاً مثلَ لمعة بارق
وقد آذنت نفسي بتقويض رحلها وأعنفَ في سَوّتي إلى الموت سائقي
ولمّتي وإن بقيتُ أو رغت هارباً من الموت في الآفاق ، فالموتُ لاحقني

قد رأينا فيما تقدم عدداً من المجالات التي خاضها الشعر الأندلسي وشيئاً من مظاهره الكبرى في النواحي السياسية على اختلاف اتجاهاتها وفي حياة السلم من وصف للطبيعة والخمر وزهد وسخرية وثورة على الثقافة الجديدة ، وكنا نلمح في أثناء ذلك شيئاً من الصلة بين هذا الشعر الأندلسي والشعر المشرقي ، وخاصة المحدث ، ونحن نذكر القارئ مرة أخرى بالأساس النظري الذي تقوم عليه هذه الدراسة وهو : أن الشعر الأندلسي تأخر ظهوره عن الشعر المشرقي عشرات السنين ، فلماً ظهر كانت النماذج المشرقية أمامه هي « الشعر المحدث » ، وأن الأندلسيين أحسوا منذ البداية بأن المشرق قد أعطاهم مذهبين أو طريقتين : طريقة تلتزم أصولاً معينة تسمى « الشعر المحدث » وطريقة تختلف عن الأولى في كثير من مظاهر الصنعة خاصة وتسمى « طريقة العرب الأوائل » ؛ وقد عاشت الطريقتان معاً في الأندلس ، وكان وفود القالي من عوامل تقوية الاتجاه الثاني ، ولكن ظل انحياز الشعر الأندلسي إلى طريقة المحدثين أوضح وأقوى ؛ ومعنى ذلك أن هذه الدراسة تتردد في قبول قول الأستاذ غرسية غومس : « وكذلك المحدثون لم يكن لهم عند شعراء الأندلس أثر بعيد ، فيما خلا بدوات نلمحها بين الحين والحين »^١ ، فقد حاولت في الصفحات السابقة أن أرسم شيئاً من أثر المحدثين في توجيه الشعر الأندلسي .

١ الشعر الأندلسي : ٥٠ ، وبالنبيا : ٤٢

وعلينا أن نذكر منذ البداية أن الأثر يمتد في اتجاهين ، أولهما أثر في الموضوع والثاني أثر في الشكل والطريقة الشعرية ، وليس من السهل أن يقال إن الشركة في الموضوع تدلُّ على تقليد أو محاكاة لأن مواد الحياة في طور حضاري ما قد تكون متشابهة وهي التي تصنع الموضوع الشعري ، ولكن حين نجد التشابه في الشكل والطريقة ، وحين تكثر المعارضة أو الردّ ، وحين تستغل الصور نفسها في الموضوع الواحد ، فحينئذٍ يمكننا القول بالتقليد والمحاكاة ، وقد عرضنا لنماذج بسيرة من تأثير أبي العتاهية وأبي نواس وأبي تمام وابن الرومي ؛ ولكن أبا تمام كان أعمقهم أثراً في الشعر الأندلسي من حيث المبنى الشعري والشكل ؛ ومن تأمل الشعر الأندلسي في هذا العصر حق التأمل وجد مبدأ « حب الغرابة » أو الاستطراف هو الدافع القوي فيه ، ثم يجيء المبنى بعد ذلك شديد الاعتماد على المطابقة ورسم المتقابلات المتضادة ، وبلوغ درجة الإحالة في تصيد المعنى ومتفرعاته وظلاله ، والإغراب بالاستعارة ، وإن لم يكن هذا شائعاً كثيراً ، واستعارة النبت والماء في صور بعيدة عن حياة الطبيعة ، وهذه الأخيرة من أشيع الصور عند أبي تمام . ومنها في الشعر الأندلسي قول محمد بن أحمد بن قادم :

قف برّيع البلي وربّع الهُمومِ واسفح الدمعَ فيه سَفَحَ الغيومِ
غيرتْ آيَهُ صروفُ الليالي ومحاهَا الغمامُ مَحَوَ الرقيمِ
ساء ما اعتاضَ بالسحائبِ مِن نبتِ المعالي بمنتِ القيصومِ
فالأسى حينَ يُعَدَمُ الشيءَ مَحْمُومُ لَ على قَدَرِ جوهرِ المعلومِ

فقوله « نبت المعالي » استعارة تامة ، والبيت الأخير أحجية ذهنية كالأشياء التي يعرضها أبو تمام من هذا القبيل . وصورة واحدة هي « تعمم صلح هامات الرُّبى » ، قد أصبحت في هذا الشعر الأندلسي تدور دوراناً غير قليل .

ولا يقتصر أثر ابن الرومي على المناظرات الشعرية بين الأزهار ، وإنما نجد طريقته التحليلية في أخذ المعنى والدوران حوله واستيفائه حتى لا يبقى فيه بقية لغيره ، ومثل هذا واضح في قول أحمد بن محمد بن فرج ١ :

بنفسى مَنْ يَصْدُ بِغَيْرِ ذَنْبٍ سوى إدلاله ثقةً بحجى
عجبتُ لقلبه قاسٍ كجسمي ويحكى جسمه في اللينِ قلبي
فهلاً بالتشاكل كان قاسٍ لغاسٍ ، واغدى رطباً لِرَطْبِ
وإن لم ينعطف باللينِ فظت فقولي بالقساوة : قلبُ صب

وأضعف الشعراء تأثيراً في البيئة الأندلسية في هذا العصر هو المتنبي ، لشموخه في الطريقة الشعرية وفي حكمته الفلسفية ، ولذلك قلما نجد محاولات واضحة للحاق بها مثل بعض معارضات ابن دراج القسطلي له في قصيدته الراهية ٢ :

لبَيْسِكَ أَسْمِعْنَا نِدَاكَ وَدَوْنَنَا نَوء الكواكب مُخَوِّباً أَوْ مَمْطِراً
وفيها نسج على منوال قصيدة أبي الطيب في مدح ابن العميد :

بَادِ هَوَاكَ صَبَّرْتَ أَمْ لَمْ تَصْبِرَا وَبُكَاءَ إِنْ لَمْ يَجِرِ دَمْعُكَ أَوْ جَرَى

أما ابن المعتز فإن صورته المستمدة من الجواهر والأحجار الكريمة قد تغلغت أكثر شيء في شعر الطبيعة الأندلسية ، ونكتفي منها - وهي كثيرة - بهذا المثل الذي لحظه الثعالبي ، وهو قول سعيد بن محمد بن العاص المرواني ٣ :

١ يتيمة الدهر ١ : ٣٦٨

٢ الذخيرة ١/١ : ٥٦

٣ يتيمة الدهر ١ : ٣٩٨

والبدْرُ في جَوْ السَّمَاءِ قَدْ انْطَوَى طَرَفَاهُ حَتَّى عَادَ مِثْلَ الزَّوْرَقِ
فَرَاهُ مِنْ تَحْتِ المُحَاقِ كَأَنَّهُ غَرِقَ الكَثِيرُ وَبَعَضُهُ لَمْ يَغْرَقِ
وَإِنَّهُ مَأخُودٌ مِنْ قَوْلِ ابْنِ المَعْتَزِ :

انْظُرْ إِلَيْهِ كَزَوْرَقٍ مِنْ فِضَّةٍ قَدْ انْقَلَبَتْ حَمُولَةً مِنْ عَنَبٍ

وَصُورَةُ الشَّاعِرِ الأَنْدَلِسِيِّ فِيهَا زِيَادَةٌ لَطِيفَةٌ ، وَهِيَ أَدَقُّ وَأَجْمَلُ مَوْقِعًا
مِنْ صُورَةِ ابْنِ المَعْتَزِ .

فَإِذَا تَذَكَّرْنَا أَنَّ هؤُلاءِ لَيْسُوا كَلِّ المَحْدِثِينَ وَإِنَّ أَشْعَارَهُمْ كَثِيرَةٌ أُخْرَى دَخَلَتْ
الأَنْدَلِسَ وَتَأَثَّرَ بِهَا الأَنْدَلِسِيُّونَ فَمَحَاكُوهَا أَوْ تَغَنُّوا بِهَا مَلْحَنَةً أَدْرَكْنَا أَنَّ تَأْثِيرَ
الشَّعْرِ المَحْدِثِ فِي الشَّعْرِ الأَنْدَلِسِيِّ لَمْ يَكُنْ مَظْهَرًا عَابِرًا أَوْ قَلِيلًا ، وَإِنَّمَا كَانَ
عَامِلًا قَوِيًّا دَافِقًا يَسُوقُ فِي طَرِيقِهِ أُمُورًا كَثِيرَةً كَالسَّيْلِ المَنْدَفِعِ .
وَيَجِبُ أَنْ نَقَرَّرَ هُنَا أَنَّ التَّقْلِيدَ لِلْمَشْرِقِ كَانَ أَمْرًا طَبِيعِيًّا بَلْ يَكَادُ يَكُونُ
حَتْمِيًّا لَعَدَّةِ أَسْبَابِ مَنِهَا :

(١) أَنَّ الأَنْدَلِسَ مَهْمَا تَحْرَزَ اسْتِقْلَالًا عَنِ المَشْرِقِ فِي سِيَاسَتِهَا وَنَظْمِهَا
فَإِنَّهَا بَنَتْ المَشْرِقَ ، وَلَمْ تَنْقَطِعْ صِلَتُهَا الثَّقَافِيَّةُ بِهِ فِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ ، وَقَدْ ظَلَّتْ
الرَّحْلَةَ العِلْمِيَّةَ إِلَى المَشْرِقِ هِيَ مَنبَعُ العِلْمِ وَالعِرْفَانِ ، فَكَيْفَ إِذَا أَضْفَتْ إِلَى
ذَلِكَ تِلْكَ الرِّابِطَةَ الدِّينِيَّةَ القَوِيَّةَ الَّتِي تَجْعَلُ وَفُودَ الأَنْدَلِسِيِّينَ تَسْتَهِينُ بِكُلِّ المِصَاعِبِ
الْبَرِيَّةِ وَالبَحْرِيَّةِ فِي سَبِيلِ آدَاءِ فَرِيضَةِ الحَجِّ .

(٢) أَنَّ الأَنْدَلِسَ كَانَتْ بِحَاجَةٍ إِلَى المَشْرِقِ لِأَنَّهُ أَرْقَى حَضَارَةً وَأَحْفَلُ
بِأَسْبَابِ التَّقْدِيمِ العِمْرَانِيِّ .

(٣) أَنَّا إِذَا نَظَرْنَا إِلَى المَوْرُوثِ الأَدْبِيِّ وَجَدْنَا أَنَّ مَوْرُوثَ الأَنْدَلِسِيِّينَ
الأَدْبِيِّ - وَهُمُ عَرَبٌ أَوْ ذَوُو ثِقَافَةٍ عَرَبِيَّةٍ - إِنَّمَا هُوَ شَعْرُ العَرَبِ وَأَدْبِهِمْ مِنْذُ
الجَاهِلِيَّةِ حَتَّى أَبِي تَمَّامٍ ، وَلَيْسَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَجِدَ الأَنْدَلِسِيُّونَ أَسْبَابَ ذَلِكَ

الموروث ، لأنهم لا يحملون للمشرق إلا كل تقدير وإكبار . زد على ذلك أنه من العسير على الإنسان أن يطرح جانباً المؤثرات التي تلقاها في الصغر . ووجهت نظرتة وطريقته في التعبير .

(٤) أن الوسيلة التعبيرية عند الأندلسيين والمشاركة واحدة بكل ما فيها من مظاهر القدرة أو العجز ، والاتحاد في وسيلة التعبير يوحد أو يقرب صور الشكل ، كما أن الاتحاد في مواد الحضارة يوحد الموضوع الشعري .

(٥) أن الشعر المحدث - من بين جميع الموروث الشعري العربي - أحب إلى الأندلسيين ، لأنه يعبر عن مرحلة حضارية يعيشونها ، بينما يمثل الشعر القديم (أو البدوي) مرحلة لم يعرفوها ، ولهذا تناولوا النماذج الجاهزة من الشعر المحدث وصبوا على قوالها .

ولكن خطأ الأندلسيين أنهم أسرفوا في التقليد حتى اضطر ابن بسام أن يقول في مقدمة الذخيرة : « إلا أن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل الشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى فتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب ، بلثوا على هذا صنماً ، وتلوا ذلك كتاباً محكماً ، وأخبارهم الباهرة وأشعارهم السائرة مرمى القصية ومناخ الرذية ، لا يعمر بها جنان ولا خلد ، ولا يصرف فيها لسان ولا يد » .
وربقة التقليد خانقة تحوّل القابليات عن طريق الابتكار ، وتقتل الأصالة ؛ والظن قوي أن الأندلسيين لو نظروا من خلال أنفسهم إلى شعر الطبيعة - مثلاً - لاستغنوا عن مناظرات ابن الرومي وتشبيهات ابن المعتز . وإذن لاستوحوا أيضاً بيئتهم لا أشعار أبي نواس في وصف الخمر ، وهلمّ جرأ .
على أننا نزيد الأمر بياناً ونقول : هب أن الأندلسيين لم يعمدوا إلى تقليد الشعر المشرقي فإن اشراك البيهتين المشرقية والأندلسية في المتكلم الحضاري ، سيجعل

صور التشابه - ولا بد - أوضح تحت عيون الباحثين من صور التخالف والافتراق ؛ تلك حقيقة يجب أن نعيها تمام الوعي ، لا حين نتحدث عن الشعر الأندلسي وحسب ، بل حين نتحدث عن شعر كل قطر من الأقطار الإسلامية التي وجدت طريقها إلى الاستقلال السياسي في هذا العصر أو ذاك ؛ والمتكأ الحضاري لا يعني الشركة في مواد العمران وحسب بل يمتدّ فيشمل الشركة في وسيلة التعبير والمقدسات الدينية والدوافع الأسطورية والمستوى العلمي وغير ذلك من شئون تسمى جميعاً « الموروث العام » .

ومهما يكن من شيء فإن الشعر الأندلسي - في هذه الفترة من الزمن - قد تنكب طريق التأمل النفسي أو العمق الفكري وتعلّق بالمحسوسات يدور حولها أو يتحدث عنها أو يصفها ، حتى مشكلة الموت لم تخلق فيه تأملاً من نوع عميق ؛ فإذا شاء التعبير المباشر عن العلاقات الإنسانية جاء جافياً غير مصقول ، ليست فيه حلاوة موسيقية ، وهذا ما يغلب على شعراء الفترة الأولى أي عهد الإمارة ، فإذا تقدمنا في الزمن وجدنا الشعراء يزدادون حرصاً على الصقل للعبارة ، ولكن أهمّ ما يشغل خواطرهم إيراد الصور المتلاحقة دون توقف ، على نحو يجيل للقارئ أن الشاعر الأندلسي لا يرى الشعر إلا نقلاً متتابعاً للصور المتلاحقة ، كقول طاهر بن محمد المعروف بالمهند :

وليل بتّ أكلؤه بهيم	كأن على مفارقة غرابا
كأن سماءه بحرٌ خضمّ	كسأه الموجُ ملتطماً حبابا
كأن نجومه الزُّهر الهوادي	وجوه أخضلت تبغي الثوابا
كأن المستسرة في ذراه	ككائن غارة رقت نهابا
كأن النجم معترضاً وشاة	تسارق فيه لحظاً مسترابا

كأن كواكب الجوزاء شرب
 كأن الفرقدين ذوا عتاب
 كأن المشتري لما تعالى
 كأن الأحمر المريخ مغض
 كأن بقية القمر المولّي
 تعاطيهم ولائدهم شرابا
 أجالا طول ليلهما العتابا
 ظليعة عسكر خنسوا ارتقابا
 على حنق يشبُّ به شهابا
 كئيب مدنف يشكو اجتنابا

وليس هذا مثالا واحداً ، بل الأمثلة متعددة ، وإنما نكتفي بإيراد
 مثل آخر لابن هذيل يصف الزهراء^١ :

كأن حناياها جناحها مصفق
 كأن سواربها شكت فرة الضنى
 كأن الذي زان البياض نحوها
 كأن النخيل الباسقات إلى العُلا
 كأن غصون الآس والريح بينها
 كأن جني الجللنار وورده
 إذا ألهيته الشمس أرخاهما نشرها
 فباتت هضيمات الحشا نخلًا صفرا
 يعذبها هجرًا ويقطعها كبرا
 عذارى حجال رجّلت لماً شقرا
 متون نشاوى كلما اضطربت سكرا
 عشيقان لما استجمعا أظهرها خفرا

وقد كان لطلب الصورة بهذا الإسراف آثار بالغة في ذلك منها: انحياز الشعر
 إلى جانب الصناعة التي تفرض على الشاعر أن يتعد عن الصورة الكلية للمنظر
 وأن يتناول أجزاءه ويصفها عن طريق التشبيه ، وهذا أيضاً أضعف ما كان
 يمكن أن يتوفر في القصيدة من وحدة ، كما أن الشغف بالتصوير كثيراً ما
 أخرج الشاعر إلى الإحالة ، مثل قول الشاعر في وصف طول الليل وسكونه :

«وليل كفكر في إقامة دولة»^٢ أو كقول يوسف بن هارون^٣ :

١ المصدر السابق : ٧٦

٢ كتاب التشبيهات : ١٦٠

٣ المصدر السابق : ١٦٤

أخضيتني وأريدُ أن أخفي الهوى أوليس معدوماً خفيٌ في خفي

على أنه قد يصحّ للشاعر أحياناً أن يجمع بين الجزالة المتدفقة والتصوير في نطاق واحد ، فيخرج بشعره عن مستوى الصور المتلاحقة دون ترابط معنوي ؛ من ذلك قول عبادة يصف وفود الروم أمام أحد خلفاء بني مروان وكيف تقدموا بين صفوف من العساكر تحمل رايات متنوعة منها ما يمثل صور الحيات والأسود الفاغرة والنمور الجائشة والعقبان الكاسرة ، فالمنظر أندلسي الصبغة ولكن الشاعر يستغل أية صورة تخدم غرضه في إظهار ذلك المنظر العام ولو كانت صورة بدوية^١ :

هذي وفودُ الروم نحوك بادرت أمّ القطا للمنهل المورود
وصلوا على مثل الصراط إليك من هولٍ ، وأنفسهم بلا مجلود
في جحفل كالروض في ألوانه يهفو بأعلاه سحب بنود
وكانت الحيات فاغرة به تومي إلى الأعداء بالتهديد
وكانت العقبان في نفع الصبأ تهوي إلى صيد الكمامة الصيد
والأرض تحسبها سلوكاً سطرت فيها لآلئ عدةٍ وعديد

وأحياناً أخرى يتعد الشاعر عن الصور ، وينطلق على سجيته تقوده المعاني أو يقودها في تعبير سهل بسيط كقول ابن عبد ربه في رثاء شبابه^٢ :

فراقكَ عرفَ الأحزان قلبي وفرّق بين عيني والرقاد
كانني منك لم أربع برّيع ولم أرتد به أحلى مراد
سقى ذلك الرئبي وبل الثريا وغادى نبتة صوب الغوادي

١ المصدر السابق : ٢١٠

٢ الهجعة ١ : ٨٠

زمان كان فيه الرشد غيًّا وكان الغيِّ فيه من رشادي
فكم لي من غليل فيكِ خافٍ وكم لي من عويل فيكِ بادي

وهكذا نجد أنه ليس من السهل أن ندرج الشعر الأندلسي في هذه الفترة تحت مقولة واحدة ، فهناك الشعر الفج الحافي ، والآخر السهل السائق المنبعث في يسر ، وهناك التصوير المتكلف المخفق ، والتصوير المبتدع الموفق ، وثمة توجد الإحالة كما يوجد الإغراب ، وتتوفر البساطة كما تتوفر الجزالة ، ذلك نتاج مائتي عام ، فالفترة - على قصرها في عمر الأمم - طويلة ، والشعر - على قلة ما وصلنا منه - غزير وفير ، ويشير كتاب التشبيهات لابن الكتاني ، وهو يقع في ختام هذه الفترة ، إلى أن الأندلسيين لم تفتحهم المشاركة في جميع الموضوعات التي عرفها المشارقة سواء ما تعلق بمناظر الطبيعة أو بالجمال الإنساني أو بالحب والمشاعر الإنسانية أو بالصراع بين الإنسان والطبيعة أو بين الإنسان والإنسان ، أو وصف الأدوات الحضارية وعلاقة الإنسان بالفناء والهرم ، وبعض الحالات الأخلاقية . . . الخ . غير أن هذا الكتاب يمثل مختارات في التشبيه ، ولا يستطيع أن يدلنا على مدى استقلال كل موضوع بقصيدة أو بعدد من القصائد .

تلك هي مجالات الشعر الأندلسي وأهم سماته ومظاهره في هذا العصر عرضناها - بإيجاز - على قدر ما تسمح به الشواهد المتيسرة لدينا حتى اليوم ، ولعل استكشاف مصادر أخرى أن يغير من أجزاء هذه الصورة ومن ترتيبها وأن يضيف إليها أو ينقص منها .

الفتنة البربرية وآثارها

كان من الممكن أن نجعل الفتنة البربرية أحد العوامل السياسية (لأنها صراع داخلي بين فئتين من مسلمي الأندلس) وندرسها في الفصل السابق ، حين درسنا مجالات الشعر وصلته بعوالم السياسة على اختلاف جوانبها ، ولكن طبيعة الفتنة البربرية - من حيث أنها قضت على الدولة الأموية وأنهت عصراً سياسياً أديباً وابتدأت عصراً جديداً في السياسة والأدب - تجعلنا نقرّد الحديث عنها من حيث هي ظاهرة كبيرة وليست حادثة سياسية ذات نتائج عارضة ؛ كذلك فإن النتائج التي تمخضت عنها تلك الفتنة تختلف في طبيعتها ومدى تغلغلها في الأدب عن جميع النتائج التي نجمت عن الأحداث الأخرى ، وهذا وحده يكفي لإفرادها بالنظر والحديث عنها في فصل مستقل .

وقبل الحديث عن آثار الفتنة في الحياة الأندلسية عامة وفي الحياة الأدبية خاصة ، يحسن بنا أن نوجز الخبر عنها فنقول :

أراد محمد بن هشام بن عبد الجبار الأموي الملقب بالمهدي أن يتخلص من الدولة العامرية ، وكان العامريون قد تسلموا زمام السلطة الفعلية طوال أيام الخليفة المستضعف هشام المؤيد . ونجح المهدي نجاحاً مؤقتاً ، وقتل عبد الرحمن بن أبي عامر ، وتسلم السلطة ولكن لم يمهله فيها أموي آخر هو سليمان - المستعين - الذي تزعم البرابرة ، وقصد أن يتترع الخلافة من المهدي . واجتمع البرابرة مع سليمان لمحاربة قرطبة ونزلوا في سفح الجبل بها وبشرقيها (١١ ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ) ، واحتشد إليها الناس من

الكور والبادية فمسكروا بجموع كثيرة ، وتداني الزحفان في الثالث عشر من الشهر المذكور ، واندفع أهل قرطبة نحو البربر فاستدرجهم البربر ثم عطفوا عليهم وأخذوا في تقتيلهم ، فانهزموا ليدخلوا المدينة من مسالك كانوا ضيقوها ضد عدوهم ، فأصبحت حاجزاً دون هربهم بسهولة ، وكان البرابرة قد تحالفوا مع النصارى فأبادوا كثيراً من أهل قرطبة ، وتسمى هذه الواقعة وقعة قتيش ، وهرب المهدي بعد الواقعة إلى طليطلة ، مستعيناً بالإفرنجية وعساكر الثغور ، وجمع منهم جموعاً وعاد في شهر شوال من العام نفسه ، فانهزم سليمان ودخل المهدي قرطبة من جديد ، ولكن جيشه لم يتحمل بقاءه فقتلوه ، ونصبوا هشاماً المؤيد ، ثم عاد سليمان فملك قرطبة . وكتب إلى المدن الأخرى يذكر فتحه المدينة وكيف قهر الناس وقتل من عصاه ، فازداد نفور أهل المدن الأخرى منه بدلاً من أن يتألفهم . وقد أقام سليمان حوالي سبع سنوات وصفها ابن حبان بأنها « كانت كلها شداداً نكدات صعباً مشومات ، كربيات المبدل والفاتحة ، قبيحة المنتهى والحائمة ، لم يعدم فيها حيف ، ولا فورق خوف ، ولا تم سرور ، ولا فقد محذور ، مع تغير السيرة وخرق الهيبة واشتعال الفتنة واعتلاء المعصية وطعن الأمن وحلول المخافة : دولة كفاها ذماً ان أنشأها شانجة فقصعها ارمند وثبتتها الجلالقة ومزقتها الفرنجة ، ودبرها فاجر شقي ووزر لها خب دني ، فتمخضت عن الفاقرة الكبرى وآلت بمن أتى بعدها إلى ما كان أعضل وأدهى مما طوى بساط الدنيا ، وعفى رسمها وأهلك أهلها » .

وتوفي المؤيد في بعض تلك الأيام ، واستقر الأمر لسليمان المستعين ، فانتقل إلى الزهراء وعين الولاة على الجهات فأعطى البيرة لبي زيري بن مناد وأعطى سرقسطة لمنذر بن يحيى وولى علي بن حمود على سبته ، وقسم

المدن الأخرى بين زعماء البربر الآخرين .

وأخذ الفتيان العامريون يجددون المحاولات لاستعادة دولتهم ، وعملوا على تقويض ملك سليمان المستعين ، فكاتبوا علي بن حمود صاحب سبتة وذكروا له أن المؤيد هشاماً قد ترك له عهداً بالخلافة ، فانشق ابن حمود على صاحبه المستعين ، واجتاز سنة ٤٠٤ إلى الأندلس وانضم إليه خيران العامري وحبوس الصنهاجي ، والتقت جيوشهم بالمستعين أوائل سنة ٤٠٧ فهزم سليمان وقبض عليه وقتل ، وصارت الدولة بقرطبة إلى علي بن حمود « فقهر البربر وأمضى الأحكام ، وأقام العدل . . . وكان مرفوع الحجاب يقيم الحدود ويقرب المتظلمين ، ثم ساء في الناس رأيه فألزمهم المغارم وانتزع منهم السلاح » ثم قتله خدمه الصقالبة سنة ٤٠٨ وخلفه أخوه .

في تلك الأثناء كان الموالي العامريون لا يزالون يطمعون في استعادة الدولة الأموية ، فنصبوا المرتضى خليفة (وهو عبد الرحمن بن محمد من نسل الناصر) ونزلوا به بغرناطة فهزمهم زاوي بن زيري صاحبها ، وخذل المرتضى أنصاره وقتل هو (٤٠٩) « وبعد هذه الواقعة ركدت ريح المروانية وتقطعوا في الأرض واستهينوا فلم تقم لهم قائمة » ، ولم ينجح الظافر بالله الذي بويع سنة ٤١٤ ولا المستكفي الذي جاء بعده في رد الخلافة الأموية ، وأخرج المستكفي من قرطبة متنقياً في زي النساء (٤١٦) ، وانتظم الأمر في قرطبة لبني حمود طوال تلك الفترة .

أما من تبقى من الفتيان العامريين فنجمل أمرهم فيما يلي :

- ١ - كان خيران العامري زعيم الصقالبة في بلاط هشام المؤيد ، فاستولى على مرسية والمرية ، وكان داهية شجاعاً حسن التدبير ، وتسمى أحياناً بالخليفة وبالفتى الكبير . وخلفه على المرية أخوه زهير العامري سنة ٤١٩ .
- ٢ - استولى مجاهد العامري على دانية والجزائر الشرقية ، وكان ميالاً

للعلم مكرماً للعلماء ، فقصده كثيرون منهم ابن عبد البر وابن سيده ، وكان فارساً لا ضريب له في الحدق بمعاني الفروسية ، وتردد بين النسك والمذاكرة وبين البطالة واللهو .

٣ - استقل مبارك ومظفر العامريان بيلنسية ، بعد أن كانا وكيلين للساقية ، وتآكفا على اختلاف في طبعهما إذ كان مبارك صارماً ومظفر دمثاً متواضعاً .

ذلك باختصار هو الوضع الذي كان بعد انقضاء الدولة الأموية وزوال العامرين ، ولذلك تعد الفتنة ، وفترة الانتقال التي تلتها ، نقطة تحول في التاريخ والأدب الأندلسي . ومعنى ذلك أن سيادة قرطبة قد اضمحلت ، وارتخت الأسباب التي كانت تمسك جوانب البلاد الأندلسية إلى مركز واحد ، وانتهى تمرکز الحياة الأدبية في العاصمة ، وكانت الفترة التي تلت الفتنة تمهيداً لقيام أمراء الطوائف واتساع النهضة الأدبية في مدن الأندلس الأخرى .

آثار الفتنة

(١) ومن الآثار المباشرة للفتنة التخريب والدمار الذي أصيبت به قرطبة ، وقد وصف ابن حيان كيف أن أحدهم كان يتولى الإشراف على هدم قصور الأمويين فقال : « بيده بادت قصور بني أمية الرفيعة ، ودرست آثارهم البديعة ، وحطت أعلامهم المنيعة ، قدمه ابن السقاء مدبر قرطبة لجمع آلات ما تهدم من القصور المعطلة فاغتندى عليها أعظم آفة يبيع أشياء جلييلة القدر رفيعة القيمة في طريق الأمانة . . . فعاث فيها عياث النار في بيبس العرفج ، وباع آلتها من رفيع المرمر ومثمن العمد ونضار الخشب وخالص النحاس وصافي الحديد والرصاص يبيع الأدبار »^١ ، وكذلك كان من آثارها الملح

١ الذخيرة ٢/١ : ١١١ وما بعدها .

الذي أصيبت به النفوس من تغلب البرابرة ، وترصدهم الحرم والدور بالهتك والسلب ، ولقد بلغ من إشفاق الناس يومئذ أنهم استفتوا شيوخ المالكية في تعجيل صلاة العتمة قبل وقتها خوفاً من القتل ، إذ كان متلصصة البرابرة يقفون لهم في الظلام ، في طرق المسجد ، فرما آذوا أذى شديداً^١ . وقضت الفتنة على كثير من العلماء والأدباء بالموت والتشريد ، ويكفي أن يراجع القارئ كتاب الصلة حتى يجد فيه كثيراً ممن ترجم لهم ابن يشكوال إما قتلوا في الفتنة أو آثروا الهجرة إلى إحدى المدن الأندلسية ، ومنهم من أبعدهم النجعة فبلغ مصر وغيرها . ومن أعلام الذين قتلوا أبو الوليد الفرضي صاحب كتاب تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس . واضطربت موازين الأمور فأخملت الفتنة كثيراً من المشهورين ورفعت كثيراً من المغمورين ، وقد أرخ ابن حيان هذه الناحية بتفصيل مثلما أرخ الفتنة كلها ، وإن كانت قد منعت في أثنائها من الاستمرار فعمل كتابة التاريخ إلى أن مضى صدر منها . وهو يخبرنا أنه أصيب في وقعة قنتيش نيف على ستين من المؤدبين خاصة « أعريت سقائهم في غداة واحدة منهم ، وتعطل صبيانهم »^٢ . . . وربما كانت بشاعة الفتنة ترجع إلى التفصيل الشديد الذي سجله مؤرخ الأندلس لأحداثها ، على أنها كانت حدثاً جليلاً في نفوس الناس يومئذ - لقضائها على عمران قرطبة أولاً ثم لقضائها على ما ألفه الناس من أمر الخلافة الأموية . (٢) وقد هزت الفتنة قواعد النهضة العلمية الأدبية التي ازدهرت على عهد المستنصر والمنصور ، ولكن هذا لم يلبث طويلاً ، بل استعاد الناس ثقتهم في أنفسهم واقبلوا على الانتاج . ومن الضارّ النافع أن تكون الفتنة سبباً في بيع الكتب التي كانت بقرطبة وبخامسة ما كان منها في مكتبة الحكم ، وكان

١ الأحكام ٣ : ٦٧

٢ الذخيرة ١/١ : ٣١

بيعها سبباً في تسهيل انتشار العلوم ، وفيها عثر طلاب العلم على كتب لم يكونوا يستطيعون الحصول عليها ، وكان ذلك عاملاً في انتعاش الحركة العلمية ، والفلسفية على وجه الخصوص . وعرضت مكتبات أخرى للبيع ، منها مكتبة الإمام ابن فطيس ، وكان قد جمع من الكتب في أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس ، وقيل إن كتبه بقيت تباع مدة عام كامل في مسجده وإن ثمنها بلغ أربعين ألف دينار قاسمية . وليس هذا كثيراً على رجل كان قد وظف ستة وراقين ينسخون له دائماً براتب مقرر^١ . وكان الشعراء قبيل الفتنة وفي أثنائها على حال سيئة ، ولا أبلغ من وصف ابن حيان لحالم حين جاء سليمان المستعين إذ يقول : « واغتنمته شعراء العامرية والدولة الأموية وقد نسجت على أفواههم ومحاربهم العناكب أيام الحرب والفتنة ، واشتدت فاقتمهم ، وجمعت طباعهم ، وكانوا كالبزاة الفذة الجياح ، انقضت لفرط الضرورة على الجراداة ، فلم يبيل صداهم ، ولا سد خلتهم لاشتغاله بشانه ، واشتداد حاجة سلطانه »^٢ . وأصبح الشعراء موالى كل من تولى سلطة ، يمجدون اليوم هذا ، ثم يمجدون غداً قاهره ، وغدوا جوايين على أبواب أولئك الأمراء أمثال منذر وخيران ومظفر ومبارك ، وأصبحت مدائحهم جزافاً من القول في سبيل القوت . ولم تعد هناك انتصارات المنصور أو المظفر ليتغنوا بها ، فانصرفوا إلى ذكر المكاييد الصغيرة والخلافات الداخلية .

(٣) والتفت الشعراء إلى معالم قرطبة ، فرأوا كيف حالت عن حالها ، وخربت دورها ، وانقضت معاهد صبوتهم فيها ، وانطقات فيها شمس بني أمية والنجوم العامرية ، فندبوا بمراثيهم ، ومن رثاها الوزير أبو عامر ابن شهيد ، فقال^٣ :

١ الصلة : ٢٩٨ وما بعدها

٢ اعمال الأعلام : ١٢٢

٣ اعمال الأعلام : ١٠٥

ما في الطلول من الأجنة مُخبرٌ
لا تسألن سوى الفراقِ فإنَّه

ويصف حال أهلها فيقول :

فلمثلِ قرطبةِ يقلُّ بكاءُ مَنْ
داراً أقالَ اللهُ عثرةَ أهلها
في كلِّ ناحيةِ فريقٌ منهمُ
عَهدي بها والشَّمْلُ فيها جامعُ
ورياحُ زهرتها تفوحُ عليهمُ
يا طيبهمُ بقصورها وخدورها
والقصرُ قصرُ بني أميةَ وافرُ
والزاهريَّةُ بالمراكبِ تزهرُ
والجامعُ الأعلى يفصُّ بكلِّ مَنْ
ومسالكُ الأسواقِ تشهدُ أنَّها
يا جنةَ عَصَفَتْ بها وبأهلها
آسى عليكِ من المماتِ وحقَّ لي

ورثاها ابن حزم نثراً وشعراً حين وقف على منازل أهله ورآها : « وقد
طمست أعلامها وخفيت معاهدها وغيرها البلى فصارت صحارى مجدبة
بعد العمران وفيافي موحشة بعد الأنس » ، فمن شعره فيها :

سلامٌ على دارِ رحلتنا وغُودِرتِ خلاءَ من الأهلين موحشةً قفرا

تراها كأن لم تغن بالأمس بلقماً
 فيها دار لم يقفرك منا اختيارنا
 ولكن أقداراً من الله أنفدت
 فيها خير دار قد تركت حميدة
 وبها دهرنا فيها متى أنت عائد
 سأنذب ذاك العهد ما قامت الحضرا
 ورثاها آخر بقصيدة منها^١ :

بك على قرطبة الزين
 أنظرها الدهر بأسلافه
 كانت على الغاية من حسنها
 فانعكس الأمر فما إن ترى
 فاغد وودعها وسير سالماً
 فقد دهتها نظرة العين
 ثم تقاضى جملة الدين
 وعيشها المستعذب اللين
 بها سروراً بين اثنين
 ان كنت أزمعت على البين

ولابن عصفور الحضرمي في رثائها قصائد كثيرة^٢ ، ورثاها آخر وجعل
 خرابها ميباً عن تهاون أهلها وتقصيرهم في تدبير أمرهم فقال^٣ :

أضعتم الحزم في تدبير أمركم
 لكن سبل العمى أعمت بصائركم
 يا أمة هتكت مستور سوءتها
 ما كل من ذل أعطى بالصغار يدا
 مستعلمون معاً عقيب البوار غدا
 فالبستكم ثياباً لليلي جددا

(٤) وربما لم يكن من البعيد عن الصواب أن نجعل زوال مجد قرطبة في

١ تطلق متى من فرحة الأفس لابن غالب الورقة : ١١٧ وابن عذاري ٣ : ١١٠

٢ الصلاة ١ : ٢٥

٣ ابن عذاري ٣ : ١١٠

هذه الفتنة مسؤولاً عن نمو ظاهرتين أدبيتين ، الأولى : الميل إلى التراجم الذاتية ، فإن هذه التراجم إنما انبثقت من الشعور بجمال الماضي ، وتغير الحاضر ، وتقلب الأحوال في قرطبة ، ويمثل هذه الناحية كتاب طوق الحمامة لابن حزم ورسالة كتبها ابن شهيد إلى المؤتمن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر ، عن ذكرياته في ظل الدولة العامية^١ ، وكلاهما من أجمل الأدب الأندلسي الأصيل . والظاهرة الثانية هي استقواء التزعة النقدية بعيد الفتنة ، لتخلخل المقاييس واضطرابها في الحياة الاجتماعية والأدبية معاً ، ومن الطريف أن الاثنتين اللذين أبديا شيئاً من الوعي الذاتي في تراجمهما الذاتية هما اللذان أبرزوا حركة النقد ، أعني ابن شهيد وابن حزم ، وقد مرّ النقد قبلهما بحلقات المؤدبين ، ووردت بعض النظرات النقدية في العقد لابن عبد ربه ، ثم أصبح الناقد الأول في الدولة أيام المنصور هو الحكم الذي يتزل الشعراء منازلهم ويصنفهم في مراتبهم ، وعاد النقد من جديد بعد الفتنة إلى حلقات المؤدبين أيضاً ، فحاول ابن شهيد بخاصة انتراعه من تلك البيئة ، وكانت جهوده وجهود صديقه ابن حزم في هذه جواباً على مشكلتين : مشكلة عامة ، ومشكلة خاصة . أما العامة فهي : ما موقف الأندلس عامة من الحياة الأدبية وهل فيها من يمكن أن يوضع إزاء شعراء المشرق ؟ وكان جواب هذا السؤال أن كتب ابن حزم رسالة في فضل الأندلس ، وميز في جملة ما ميزه من أسباب فضلها الشعر والشعراء فيها ، وحكم على الشعراء أحكاماً متباينة ، وقدم من اعتقد أنه يستحق التقديم ، وكتب ابن شهيد كتابه حانوت عطار ، وترجم فيه ، مستغلاًً مقدرته النقدية ، لشعراء معاصرين ، ولا تخلو نظراته في هذا الكتاب من بصر نافذ بالشعر ، حسب مقياسه النقدية . وأما المشكلة الخاصة فهي مشكلة ابن شهيد نفسه ، ما مترلته بين أدباء بلده وأدباء المشرق ؟ وهل

١ النخيرة ١ / ١ : ١٦٣ ، وانظر الفصل الخاص بترجمة ابن شهيد في هذا الكتاب .

من الضروري لأديب مثله التوسع في القراءة أو هناك ما يعني عن ذلك ؟ وكانت هذه المشكلة هي التي دفعته إلى كتابة رسالة التوابع والزوابع ورسائل أخرى ، وربما كان كتابه كشف الدك وإيضاح الشك منبثقاً عن هذه المشكلة أيضاً .

(أ) ابن شهيد والنقد

على أن العنصر النقدي في التوابع والزوابع محدود لا يتعدى مجال ما استحسنته ابن شهيد من شعر هذا الشاعر أو ذلك ، ثم نماذج يعتقد تقديمها من شعره هو نفسه ومن نثره ، ويقارن بين بعض المعاني المتشابهة عند الشعراء ويضع في رسالته قاعدة للأخذ فيقول : « إذا اعتمدت معنى قد سبقك إليه غيرك فأحسن تركيبه وأرق حاشيته فأضرب عنه جملة وإن لم يكن بد ففي غير العروض التي تقدم إليها ذلك المحسن تنشط طبيعتك وتقوى متك »^١ . وقد كانت مشكلة الأخذ هذه - فيما يبدو - من أكبر المسائل التي شغلت ابن شهيد ، لأنها أساس من الأسس التي تعتمد عليها طريقته الشعرية ، فليس عجباً إذن أن يمدح أبا المطرف عبد الرحمن بن أبي الفهد بقوله : « وهو غزير المادة واسع الصدر حتى إنه لم يكذب بقبي شعراً جاهلياً ولا إسلامياً إلا عارضه وناقضه ، وفي كل ذلك تراه مثل الجواد إذا استولى على الأمد ، لا يني ولا يقصر ، وكان مرتبته في الشعراء أيام بني أبي عامر دون مرتبة عبادة في الزمام ، فاعجب »^٢ . وكان أيضاً شديد الإعجاب بالبديهة إلى جانب إعجابه بالمعارضة ، ولذلك وقف في حانوت عطار وقفات خاصة عند

١ النخيرة ١ / ١ : ٢٤٤

٢ الجذوة : ٢٥٨ - ٢٥٩

الشعراء الذين ينظمون الشعر على البديهة . وما ذلك إلا لقدرته هو أيضاً على هذا الفرع من الشعر ومن ثم نسمعه يقول : « وإنما يتبين تقصير المقصر وفضل السابق المبرز إذا اصطكت الركب وازدحمت الحلق واستعجل المقال ولم توجد فسحة لفكرة ولا أمكنت نظرة لروية »^١ .

والمشكلة الكبرى عند ابن شهيد هي : هل من الميسور أن يُعلّم الناس البيان ؟ وإذا كان ذلك مستطاعاً ، فلم يتفاوت الناس فيما يتلقونه منه ؟ وموقف ابن شهيد من هذه المشكلة غير واضح ، فهو حيناً يرى البيان موهبة من الله ، ويعلي من قدر الموهبة ويجعلها تعويضاً عن الاطلاع ، وينشئ رسالة التواضع ليدل على قيمة هذه الموهبة ويتهمك بالمؤدبين ويدل على افتقارهم إليها . وحيناً آخر يزعم أن البيان قد يُعلّم وإن كان ذلك أمراً صعباً ، ويشترط أن يكون تلامذته من أهل النجابة والثابرة ، وخذ هؤلاء عنده قابلية الطبع ، وطبع الإنسان متركب من نفس وجسم ، فغلبة الأولى على الثاني تجعل المرء مطبوعاً روحانياً ، وغلبة الجسم على النفس تضيق الفرصة في تعلم البيان . وكل امرئ محتاج في تعلم البيان إلى شيئين : الطبيعة والآلة ، وقد تكون الآلة متيسرة - كما هي عند المؤدبين - فإذا اختلت الطبيعة ظهر الاختلال في أصل البيان . وهاهنا مقياس للروحانية التي يفترضها ابن شهيد ، وهو أن كل ما يصدر عنها يكون موشحاً بالحسن وإن لم يكن مبنياً على غرابة بل هذه هي الغرابة بعينها أي « أن يتركب الحسن من غير حسن » كقول امرئ القيس :

تنورتها من اذرعات واهلها بيثرب أدنى دارها نظر عالي

وكان ابن شهيد ينظر هنا إلى حسن التأليف والتعبير ، وهذا - في رأيه - يعتمد على القرابة بين الحروف ، والمناسبة بين الكلمات ، فإذا راعى الأديب

١ الذخيرة ١/١ : ٢٠٩

هذه الصلوات فإنه يستطيع أن يأتي بشعر حسن المنظر والمخبر ، وعليه ألا يتهيب استعمال الغريب من الألفاظ ، وإنما يتجافى عن الغريب النافر ، فإذا أحسن وضع الغريب في مواضعه اللاتقة به تم به الكلام ، وكل هذا محتاج إلى تذوق ودربة . ولا يحسن أحد أن تعليم البيان بعد هذا كله يصبح سهلاً ، إذ المدار على الفهم بعد الاستعداد النفسي عند المتعلم ، على أن يكون المعلم نفسه قادراً على « تفجير صفاة غيره » وذلك بفهمه التبيين والتبين وأن يكون واعياً بمدى الاستعداد عند كل تلميذ من تلامذته ، عارفاً بخصائص كل واحد فيهم .

ويعتقد ابن شهيد أن النموذج الواسع من الشعر أو من النثر لا يصلح أن يتخذ لكل العصور ، فأهل كل فترة يهشون إلى نوع من الأنواع . ومن الملاحظ أن الصنعة تزايدت على مر العصور ، حتى إذا كان عصر ابن شهيد ، أصبح الناس يتعشقون التجنيس كثيراً ويمججون كل ما عداه ، أما هو فيرى ضرورة الاعتدال والتوسط والأخذ من طريقة العرب وطريقة المحدثين معاً دون انحياز إلى إحداهما . ويجعل المنشئين أصنافاً ثلاثة ومن خرج عن نطاقهم لا يعد أديباً :

الأول : الذين يستطيعون توليد المعاني وابتكارها ثم يعجزهم الشكل

فيسيئون التعبير ويقصرون دون إدراك « بهاء البهجة » .

الثاني : أصحاب الحدة البيانية الذين يبنون الكلام على الاندفاع

والانصباب وهم يلائمون بين الفكرة الصعبة ومائة الشكل

ويجترئون على ضرب هذه بتلك ، ويخلقون من امتزاجهما

شيئاً عجياً .

الثالث : صنف ماهر في التلفيق والتلزيق ، ذو صنعة مقبولة وقريحة

منحيلة تغطي على نقص الفكرة وتسد الخلل .

ولا ريب في أن ابن شهيد وضع هذه القواعد والمقاييس من نظره إلى قدرته وطريقته ، وهو يخرج كثيراً عن حدود الناقد التريه إلى السخرية والذم وبخاصة إذا تذكر أنه متقوص الحظ في عصره ، فيغمز هذا وذاك ، ويعيب أهل بلده جملة بقوله « ولكني عدت بيلدي فرسان الكلام ، ودهيت بغاوة أهل الزمان »^١ .

(ب) ابن حزم والنقد

وقد كانت أسباب النقد التريه متوفرة عند ابن حزم أكثر من توفرها عند ابن شهيد ، لتحريه وجه العدالة ودقته في الحكم وسعة اطلاعه وغزارة معارفه ، إلا أن ثمة أمرين حدّاً من جهوده في هذه الناحية : الأول ، مذهبه في الشعر جملة ، فهو وإن كان يميز فيه الجيد من الرديء ، إلا أنه لا يضع له حدوداً ، فالشعر لديه يستطيع أن يستوعب كل شيء ، حتى شرح مذهبه الفقهي ، وتعاليمه الخلقية ، ومثل هذا الاتجاه لا يمكنه من تبيين الحدود الجمالية له . والثاني : أن اشتغاله بالفقه والحديث والجدل والأنساب والتاريخ أبعدته عن دائرة الأدب ، وخضع في نظرته للشعر إلى عوامل التوجيه الأخلاقي ، وإلى فلسفته الدينية ، التي كانت تقوم العلوم بحسب تقريبها لصاحبها من الله ، فذلك هو مقياسه في النظرة إلى الأشياء والأعمال .

وكان من أثر العامل الأول أن أصبح ابن حزم غير جاد في بناء منهج نقدي واضح ، كالذي فعله ابن شهيد ، بل كان يتلقى بعض النظرات النقدية بالقبول ، دون محاسنتها ، مثال ذلك : إيمانه بأن الإكثار من عدد التشبيهات في البيت الواحد أمر يستحق أن يعنى به المتضمن ، فهو يقول في التعليق على هذا البيت من شعره :

١ الذخيرة ١/١ : ٢٢٩

فكأنها والليل نيرانُ الجوى قد أضرت في فكري من حِندسِ

« وقع لي في هذه الأبيات تشبيه شيئين بشيئين ، وهذا مستغرب في الشعر ، ولي ما هو أكل منه ، وهو تشبيه ثلاثة أشياء في بيت واحد وتشبيه أربعة أشياء في بيت واحد ... الخ »^١ .

وكان من أثر العامل الثاني أن أخضع الشعر للمقياس الخلفي ، وحكم عليه بغايته ونوع الاستثارة الصادرة عنه . فقال في رسالته مراتب العلوم : « وإن كان مع ما ذكرنا رواية شيء من الشعر فلا يكن إلا من الأشعار التي فيها الحكم والخير ، كأشعار حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله ابن رواحة ، رضي الله عنهم ، وكشعر صالح بن عبد القدوس ونحو ذلك فإنها نعم العون على تنبيه النفس ، وينبغي أن يتجنب من الشعر أربعة أضرب : أحدها : الأغزال والرقيق فلأنها تحث على الصباية وتدعو إلى الفتنة وتحض على الفتوة ، وتصرف النفس إلى الخلاعة واللذات وتسهل الانهماك في الشطارة والعشق وتنتهي عن الحقائق حتى ربما أدى ذلك إلى الهلاك والفساد في الدين وتبذير المال في الوجوه الذميمة وإخلاق العرض وإذهاب المروءة وتضييع الواجبات . وإن سماع شعر رقيق لينقض بنية المرء الرائض لنفسه حتى يحتاج إلى إصلاحها ومعاناتها برهة ، لا سيما ما كان يعنى بالملذوكر وصفة الخمر والخلاعة ، فإن هذا النوع يسهل الفسوق ويهون المعاصي ويردي جملة .

والضرب الثاني : الأشعار المقولة في التصعلك وذكر الحروب كشعر عنزة وعروة بن الورد وسعد بن ناشب وما هنالك ، فإن هذه أشعار تثير النفوس وتهبج الطبيعة وتسهل على المرء موارد التلف في غير حق وربما أدته إلى هلاك نفسه في غير حق وإلى خسارة الآخرة مع إثارة الفتن وتهوين الجنايات

١ الطوق : ١٦

والأحوال الشنيعة والشره إلى الظلم وسفك الدماء .

والضرب الثالث : أشعار التغرب وصفات المفاوز والبيد المهامه فإنها تسهل التحول والتغرب وتنسب المرء فيما ربما صعب عليه التخلص منه بلا معنى .
والضرب الرابع : المهجاء فإن هذا الضرب أفسد الضروب لطالبه فإنه يهون على المرء الكون في حالة أهل السفه من كناسي الحشوش والمعاناة لصنعة الزمير المتكسبين بالسفاهة والنذالة والحساسة وتمزيق الأعراض وذكر العورات وانتهاك حرم الآباء والأمهات وفي هذا حلول الدمار في الدنيا والآخرة .
ثم صنفان من الشعر لا ينهى عنهما نهياً تاماً ولا يُحصَر عليهما بل هما عندنا من المباح المكروه وهما : المدح والثناء ، فأما إباحتهما فلأن فيهما ذكر فضائل الموت والمدوح ، وهذا يقتضي للراوي ذلك الشعر الرغبة في مثل ذلك الحال ، وأما كراهتهما فإن أكثر ما في هذين النوعين الكذب ولا خير في الكذب ^١ .

ومع إعجابنا بهذا الكلام الصريح والتقسيم الواضح ، نرانا في دهشة لهذا الوضع الذي أحل فيه الشعر ، وهذا التقييد الذي ألزمه فنونه ، وممّا يكمل موقف ابن حزم في النقد فقرتان وردتا في كتاب التقريب لحدّ المنطق تحدث فيهما عن البلاغة والشعر فقال في تحديد البلاغة :

« قد تكلم أرسطوطاليس في هذا الباب ، وتكلم الناس فيه كثيراً ، وقد أحكم فيه قدامة بن جعفر الكاتب كتاباً حسناً وبلغنا حين تأليفنا هذا [الكتاب] أن صديقنا أحمد بن عبد الملك بن شهيد ألف في ذلك كتاباً ، وهو من المتمكنين من علم البلاغة والأقوياء فيه جداً ، وقد كتب إلينا يخبرنا بذلك ، إلا أننا لم نر الكتاب بعد ، فغنينا بالكتب التي ذكرنا عن الإيغال في الكلام في هذا الشأن ، ولكننا نتكلم فيه بإيجاز جامع فتقول ،

١ رسائل ابن حزم : ٦٥ - ٦٧

وبالله تعالى نتأيد : البلاغة قد تختلف في اللغات على قدر ما يستحسن أهل كل لغة من مواقع ألفاظها على المعاني التي تتفق في كل لغة ، وقد تكون معدودة في البلاغة ألفاظ مستغربة ، فإذا كثر استعمالها لم تعد في البلاغة ولا استحسنت ، ونقول : البلاغة ما فهمه العامي كفهيم الخاصي وكان بلفظ يتنبه له العامي لأنه لا عهد له بمثل نظمه ومعناه . . . وهذا الذي ذكرنا ينقسم قسمين : أحدهما مائل إلى الألفاظ المعهودة عند العامة كبلاغة عمرو بن بحر الجاحظ ، وقسم مائل إلى الألفاظ غير المعهودة عند العامة كبلاغة الحسن البصري وسهل بن هارون ، ثم يحدث بينهما قسم ثالث آخذ من كلا الوجهين كبلاغة صاحب ترجمة كليله ودمنة - ابن المقفع كان أو غيره - وأما نظم القرآن فإن منزلته تعالى منع من القدرة على مثله وحال بين البلغاء وبين المجيء بما يشبهه ، وقد كان أحدث ابن دراج عندنا نوعاً من البلاغة ما بين الخطب والرسائل . وأما المتأخرون فإننا نقول إنهم مبعدون عن البلاغة ومقربون من الصلف والتريد ، حاشا الخاتمي وبديع الزمان ، فهما مائلان إلى طريقة سهل ابن هارون .

ويقول في الشعر :

« الشعر ينقسم ثلاثة أقسام : صناعة وطبع وبراعة . فالصناعة هي التأليف الجامع للاستعارة بالأشياء والتحليق على المعاني والكتابة عنها ، وربُّ هذا الباب من المتقدمين زهير بن أبي سلمى ومن المحدثين حبيب بن أوس . والطبع هو ما لم يقع فيه تكلف وكان لفظه عامياً لا فضل فيه عن معناه حتى لو أردت التعبير عن ذلك المعنى بمثور لم تأت بأسهل ولا أوجز من ذلك اللفظ ، وربُّ هذا الباب من المتقدمين جرير ومن المحدثين الحسن (بن هاني) ، والبراعة هي التصرف في دقيق المعاني وبمبيدتها ، والإكثار فيما لا عهد للناس بالقول فيه ، وإصابة التشبيه وتحسين المعنى اللطيف ، وربُّ هذا

الباب من المتقدمين امرؤ القيس ومن المتأخرين علي بن عباس الرومي . . .
ومن أراد التمهير في أقسام الشعر ومختاره وأفانين التصرف في محاسنه ، فليُنظر
في كتاب قدامة بن جعفر في نقد الشعر ، وفي كتب أبي علي الحاتمي ^١ .
وهذه الأحكام على ما فيها من بساطة وإيجاز لا تخلو من نظرات نقدية
دقيقة ، فإن التفرقة بين بلاغة الجاحظ والحسن والاهتداء إلى السر في ذلك ،
واشتقاق أسلوب ثالث من اجتماعهما مما لا يدركه إلا الناقد البصير ، ومن
المدهش أيضاً الجمع بين امرئ القيس وابن الرومي ، وإغفال المتنبي من
الأقسام الثلاثة .

ولابن حزم رأي أيضاً في اتفاق الشعراء في المعنى الواحد اتفاقاً لفظياً ،
قال :

« والذي شاهدناه اتفاق شاعرين في نصف بيت ، شاهدنا ذلك مرتين
من عمرنا فقط ، وأخبرني من لا أثق به أن خاطره وافق خاطر شاعر آخر في
بيت كامل واحد ولست أعلم ذلك صحيحاً . . . والشعر نوع من أنواع
الكلام ولكل كلام تأليف ما ، والذي ذكره المتكلمون في الأشعار من الفصل
الذي سموه « الموارد » وذكروا أن خواطر الشعراء اتفقت في عدة أبيات
فأحاديث مفتعلة لا تصح أصلاً ولا تتصل ، وما هي إلا سرقات وغارات
من بعض الشعراء على بعض ^٢ .

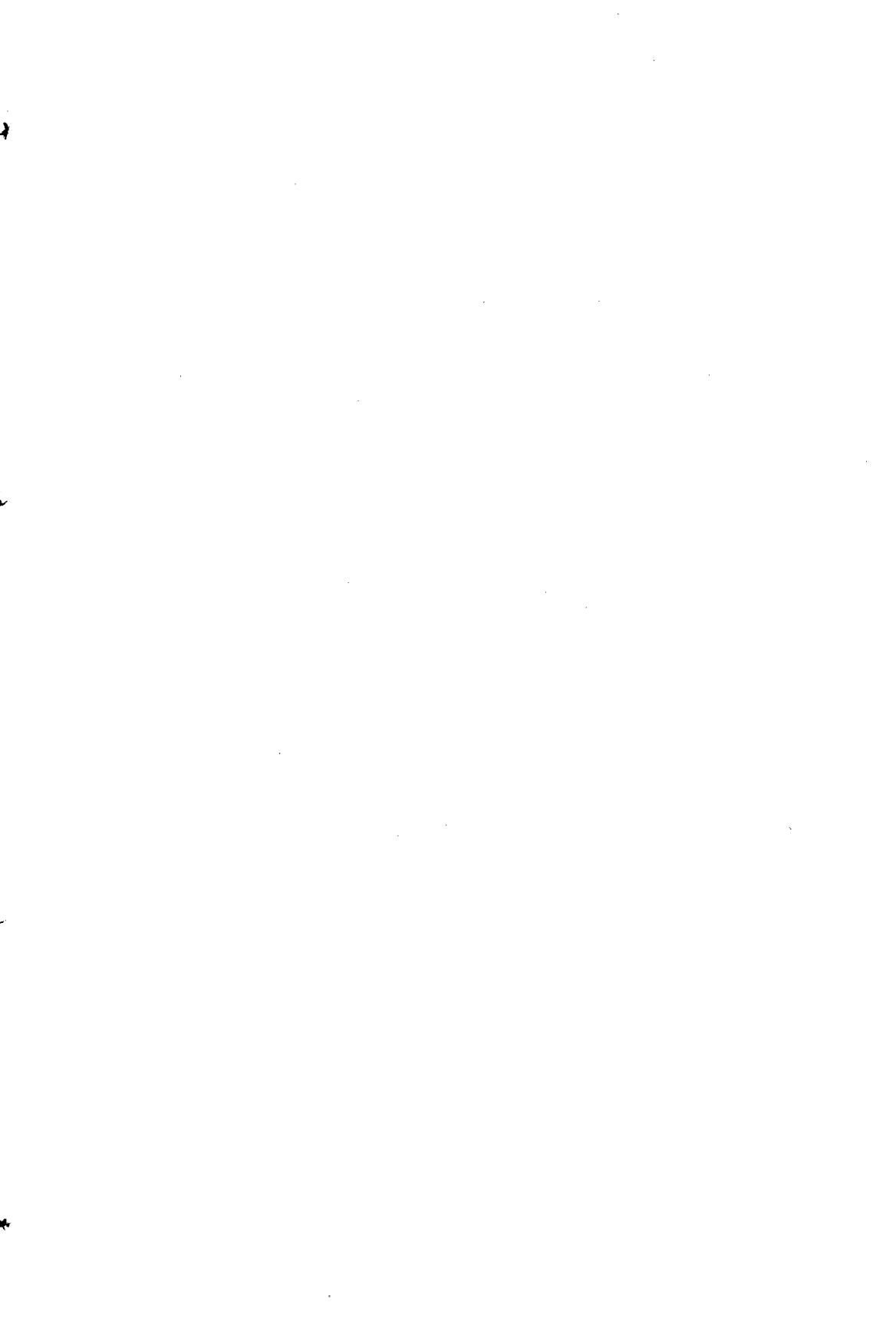
ولكن من هذا يتجلى لنا كيف أخطأ النقد طريقه مرتين : مرة حين كان
مقياساً ذاتياً ، ومرة حين اتخذ مقياساً عاماً ، ولا علينا من هذا الخطأ ، فنحن
إنما ننظر إلى قواعد نقدية تمخضت عنها الأندلس بُعيد الفتنة وزوال سيادة
قرطبة ، وهي حركة أوسع من تلك النظرات النقدية العابرة التي كانت تمر

١ التقريب : ٢٠٤ - ٢٠٨

٢ الأحكام ١ : ١٠٨

بنا فيما سبق . وغني عن القول ان ابن شهيد كان أقوى أثراً من ابن حزم
في توجيه الحياة الأدبية ، لأن الثاني جاء بمقاييس غير عملية ، لعدم أكثر
فنون الشعر ، ولا تبقي إلا على الشعر التعليمي . ومع ذلك فإن ابن حزم كان
قوة جديدة في تحقيق الشخصية الأندلسية مرتين : مرة بتسجيله لنواحي التمييز
الأدبي فيها ، ومرة بإعطائها مذهباً يجعلها مستقلة تماماً عن المشرق ، فهو
أقوى من تم الاتجاه الذي بدأه الحكم المستنصر .
هذا وقد تركت الفتنة آثارها في شعر ثلاثة من مشاهير شعراء الأندلس ،
وهم ابن دراج القسطلي وابن شهيد وابن حزم ، وسندرس كل شاعر منهم
في الفصل الخاص بالشعراء .

الشعراء الأندلسيون في هذا العصر



شعراء فترة الإمارة

(٢٠٠ - ٣٠٠)

أكثرهم من شعراء المؤدبين مثل عباس بن ناصح والقلفاط ومؤمن بن سعيد وعبيد بن الكاتب ، ومنهم من يقع الشعر لديه موقفاً ثانوياً كابن الشعر المنجم وعباس بن فرناس التاكرني (- ٢٧٤) وكان متفلسفاً منجماً صاحب نيرانجات واختراعات كحماولته الطيران واتخاذ الزجاج من الحجارة وفك الموسيقى والعروض^١ . ومع أن يحيى الغزال كان « عرافاً » أيضاً فإن الشعر أبرز أدواته وهو أعلى من جميع معاصريه مرتبة في الشعر . وفي هذه الفترة تميز ابن عبد ربه ولكنه عاش حتى أدرك عصر الخلافة ولذلك سندرسه ممثلاً للفترة التالية .

وقد عدَّ ابن حيان في المقتبس الشعراء الذين كانوا في عصر الأمير عبد الله فذكر ابن عبد ربه ثم قال : وكان المصلي في حلبة الشعراء أيام الأمير عبد الله بعد أحمد بن عبد ربه ، عبيد الله بن يحيى بن إدريس الخالدي أحد بيوتات الشرف المولدين في هذه الدولة المروانية ، وكان من سراة الناس وأدبائهم وعلمائهم ، مال به طبعه إلى صوغ القريض فأبدع فيه جداً ، وجارى ابن عبد ربه فلم يبعد عن تجويده وكان يعارضه كثيراً في حسان قصائده ولا يقصر عن مداه^٢ . وأدرك عبيد الله هذا عهد الناصر والحكم وله شعر كثير

١ المغرب ١ : ٣٣٣ والجدوة : ٣٠٠

٢ المقتبس : ٤٤ (نشر انطونية) .

لم يصلنا . وعدّ ابن حيان أيضاً القلقاط وابن قلزوم ومقدم بن معاني القبري وقاسم بن عبد الواحد العجلي وسعيد بن عبد ربه وإسحاق المنادي وزيد بن ربيع الحجري وعفير بن مسعود راوية شعر عباس بن ناصح وغيرهم . وأكثر هؤلاء أدرك عصر الخلافة أيضاً .

وأكثر هؤلاء الشعراء كان يتخذ قرطبة موطناً له لأنها أقدر على إظهار مواهبهم ، وفيها منتجع رزق لهم ، ومع ذلك فكانت هناك « بحيرات » صغيرة أو « جزائر » من النشاط الشعري تجذب إليها الشعراء .

ففي أيام الأمير عبد الله كان إبراهيم بن حجاج شخصية واسعة النفوذ بإشبيلية حتى حاول الاستقلال عن الدولة ، وأصبحت تلك المدينة تنافس قرطبة في اجتذاب الشعراء إليها ، فقصدوه من كل وجه ، وكان منهم ابن عبد ربه والقلقاط ، ولكننا لا نعرف شيئاً عن شعراء من إشبيلية نفسها . وفي تلك الأيام أيضاً كان ذلك النشاط الواضح للشعر في الصراع بين المولدين والعرب بمنطقة البيرة . وفي جبل شمتان (سمنتان في المغرب) أقام عبيد الله ابن أمية ابن الشالية (الشالية في المغرب) إمارة مستقلة أيام الأمير عبد الله أيضاً ، وكان عبيد بن محمود الشاعر مكثرأ من مدحه واصفاً لمبانيه ومغازيه ، ومن ذلك قصيدته التي هنا فيها بعض الفتوح وأولها :

جاء البشيرُ بما عمّ السرورُ به عن الأمير أبي مروان في السفَرِ

قال ابن حيان في ذكر ابن الشالية : له أفضال على الشعراء والأدباء قلهم فيه مديح سائر ، وكان من أحدهم لانتجاعه وأنطقهم بشكره عبيد بن محمود الشاعر ، وشعره فيه كثير مستحسن^٢ . وكان عبيد بن أول

١ المقتبس : ١٠ (نشر انطونية) وانظر ترجمة عبيد بن عمرو في المغرب ٢ : ٦٩ والجزيرة :

٢٧٨ والبنية رقم : ١١٣٥ والحلة : الورقة ١١٥

٢ المقتبس : ٩ (انطونية) .

أمره من جملة كتاب القصر بقرطبة ، وفي أول عهده كان مداحاً للأمير عبد الله نفسه ثم هاجر إلى جوار ابن الشالية وفارقه حين أحس بتغيره عليه ولجأ إلى ابن حفصون^١ ، وله انتجاع إلى سعيد بن جودي أمير العرب ومدائح فيه^٢ ، ويمثل عبيدس الشاعر الذي ربط مصيره بغير واحد من الثائرين المنتزعين على الدولة الأموية .

وأكثر شعر هذه الطبقة ما يزال يحمل علامات الفجاجة والتعبير المرسل عفو الخاطر دون صقل ، وليس يتضح لديهم الاقتتان بالصور ، وإن لم يبعثوا عن تقليد الشعر المحدث ؛ على أن بعضهم اختار طريقة العرب الأوائل في نظمه ، وفي مقدمة هؤلاء عباس بن ناصح الجزيري المكنى بأبي العلاء أو أبي المولى ، وهو ثقيفي بالولاء إذ كان والده عبداً لمزاحمة بنت مزاحم الثقفي ، وهو مسمودي الأصل ، رحل به أبوه صغيراً فنشأ بمصر ، وتردد بالحجاز يطلب اللغة ، ثم ارتحل به أبوه إلى العراق فلقى الأصمعي وغيره من علماء البصريين والكوفيين ، وعاد بعد ذلك إلى الأندلس . ويقال إنه عندما سمع بظهور أبي نواس ارتحل مرة أخرى إلى العراق للقائه ، وقد شرح الزبيدي قصة هذا اللقاء وكيف أن أبا نواس استنشد عباساً وشهد له بالتقدم في الشعر . وبعد عودته إلى الأندلس أخذ يتردد إلى قرطبة مداحاً للأمير الحكم بن هشام ، كما كان يجلس أحياناً في مسجد قرطبة حيث يجتمع حوله طلاب الأدب يستمعون إلى شعره أو إلى بعض الفوائد اللغوية ؛ ولعباس أخبار تدل على حميته وجانب من نشاطه السياسي ، إذ يروى أنه كان بمدينة الفرج من وادي الحجارة فسمع امرأة تستغيث قائلة : « واغوثاه يا حكم » ، فلما سألتها عن أمرها ذكرت أن كتيبة للأعداء أغارت عليهم فقتلت وأسرت ، فصنع عباس قصيدة مطلعها :

١ المقتبس : ٤٥ والمغرب ٢ : ٦٩

٢ المقتبس : ١٢٥ (انطونية) .

تلملتُ في وادي الحجارة مسهراً أراعي نجوماً ما يردن تغوراً

وذكر فيها القصة ، فأثارت قصيدته الحكم إلى الجهاد وإغاثة المرأة وقومها سنة ١٩٤ . وفي مرة أخرى نجم بالجزيرة الخضراء جماعة من الخوارج فكتب عباس شعراً إلى الحكم يغري بهم^٢ ، ولما تعرض عباس للخدمة ولاء الحكم قضاء الجزيرة الخضراء وشدونة ؛ وقد عدّه الرازي فحل شعراء الأندلس في عصره^٣ ، واعتنى عفير بن مسعود بجمع شعره ، أخذه عن بعض ولده ، وكان الأمير عبد الله يحفظه ويعرف ما قيل منه بالمشرق وما قيل بالأندلس ويحكي من أخبار عباس ما لا يحكيه أهله ولا رواه^٤ ؛ وعنوان شعره قوله في وصف الشعر :

متقارب متباعد أباته رُجِحُ مثقفة البناء رزان
وسماعهن كطعم ماء بارد عذب أغيث تبرده ظمان
بنيت مباديها على أعجازها فتنظمت يسمو بها البنيان
كقداح مصطنع أعد قذاذها لنصالحها قدراً وهنّ متان
متلقيات ما يبل رميها ذلّت كأن طباطها الشهبان

ولعلّ من المصادفات أن يجتمع في هذا العصر ثلاثة من شعراء الفكاهة الساخرة وهم الغزال ومؤمن بن سعيد والقلفاط ، وهم الذين سنتولى دراستهم بشيء من التفصيل .

١ ذكر بلاد الأندلس : ١٠٨ (مخطوط) والنفع ١ : ٣٢١ (ط . عبد الحميد) وابن عفار

٢ : ١٠٩

٣ ابن القوطية : ٧١

٤ ترجمته في ابن الفرصي ١ : ٣٤٠ وطبقات الزبيدي : ٢٨٤ والمغرب ١ : ٣٢٤ وبنية

الوعاة ٢ : ٢٨

٥ المقتبس : ٣٦ (انطونية)

٦ كتاب التشبيهات : ١١١

١ - يحيى بن حكم الجياني

الملقب بالغزال

١٥٦ - ٢٥٠ هـ

المطرب : ١٢٥ - ١٤١ ، والخزوة : ٣٥١ ، والنفع : ١ : ٤٤٩ ، والمغرب : ٢ : ٥٧ ،
وبيئة المتنس رتم : ١٤٦٧ .

كان عمره حين توفي عبد الرحمن الداخل ستة عشر عاماً ، ثم شهد
عهد هشام بن عبد الرحمن (١٧٢ - ١٨٠) والحكم ابنه (١٨٠ - ٢٠٦)
وعبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ - ٢٣٨) وصدرأ من اماره محمد بن عبد
الرحمن ، ويبدو أنه ذكر ذلك في أرجوزته التاريخية فقال ^١ :

أدركت بالمصر ملوكاً أربعة وخامساً هذا الذي نحن معه

ومعنى ذلك أنه عاصر كثيراً من أحداث الأندلس ، وربما تمرس ببعض
الحوادث ، وكان عمره يوم الهيج الثاني لأهل الرض (٢٠٢) ستاً وأربعين
سنة ، ولكن الأخبار عنه قبل مجيء عبد الرحمن بن الحكم إلى الحكم مجهولة
على نحو غريب يبعث على الدهشة ، وفي مطلع إمارة عبد الرحمن قدم
زرياب إلى الأندلس ، وتقول الروايات إن الغزال لم يرتح إلى هذا القادم
فهجاه هجاء مقذعاً ، لسبب لا ندره ، فغضب منه عبد الرحمن عندما شكاه
إليه زرياب فأمر بنفيه عن الأندلس فكلمه فيه أكابر دولته فعفا عنه ، وتضيف

١ النفع : ١ : ٤٤٩

حدى الروايات أنه لم يطب نفساً بالمقام في بلده فهاجر إلى المشرق ، بعيد وفاة أبي نواس ، وأنه أقام مدة يتجول في البلاد المشرقية ثم حنَّ إلى وطنه فعاد وهو قد شارف الستين . ولكن ليس هناك من الأسباب المقنعة ما يجعلنا نعتقد صحة هذه الرواية أو أن الغزال رأى المشرق أبداً .

وولاه الأمير عبد الرحمن قبض الأعشار ببلاط مروان واخترانها في الأهراء استجابة لرغبة عبر عنها في إحدى قصائده^١ . وفي ذلك العام ارتفعت الأسعار فباع الغزال كل ما لديه من مخزون ، ثم نزل المطر ورخص الطعام ، فلما علم الأمير بما فعله الغزال أنكره وقال : « إنما تعد الأعشار لنفقات الجند والحاجة إليها في الجهد ، فماذا صنع الحبيث ؟ خذوه بأداء ما باع من أثمانها واشتروا به طعاماً » ، وأبى الغزال أن يدفع ثمن ما باعه وقال : « إنما اشتري لكم من الطعام عدد ما بعث من الأمداد » ، فأمر الأمير بحمله مقيداً وسجنه بقرطبة ، ومن السجن رفع الغزال إلى الأمير قصيدته التي مطلعها :

بعض تصايك على زينب لا خير في الصبوة للأشيب

وقد مدح فيها الأمير بالعدالة والهيبة فقال :

مَنْ مَبْلُغٌ عَنِّي إِمَامَ الْهُدَى الْوَارِثَ الْمَجْدِ أَبَا عَنِّ أَبِ
أَيُّ إِذَا أَطْنَبَ مَدَّاحُهُ قَصَدْتُ فِي الْقَوْلِ فَلَمْ أَطْنِبْ
لَا فَكَّ عَنِّي اللَّهُ إِنْ لَمْ تَكُنْ أَذْكَرْتَنَا مِنْ عُمَرَ الطَّيِّبِ
وَأَصْبَحَ الْمَشْرِقُ مِنْ شَوْقِهِ إِلَيْكَ قَدْ حَنَّ إِلَى الْمَغْرِبِ
مِنْبَرُهُ يَهْتِفُ مِنْ شَوْقِهِ إِلَيْكَ بِالسَّهْلِ وَبِالْمَرْحَبِ
أَطْرَبُهُ الْوَقْتُ الَّذِي قَدْ دَنَا وَكَانَ مِنْ قَبْلِكَ لَمْ يَطْرَبِ

١ راجع المطرب : ١٢٨ وفيه أيضاً تفصيل لسفارة الغزال عند ملك النورماندين ١٣٠ - ١٣٦

هفا به الوجدُ فلو مِنبرٌ طارَ لوافي خَطْفَةَ الكوكبِ
إلى جميلِ الوجهِ ذي هيةٍ ليستَ لحامي الغابةِ المُغضَبِ
لا يُمكنُ الناظرُ من رؤيةٍ إلا التماحِ الخائفِ المذنبِ

ثم تعرض لذكر الطعام وبيعه والمال الذي قبضه فقال :

إن تُردِ المالَ فإني امرؤ لم أجمعِ المالَ ولم أكسبِ
إذا أخذتَ الحقَّ مني فلا تلتمسِ الربحَ ولا ترغَبِ
قد أحسنَ اللهُ إلينا معاً أن كان رأسُ المالِ لم يذهبِ

وواضح من هذا كيف أن الغزال لا يستعمل التذلل للاستشفاع ؛ وإنما
يعتمد على شاعريته في المدح وعلى روحه الفكاهية .

غير أن تأريخ هذه القصة بأنها حدثت في أيام عبد الرحمن مما يستدعي
شيئاً من التوقف ، فإننا لا نعلم قطعاً حدث في أيامه ، لكن هناك مجاعة حدثت
سنة ١٩٩ في أيام الحكم والد عبد الرحمن ، فلعل للحكاية صلة بها ، أو
لعل هناك قطعاً حدث في أيام عبد الرحمن نفسه ولم تحدثنا عنه كتب التاريخ
التي وصلت إلينا .

ومن أخباره في أيام عبد الرحمن صلته بقاضيين أخوين من بلده جيان ،
وهما يخامر الشعباني وأخوه معاذ ، أما الأول فقد ولي القضاء سنة ٢٢٠ ،
فعامل الناس بخلق صعب ومذهب وعر فانبرى له الغزال يهجوهُ ويصفه
بالبله والجهل ، ومن شعره يشير إليه :

فسبحان من أعطاك بطشاً وقوةً وسبحان من ولّى القضاء يخاميراً

ثم ولي معاذ القضاء سنة ٢٣٢ وكان طيباً ولّى أحباس قرطبة رجلاً
ظن فيه خيراً فخاب ظنه فقال الغزال^١ :

يقولُ لي القاضي مُعَاذُ مُشَاوِرًا وولي امرءاً فيما يرى من ذوي الفضلِ
فديتُكَ ماذا تحسبُ المرءَ صانعاً فقلتُ وماذا يصنعُ الدبُّ بالتحلِ
يدقُّ خلاياها ويأكلُ شَهدَها ويتركُ للذبانِ ما كانَ من فضلِ

كان الغزال حينئذ قد تجاوز الخامسة والسبعين وتهكمه بالقاضي وصاحب
الأحباس ممزوج بالحكمة . وفي هذه السن أو في قريب منها كان ما يزال
يروح ويحيى إلى عبد الرحمن في قصره ، وذات يوم دخل على الأمير فحياه
هذا بقوله^٢ :

جاء الغزال بحسنه وجماله .

وطلب إليه أن يميز فقال :

قال الأميرُ مداعباً بمقاله جاء الغزالُ بحُسنه وجماله
أين الجمالُ من امرئِ أرْبى على مُتَعَدِّدِ السبعينَ من أحواله
أين الجمالُ له الجمالُ من امرئِ ألقاهُ ريبُ الدهرِ في أغلاله
وأعاره من بعد جدتهِ بِلَى وأحال رَوْنَقَ وجهه عن حاله

وهي قصيدةٌ طويلةٌ ، لم يبق منها إلا هذه الأبيات التي تدل على
نسق جميل .

١. قضاة قرطبة : ٨٦ والتكملة : ٧٣٢ والعقد ١ : ٣٩٣ (ط . ١٢٩٣)

٢. ابن عذاري : ٢ : ١٣٩

سفارة الغزال إلى بلاد النورمان (أو إلى القسطنطينية)

ومن أبرز الحوادث في حياة الغزال سفارته عن الأمير الأندلسي ، وقد قال ابن سعيد إنه ذهب إلى ملك القسطنطينية^١ ، وأول من دوّن خبر هذه الرحلة هو تمام بن علقمة ، معاصر الغزال ، في تاريخ له ألفه ، وذكرها ابن حبان في كتاب المقتبس ، وعن أحدهما ، فيما يبدو ، نقل ابن دحية شيئاً من خبر تلك الرحلة مفصلاً في كتاب المطرب ، ولكنه جعل أحداث الرحلة تتصل بسفارة الغزال إلى بلاد المجوس (النورمان) واستغرقت هذه الرحلة بين سفر وإقامة مدة عشرين شهراً .

ففي سنة ٢٣٠ هـ هاجم النورمان تديون في نحو ثمانين مركباً شبه جزيرة البيرة سالكين الطريق البحرية من أشبونة إلى قادس ثم إلى شدونة ثم توغلوا حتى لإشبيلية ودخلوها قسراً وقتلوا كثيراً من أهلها واستمروا على ذلك سبعة أيام ، فلما سمع الأمير عبد الرحمن بذلك بعث بالجيوش لمهاجمتهم ، وتزايدت قوة المجوس بقدم عدد جديد من السفن ، وتغلغلوا إلى قرى أخرى في عمالة لإشبيلية ، وبعد أن فتكوا بالناس فتكاً ذريعاً عاد قسم كبير منهم إلى شدونة ثم إلى قادس . وفي أواخر صفر استطاعت جيوش عبد الرحمن أن تصيب في من بقي منهم مقتلاً عند قرية ظلياطة ، وقتل قائد أسطولهم وصاب بعض من أخذ منهم على جذوع النخل بإشبيلية ، كل ذلك حدث في خلال اثنين وأربعين يوماً ، ويبدو أنهم أحبوا الصلح بعد هذه المعارك ، فوفد رسول منهم على عبد الرحمن ، فوافق هذا على الصلح وانتدب الغزال ليذهب إلى بلادهم ، وبعث معه بهدية ثمينة ، وهبى له مركب حاذى به مركب الرسول ، وذهبوا جميعاً إلى بلاد المجوس . وفي عودته ، مرّ بشت يعقوب ، ثم صدر

على قشتالة ومنها إلى طليطلة ومنها إلى قرطبة .

إذن فإن هذه الرحلة قد تمت بُعيد سنة ٢٣٠ وعمر الغزال يومئذ ، إذا حسبنا أنه ولد سنة ١٥٦ ، كان يناهز الخامسة والسبعين ؛ إلا أن تمام بن علقمة الذي سجل تاريخ هذه الرحلة يقول إنه كان قد شارف الخمسين ، وعلى هذا فهناك خطأ ما في هذا الموقف ، إما في حقيقة سن الغزال أو في التاريخ الذي ذهب فيه إلى بلاد المجوس ؛ وللخروج من هذا الاضطراب علينا أن نفترض أن هناك سفارتين : السفارة الأولى كانت إلى القسطنطينية وعمر الغزال خمسون سنة ، والثانية كانت إلى بلاد المجوس وعمره قد تجاوز السبعين . والرحلة كما وصفها صاحب المطرب تتلخص في أن الغزال ذهب مع جماعة لم تذكر منهم المصادر إلا واحداً هو يحيى بن حبيب ، وهيأت له رحلته تجارب جديدة في الحياة ، واستخرجت كثيراً من الشعر ، فقي البحر قابله العواصف ، فوصفها الغزال ووصف تعلقهم بين الحياة والموت ، ولقدم لذلك بمطلع غزلي ثم قال :

قال لي يحيى وَصِرْنَا بين موجِ كالجبالِ
وتولتُنَا رِيحٌ من دَبُورٍ وشَمَالِ
شَقَّتِ القَلْعَيْنِ وانبَتَتْ عُرَى تلكَ الجبالِ
وتمَطَّى مَلَكُ الموتِ إلينا عن حِيالِ
فراينا الموتَ رأيَ الـ هَمِينِ حالاً بعد حالِ
لم يكنْ للقومِ فينا يا صديقي رأسُ مالِ

وفي هذه القطعة التحليلية الرقيقة تجسد الغزال لا يزال في أشد حالات الكرب تشف نفسه عن الفكاهة العذبة في قوله : « لم يكن للقوم فينا يا صديقي رأس مال » ، وعرفته هذه الرحلات على بلاد غربية وناس غرباء وعادات

يراها لأول مرة ، والحكايات التي تروى في هذه الرحلة ليست كلها من نسج الخيال وبخاصة رفض الغزال أن يسجد للملك المجوس ، ثم إعجاب ملك المجوس برأيه وحكمته ، ومجادلته للعلماء والحكماء هنالك ، إلا أن العنصر النسائي غالب على قصص تلك الرحلة ، وافتتان الغزال بزوجة الملك واسمها تود أو نودا - تصنعاً لا حقيقة - يدل على دهائه في التقرب إلى القلوب ، وإجادته السفارة السياسية ، وقد سئل الغزال : هل كانت الملكة من الجمال بالقدر الذي أظنبت فيه ؟ فقال لمحدثه تمام بن علقمة نفسه : « وأبيك لقد كان فيها حلاوة ولكني اجتلبت بهذا القول محبتها ونلت منها فوق ما أردت » . وقد خشي أصحاب الغزال عليه من كثرة ترده إلى الملكة أن يثير هذا الغيرة في نفس زوجها ، فلما قيل لها في ذلك قالت : « ليس في ديتنا نحن هذا ولا عندنا غيرة ولا نساؤنا مع رجالنا إلا باختيارهن تقيم المرأة معه ما أحببت وتفارقه إذا كرهت » .

ونوادره مع الملكة مبنية على خفة ظله وميله إلى الدعابة ، كأن تسأله عن سنه فيقول لها : عشرون ، فإذا أبدت دهشتها قال لها : وما تنكرين من هذا ؟ ألم تري مهراً يتتج وهو أشهب ؟ وربما تدخل في هذه الحكايات شيء من الخيال المشرقي عن الختان والحضاب وما أشبه . ويروي ابن سعيد أنها قد جاءت ذات مرة بجمر ، وطلبت إليه أن يشربها ، فأبى لأن ذلك لا يجوز في دينه ، ثم أدركته ندامة فقال من قصيدة يعبر عن ذلك ^٢ :

قللتُ حماقةً مني ونوَكًا فديتكِ لستُ من أهلِ الشَّمولِ
فأيةَ غيرةٍ سبحانَ ربِّي لو اتيتُ من أهلِ العقولِ

١ يعتقد الأستاذ بروفسال انها هي Theodora زوج توفلس وابنها هو الأمير الطفل ميشيل .

٢ المغرب ٢ : ٥٨

كان يجيبى بن الحكم في صباه جميلاً. ومن أجل جماله لقب بالغزال ، ويبدو أنه كان فارح الطول ، قوي البنية ، وقد احتفظ بقوة بنيته هذه وهو في سن عالية ، وقد وصفه معاصره تمام بن علقمة بأنه كان في اكتهاله وسيماً ، وأنه حين سفر إلى بلاد المجوس كان ما يزال مجتمع الأشد ضرب الجسم حسن الصورة ، وأنه كان قد وخطه الشيب ، وفي شيخوخته ما يزال الأمير عبد الرحمن يداعبه بذكر جماله ، فينكر هذا ويؤكد أن الزمن قد غيره ، وأحاله عن الحال الأولى ، ولا ريب في أن اختياره للسفارة في بلاد أجنبية كان يشير إلى الجانبين البارزين من شخصيته : خَلْقِهِ وَخُلُقِهِ ، فأما الخُلُقُ فهو موصوف بحدة الخاطر وبديهة الرأي وحسن الجواب والنجدة والإقدام والحنكة السياسية ، هذا إلى ثقافة جيدة ، وبخاصة معرفته بعلم النجوم ، كمعاصره ابن الشمر منجم الأمير عبد الرحمن ، وقد شهد الحميدي بأنه كان جليلاً في نفسه وعلمه ، وسماه المقرئ « عرافاً » .

ويشهد معاصروه أنه كان قليل المال مهملاً في الأمور المادية ، وتدل حادثة بيعه للطعام أيام المجاعة حين ولي قبض الأعرار على انتهاز القرص ليجد المال ، وعلى تصرفه بما ليس له ، وعلى تبديده المال الذي قبضه في وقت سريع . ويقولون إنه كان مقبلاً على اللهو ثم أقلع عن شرب الخمر بعد عودته من المشرق وكانت يومئذ قد علت به السن وشارف الستين ، وانجه إلى الزهد عملاً وقولاً . وقد أورد له ابن عبد ربه قصيدة تدل على أنه كان بعيداً من اللهو وأنه لم يتقد للذاته أبداً ، مطلعها :

لعمرى ما ملكتُ مفودى الصبا فأمطو للذات في السهل والوعر

وفيهما يتحدث عن قناعته بشربة ماء وبخبز وبقل ودون لحم وأنه لو عمّر
تسعين حجة - وقد عمّر - ما اشتاق إلى الخمر والمزاهر ، بل إنه سمع
من الناس أن الخمر مرة ، ولم يذق لها طعماً :

وبالله لو عمّرتُ تسعين حِجَّةً إلى مثلها ما اشتقتُ فيها إلى خَمْرٍ
ولا طَرَبْتُ نفسي إلى مِزْهَرٍ ولا تَحَنَّنَ قلبي نحو عُوْدٍ ولا زَمُرٍ
وقد حدّثوني أنّ فيها مرارةً وما حاجة الإنسان في الشربِ للمرِّ

فإن كانت هذه القصيدة للغزال حقاً ، فإنها قد تغير النظرة إلى سيرته ،
وإلاّ فإنها ممّا قاله بعد أن نسك ، على أنّنا نراه في رحلته يعتذر للملكة بأن
الخمر حرام في دينه ، ولا يعتذر بكبر السن أو بما يقارب ذلك ، ولا بد من
أن نذكر دائماً أنّه كان ميالاً للمداعبة والفكاهة في كل أدوار حياته .

شعره

شاعر الأندلس المقدم - في نظري - على جميع شعراء هذه الفترة ،
وربما كان ابن شهيد أعمق منه ثقافة وأبصر بالنقد ، وكلامه أشد أسراً
وأجزل جزالة ، ولكن الغزال أقرب إلى الطبع وأبعد عن التكلف ، وأعمق
تجربة وأنفذ نظراً ، وأغور حكمة ، ومن قلة احتفاله بصقل المبنى الشعري
تجد على شعره آثار الجفاء وقلة التحلية اللفظية ، وطلب المعنى في قالب مستوي
وإن لم يكن شديد الرصانة ، وهو ميال إلى الجانب التحليلي أكثر من ميله
إلى التركيز ، ولذلك اعتقد أن اتقانه للقصص الشعري كان من سماته الشعرية
البارزة كما في قطعته التي يصف فيها ركوب البحر مع يحيى بن حبيب ، وكما
في تصويره لهذه المشكلة القديمة الحديثة : تخيير الفتاة بين شيخ غني أو شاب

فقير ، إذ يقول ١ :

وخَيْرَها أبوها بينَ شيخٍ . كثيرِ المالِ أوِ حدَثِ فقيرٍ
فَقالتُ خُطَبتا خَسَفَ وما إنْ أرى من خُطوةٍ للمستخسِرِ
ولكنْ إنْ عَزَمْتَ فكلُّ شيءٍ أحبُّ إليَّ مِنْ وَجْهِ الكَبيرِ
لأنَّ المرءَ بعدَ الفَقْرِ يُثْري وهذا لا يَصيرُ إلى صَغيرِ

ومما يميزه بين شعراء الأندلس ميزتان كبيرتان ، الأولى : قيام شعره على النظرة الساخرة ، ووضوح نظراته الفلسفية القائمة على تجربته ، وهما خاصيتان عزيزتان في الشعر الأندلسي . فأما السخرية فإنها القاعدة الصلبة المتصلة بروحه الفكاهية ، وهي لا تفارقه في أحرج المواقف أو في أشدها جدية ، حتى في الغزل ، في مثل قوله :

وَهيَ أدري فلماذا دافعتني بِمُحالِ
أَتَرى أَنا اقتضينا بَعْدُ شيئاً مِنْ نوالِ

وقد ترتفع هذه السخرية إلى مستوى المرارة في النظر إلى حقائق الحياة كقوله :

قالَتْ : أَحَبِّكَ ، قلتُ : كاذِبَةٌ غُرِّيَ بذا مَنْ لَيْسَ يَنْتَقِدُ
هذا كلامٌ لستُ أَقبِلُهُ الشَّيْخُ لَيْسَ يُحِبُّ أَحَدَ
سِيانَ قولِكَ ذا وَقَوُّ لكَ إنَّ الرِّيحَ نَعَقْدُها فَتَنْعَقِدُ
أو أنْ تقولِي : النارُ بارِدةٌ أو أنْ تقولِي : الماءُ يَنْتَقِدُ

وحين تبلغ سخريته هذا المستوى تلتقي بفلسفته الشكية الجاححة إلى

التشاؤم وسوء الظن ، وهذا هو حصاد تجربة طويلة جعلته يقول ١ :

إذا أُخْبِرْتَ عن رجلٍ بريءٍ من الآفاتِ ظاهِرُهُ صَحيحُ
فَسَلِّمْهُمْ عنه هلْ هو آدميٌّ فإن قالوا نَعَمْ ، فالقولُ رِيحُ
ولكنْ بعضُنَا أهلُ استِثارِ وعند الله أجمعنا جريحُ
وَمِنْ إنعامِ خالقِنَا علينا بأنَّ ذنوبَنَا ليستْ تقوْحُ
فلو فاحتْ لأصبحنا هُرُوباً فُرَادَى بالفلا ما نستريحُ
وضاقَ يكُلُ مُتَّحِلٍ صلاحاً لنتنِ ذنُوبِهِ البَلَدُ الفسِيحُ

وهذه الفلسفة هي التي جعلته يرى العلاقة الاجتماعية شيئاً شبيهاً بعلاقة القط والفأر والثعلب والدجاج في قوله :

لا وَمَنْ أَعْمَلَ المطايا إليه كلُّ من يرتجي إليه نصيباً
ما أرى هاهنا من الناس إلا ثعلباً يطلبُ الدجاجَ وذيباً
أو شبيهاً بالقطِّ ألقى بعينيه إلى فأرةٍ يريدُ الوثوباً

ويغرق في هذه النظرة الشكية الكافرة بالخير إذا هو استحضر ذكر المرأة ، فالمرأة سرج للتداول ، أو خان يتعاقب عليه النازلون ، أو ثمرة يأكلها أول مار بها ٢ :

إن النساء لكالسروجِ حقيقةً فالسرجُ سرجك ريشما لا تنزلُ
فإذا نزلتْ فإن غيرك نازلُ ذاك المكانَ وفاعلُ ما تفعلُ
أو متزلِ المجتازِ أصبحَ غادياً عنه ، وينزلُ بعده من ينزلُ
أو كالثمارِ مباحبةً أغصانُها تدنو لأولِ من يمرُّ فيأكلُ

١ الجلوة : ٢٥٢

٢ المطرب : ١٣٦

وخلاصة فلسفة الغزال أن الناس جميعاً متساوون لأنهم يتساوون في العيوب ولا يتفاوتون في الفضائل ، وكل واحد يرى عيب أخيه ولو كان صغيراً ويعمى عن عيب نفسه :

يَسْتَشْقِلُ اللَّيْمَ الْخَفِيفَ بغيره وعليه من أمثال ذاك جبالٌ

ويبدو أن الشيخوخة فعلت فعلها في نفس الغزال ومزجت نظرته إلى الحياة بمرارة شديدة ، وبعد أن كانت سخريته تريحه ، ثقلت عليه وطأة السنين ، وكان من جراء ذلك أن امتزج شعره بالموعظة ، واتجه اتجاهاً زهدياً فأخذ ينعى على أهل اليسار احتفالهم ببناء قبورهم كأنهم غافلون عما خرب من مدائن وقصور ، ويذكو الموت ، وأنه لم يفرق بين من يلبس الصوف ومن يلبس الحرير :

إذا أكلَ الثرى هذا وهذا فما فضلُ الكبيرِ على الحقيق

وأخذ يرثي نفسه ويستشعرُ الغربة بين أجيال لا تعرفه ، بل ربما حسدته على طول عمره :

أصبحتُ والله محسوداً على أمدٍ
حتى بقيتُ بحمد الله في خلفٍ
وما أفارقُ يوماً مَنْ أَفَارِقُهُ
أنظرُ إليَّ إذا أدْرِجْتُ في كفنٍ
واقعدُ قليلاً وعابنُ من يقيمُ معي
هياتِ كلُّهمُ في شأنه لَعِبٌ
من الحياةِ قصيرٌ غيرِ مُمتدٍ
كأنني بينهم من خشيةٍ وحدي
إلا حسبتُ فراقِي آخرَ العهدِ
وانظرُ إليَّ إذا أدْرِجْتُ في اللحدِ
ممن يُشيعُ نَعشي من ذوي ودي
يرمي الترابَ ويحثوهُ على خدي

وحتى في هذا الفن لا محسّ أن الغزال كان يصطنع هذه الحكمة
ليقال إنه مجرب ، وإنّما هي تفيض عن نفسه طبيعية معقولة - وإن كانت
مريرة - وفي بعض أشعار الزهد هذه تصح له ابتكارات المستغرق في ذات
موضوعه كقوله^١ :

ولو كانت الأسماء يدخلها البلي لقد بليّ اسمي لامتدادِ زماني
وما لي لا أبلي لسبعين حجةً وسبع أت من بعدها سنان
إذا عنّي شخصٌ تخيلَ دونه شبيهُ ضبابٍ أو شبيهُ دُخان

تلك هي النهاية التي انتهى إليها الغزال في الشعر ، أما بدايته فكانت
بصراً نافذاً بالنقد في شبابه أيام كان يدرس في مسجد قرطبة ، وعبثاً لاذعاً
بمن حوله من الأشخاص الذين لا يعجبونه ، ومحاكاة لأبي نواس في خمرياته
ومجونياته ، وهجاء مقذعاً ، وغزلاً لا يتميز بالرقّة ، وربما كان أضعف
فنونه ، ثم حكمة قائمة على السخرية تنتهي إلى فلسفة شكية مريرة متشائمة ،
ورثاء لشيخوخته وضعفه .

٢ - أبو مروان

مؤمن بن سعيد بن إبراهيم بن قيس

- ٢٦٧ هـ

المغرب ١ : ١٣٢ - ١٣٤ الجنوة : ٣٣٠ المقتبس : ١٣٨
الحشني : ١٠٣ - ١٠٥ ، ١٢١ النصح : ٢ : ٨٧٣ ابن القوطية : ٧٢ ، ٨٥
اليثيمة ١ : ٣٧١ - ٣٧٢

جده إبراهيم بن قيس من موالي الأمير عبد الرحمن الداخل ، اتخذ قرطبة موطناً له ، وفيها ولد مؤمن ونشأ وعلا نجمه في الشعر أيام الأمير محمد (٢٣٨ - ٢٧٣) واختص بمدحه مسلمة ابن الأمير المذكور^١ والقائد هاشم ابن عبد العزيز ، ولكنه كان كثير التندر والتهمك حادّ الجواب لاذع التعليقات ، يتتبع زلات الناس ويكثر من الهجاء وينبذ خصومه بالألقاب التي تدور على الألسنة بسرعة ، وهذا جرّ عليه عداوات كثيرة ، ولعلّه خرج عن قرطبة في رحلة إلى المشرق لكي يغيب عن أرض لم تعد تطيق وجوده ، وفي رحلته هذه لقي أبا تمام وروى عنه شعره ، وعاد إلى الأندلس بعد ذلك يقرىء شعر أبي تمام ويدرس الأحداث بجامع قرطبة^٢ ، وعلى مقربة منه مجلس القاضي ، ولذلك كان مؤمن عارفاً بما يجري من أمور في مجالس القضاء فكان كثير العبث بالقضاة وقد مرت بنا مداعبته للقاضي قبة عمرو بن

١ المغرب ١ : ١٣٤
٢ قضاة قرطبة : ١٠٤

عبد الله وتعريضه به واضحاك الناس بذلك ^١ . وكان لهذا القاضي ابن يدعى
أبا عمرو كثرت فيه القالة ونسب إلى اختيان بعض المال المستودع فهجاه
مؤمن ومدح أباه ^٢ ، فلما بلغت الأبيات سمع الأمير محمد قال : قد أكثر
الناس في عمرو وفي ولده وعزل الأب عن القضاء ^٣ .
وكان مؤمن لا يدع موقع نادرة أبداً حتى مع الطلاب الذين يقرأون عليه .
سأله مرة أحدهم بعد أن قرأ بيت أبي تمام :

أرض خلعتُ للهوَ خلعتي خاتمي فيها وطلقتُ السرورَ ثلاثا

مَنْ سرورُ هذه أصلحك الله ؟ فقال مؤمن : هي امرأة حبيب وقد
رأيتها ببغداد ^٤ . وكانت تعليقاته تشيع بين الناس فيرددونها فتكون سبباً لتنكر
الناس له وحقدهم عليه وتربصهم به . قيل له مرة : ما بالك لا تسامر الوزير
حامداً (الزجالي) حسبما نراك تفعله مع الوزراء من أصحابه مع قديم اتصالك
به ؟ فقال : ذلك جنازة غريب لا يصحبها من صحبتها إلا الله . فبلغت كلمته
حامداً فحقدها عليه . وبعد أيام ذهب مؤمن يشيعه وهو ذاهب من قصر
السلطان إلى داره ، فلما أراد مؤمن الانصراف قال له حامد : أعظم الله أجرك
أبا مروان وكتب خطاك (وهو دعاء يقال لمن يشيع الموتى) ^٥ ، هذا كله
مع سابق صحبة ومسامرة ، حتى إن مؤمناً كان من مداحي حامد ، ولما ولي
الكتابة مدحه بقصيدة مطلعها ^٦ :

١ قضاة قرطبة : ١٠٥

٢ قضاة قرطبة : ١٢١ وابن القوطية : ٧٢

٣ قضاة قرطبة : ١٢١

٤ المغرب ١ : ١٣٢

٥ المغرب ١ : ٣٣١

٦ ابن القوطية : ٨٥

أي الأمور برأي حامد لم تنتظم نظم القلائد

وإذا كان حامد قد اكتفى بمعابته على هذا النحو فإن غيره لم تكن تهدأ
ثأثرته إلا بالانتقام . وكانت نقطة التحول في حياة مؤمن حين فسد ما بينه وبين
القائد هاشم بن عبد العزيز . ففي سنة ٢٦٢ توجه هاشم في غزو في ناحية
ابن مروان الحلبي الثائر بيطليوس ، وتقدم مبعداً عن معظم عسكره في
فئة قليلة فأخذت عليه المضائق وقتل جماعة من أصحابه ووقع هو في الأسر
فشمت به مؤمن وتوجه بعواطفه صوب عمر ابن عم هاشم وعدوه وقال يخاطبه
في قصيدة صنعها سرأ :

تصبح أبا حفص على أسر هاشم ثلاث زجاجات وخمس رواطم
وبح بالذي قد كنت تخفيه خفية فقد قطع الرحمن دولة هاشم

وصنع على وزن هذه القصيدة قصيدة أخرى يمدح بها هاشماً لكي يظهر
بمظهر البريء من الشماتة به .

وفي سنة ٢٦٤ خلع هاشم من الأسر ، وبلغته شماتة مؤمن وتغيرت
عليه نفسه فأخذ يكيد له عند الأمير محمد . ومن السهل إيقاع شخص مثل
مؤمن منطلق اللسان لا يتحفظ في أقواله . ويبدو أن هاشماً نجح في سعائته ،
وكان من ذلك أن ألقى مؤمن في السجن ، فأخذ يرسل القصائد والرسائل
المطولات من حبسه إلى هاشم لعله يعطف عليه ، وتشفع لديه بجسده
محمد بن جهور فما أفاده ذلك شيئاً ، فلما يش من عطفه أخذ يهجوه
بالمقذعات^٢ .

١ ابن عذاري : ١٥٤

٢ المغرب ١ : ١٣٣

ولبت مؤمن في سجنه حتى عام ٢٦٧ . ثم إن أهل السجن ذات يوم كسروا السجن وفروا منه ، وربما كان سبب ذلك مجاعة حدثت حيثئذ وتطاول فيها المفسدون وكثرت السرقات والتعديات^١ ، وأبى مؤمن أن يفر حين سمع أن هاشماً قدم لمعاينة السجن ظناً منه أن ذلك قد يرقق قلبه عليه ، ولما دخل هاشم قام إليه مؤمن واستعطفه فلم يلتفت إليه بل أوصى السجن أن يوصد عليه ، فأدركه كمد ويأس لم يمهلأه أكثر من ستة أيام ، وتوفي ليلة الثلاثاء لأربع خلون من رجب سنة ٢٦٧^٢ .

شعره

قال فيه ابن حيان : إنه فحل شعراء قرطبة ، ولقبه الحجاري « دعبل الأندلس » لأنه تميز في المهجاء حتى كان يهاجي ثمانية عشر شاعراً ويتفوق عليهم ، ومنهم كان يهاجيه ديك نيس الجن أحمد بن محمد الكتاني (الجياني)^٣ والعتبي المختص بمدح الأمير القاسم بن محمد^٤ وعباس بن فرناس ، وكان مؤمن يتندر عليه في محاولته الطيران ويقول :

يَطْمُ عَلَى الْعَنْقَاءِ فِي طَيْرَانِهَا إِذَا مَا كَسَا جِثْمَانَهُ رِيَشَ قَشْعِمِ

وصنع عباس في بيته هيئة السماء وخيّل للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق فهجاه مؤمن عابثاً . وكان أيضاً يتعقبه في شعره ، فلما أنشد قول عباس في مدح الأمير محمد :

١ قضاة قرطبة : ١٥١

٢ المغرب ١ : ١٣٣

٣ المغرب ٢ : ١٥٨

٤ المغرب ١ : ١٣٤

رأيتُ أميرَ المؤمنينَ محمداً وفي وجهه بذرُ المَحَبَّةِ يَشْمُرُ

قال له مؤمن : قبلاً لما ارتكبتَه ، جعلتَ وجهه الخليفةَ مَحْرَثاً يَشْمُرُ
فيه البذر ! فحجل عباس وسبته^١ .

وقد قال الحميدي إنه كثير الشعر ولكن لم يصلنا إلا مقطعات قليلة منه ،
وأقل ما تبقى من شعره هو الهجاء ، فنه الذي كان فيه ظاهراً على معاصريه
من الشعراء ، وقد كان هو والغزال مسلطين على هجاء زرياب ، وربما
كان ذلك غيراً مما ناله ذلك المغني من حظوة لدى صاحب السلطان ، فمن
أهاجيه فيه^٢ :

تَبَارَكَ من أذلَّ الخِرَّ حتى تمعك فيه أفواه الكلاب
ومن جعل الغوالي سائلاتٍ على أصداع أسود كالغراب

ووردت له مقطعات في الغزل لأن ابن فرج ذكره في الحدائق وأورد له
أمثلة من شعره الغزلي . وذكر له ابن حيان في المقتبس قطعة من الغزل
بالمذكر^٣ . ومن أصدق شعره تصويراً لحاله قطعة يصور فيها نظرة الناس
إليه واستقاهم له وتحاميمهم لقاءه ، وفيها يقول^٤ :

إنما أزرى بقدري أنني لستُ من يابَةِ أهلِ البَلَدِ
ليس منهم غيرُ ذي مَقْلِيَةِ لنوي الألبابِ أو ذي حَسَدِ
يتحامونَ لقائي مثلما يتحامونَ لقاءَ الأسدِ

١ النسخ ٢ : ٨٧٣

٢ كتاب التشبهات : ٢٨٥ وانظر ص : ٢٧٨ أيضاً .

٣ المقتبس : ١٣٨

٤ اليتيمة ١ : ٣٧٢

طَلَعَتِي أَثْقَلُ فِي أَعْيُنِهِمْ وَعَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ أَحَدٍ
لَوْ رَأَوْنِي قَعَرَ بِحَيْرٍ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَأْخُذُ مِنْهُمْ بِيَدِي

وكان الأمر شبيهاً بما قال ؛ ومن صورته المستملحة قوله يصف نفسه وهو مبترد ويسخر من حالته^١ :

لَيْسَ عِنْدِي مِنْ آلَةِ الْبَرْدِ إِلَّا حَسَنُ صَبْرِي وَرِعْدَتِي وَقَتْوَعِي
فَكَأَنِّي مِنْ شِدَّةِ الْبَرْدِ هَرٌّ يَرْقُبُ الشَّمْسُ عِنْدَ وَقْتِ الطَّلُوعِ

وله قطعة ذات سخرية عميقة يتغزل فيها بالدرهم ويقول^٢ :

تَيَّمَّنِي حَبَّكَ يَا دَرْهَمُ فَالْقَلْبُ مِنْ بَرَحِ الْهَوَى مَغْرَمُ
يَا مِشْبَهَ النُّجْمِ إِذَا مَا بَدَأَ مِنْكَ اسْتَعَارَتْ حَسَنَهَا الْأَنْجَمُ
إِنْ كُنْتَ لَا أَمْوَالَكَ كُنْتَ الَّذِي فِي عَيْنِ مَهْرَانَ إِذَا يَلْطَمُ^٣

١ كتاب التشبيهات : ١٧١

٢ كتاب التشبيهات : ٢٦٥

٣ يشير إلى شخص مجنون بذلك الموضع المسمى «عين مهران» .

٣ - محمد بن يحيى القلقاط

٥٣٠٢

طبقات النحويين : ٣٠١	واليثيمة ١ : ٣٩٥	والحنوة : ٩١
وبغية الملتبس : ١٣٤	والنفع ٢ : ٨٣٢	والمغرب ١ : ١١١
انباه الرواة ٣ : ٢٣١	بغية الوعاة : ١١٤	ابن عذاري ٢ : ١٩٣
الحلة : ١٩٣	المقتبس : ٤٨ ، ٤٢	

قرطبي كنيته أبو عبد الله ، سكنت جميع المصادر عن تعيين ميلاده ،
ولكننا نعلم أنه كان حياً في أيام الأمير عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠) وأيام عبد
الرحمن الناصر ، ورجح الحميدي أنه عاش إلى أيام الحكم المستنصر ، وهذا
مستبعد . وكان سلطان الأمويين أيام عبد الله قد تقلص ، فهناك ابن حفصون
كبير الثوار بالأندلس ، وابن حجاج الذي استقل بإشبيلية ، وسعيد بن جودي
بغرناطة وغيرهم كثيرون ، وكل واحد منهم يتصرف في شئون منطقته ،
وكل شيء ينذر بانتكاس ، وفي هذه الغمرة من الفوضى نسمع القلقاط يهجو
الأمير عبد الله نفسه بقوله من قصيدة^١ :

ما يَرْتَجِي العاقلُ في مُدَّةِ الرِّجْلِ فيها مَوْضِعُ الراسِ

ولعله في هذه الفترة ارتحل عن قرطبة وقصد عبيد الله بن الشالية بمنطقة
سمتان وكتبه يومئذ عبيدس الجياني ، ولما وصل القلقاط إلى جبل سمتان
كان عبيد الله غائبا فرحب به الكاتب عبيدس وأكرمه ، لكن غيبة عبيد

١ المغرب ١ : ١١١

الله طالت . فعزم القلقاط على الخروج فكتب عبيدس قصيدة إلى ابن الشالية
يقدم له فيها القلقاط ويسأله أن يمنحه البر والإكرام .

ولما نجم إبراهيم بن حجاج بإشبيلية قصده القلقاط ، كما قصده غيره
من الشعراء ، ومدحه بقصيدة أولها :

أرَّقت رحلتي فأهمتُ جفوننا

وفي تلك القصيدة أنحى بالهجاء على أهل بلده قرطبة ، وأفحش في ذكر
كبرائها وعظماء دولتها ، فتوجس منه إبراهيم ريةً ولم يرق في عينه ،
وأبغضه لذلك وصرفه دون نوال ، فعاد إلى قرطبة محنقاً وأخذ يهجو إبراهيم
ابن حجاج ، وقال فيه قصيدة مطلعها :

لا تنكري للبين طول بُكائي

ومنها البيت :

أبغى نوال الأكرمين معاً ولا أبغى نوال البومةِ البكماء

وبلغت القصيدة مسامع إبراهيم فغضب وحلف إن عاد القلقاط إلى
الهجاء أنه سيرسل إليه من يأخذ رأسه بقرطبة على فراشه ، ودسَّ إليه من
يعلمه ذلك ، فخاف القلقاط على نفسه وسكت ، وحمد الناس بقرطبة لإبراهيم
هذه الفعلة لشدة ما كان يلحقهم من هجاء القلقاط^١ ، ومعنى ذلك أنه هدده
إذا لم يكف عن الهجاء جملة .

هكذا كاد هجاؤه أن يجني عليه وكذلك كان ميله إلى العبث سبباً في

١ ابن عذاري ٢ : ١٩٣ والمغرب ١ : ١١١ قال إبراهيم بن حجاج : « واقع الذي لا إله
غيره لئن لم تكف عما أخذت فيه لأمرن من يأخذ رأسك فوق فراشك » .

مأزق كادت تودي بحياته ، ذلك أنه كان يجب التهكم بالمؤدين وباحتال
بصنوف الخيل ليعبث بهم - تنكر ذات مرة ودخل على مؤدب اسمه صالح
ابن معافى وأظهر له أنه يريد أن يتلقى العلم على يديه وانتسب له إلى البادية ،
فاجتهد صالح في تأديبه وتبصيره ثم دُلَّ صالح على حقيقته فلما جاءه ذات
يوم أمر تلاميذه بربطه إلى أحد أعمدة المسجد وضربه وتداول تلامذته ضربه
كذلك حتى كادوا يأتون عليه ١ .

وتعرض مرة أخرى للموت بسبب الهجاء ، فقد كان في قرطبة رجل اسمه
حرقوص وعد القلقاط أن يصحبه إلى كرم له بلجبل ، وطالت المدة وحرقوص
لا يفي بوعده ، فلجَّ القلقاط في هجائه ، فلما سمع بذلك والد حرقوص
لاطفه وأخذه إلى الكرم وجنى له من فواكه شيئاً حمله إلى منزله ، ولكن
القلقاط لم يسكت عن الهجاء وعندئذ ضاق حرقوص به ذرعاً ، وأخذ سكيناً
- وقد عرف أنه في داره - وتسور عليه الدار ، فلحظه القلقاط وأدرك
الشر ، فعمد إلى مصلاه واستقبل القبلة ودخل في الصلاة ، فأمسك عنه
حرقوص وقال : يا فاسق والله لولا أنك عدت بمعاذ للقيتُ الله بدمك فإنك
زنديق حلال الدم ٢ .

ولم تكن حاله مع الشعراء خيراً من هذا لأنه كان شديد التعرض كثير
المهاجاة لهم ٣ ، حتى إن أصدقاءه منهم لم يسلموا من لسانه ، وكان بينه وبين
ابن عبد ربه سبب من صداقة ثم تغيرت الحال وتهاجيا هجاء مقذعاً ، كان
من جملته قول القلقاط بهجوه ٤ :

يا عرس أحمد إني مزع سَفَرَا فودعيني سِرّاً من أبي عُمَرَا

١ طبقات الزبيدي : ٢٩٩

٢ طبقات الزبيدي : ٣٠٣ - ٣٠٤

٣ المصدر السابق : ٣٠٣

٤ النسخ ٢ : ٨٣٢ والمقتبس : ٤٢

ومن أصدقائه أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الملقب بالحكيم وكان الغاية
في علم العربية والحساب ، بات عنده القلقاط مرة حتى تبليج الصبح وكادت
الشمس تطلع عليهما فانتبه القلقاط فقال للحكيم :

يا ديكُ مالكَ لم تصرُخْ لتُنَبِّهنا لقد أسأتَ بنا ديكَ الدجاجاتِ
يا آكلًا للقدى يا سالحًا عبثًا على الحصيرِ بهيميَّ البهيماتِ
فأجابه الحكيم :

لقد صرختُ مراراً جمةً عدداً قبلَ الصبحِ وبعدَ الصبحِ تاراتِ
لكن علمتُكَ نواماً وذا كسلٍ قليلَ ذِكْرِ لَجَبَّارِ السَّمَاوَاتِ^١

وممن تولع بهم وآذاهم بهجائه أبو زيد الأديب^٢ .

ومن كل هذا يتجلى لنا أن الإسراع إلى الهجاء والذم كان طبعاً متأصلاً
في القلقاط لا ينفك عنه .

وكان القلقاط من حيث مظهره وسخ الثياب رذل الهيئة .

وكان يجمع إلى قدرته في الشعر ، قدرة فائقة في اللغة ، ولم يكن أحد
يقارن الحكيم - صديقه - في علمه وثقابة ذهنه في نظره غيره ، ولذلك
عدّ القلقاط في النحويين ، وأورد له الزبيدي قصيدة جمع فيها بعض المسائل
والأحاجي النحوية^٣ ، ويبدو أنه لم يؤلف في النحو وإنما اكتفى بالإقراء
والتدريس ، وقد دلتّ الزبيدي على اطلاعه اللغوي بحديث رواه أحدهم
« لا يسحى المسلم في عرض أخيه » فاعترضه آخر وقال « لا يسحى المسلم ... »

١ طبقات الزبيدي : ٣٠٠

٢ التكملة : ٣٣٢

٣ طبقات الزبيدي : ٣٠٤

بمعنى يقشر . فلما عرضت الكلمة على القلظاط قال : بل صوابها « لا يشحي » أي يفتح فاه بسبه من قولهم : « شحا الحمار فاه بالنيهيق »^١ ، وكان محمد بن يحيى في النفر الذين جمعهم عبد الرحمن الناصر لانتساخ شعر أبي تمام وترتيبه^٢ .

شعره

قال الزبيدي في القلظاط : كان شاعراً مجوداً مطبوعاً ، وكان يقصد فيطيل ويحسن ، وعدّه ابن حبان من شعراء المعلمين^٣ ولكن لم يصلنا من شعره قصيدة واحدة بطولها ، حتى هجاؤه الذي كان سيفاً مسلولاً في وجوه الناس بقرطبة لا نعرف منه إلا أبياتاً . على أن غلبة الهجاء عليه لم تحرمه من المشاركة في موضوعات شعرية أخرى ، وبخاصة الغزل ، وغزله رقيق سهل الانسياب ، من ذلك قوله :

يا غزالاً عن لي فاب تترّ قلبي ثمّ ولتي
أنت منّي بفؤادي يا منّي نفسي أولى

وقد أنشد أحد الأندلسيين قصيدته هذه لأحد البغداديين فأعجب بها وفضلها على ما سمعه من شعر ابن عبد ربه وقال : « هذا الشعر بختمه ، لا ما أنشدتني به آنفاً »^٤ . وأورد له الثعالبي في اليتيمة قطعيتين في الغزل لعلهما

١ طبقات الزبيدي : ٣٠٢

٢ طبقات الزبيدي : ٣٠٦

٣ المقتبس : ٤٨

٤ طبقات الزبيدي : ٣٠٢

من قصيدة واحدة ، والأولى منهما ١ :

طوى عني مودتهُ غزالٌ طوى قلبي على الأحزانِ طيباً
إذا ما قلتُ بسلاهُ فؤادي تجددَ حبهُ فازددتُ غيباً
أحييهُ وأفديهُ بنفسي وذاك الوجهُ أهلٌ أنْ يُحيباً

والثانية :

أيا طيفاً سما وهفاً إليّ لقد جدّدتَ لوعاتي عليّ
المُ مواصلاً كأخي غرامٍ سيدكرُ وصله ما دامَ حيّاً
غزالٌ لو رأى غيلانُ يوماً محاسنَهُ إذْ أنساهُ ميّاً

وذكره أبو عامر ابن مسلمة في كتاب الارتياح بوصف الراح ونقل
عنه الحميدي له شعراً في الرياض :

مُزَنٌ تُغْنِيهِ الصَّبَا فإذا همي لَبَّتْ حَيَاهُ رَوْضَةٌ غَنَاءُ
فالأرضُ من ذاك الحيا مَوْشِيَةٌ والروضُ من تلك السماء سماءُ
ما إنْ وَشَتْ كَفَا صِنَاعِ ما وَشَى ذاك الغناء بها وذاك الماءُ
زهرٌ لها مَقَلٌّ جَوَاحِظُ تارةً ترنو ، وتاراتٍ لها إغضاءُ

وشعره في الغزل رقيق حقاً ، وفيه من الحيوية والحرارة ما يفتمد في هذه
المقطوعة التي يصف فيها الروض . على أنه بعد ذلك أنموذج فذ للشاعر
الأندلسي المهجاء ، المثقف بثقافة لغوية نحوية ، البعيد بعض الشيء عن حياة
البلاط ، الملابس حياة الناس في قرطبة .

شعراء عهد الخلافة

٣٠٠ - ٣٩٩

يشغل هذه الفترة ثلاثة من الخلفاء الأمويين هم الناصر والمستنصر وهشام المؤيد ، إلا أن المؤيد كان ضعيفاً وكانت السلطة الفعلية في يد الحاجب ، وقد تولت الحجابة المنصور بن أبي عامر والمظفر عبد الملك وعبد الرحمن شنجول ، ولهذا يمكن أن تسمى الفترة الثانية (بعد ٣٦٦) باسم الدولة العامرية . على أنه ليس هناك انفصال في الحركة الأدبية ، فإن كثيراً من الشعراء الذين عاشوا في الفترة الأولى استمروا أحياء في الدولة العامرية . ويعد ابن عبد ربه صلة بين هذه الفترة والتي سبقتها ، وبعد وفاته بعامين قدم القالي إلى الأندلس ، وهنا يبدأ عصر النهضة الأندلسية في اللغة والنحو والأدب وغير ذلك ، وفي تلك الفترة عاش أحمد بن فرج الجياني صاحب الحقائق وقد ذكر في كتابه مختارات لمعاصريه ولمن كان قبلهم ، ويمكن أن نستعيد جزءاً من هذا الكتاب الذي لا يزال مفقوداً مما نقله الحميدي وابن سعيد وابن الأبار في الحلة السيرة ؛ وشعراء هذه الفترة كثيرون منهم مقدم بن معافى القبري وابن هذيل والرمادي وعبد الملك بن إدريس الجزيري وجعفر بن عثمان المصحفي والشريف الطليق وابن درّاج .

ومع أن ابن درّاج عاش طويلاً في ظلّ الدولة العامرية إلا أننا سنجعله أحد الأمثلة على ما أحدثته البربرية من تأثير ، ونكتفي بدراسة ثلاثة شعراء يمثلون عهد الخلافة هم : ابن عبد ربه والرمادي والشريف الطليق .

١ - أبو عمر

أحمد بن محمد بن عبد ربه

١٠ رمضان ٢٤٦ هـ - ١٨ جمادى الأولى ٣٢٨ هـ

المطعم : ٥١ والجنوة : ٩٤ وبغية المنتمس رقم : ٣٢٧
ومعجم الأدباء : ٦٧ وابن خلكان رقم : ٤٥ والرايات : ٤٧
والمطرب : ١٤١ وابن الفرضي : ١ : ٤٩
وأشعاره في العقد واليقيمة : (٣٦٠ ، ٤١٢) ، والنصح ، والشريشي ، وابن عذاري ،
وتاريخ الناصر ، والمقتبس : ٤١ وصفحات أخرى ، وابن عبد ربه وعقده للدكتور جبرائيل جبور .

كان سالم - أحد أجداده - مولى من موالي الأمويين ، وقد نشأ أحمد حفيده بقرطبة ، وكان في نشأته فقيراً خاملاً ، فطلب العلم على شيوخ عصره في جامع المدينة ، ومن أهم شيوخه بقي بن مخلد وابن وضاح والحشني . وأول هؤلاء كان ذا فضل كبير على الثقافة الأندلسية الفقهية لأنه بالإضافة إلى سعة علمه ، وكثرة توافيه ، أدخل إلى الأندلس كثيراً من كتب المشاركة كصنف ابن أبي شيبة وفقه الشافعي والتاريخ لخليفة بن خياط ، والطبقات له أيضاً ، وكتاب سيرة عمر بن عبد العزيز للدورقي ونسخة من كتاب العين سمعها على ابن ولاد بمصر . وأما ابن وضاح فإنه كان عالماً بالحديث ، بصيراً بطرقه ، متكلماً على عله . وأما الحشني فإنه لقي لغويي المشرق في رحلته فأخذ عنهم كثيراً من كتب اللغة ، رواية الأصمعي ، ودخل بغداد وكتب بها كتب أبي عبيد القاسم بن سلام ، وأدخل إلى الأندلس كثيراً من حديث الأئمة وكثيراً من اللغة والشعر الجاهلي رواية . فالثقافة التي تلقاها ابن عبد ربه

عن هؤلاء الأعلام تشمل الفقه والحديث واللغة والسير والأخبار . ومعرض هذه الثقافة كتاب العقد ، لأن فيه نقولاً من كتب المشاركة وفي رأسها كتب ابن قتيبة وكتب ابن سلام وبخاصة كتاب الأمثال ، فإنه قد اقتبس في كتاب العقد ، بشيء من الاختصار ، هذا عدا اطلاعه الواسع على دواوين شعراء المشرق ومؤلفات اللغويين . ولهذه الثقافة أثرها في شعره . كما سأبين من بعد .

وقد اكتسب ابن عبد ربه بعلمه أولاً وشعره ثانياً مكانة كبيرة بين علماء الأندلس وأدبائها وفي بلاط أمرائها ، واغتنى بعد فقر وساد بعد خمول حين اتفقت له أيام كان للعلم فيها نفاق^١ ، إلا أنه جنح إلى الشعر فغلب عليه . وكان متصوفاً متديناً أخذاً بحظّه من المتع المباحة ، وقد مرّ بنا كيف كان مغرماً بالغناء يدافع عنه ويرى إباحته ، أما الخمر فلا أظنّه كان يشربها وإن أكثر من ذكرها في شعره . على أنه قد يستشف من ندمه عندما كبر أنه كان مقبلاً على اللذات ، ولكني أعتقد أن توبته كانت توبة الفقيه المتحرج لا توبة اللاهي العابث ، وأعني بالفقيه المتحرج من يدركه الخوف من صغائر الذنوب في شيخوخته ومن ينظر إلى الغزل أو القول في الخمر أو إلى استماع الغناء والنظر إلى الجوّاري الجميلات نظرة مخالفة لما كان يستبيحه من ذلك في شبابه ، ولعله أن يتوهم ذنباً لم يقترفها . وربما بدا لي أن ابن عبد ربه كان أقرب إلى الترمت منه إلى الانطلاق ، فقد أورثته ثقافته الفقهية نظرة محافظة متشددة تنفر من كل جديد وتعادي العلوم الدنيوية - إذا صحت التسمية - ويكفي أن نذكر صلته بمسلم بن أحمد بن أبي عبيدة الليثي ، الذي كان علماً بالحساب والنجوم ، وكيف عابه لاهتمامه بهذه العلوم ووصفه بأنه شاذ عن رأي الجماعة ،

وتهمك بمعارفه الفلكية والجغرافية ، وأعلمه بأنه لا يصدق ما تضمنته علومه ،
في قوله ^١ :

زعبت بهرام أو يبدخت يرزقنا لا بل عطار د أو مريخ أو زحلا
وقلت إن جميع الخلق في فللك بهم يحيط وفيهم يقسم الأجلا
والأرض كورية حف السماء بها فوقاً وتحتاً وصارت نقطة مثلاً
صيف الجنوب شتاء للشمال بها قد صار بينهما هذا وذا دولا
كما استمر ابن موسى في غوايته فوعر السهل حتى خلتها جبلا
أبلغ معاوية المصغي لقولهما أي كفرت بما قالوا وما فعلا

وابن موسى هو الأقتنين ومعاوية هو ابن الشبانسي . ومن صور العداء
بينه وبين العلوم الجديدة أنه ربما كره ابن أخيه سعيداً من أجلها ، لا لأن
هذا كان ثقیل الظل ، كما يقول صاحب المغرب ^٢ .

وعلى الرغم مما بلغه من مكانة ، لما شهر عنه من تقوى وديانة ، فقد
كان ، فيما يبدو ، ضيق العطن ، حاد الطبع ، سريعاً إلى الهجاء ، متبرماً بالناس ،
كثير الشكوى من الزمان ، سيء الظن بالمجتمع ، مسرعاً إلى رؤية السيئات
دون الحسنات في زمانه وأهله ، وإذا عادى صديقاً اندفع في هجائه ، وقصته
مع القلقاط الشاعر الذي كان من أقرب أصدقائه إليه قد تصور حدثه وسلطة
لسانه إذا هجا . على أن علاقته بغير القلقاط من شعراء عصره كانت طيبة ،
فكان بينه وبين محمد بن عبيد الله بن أبي عبدة الليثي مقارضات شعرية ،
كتب إليه ابن أبي عبدة يقول ^٣ :

١ طبقات ساعد : ٧٤ وابن الفرضي ٢ : ١٢٦
٢ انظر المغرب ١ : ١٢٠ ، وطبقات ساعد : ١٢١ ، وابن أبي أصيبعة ٢ : ٤٤ ، واليتيمة
١ : ٤٠٤ ، والتكملة : ٧١٠
٣ الخنرة : ٦٢

أَعِدُّهَا فِي تَصَابِيهَا جِدَاعَا فَقَدْ فَضَّتْ خَوَاتِمَهَا نِزَاعَا
قَلُوبٌ يَسْتَخْفُ بِهَا التَّصَابِي إِذَا سَكَبَتْ لَهَا طَارَتْ شَعَاعَا

فأجابه ابن عبد ربه بأبيات قال فيها :

مَتَى يَمْشِي الصَّدِيقُ إِلَيَّ فَرَأ مَشَيْتُ إِلَيْهِ مِنْ كَرَمِ ذِرَاعَا

ومن هذه الإخوانيات ما حكاه الحميدي أيضاً عن صديق له أرسل إليه طبقاً فيه أنابيب من قصب السكر ، فكتب ابن عبد ربه إليه ، مرفقاً قصيدته بهدية^١ :

بَعَثَ يَا سَيِّدِي حُلُومَ الْأَنْبَابِ عَذَبَ الْمَدَاقِقِ مُخْضَرَّ الْجَلَابِيبِ

وهو يخاطب في بعض أشعاره صديقاً له يكنى بأبي صالح وينعى إليه الكرم وانعدام الكرام في عصره . ولا نعرف شيئاً أدق عن علاقته أو عن حياته الخاصة إلا أنه فقد اثنین من أبنائه وكان أحدهما طفلاً والآخر كبيراً يكنى بأبي بكر ويسمى يحيى وراثهما بقصائد كثيرة منها^٢ :

بَلَيْتَ عِظَامُكَ وَالْأَسَى يَتَجَدَّدُ وَالصَّبْرُ يَنْقَدُ وَالْبُكَاءُ لَا يَنْقَدُ
يَا غَائِبَا لَا يَرْتَجِي لِإِيَابِهِ وَلِقَائِهِ دُونَ الْقِيَامَةِ مَوْعِدُ
مَا كَانَ أَحْسَنَ مَلْحَدًا ضُمَّنْتَهُ لَوْ كَانَ ضَمَّ أَبَاكَ ذَاكَ الْمَلْحَدُ
بِالْبَاسِ أَسْلُو عَنْكَ لَا يَتَجَلَّدِي هِيَهَاتَ أَيْنَ مِنَ الْحَزِينِ تَجَلَّدُ

ومنها :

١ الجذوة : ٢٧٦

٢ العقد : ٢٥٠ - ٢٥٢

واكبدا قد تَقَطَّعَتْ كَبْدِي وحرَّقَتْهَا لَوَاعِجُ الكَمَدِ
ما مات حيٌّ لَمِيتٍ أَسْفَاً أَعْدَرُ مِنْ والدٍ على ولدٍ

ومن قصائده في رثاء ابنه الطفل^١ :

على مثلها مِنْ فجعة خاني الصَّبْرُ فراقٌ حبيبٍ دونَ أُوَيْتِهِ الحَشْرُ
ولي كَبِدٌ مَشْطُورَةٌ في يدِ الأسي فتحت الثرى شَطْرًا وفوق الثرى شطرُ
يقولون لي صبرٌ فؤادك بَعْدَهُ فقلتُ لهم : ما لي فؤادٌ ولا صبر
فَرِيخٌ من الحمرِ الحواصلِ ما اكتسى من الريشِ حتى ضَمَمَهُ الموتُ والقبر
إذا قلتُ أسلو عنه هاجتْ بِلابِلُ يحدِّدُها فِكرٌ يحدِّدُهُ ذِكر
وأنظرُ حولي لا أرى غيرَ قبره كأنَّ جميعَ الأرضِ عندي له قبر

وفي أواخر عمره أصيب بالفالج ، ولما توفي سنة ٣٢٨ هـ (قبل قدوم
القالي بعامين) تجمع في جنازته جمع عظيم وتكاثر الناس تكاثراً راع يحيى
ابن هذيل ، وكان يومئذ صغير السن ، فسأل : لمن هذه الجنازة ؟ ف قيل له :
لشاعر البلد^٢ ، وفي هذا دليل بيِّن على ما كان يتمتع به هذا الشاعر من مكانة
في قرطبة ، وقد أثر ذلك في نفسية اليافع يحيى بن هذيل ، فاتجه إلى دراسة
الأدب ، ليحرز مثل مكانة ابن عبد ربه .

صلته بأمرأه عصره^٣

كان عمره حين توفي الأمير محمد (٢٧٣) سبعة وعشرين عاماً ، ويبدو

١ المقدم ٣ : ٢٥٨ .

٢ الجذوة : ٣٥٨ .

٣ في هذه الفقرة عرض لبعض مدائح ابن عبد ربه ، جاءت متفرقة في المصادر ، وليس فيها
إلا هذا ، فيستطيع القارىء أن يفتلها إذا شاء .

أن صلته به لم تكن وثيقة ، لأنه يروي صفاته عن أستاذه بقي بن مخلد ، فلما
تولى المنذر إمارة الأندلس أصبح من شعرائه المقربين ، وله فيه قصيدة طويلة
بقي منها البيتان ١ :

بالمُنذرِ بنِ مُحَمَّدٍ شُرُفَتْ بلادُ الأندلسِ
فَالطيرُ فيها ساكنٌ وَالوحشُ فيها قد أنيسُ

وكأنه في هذا القول كان ما يزال يتعلق بأهداب المشهورين من شعراء
المنذر كالعكي الذي يقول ٢ :

بالمُنذرِ المأمونِ طابَ زماننا وبطيبِ دَوْلتهِ تطيبُ الأنفُسُ

ولم يطل العهد بالمنذر حتى توفي وخلفه عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠) فظل
ابن عبد ربه يسير في ركابه ويقول في خلافته ٣ :

خِلافةُ عبدِ اللهِ حجٌّ على الوريِّ فلا رَفَتْ في عَصْرِهِ وفُسُوقُ
تَجَلَّتْ دِياجِي الحِيفِ عن نُورِ عَدْلِهِ كما ذرَّ في جُنْحِ الظلامِ شروقُ
وثَقَّفَ سَهْمَ الدينِ بالعدلِ والتَّقَى فهذا له نَصْلٌ وذلك فُوقُ

ومدح من قواد هذا الأمير عبد الله بن محمد بن أبي عبدة ، ولا ريب
في أنه أيضاً تتبع في شعره انتصارات عبد الله وقواده على المترين الثائرين
في نواحي الأندلس وبخاصة ابن حفصون . فلما نجم ابن حجاج بإشبيلية
شد إليه الرجال ومدحه بقصائد كثيرة ، ولا يعد تحرمه بابن حجاج خيانة

١ ابن خلكان (ترجمة رقم : ٤٥)

٢ ابن عذاري ٢ : ١٨٠

٣ ابن عذاري ٢ : ١٨٢

لمواليه الأمويين لأن ابن حجاج لم يباطن ابن حفصون إلا مدة يسيرة ثم عاد إلى مهادنة الأمير الأموي ، ومن مدائحه في إبراهيم بن حجاج ^١ :

كتابُ الشوقِ يَطْوِيهِ الفؤادُ ومن قَيْضِ الدموعِ له مدادُ
تخطُّ يَدُ البكاءِ به سَطُوراً على كَبِدِي وَيُمْلِيهَا السَّهَادُ
وكيفِ وبِي فؤادٌ مُسْتَطِيرٌ بَمَنْ لا يُسْتَطَارُ له فؤادُ
أَمِنْ يَمَنْ يَكُونُ الجودُ خِلَواً وإبراهيمُ حَاتِمُها الجوادُ
وبارَكهُ بَمَنْ يَأْتِيهِ حَجٌّ ومِدْحَتُهُ رِباطٌ أو جِهَادُ
وما لي في التَخَلُّفِ عنه عُدْرٌ ولي في الأَرْضِ راحِلَةٌ وزادُ

ومضى في عهد عبد الله يشيد بكفاحه ضد الثائر ابن حفصون ، ومن أشهر الرجال الذين مدحهم في أيام عبد الله وصدر خلافة الناصر القائد أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي عبدة ، ومن مدائحه فيه ^٢ :

نَفْسِي فداؤكَ والأبطالُ واقفةٌ والموتُ يَقْسِمُ في أرواحها النِّقْمَا
شاركتَ صَرَفَ المنايا في نَفوسِهِمْ حَتَّى تَحْكَمْتَ فيها مثلما احتكَمَا
لو تَسْتَطِيعُ العُلا جَاءتْكَ خاضعةٌ حَتَّى تُقْبَلَ مِنْكَ الكَفَّ والقَدَمَا

ومنها قوله ^٣ :

اللهِ جَرَدَ للنَّدَى والباسِ سيفاً فقلدَهُ أبا العباسِ
مَلِكٌ إذا اسْتَقْبَلَتْ غُرَّةَ وجهِهِ قَبِضَ الرِّجاءَ إِلَيْكَ رُوحَ الياسِ
وجهُ عليه من الحياءِ سَكِينَةٌ ومَحَبَّةٌ تَجْرِي مع الأَنْفاسِ

١ ابن عذاري ٢ : ١٩٢

٢ المقدم ١ : ١٢٩

٣ المقدم ١ : ٣١٢

وإذا أحبَّ اللهُ يوماً عبده ألقى عليه محبةً للناس

وقد اتصل أيضاً من رجال الأمير عبد الله بالوزير الكاتب عبد الله بن محمد الزجاجي ، وكان هذا محبباً إلى الناس ، إلا أن الأمير عزله مدة ثم أعاده إلى خطته ، ففرح الناس لرجوعه ، وعبر ابن عبد ربه عن فرحه في قوله ^١ :

يا ملكاً يزدهي به المنبرُ
خليفةُ اللهِ في بريتهِ
يا قمرَ الأرضِ إنْ تغيبَ فلقد
ما فريحَ الناسِ مثلَ فرحِهمِ
وإتهجَ الملكُ حينَ دبرهُ
وقال أيضاً في تلك الحادثة :

تجددت الدنيا وأبدت جمالها
عشية يوم السبت جاءت بيعة
بها جبر الله الكبير من العلاء
فأشرقت الآفاق نوراً وبهجة
بتجديد عبد الله أعظم دولة
ولما تولت نضرة العيش ردها
وردت إلينا شمسها وهلالها
من الله لا يرجو العدو زوالها
وأدرك منه عشرة فأقالها
ومدت علينا بالنعيم ظلالها
لمولاه عبد الله كان أزالها
فألت إلى العبد القويم مالها

وعاش في أيام الناصر ثمانية وعشرين عاماً لم يتوقف فيها عن الإنتاج حتى آخر عمره ، وهي أكثر فترات حياته غنى بالشعر واهتماماً به ، فقد افتتح عهد الناصر بقوله له يوم البيعة ^٢ :

١ أعتاب الكتاب : ٦٠

٢ تاريخ الناصر : ٤٠

يا مَنْ عَلَيْهِ رِداءِ البأسِ والجودِ
لما تطلعتَ في يومِ الخميسِ لنسا
وبادرتُ نحوكَ الأبصارُ واكتحلتُ
مِنْ جودِ كَفَتِكَ يَجري الماءُ في العودِ
والناسُ حَوْلَكَ في عيدِ بلا عيدِ
بِحسَنِ يوسفَ في محرابِ داودِ

وقال في تلك المناسبة أيضاً ١ :

بدا الهلالُ جديداً
يا نعمةَ الله زيدي
إمامُ عدلٍ عليه
يومَ الخميسِ تبدى
فكلُّ يومٍ خميسٍ
والملكُ غَضُّ جديداً
ما كان فيكَ مزيداً
تاجانُ : بأسِّ وجودِ
لنا الهلالُ السعيدُ
يكونُ للناسِ عيدُ

وتابع انتصاراته المتتالية وبخاصة الغزوة الأولى (٣٠٠) وهي غزوة
المتلون وقد أكثر ابن عبد ربه من ذكرها ، ومن أولى قصائده فيها ، وقد
فصلَ الناصر لها ٢ :

فصَلَّتْ والنصرُ والتأييدُ جُنْدًا كا
ورحمةُ الله في الآفاقِ قد نُشِرَتْ
قد اكسَتْ حِللاً مِنْ وشي زهرتها
طلعتْ بينَ الندى والبأسِ مبتهجاً
صدانٍ في قبضتي كَفَيْكَ قد جُمِعَا
يغضي أمانك نصرُ الله مُنْصَلِتاً
والناسُ يدعونَ والآمالُ راغبةٌ
والعزُّ أولاك والتمكنُ أخراكا
والأرضُ تُبدي تباشيراً لمبداكا
كأنَّ زُخْرُفَها في الحُسْنِ حاكاكا
هذا ييمناك بل هذا يسراكا
لولاها لم يَطِيبُ عَيْشُ ولولاكا
بافتح يقصمُ مَنْ في الأرضِ ناواكا
والطُوعُ يرجوك والعصيانُ يخشاكا

١ تاريخ الناصر : ٤٠ - ٤١ وابن عذاري ٢ : ٢٣٦

٢ تاريخ الناصر : ٣٤ - ٣٥

وانتهت فتوح الناصر في هذه الغزوة إلى أن ملك سبعين حصناً من أمهات
الحصون ، وقد ذكر ابن عبد ربه ذلك فقال ^١ :

في غزوة مائتا حصن ظفرت بها في كل حصن غزاة للعناجيج
ما كان منك سليمان ليذكره والمبني سد باجوج وماجوج

وقضى الناصر أيضاً على ثورة مدينة استجة (٣٠٠) وفي ذلك يقول ^٢ :

ألا إنه فتح يقير له الفتح سرى القائد الميمون خير سرية
فأولهُ سعد وآخره نجح تقدمها نصر وتابعها فتح
ألم تره أردى باستجة العدا فلصوا عذاباً كان موعده الصبح
فلا عهد للمراق من بعد هذه يتم له عند الإمام ولا صلح
فولوا عباديداً بكل ثنية وقد مستهم قرح وما مستا قرح

ونظم في غزوات الناصر أرجوزة انتهى بها إلى سنة ٣٢٢ ولا ندري لم
توقف عند هذه السنة ^٣ ، ولعل لمرضه أثراً في ذلك ، إلا أنه لم يتوقف عن
تحول الشعر ، لأن له قصيدة قالها قبل وفاته بأحد عشر يوماً ، بين فيها مبلغ
سنه ^٤ :

كلاني لما بي عاذلي كفاني طويت زماني برهة وطواني
بليت وأبليت الليالي وكرها وصرغان للأيام معتوران

١ تاريخ الناصر : ٢٨

٢ الروض المطار : ١٥

٣ جاء في التكملة : ٢٩٣ ما يدل على أن لابن عبد ربه أرجوزة في خلفاء الإسلام وأنه جعل
فيها معاوية الخليفة الرابع ولم يذكر علياً . وهذا أمر مستبعد ، ولم يقل أحد بوجود أرجوزة
لابن عبد ربه في غير غزوات الناصر .

٤ الخنوة : ٩٦

وما لي لا أبلى لسبعين حجة^١ وعشر أتت من بعدها سنان

وله في الناصر مدائح كثيرة ، منها قوله في ذكر غزاة المتلون^١ ، وهي أول غزاة له :

غادرت في عقوتي جيانَ ملحمة^٢ أبكيت منها بأرض الشرك أعلاجا
في نصف شهر تركت الأرض ساكنة من بعد ما كان فيها الجور قد ماجا
وجدت في الحبر المأثور منصلتاً من الحلائف خراجاً وولاجاً
تملا بك الأرض عدلاً مثلما ملئت جوراً وتوضح للمعروف منهاجا
يا بدر ظلمتها يا شمس صبحتها يا ليث حومتها إن هائج هاجا
إن الخلافة لن ترضى ولا رضىت حر عقدت لها في رأسك التاجا

وإلى هذه الغزوة نفسها أشار في أرجوزته بقوله^٢ :

ثم انتحى جيانَ في غزايه بعسكرٍ يسعرُ من حماته
فاستنزل الوحش من الهضاب كأنما حطت من السحاب
فأذعنت مراقها سراعاً وأقبلت حصونها تداعي
لما رماها بسيوف العزم مشحودةً على دروع الخزم
كادت لها أنفسهم تجود وكادت الأرض بهم تميد
لولا الإله زلزلت زلزالها وأخرجت من رهبة أثقالها

ولما رزق الناصر ابنه الحكم (٣٠٢) هنأه الشعراء ، ومما قاله ابن عبد ربه قصيدته^٣ :

١ المقد ٤ : ٤٩٩ وتاريخ الناصر : ٣٩

٢ المقد ٤ : ٥٠٣

٣ تاريخ الناصر : ٤٩

هلالُ نِماهُ المِجدُ واختارهُ الفِخْرُ تَلَقَّتْ به شمسٌ وأنجبهُ بَدْرُ
 على وجهه سِما المِكارِمِ والعُلا فضاءتْ به الآمالُ وابتهجَ الشَّعْرُ
 سلالةُ أملاكِ رَبيبِ خلائفِ أكْفُهُمُ بِرٌّ ونائِلُهُمُ غَمْرُ
 بدا لِصلاةِ الظهْرِ نَجْمُ مِكارِمِ تَحُفُّ به العَلْيَا وَيَكْنُفُهُ الفِخْرُ

شعره

يقع شعره بين قطبين ويشغل مرحلتين : أما القطبان فهما البديهة والكذب الذهني ، ففي كثير من أخباره ما يدل على أنه كان ينظم على البديهة ، ويتناول أقرب سحابة إليه ويكتب عليها دون تنقيح ؛ كذلك فعل حين سمع غناء الجارية مصابيح ، وكذلك فعل أيضاً حين دخل على القائد أبي العباس ابن أبي عبدة يتنجزه حاجة ، فكتب إليه ١ :

ما ضَرَّ عندكَ حاجتي ما ضَرَّها عُدْرًا إذا أعطيتَ نَفْسَكَ قدرها
 انظُرْ إلى عَرَضِ البلادِ وطولها أولستَ أكرمَ أهلِها وأبرَّها
 حاشا لجودِكَ أن يُوعَرَ حاجتي ثِقَتِي بجودِكَ سَهَلتَ لي وَعَرَّها

ولكن ليس كل شعره يحمل طابع الخفة الارتجالية ، ففيه ما يدل على أنه كان يتعب في حوكة ، ويعتمد فيه الإعمال ليحصل على الطرافة والغرابة ، ولكنني أعتقد أنه مرن على النظم حتى أصبح لا يعيه القول ، أعني أصبح النظم بطاوعه على نحو لا يحتاج فيه إلى استثارة عاطفية عميقة أو شديدة ، ولذلك تراه غسيل الشعر ، لا من حيث أنه لا يعنى بالمبنى الشعري وما يحتاجه أحياناً من بديع ، ولكن من حيث أن التيار العاطفي في شعره مفقود أو مختق ،

حتى في أشد الحالات التي يمكن أن تثور فيها عاطفة ، كوت أبنائه ، وقد يجيء شعره رقيقاً في الظاهر ، ولكن الحفاء أغلب عليه ، ومن عجب أن الأندلسيين سموه مليح الأندلس ، ونسبوا إلى المتنبّي الإعجاب به ، فهذا أمر مستغرب ، وبخاصة وأن النوع الذي أنشدوه له نموذجاً للملاحة ليس فيه ملاحظة ولا عليه طلاوة .

وأما المرحلتان فهما مرحلة الشباب ومرحلة الشيخوخة ، وقد شاء هو أن يحدث هذه القسمة في شعره ، فأكثر في المرحلة الأولى من الشعر الغزلي ، ثم عاد ينقض على نفسه ما قاله بأشعار يقولها في الزهد والتذكير بالموت وذم الحياة الدنيا ، وهذا النوع الثاني سماه « المحصنات » . فقد يقول في الشباب مثلاً ذاكراً بعض صبوته ١ :

هلاًّ ابتكرتَ ليينِ أنتَ مُبتَكِرُ هيهاتِ يَأبَى عَلَيْكَ اللهُ وَالْقَدَرُ
ما زلتُ أبكي حذارَ الينِ مُلْتَهِفاً حتى رثى لي فيكَ الريحُ والمطرُ

(وذكر الريح والمطر لأن السماء أمطرت وهبت الريح فحالت بين محبوبه وبين الرحيل) ، فيمحص هذه القطعة بقوله :

يا عاجزاً ليس يَعْفو حينَ يَفْتَدِرُ ولا يُقْضَى له من عيشة وطَرُ
عابنُ بقلبِكَ إنَّ العَيْنَ غافلةٌ عن الحقيقةِ واعلم أنها سَقَرُ

فإذا عرفنا أنه عارض كل قطعة قالها في صباه بقطعة من المحصنات ، وجدنا كيف أنه ضاعف كمية شعره ، في المرحلتين . فهما مرحلتان تمثلان نزعيتين طبيعيتين ، ولكني لا أرى فرقاً بينهما من وجهة النظر الفنية ، لأن ابن عبد ربه لم يتثقل نفسه في المرحلة الثانية من ذنوب وآثام أقصت مضجعه

١ الجذوة : ٩٤ - ٩٥ والمطبع : ٥١ ، ٥٣

في المرحلة الأولى ، أعني أن تجربته في الحالين كانت تجربة كلامية ، وكانت صورتها هذا الفيض الكثير من النظم ، وتقرأ شعره في الزهد ودم الحياة فلا نجد إحساساً حقيقياً بمعنى الخوف ، ولا تشفُّ إلا قطعاً قليلة عن الصدق العاطفي في هذه الناحية كقوله ١ :

ألا إنما الدنيا غَضَارَةٌ أَيْكَةٌ إذا اخضرتَّ منها جانبٌ جفَّ جانبٌ
هي الدارُ ما الآمالُ إلا فجائعٌ عليها ولا اللذاتُ إلا مصائبُ
وكم سخَّنتُ بالأمسِ عينٌ قريرةٌ وقرتْ عيونٌ دمنعها اليوم ساكبُ
فلا تكتحلُ عيناكَ فيها بعبيرةٍ على ذاهبٍ منها ، فإنك ذاهبُ

وبين هاتين المرحلتين تقع مرحلة البكاء على الشباب ووصف المشيب ، وربما كان شعره في هذه الناحية أصدق وأحفل بالشعور كما في قوله ٢ :

قالوا شبابُكَ قد مضتْ أيامُه بالعيشِ ، قلتُ وقد مضتْ أيامي
لله آيةٌ نعمةٌ كان الصبَا لو أنها وُصِلتْ بطولِ دوامِ
حسَرَ المشيبُ قناعه عن رأسه وصحا العواذلُ بعد طولِ ملامِ
فكأنَّ ذاكَ العيشَ ظلُّ غمامةٍ وكأنَّ ذاكَ اللهُو طيفُ منامِ

ومن ثم لا نجد لابن عبد ربه فلسفة في الحياة ، عدا نظرتَه إلى الأشياء من الزاوية الدينية ، أو ممّا قد يستوحيه من خلقية أساسها الدين نفسه — لقد حالت روحه المحافظة بينه وبين كثير من العمق ، ومبلغ ما لديه من هذا مستمد من طبيعته المتشائمة المشمولة بسوء الظن ، الناظرة إلى الدنيا من طرف الموت والآخرة ، فالحياة مزارع والناس إنمّا يقاس فضلهم بما يخلقونه

١ الخدوة : ٩٦ والعقد ٣ : ١٧٥

٢ العقد ٣ : ٤٧

من ذكر^١ :

إنَّ الحياةَ مزارعٌ فازرعَ بها ما شئتَ تحصدُ
والناسُ لا يبقى سوى آثارِهِم ، والعينُ تُفقدُ

وهذه الحياة لا يَغنى فيها إلا اللثيم^٢ :

أرى كلَّ قَدَمٍ قد تبجَّحَ في الغنى وذو الظَّرْفِ لا تلقاهُ غيرَ عديم

والحياة تنقل من سيء إلى أسوأ ، ولا يتبقى فيها إلا حثالة تضم أهل
اللؤم والبخل ، أما الكرماء فقد ذهب عصرهم الذهبي^٣ :

أبا صالحٍ جاءت على الناسِ غفلةٌ على غفلةٍ بانَّت بكلِّ كريمٍ
فليت الأُلى بانوا يُفادونَ بالأُلى أقاموا ، فَيُفدى ظاعنٌ بمقيمٍ
ويا ليتها الكبرى فتطوى سماؤنا لها وتمدُّ الأرضُ مَدَّ أديمٍ
فما الموتُ إلا عيشٌ كلُّ مُبَخَّلٍ وما العيشُ إلا موتٌ كلُّ ذميمٍ
وأعذر ما أدمى الجفونَ من البكا كريمٌ رأى الدنيا بكفَّ لثيم

حتى الله يرزق الأنوك ويحرم العاقل^٤ :

رزقٌ من الله أرضاهمُ وأسخطني واللهُ للأنوكِ المعتوهِ رزاقٌ

إذن فالحياة ليس فيها إخوان ، وقيمتك فيها إنما هي بما تملك ،

١ المقد ١ : ٢٧٠

٢ المقد ٣ : ٣٥

٣ المقد ٢ : ٢٤٩

٤ المقد ٢ : ٣٥٠

فمالك وحده أخوك^١ :

نالوا نأيتَ عن الإخوانِ قلتُ لهم^٢ ما لي أخٌ غيرُ ما تُطوى عليه يدي

وهذا غير مستغرب من ابن عبد ربه ، وإن مال به قليلاً عن مثله العلياً الدينية ، لما في نفسيته من استعداد لرؤية السيئات ، فهو سريع الغضب ، حاد الطبع ، ميال إلى الذم ، وحسبك أن تجده حين مظه أحد الناس قد تخصص في هجائه لتلك الحادثة وحدها ، وقال فيها قطعاً كثيرة من الشعر أثبتها في العقد^٣ . فتلك النفسية هي التي كان يرى بها الحياة خالية من كل خير وأن من فيها كلاب^٤ :

وأيامٌ خلَّتْ من كلِّ خيرٍ ودنيا قد تَوَزَّعَها الكلابُ
كلابٌ لو سألتهمُ تراباً لقالوا عندنا انقطعَ الترابُ

وصورةُ الناس الغالبة أنهم صمُّ صلاب ، وتتدخل عصا موسى في الصورة فلا تفلح في أن تفجر منهم شيئاً^٥ :

حجارةٌ بخلٍ ما تجودُ وربما تفجَّرَ من صمِّ الحجارةِ ماء
ولو أنَّ موسى جاء يضربُ بالعصا لما انبجستُ من ضربه البُخلاء

والصورة نفسها مرة أخرى^٥ :

١ المقد ٣ : ٣١

٢ انظر ١ : ٢٩٢ وما بعدها .

٣ المقد ٢ : ٣٤٢

٤ المقد ١ : ٢٩٢

٥ المقد ١ : ١٣١

يراعةٌ غَرَّني منها وميضُ سناً حتى مدَدتُ إليها الكفَّ مُقْتَبِسا
فصادفتُ حجراً لو كنتَ تضربه من لؤمهِ بعضا موسى لما انبجسا

فالهجاء هو الموضوع الذي كان ابن عبد ربه مهياً له بطبعه ، وغايته
الفنية فيه أن يولّدَ معنى جديداً ؛ أما الموضوع الذي راض طبعه عليه وأسرف
فيه ولم يقصر عن بلوغ الإجادة فيه ، فذلك هو وصف المارك والحروب .
وقد أورد له أمثلة كثيرة منه في العتد ، وما تزال غايته فيه أيضاً التجديد في
المعاني . قال ١ : وقد وصفنا الحرب بتشبيه عجيب لم يُتَقَدِّمَ إليه ومعنى
بديع لا نظير له وذلك قولنا :

وجيشٍ كظهرِ اليمِّ تنفحهُ الصِّبا يعبُ عُبَاباً من قنأ وقنابل
فتنزُلُ أولاهُ وليسَ بنازلٍ وترحلُ أخراهُ وليسَ براحل

وعلى أن هذا معنى فيه شيء من الابتكار والتوجيه فإن وصفه للحروب
حين يجيء في نعمة قوية منحدره خير من تطلبه المعنى والاحتفال به .
وأبرز ما في شعر ابن عبد ربه أنه مجلّي لثقافته واطلاعه في نواحٍ
متعددة ، فثقافته الفقهية تجعله يقول - مثلاً ٢ - :

وما بعثُ الهوى بيعاً بشرطٍ ولا استثنيتُ فيه بالخيار

واطلاعه الواسع في الأمثال هو الذي يدفعه لتحويل كل بيت أحياناً
إلى مثل ، أو ليضمن شعره أمثالاً ، كقوله ٣ :

١ المقد ٣ : ٤٣
٢ المقد ٣ : ١٣٧ - ١٣٨
٣ المقد ١ : ٤٦

قد صرَّحَ الأعداءُ بالبينِ وأشرقَ الصبحُ لذي عينِ

ومنها ، وجعل في كل بيت مثلاً :

وعاد من أهواه بعد القلى شقيقَ روحٍ بين جسمين
وأصبح الداخل في بيننا كساقط بين فراشين
قد ألبسَ البغضةَ هذا وذا لا يصلحُ الغمدُ لسيفين

والنحو يملي عليه أن يقول ^١ :

أضحى لك التدبيرُ مُطَرِّداً مثلَ اطرادِ الفعلِ للإسم

وهذه أمور ظاهرة على السطح ، غير أن من تدبر تأثير ثقافته وجد روحها متغلغلة في شعره ، متدخلة في كيانه ، وشعره مبني على أمثال سابقة ، ويتضح هذا في محاولته أن ينظم أمثلة العروض ، فهو يختار بيتاً من المحفوظ ويجعله أساس بضعة أبيات من نظمه ، فعلى هذا البيت ^٢ :

« ربَّ نارٍ بتُّ أرمقُها تقضمُ الهندي والغارا »

يبني مقطوعته :

زادني لومك إصرارا إنَّ لي في الحب أنصارا
طارَ قلبي مِن هوى رشٍ لو دنا للقلب ما طارا
خذْ بكفتي لا أمتُ غرقاً إنَّ بحرَ الحب قد فارا

١ المقد ١ : ٤٦

٢ انظر المقد ٥ : ٤٤٧

أَنْضَجَتْ نَارُ الْهَوَى كَبْدِي وَدَمْعِي تُطْفِئُ النَّارَ
رَبَّ نَارٍ (البيت)

ومن هذا يتضح مدى انشغاله بالمعارضة حتى إنه حين شبع من معارضة الآخرين أخذ يعارض نفسه بالمحصات . فهو يعارض قصيدة مسلم ابن الوليد :

أَدِيرَا عَلَيَّ الرَّاحَ لَا تَشْرَبَا قَبْلِي وَلَا تَطْلُبَا مِنِّي عِنْدَ قَاتِلِي ذَحْلِي
بقصيدة مطلعها :

أَتَقْتَلِي ظُلْمًا وَتَجِدُنِي قَتْلِي وَقَدْ قَامَ مِنْ عَيْنِكَ لِي شَاهِدًا عَدْلٍ
وطريقته في المعارضة التزام المعاني الأصلية ومحاولة عكسها أو الزيادة فيها ، فإذا قال مسلم : لا تطلب ذحلي ، قال ابن عبد ربه :

أَطْلَابُ ذَحْلِي لَيْسَ بِي غَيْرُ شَادِنٍ بَعِينِهِ سِحْرٌ فَاطْلُبُوا عِنْدَهُ ذَحْلِي
فعكس المعنى عند صريع الغواني . وإذا تحدث مسلم أنه كتم الحب عن عاذله فاستراح من العذل قال ابن عبد ربه إنه يحب العذل لكي يذكر اسمها ولا شيء أحب إليه من العذل . وإنه حقاً كتم الحب كما كتمه مسلم ولكن الأسي هو الذي أخذ يعلنه بماء البكاء :

وَأَحْبَبْتُ فِيهَا الْعَذْلَ حُبًّا لَذَكْرَهَا فَلَا شَيْءَ أَشْهَى فِي فَوَادِي مِنَ الْعَدْلِ
كَتَمْتُ الْهَوَى جَهْدِي فَجَرَّدَهُ الْأَسَى بِمَاءِ الْبُكَاءِ ، هَذَا يَخْطُؤُ وَذَا يُعْلِي

ويزمى بهذا الذي فعله ويقولون مفتخراً : « فمن نظر إلى سهولة هذا الشعر مع بديع معناه ورقة طبعه لم يفضلته شعر صريع الغواني عنده إلا بفضل

التقدم»^١. وتعجبه صورة يعثر عليها فيفتخر بأنه جاء بالغريب الذي لم يسبق إليه في مثل قوله :

حوراء داعبها الهوى في حورِ حكمتُ لواحظها على المقدورِ
نظرتُ إليَّ بمقلتي أدمانةً وتلفتتُ بسوالفِ اليعفورِ
فكأتما غاص الأسى بجفونها حتى أتاك بلؤلؤٍ منشورِ

والصورة التي يعنيها هي التي في البيت الثالث حين رأى في الأسى صورة صائد اللؤلؤ فغاص بين جفونها واستخرج لؤلؤاً منشوراً هو دموعها . والصورة بالنسبة لأذواقنا اليوم قد تكون نائية وبخاصة اقتران الغوص بالعين ، ولكنها كانت مما يعجب الأندلسيين حتى تداولها من بعد ابن عبد ربه غير واحد منهم . والحق أن هذه الأبيات تدل جيداً على مذهب ابن عبد ربه في الشعر ، وإن كانت كل الأبيات التي أوردتها لنفسه في العقد هي فيما كان يراه من مختار شعره ، ولكن يرى في هذه الأبيات ونظائر لها « رقة التشبيب وحسن التشبيه البديع الغريب الذي لم يسبق إليه » ، وهذا هو مقياسه الفني لما يستحسنه من شعره .

وهناك معارضة لا تنتزم روي القصيدة التي يعارضها وإنما هو ينظر فيها إلى معاني قصيدة سابقة ثم ينشئ قصيدة تتضمن هذه المعاني مع شيء من التقلب والتغيير والعكس والإسهاب . وأبرز مثل على ذلك قصيدة له يصف فيها القلم ، فإنه قد نسخ فيها بعض معاني أبي تمام في وصف القلم ، ذلك الوصف الذي أدهش الأندلسيين ، ومن المعاني التي استعارها قوله :

يَنْطِقُ فِي عَجْمَةٍ بَلْفِظْتَهُ تَصَمَّ عَنْهَا وَتُسْمِعُ البَصْرَا

١ العقد ٤ : ٣٩٨ وما بعدها .

إذا امتطى الخنصرين أذكر من سبحان فيما أطال واختصرا
شخت ضئيل لفعله خطر أعظم به في ملامة خطرا
تمج فكاه ريقة صغرت وخطبها في القلوب قد كبرا

وهذا شيء أخفى من المعارضة التي تم مع الاحتفاظ بالوزن والروي .
وهناك نقطة جديرة بالنظر وهي أن ابن عبد ربه خلد بعض شعره في
العقد . ووقف في بعض المواطن معجباً وهو يضع أشعاره إزاء أشعار
المشاركة . ولكنه ، فيما يبدو ، لم يكن يعترف للأندلسيين بكثير من الحظ
في الإجابة . وكانت الموضوعات المتنوعة التي طرقها كفيلا أن تجعله يستشهد
عليها بشعر أهل بلده — لم يعترف إلا للغزال بأنه يستحق أن يوضع في صف
المشاركة ، بعد اعترافه الكبير بنفسه ، وإلا عرضاً لشاعر أو لآخر ، مثل
مؤمن بن سعيد ، ثم لأنه لم يختر للغزال أجود قطعه ؛ أتراه كان يحس إحساساً
خفياً بأنه لا يتنازل عن مرتبة التقدم في الشعر للغزال أو لغيره ؟ أكبر الظن
أن تقديره لنفسه قد حجب عنه حقيقة من تقدمه من الشعراء ، وربما لم يحاول
أن يبرز مكانة الغزال في اختياره ، لئلا يقلل من شأن الصورة الأندلسية التي
رسمها لنفسه .

وقد كان ابن عبد ربه محط إعجاب الناس في عصره وبعده . ويقول
فيه ابن شرف : « وأما ابن عبد ربه القرطبي ، وإن بعدت عنا دياره فقد
صاقتنا أشعاره ، ووقفنا على أشعار صبوته الأنيقة ، ومكفرات توبته الصدوقة ،
ومدائحه الروائية ، ومطاعته في العباسية ، وهو في كل ذلك فارس ممارس
وطاعن مداعس . واطلعنا في شعره على علم واسع ومادة فهم مضيء ناصع ،
ومن تلك الجواهر نظم عقده وتركه لمن تجمل بعده »^١ . وتفيدنا هذه الكلمات

حقيقة جديدة واحدة نضيفها إلى ما تقدم وهي أن هناك مطاعن لابن عبد ربه في الدولة العباسية ، ولكن هذا الشعر لم يصلنا ، وما وصلنا من شعر ابن عبد ربه ، على أنه نسبياً كثير ، ليس شيئاً بالنسبة لمجموع شعره كله ، فقد كان شعره كثيراً بشهادة الحميدي ، وقد رأى منه نيفاً وعشرين جزءاً مما جمع للحكم المستنصر^١ .

وخلاصة القول فيه أن المتقدمين من النقاد والمتذوقين كانوا يعجبون به ، وبخاصة قدرته على النظم ، ومحاولته الاهتداء إلى المعاني الجديدة ، وكانوا يطربون إذا سمعوه يقول^٢ :

يا ذا الذي خطَّ العذارُ بِخَدِّه خطَّينِ هاجا لوعةً وبلا بلا
ما كنتُ أعلمُ أنَّ لحظتكُ صارم حتى لبستَ بعارضيكَ حمائلا

يطربون للموضوع وللصورة التي ولدها فيه ، وكانوا يتناقلون قوله^٣ :

الجسمُ في بلدٍ والروحُ في بلدٍ يا وحشةَ الروحِ بلِ يا غرْبَةَ الجسدِ
إن تبكِ عينكُ لي يا مَنْ كلِّفتُ به من رحمةٍ فهما سَهْمَاكَ في كبدي

كانت تعجبهم الأناقة في التفسير والتسويغ ، والطرافة في التلاعب بالصور والمعاني ، أعني كانوا مأخوذين بالحيلة الفنية أكثر من إعجابهم بالكيان الفني . ولكنَّ تغيرَ نظرتنا إلى الشعر في جانب من موضوعاته وفي الطريقة الفنية لا يجعل من ابن عبد ربه شاعراً مقدماً .

١ الخنوة : ٩٤

٢ المطح : ٥٢

٣ الخنوة : ٩٥

٢ - أبو عمر

يوسف بن هارون الرمادي الكندي

٤٠٣ هـ

الجنوة : ٣٤٦ وبغية الملتبس رقم : ١٤٥١ والصلة : ٦٣٧
والمطرب : ٤ والنفح : ٢ : ٤٤٠ والمغرب ١ : ٣٩٢
ومسالك الأبصار ١١ : ١٧٥ والمطمح : ٦٩ وابن خلكان رقم : ٨١٩
واليتيمة ١ : ٤٣٥

في تلقيه بالرمادي رأيان ، أحدهما أنه كان يلقب بالإسبانية بأبي جنيش - كما يقول ابن بشكوال - فغرب هذا اللقب إلى الرمادي ، والثاني أن هناك قرية تسمى رمادة عددا ابن سعيد من قرى شلب ، وعددا الحميدي من بلاد المغرب - دون تحديد - وقطع ابن سعيد بنسبته إليها ورجح الحميدي أن يكون أحد آبائه منها .

عاش أكثر أيامه في قرطبة ، ويبدو أنه قصد لها للدراسة ثم أصبح مدرساً فيها ؛ قال ابن سعيد في ترجمة الأمير أرقم بن عبد الرحمن من بني ذي النون : إنه قرأ في قرطبة على الرمادي الشاعر^١ . كذلك روى عنه مصعب ابن الفرضي^٢ ، وأخذ عنه ابن عبد البر قطعة من شعره وضمنها بعض كتبه ، أما هو فقد اكتسب صناعة الأدب عن شيخه أبي بكر ابن هذيل الكفيف ،

١ المغرب ٢ : ١٤

٢ الجنوة : ٣٤٧ ، ٣٤٨

علم أدباء الأندلس في عصره . ويمثل ابن هذيل الحلقة التي تصل بين ابن عبد ربه والرمادي لأنه تأثر بالأول وأثر في الثاني في المذهب الشعري . ولما ورد القالي (٣٣٠) في أيام عبد الرحمن الناصر تلقاه الرمادي ومدحه بقصيدة مطلعها ^١ :

مَنْ حَاكَمُ بَيْتِي وَبَيْنَ عَذُولِي الشَّجْوُ شَجْوِي وَالْعَوِيلُ عَوِيلِي

ثم انضم إلى جماعة المستفيدين منه ، فقرأ عليه كتاب النوادر . وارتفع شأن الرمادي في أيام الحكم وأصبح مقدماً على سائر الشعراء ، وربما غادر قرطبة بعض الوقت في هذه الفترة من حياته وقصد عبد الرحمن ابن محمد التجيبي صاحب سرقسطة ومدحه بقصيدة أولها ^٢ :

قِفُوا تَشْهَدُوا بِي وَإِنكَارَ لَائِمِي عَلِيَّ بَكَائِي فِي الدِّيَارِ الطَّوَّاسِمِ

وراء هذه الرحلة قصة حب ، فقد رأى الرمادي ذات يوم ، وهو يتنزّه في رياض بني مروان ، امرأة جميلة علقها قلبه ، وحادثته وحادثها وأخبرته أنها أمة ، وأن ثمنها على صاحبها ثلاثمائة دينار . فلما قصد الرمادي ممدوحه التجيبي بسرقسطة ذكر له حاله وشبب في القصيدة بخلوة - وهو اسمها - فأعطاه الممدوح ثلاثمائة دينار ذهباً سوى ما زوده به من نفقة الطريق مقبلاً وراجعاً . وعاد الشاعر إلى قرطبة يبحث عن هواه في كل مكان حتى كاد ييأس ، وذات يوم دعاه بعض إخوانه لزيارته ، فلبى الدعوة ، ولما دخل عليه أجلسه في صدر مجلسه ، ثم قام لبعض شأنه ، فلم يشعر الرمادي إلا بالستارة

١ الخذوة : ٣٤٧ والقصيدة مثبت أكثرها في البيتية ١ : ٤٣٥ وبعضها في المعجب : ١٦ والنفع

٢ : ٧٢٦

٢ الخذوة : ٣٤٨

المقابلة له قد رُفعت ، وإذا هي خلوة أمامه ، فقال لها : أنت مملوكة أبي فلان ؟ (يعني صديقه) قالت : لا والله ولكني أخته . قال الرمادي : « فكأن الله تعالى محبا حبها من قلبي ، وقمت من فوري واعتذرت إلى صاحب المنزل بعارضٍ طرقي وانصرفت »^١ .

ولما أمر الحكم الأندلسي بإراقة الخمر في سائر جهات الأندلس ، أبدى الرمادي أسفه لذلك وتوجع لشاربيها ، وذكر الحكم بقصة أبي حنيفة الذي شفع في جاري له سكير ، وقال^٢ :

بِخَطْبِ الشَّارِبِينَ يَضِيقُ صَدْرِي وَتُرْمِضُنِي بِلَيْتِهِمْ لَعَمْرِي
وَهَلْ هُمْ غَيْرُ عَشَاقٍ أُصِيبُوا بِفَقْدِ حَبَائِبٍ وَمُنَا بِهِجْرٍ

ثم تقلبت الأحوال بالرمادي ، فاتهم في أيام الحكم أيضاً مع جماعة من الشعراء بشعر ظهر في ذم السلطان ، ومنه هذا البيت :

يُولِّي وَيَعْزَلُ مِنْ يَوْمِهِ فَلَا ذَا يَتِمُّ وَلَا ذَا يَتِمُّ

قال صاحب المطمح^٣ : « وشاعت عنه أشعار في دولة الخليفة وأهلها ، سدد إليهم صائبات نبلها ، وسقاهم كؤوس مهلها ، أوغرت عليه الصدور ، وفغرت عليه المنايا ولكن لم يساعدها المقدور ، فسجنه الخليفة دهرأ ، وأسلكه من النكبات وعراً » . وأخذ الرمادي في سجنه ينظم الأشعار الكثيرة متشوقاً إلى التحرر والخلاص حيناً ، وعمل وهو مسجون كتاباً سماه « كتاب الطير » في أجزاء ، وكلته من شعره ، وصف فيه كل طائر

١ الخنوة : ٣٤٧ ، وطوق الحماة : ٢٢ - ٢٣

٢ الخنوة : ١٤ والمعجب : ١٤

٣ المطمح : ٧٢

معروف ، وذكر خواصه ، وذيل كل قطعة بمدح ولي العهد هشام بن الحكم ، ليشفع فيه لدى أبيه^١ ، وقد رأى الحميدي هذا الكتاب بخط الرمادي ونسخ منه شيئاً من الشعر . إننا لا نرتاب في رواية الحميدي لأنه ثقة دقيق في ما يقوله ويرويه ، ولكن كيف نوفق بين هذه الرواية السابقة وقول ابن حيان في المقتبس (حوادث : ٣٦١) « وفي يوم السبت لحمس بقين من جمادى الآخرة منها أوقع صاحب المدينة بالزهراء محمد بن أفلح عن عهد الخليفة بالعصبة البطراء من أهل قرطبة ، المستخفين بالطاعة العاملين بذرب الألسنة ، أنبهم عيسى بن قرمان الملقب بالزبرائة الكاتب الشاعر ، ومؤنس الكاتب مولى الأخ المنذر بن الناصر ، وأحمد بن الأسعد الملقب بصدام الكاتب ، وجماعة إليهم ، رموا بالاستخفاف والتعطيل والغمص للخليفة والوقوع في أعراض الناس ونشر مثالبهم ، في أشعار يجتمعون على صوغها ويتبارون فيها ، فرأى أمير المؤمنين دفع أذاهم وقطع مضرتهم بنفيهم من الأرض وإيداعهم السجن والإبلاغ في إهانتهم جزاء بما كسبت أيديهم وما زورت ألسنتهم ، وما الله بظلام للعبيد . فأحضى الطلب عنهم وأودع السجن من ظفر به منهم ، وفات بعضهم ، فكان ممن ألصق الطلب له والبحث عنه من مستخفيهم يوسف بن هارون البطليوسي الشاعر المعروف بأبي جنيش زعيمهم ، غاب مدة والطالب له حثيث والنداء عليه متصل ؛ فلماً أن أيقن أن البقاع لا تليقه والأرض لا تحمله ، أهدى نفسه كالعبد مستبلاً لحنفه ، فأقبل مغيراً طلعه ، شاداً حيازيمه ، واضعاً لبدأ له فوق رأسه كيما يتوطأه في السجن ، فلم يؤبه له حتى انتهى إلى باب السجن بالزهراء ، فقال لبوابه : أنا فلان المطلوب الذي تعلمون خبره ، قد أتيتكم بنفسي ولا مرحب بي ، فضموني في

الدرك الأسفل ، وعرفوا صاحب المدينة بحصولي . فابتدروه وأصدوه
وعجلوا إلى صاحب المدينة محمد بن أفلح بنجره ، فأمرهم بتقديمه إلى مجلسه
بكرسي الشرطة بقصر الزهراء ، مغلولاً بجبلٍ في عنقه ؛ ففعلوا ذلك وقيد
برمته من باب السجن إلى كرسي المدينة ، وكتب صاحب المدينة محمد بن
أفلح إلى الخليفة الحكم يعرفه بمكان يوسف وما كان من إذعانه ومجيئه من
ذاته خاضعاً محكماً في نفسه . فرق له الخليفة وعهد بإطلاق سبيله . وبعد
أيام من قصة يوسف بن هارون أمر الخليفة الحكم بإطلاق سبيل عيسى بن
قرلمان الكاتب الشاعر وأصحابه الذين تقدم سجنهم بمثل جريرته ، فتقدم
إليهم بنجرن ألسنتهم والانتفاء لمعاودة قرفتهم ، وختلى سبيلهم وذلك في عقب
شعبان من هذه السنة ^١ .

فهذه الرواية تقول إن أبا جنيش لم يسجن ولكنه هام على وجهه مدة أيام
ثم سلم نفسه إلى صاحب المدينة . وإن الخليفة لما عرف ذلك أطلق سراحه ،
بل إن المتهمين الآخرين لم يبقوا في السجن إلا شهراً وأسبوعاً أو قريباً من
ذلك ؛ وهي مدة لو فرضنا أن الرمادي أقامها في السجن لما كانت كافية
لتأليف كتاب الطير فكيف وهو لم يقيم في السجن ولا عشر هذه المدة ؟
هل معنى ذلك أننا إزاء روايتين منفصلتين وأن كل رواية منهما تتحدث عن
واقعة معينة في حياة الرمادي ؟ ذلك هو ما نرجحه لأن الدقة التفصيلية في
رواية ابن حيان لا تدع لنا مجالاً لمناقشتها .

ويبدو أن هذه الأحداث أو ما شابهها اضطرتته إلى مغادرة قرطبة ، فغادرها
إلى شنترين بغرب الأندلس ، وواليتها يومئذ فرحون بن عبد الله بن عبد
الواحد ، فأمر بإنزاله فقصر به متولّي ذلك ، فكتب إليه الرمادي ^٢ :

١ المقتبس : ٧٣ - ٧٥ (ط . بيروت) .

٢ الخلة : ١٢٩ .

وإن جثتها بالشمس والبدر والحيا
بعبد العزيز ابن الخلائف والذي
جميع المعالي تنتمي حيث ينتمي
مُفَاخِرَةً جاءت بأسنى وأكرم

وأصبح الرمادي في أيام المنصور بن أبي عامر من الشعراء الذين يترددون
إليه ، ولم تصلنا أمداحه فيه ، ولكن ممّا يدلنا على قرب منزلته منه ما حدثنا
به المقري؛ فقد روى أن المنصور قال له يوماً: كيف ترى حالك معي؟ فقال
الرمادي: « فوق قدري ودون قدرك » ، فأطرق المنصور كالغضبان ، وانسلّ
الرمادي خارجاً وقد استشعر الندامة ، وأخذ يؤنب نفسه ويقول : أخطأتُ ،
لا والله ما يفلح مع الملوك من يعاملهم بالحق ، ما كان ضرّتي لو قلت « إني
بلغت السماء وتمنّقت بالجوزاء لا حول ولا قوة إلاّ بالله » وانتهز
هذه الفرصة بعض حساده فأخذ يغري به المنصور ويقول : « هذا الصنف
صنف زور وهذيان ، لا يشكرون نعمة ، ولا يرعون إلاّ ولا ذمة ، كلاب
من غلب وأصحاب من أخصب ، وأعداء من أجذب » ، فاستاء المنصور
من هذا الحسود الباغي وألقى عليه درساً خلقياً قاسياً ، وأفهمه أنّه ما أطرق
غضباً وإنما أطرق تعجباً من كلام الرمادي « لأنه رأى كلاماً يجلب عن الأقدار
الخليلة » ، ثم أمر بالرمادي فردّ إلى المجلس وقال له : أعيدْ علي كلامك ،
فارتاع ، فطمأنه المنصور وقال له : الأمر على خلاف ما قدرت ، الثواب
أولى بكلامك من العقاب ، ثم أجازته بمالٍ وتخلّع وموضعٍ يتعيش منه .
ويذهب صاحب المعجب^٢ إلى أن هذه العلاقة الطيبة ساءت بعد نكبة
المصحفي ، لأن الرمادي ، فيما يزعمه ، كان مشابِعاً للمصحفي وأغراه هذا
بهجاء المنصور . فلما حدثت نكبة المصحفي ، واستصفيت أمواله ، التفت

١ باختصار عن النسخ ٢ : ٨٦٨

٢ المعجب : ١٦

المنصور إلى الرمادي وأوسع عقوبة ونكالا ، وأمر بتغريبه ثم شفع له عنده ، كما شفع للغزال عند عبد الرحمن ، فأقره في بلده ، ولكنه بدله بالتغريب عقوبة أنكى وأشد حين أمر الناس ألا يكلموه ، وطاف بذلك مناد في جميع جهات قرطبة ، فأقام أبو عمر هذا كالميت إلى أن أدركته منيته في أواخر أيام المنصور بن أبي عامر .

وهذا كلام يستحق التوقف والنظر ، ذلك لأن نكبة المصحفي تمت في سنة ٣٦٧ أي بعد سنة من وفاة الحكم تقريباً ، فعلاقة الرمادي بالمصحفي لا تؤهله ليكون مقرباً من ابن أبي عامر كما تقول الروايات الأخرى ، ولا تجعل ابن سعيد يقول في وصف له : إنه كان من مُدّاح المنصور بن أبي عامر^١ . ثم لو فرضنا أن المنصور غضب فعلاً على الرمادي ، فلا يزال هناك خطان واضحا في هذه الرواية : الأول أنه من غير المعقول أن يظل الحرمان سارياً على الرمادي حتى حوالي سنة ٣٩٣ أي أن تظل الصلة بينه وبين الناس مقطوعة طوال هذه المدة ، وكان من الخير له لو نفى أو هاجر من قرطبة ، فشفاعة الناس فيه كانت ضرراً وبيلاً عليه . والثاني أن الرمادي لم يمّت في أواخر أيام المنصور بل من المؤكد أن العمر امتد به ، فشهد عهد المظفر وحضر الفتنة ؛ قال صاحب المطمح في أسجاعه : « وتمادى بأبي عمر طلق العمر ، حتى أفردته صاحبه ونديمه ، وهريق شبابه واستشنّ أديمه ، ففارق تلك الأيام وبهجتها ، وأدرك الفتنة فحاض بلحّتها ، وأقام فرقاً من هيجانها ، شرقاً بأشجانها ، لحفته فيها فاقة نهكته ، وبعدت عنه الافاقة حتى أهلكته »^٢ . ومعنى هذا الكلام أنه كبرت سنه ، وأدرك عام ٤٠٠ وافتقر في أواخر أيامه ، وهذا يصدقه

١ المغرب ١ : ٢٩٢

٢ المطمح : ٧٠

قول ابن بشكوال إنه توفي يوم عيد العنصرة (٤ حزيران) سنة ٤٠٣ ، وكان حينئذ فقيراً معدماً ، ودفن بمقبرة كلع^١ .

شعره

شعره كثير ، متعدد القتون ، كسب له شهرة عامة في عصره بين الخاصة والعامة ، ونفق به عند الكل حتى كان كثير من شيوخ الأدب في وقته يقولون : فتح الشعر بكندة وخم بكندة ، يعنون امرأ القيس والمنتبي والرمادي^٢ ، لأن الرمادي كندي التسمية أيضاً ، ومعاصر للمنتبي . وليس لدينا خبر يفيد أن شعره كان مجموعاً في ديوان ، ولكن نقل بعضهم عن الرمادي عدداً من قصائده مباشرة ، منها ما نقله ابن عبد البر - كما تقدم - ومنها سبع قصائد أنشدها أبو بكر ابن القرضي رواية عن الرمادي ، هذا عدا ما ضمنه من شعره كتاب الطير الذي رآه الحميدي . ويقول الحميصدي أيضاً إنه سريع القول^٣ ، كأنه يعني أنه يعتمد على ما يشبه البديهة ، ولكن الناظر في كثير مما بقي من شعره يحس بالجهد والتروي ، والغوص والتعمق .

وقد انتهى إليه الموروث الشعري كما يمثلته الغزال من ناحية وابن عبد ربه من ناحية أخرى ، من خلال أستاذه ابن هذيل ، فترع فيه وأغرق . وتجاوز حدود هؤلاء الثلاثة الكبار خطوة جديدة في المغالاة . ويبدو أن صلته بابن هذيل ترجع إلى أوائل عهده بالشعر ، وأنه كان إذا أعجبه قطعة لأستاذه عارضها أو ناقضها ؛ وهو يحكي عن نفسه أنه بكر ذات يوم إلى

١ الصلة : ٦٣٨ ، وانظر أيضاً المطرب : ٤ ؛ وذكرت المصادر ابنيين من أبناء الرمادي هما أحمد وعلي وكلاهما شاعر إلا أن الثاني أشهر في الشعر من الأول (انظر التكملة : ١٨ - ١٩) .

٢ الجنوة : ٢٤٦

٣ انصدر نفسه

باب أبي المطرف بقرطبة ، فلقي يحيى بن هذيل قد بكر قبله . فسأه ابن هذيل
 عما جدّ له من شعر فقال له : ليس عندي كبير معنى ولكن ما عندك أنت ؟
 فأخرج ابن هذيل قصيدة منها :

ومرّنة والدّجنُ ينسجُ فوقها برّدينِ من حلّكِ ونوءِ باكي
 مالتُ على طيّ الجناحِ وإنما جعلتُ أريكتها قضيبَ أراكِ
 وترنمتُ لحنينٍ قد خلّتهما كغناء مسمعة وأنتَ شاكي
 ففقدتُ من نفسي لفرطِ صبايبي نفّس الحياة وقلتُ: مَنْ أبكاكِ؟

فأعجب بها الرمادي ، فقال له ابن هذيل : انصرف إلى المكتب وتأدب
 حتى تحسن مثل هذا . قال الرمادي : فحركني كلامه ، ثم بكر إليه وأنشده :

أحمامةٌ فوقَ الأراكةِ بيّتي بحياةٍ من أبكاكِ ما أبكاكِ
 أما أنا فبكيتُ من حرقِ الهوى وفراقِ مَنْ أهوى ، أنتَ كذاك ؟

فلما سمعها ابن هذيل قال له : أعارضتني ؟ فقال : لا ، إنتما ناقضتكم .
 فقال ابن هذيل : اذهب فقد أخرجتك من المكتب .

فمن هو ابن هذيل الذي تتلمذ عليه الرمادي وما هي طريقته ؟

هو يحيى بن هذيل بن عبد الملك بن هذيل ، تميمي النسب قرطبي يكنى
 أبا بكر ، ولد سنة ٣٠٥ وتلمذ على قاسم بن أصبغ وابن أيمن وأحمد بن خالد
 ثم غلب عليه الشعر ، وكان الذي لفته إلى الإمعان في الوجهة الأدبية حضوره
 جنازة ابن عبد ربه (٣٢٨ هـ) وهو يومئذ شاب ، فراعته ما رأى من احتشاد
 الناس وسأل عن الجنازة فقيل له : إنها لشاعر البلد ، قال : « فوقع في نفسي

١ نثار الأزهار : ٨٢ وبعض أبيات ابن هذيل في البيتة ١ : ٣٦٧ كما أن بيتي الرمادي في

المطرب : ٦

أبها العارض والمُهدي لمستسقيه وبئلا
حين لا يُهدي إذا ما استسقي العارض طلاً
قائداً أفنت مغازيه العدى سياً وقتلا
إن ضيفاً قاصداً قلت له أهلاً وسهلاً
ما له فرش على الأرض سوى وجه مُصلى
فأنا لولا [] ردة منه الوعر سهلاً
لم تجد عيني لنوم بمبيتِ السوء كحلاً

فوردت الأبيات على فرحون وهو خارج إلى الغزو ، فخجل من ذلك
وأمر له بما طلب ، وقرن بذلك جارية وكتب إليه معتذراً مما حدث .
وكان من ممدوحيه في هذه الفترة ابن القرشية وهو عبد العزيز بن المنذر
أخي الحكم المستنصر ، وله فيه قصيدة ذكرها حبيب العامري في كتابه
البديع في فصل الربيع لأنه وصف فيها الأزهار ، ومنها :

تأمل بإثر الغيم من زهرة الثرى
كأن الربيع الطلق أقبل معرباً
تعجبت من غوص الحيا في حشا الثرى
كأن الذي يسقي الثرى صرف قهوة
أرى حسناً في صفحة قد تغيرت
ألا يا سماء الأرض أعطيت بهجة
وإن قالت الأرض المتعم روضها
فخضرة ما فيها تفوقك خضرة
حياة عيون مثن قبل التغميم
بطلعة معشوق إلى عين مغرم
فأفشى الذي فيه ولم يتكلم
تم عليه بالضمير المكتم
كبشر بدا في الوجه بعد التجهم
تطالعنا منها بوجه مقسم
لي الفضل في فخري عليك فسلمي
ونوارها فيها ثواقب أنجم

الرجبة في الشعر واشتغل فكري بذلك» : وقد جعلته مثابرتة على إحراز الشهرة الشعرية شاعر وقته أيضاً حتى قال فيه ابن الفرضي : « كان شاعر وقته غير مدافع » ؛ وقد كان له ديوان أجاز روايته لابن الفرضي الذي كتب عنه شيئاً من الحديث والشعر ، وقد طال عمره وكف بصره ، وكانت وفاته ليلة الأربعاء ١٣ ذي القعدة سنة ١٣٨٩ .

وكانت علاقته طيبة بأستاذه ابن القوطية ، وقد ذهب مرة لزيارته في ضيعة له فألفاه خارجاً منها ، فاستبشر بلقائه وابتدأه بيت حضره على البديهة فقال :

من أين أقبلت يا من لا شبَّيه له^١ ومن هو الشمس والدنيا له فلك^٢
فأجابه مسرعاً :

من منزلٍ يعجب النَّسَّاكُ خلوته وفيه سترٌ على الفُتَّاكِ إن فتكوا
قال ابن هذيل : فما تمالكت أن قبَّلت يده ، إذ كان شيخي وأستاذي^٣ .
وقد أقام ابن هذيل شعره على الصنعة المنحوتة وطلب الصورة الغريبة مجانباً
طريقة الغزال في قلة الاحتفال بالصقال ، فمما يلتزم ابن هذيل فيه المطابقات
وحب التصوير قوله^٣ :

فأنا الطائعُ المشوقُ لمنْ صا رَ يرُبني الخوانُ في عِصْيَانِهِ^٤

١ ترجمته في الجنوة : ٣٥٨ والبقية رقم : ١٩٤٥ وابن الفرضي ٢ : ١٩٣ ونكت الهميان :

٣٠٧ وله شعر كثير في التشبيات وبعض مقطعات في اليتيمة ٢ : ١٤ ومساك

الأبصار ١١ : ١٧٣

٢ اليتيمة ٢ : ٧٤

٣ اليتيمة ١ : ٣٦٦

مرَّبِّي خَاطِرًا يَكَادُ مِنَ العَجْزِ بِبِهِ أَنْ يُرَاعَ فِي رِيْعَانِهِ
فِي مُلَاءِ كَأْتِهِ وَهُوَ فِيهَا وَرَدُ خَدَيْتِهِ فِي جَنِي سَوْسَانِهِ
يَتَشَكَّى الفَتورَ مِنْ كَسَلِ المَشْيِ يَ وَلَا يَسْتَكْبِيهِ مِنْ أَجْفَانِهِ

فمقابلة الطاعة بالعصيان واشتكاء الفتور في المشي دون الفتور في الأجفان ،
ثم هذه الصور الغريبة : صورة الذي يكاد أن يراع من عجبه وصورة المحبوب
في ملاءة كالورد الذي قد التف من حوله السوسن ، كل ذلك يدل على هذه
الصنعة الشعرية المشوبة بطلب الإغراب ؛ ثم هنالك الإغراق الذي يشارف
حدود الإحالة ، كقوله ١ :

يَكَادُ يَضِيقُ الجَوْثُ مِنْ عِظْمِ زَفَرْتِي وَتَهْفُو نَجْمُ اللَّيْلِ مِنْ فَرَطِ إِعْوَالِي
أَبِي غَيْرَ تَعْذِيبِي وَلَوْ أَمَرَ الرَّدَى أَطَاعَ ، وَلَكِنْ فَعَلَهُ هُوَ إِنكَالِي

ومن شغفه بالرسم المستغرب المستطرف نجده يقول ٢ :

وَالرَّيَّا دَنْتُ مِنَ البَدْرِ حَتَّى خَلَّتْهَا دَارِعًا يُدِيرُ مِجَنَّتَا

وهي من أغرب الصور التي يرسمها شخص أعمى ، ولذلك فإن كثيراً
من تصويره مبني على نوع من الوهم الغريب ، كتصويره أحبته يرحلون وقد
بلتهم الرذاذ والندى فلما تحركت جماهم تساقطت القطرات على الأرض ،
وبكى هو فاختلطت دموعه بتلك القطرات ، فما عاد تمييزها ميسوراً ٣ :

لَمْ يَرَحَلُوا إِلَّا وَفَوْقَ رِحَالِهِمْ غَيْمٌ حَكَى غَبَشَ الظَّلَامِ المُقْبِلِ

١ اليتيمة ١ : ٣٦٧

٢ المصدر نفسه

٣ الخذوة : ٣٥٨

وَعَلَّتْ مَطَارِفَهُمْ مُجَاجَاتُ النَّدَى فَكَأَنَّمَا مُطِرَتْ بِبَدْرٍ مُرْسَلٍ
لَمَّا تَحَرَّكَتِ الْحُمُولُ تَنَازَرَتْ مِنْ فَوْقِهِمْ فِي الْأَرْضِ تَحْتَ الْأَرْجْلِ
فَبَكَيْتُ لَوْ عَرَفُوا دُمُوعِي بَيْنَهَا لَكِنَّا اخْتَلَطَتْ بِشَكْلِ مُشْكَلٍ

تلك هي طريقة ابن هذيل من وجهة عامة ، وإن كنا نجد في شعره ما يمثل
السهولة والجزالة والإتقان للصور ، والقدرة على خوض مختلف الموضوعات
الشعرية ، فلما تأدت هذه الطريقة الشعرية إلى الرمادي تقدم بها خطوة ، فاعتمد
كثيراً على الإحالة في المبالغة ومحاولة الإيهام ، واتكأ على طلب المعنى المتكرر ،
وأنفق فيه جهداً عظيماً ، وتردد بين الأطراف الجدلية للموضوع يلحمها
ويسديها ، فمن إحالاته المجتلية قوله :

لَا تُنْكِرُوا غُزْرَ الدُّمُوعِ فَكَلُّ مَا يَنْحَلُّ مِنْ جِسْمِي بِصِيرِ دُمُوعَا

وقوله في العاذل :

أَيَّامَنْ أَنْ يَغْدُو حَرِيقَ تَنْفُسِي وَإِلَّا غَرِيقاً فِي اللُّمُوعِ السَّوَاجِمِ
فَهَذَا حَمَامُ الْأَيْكِ بِيكِي هَدِيلَهُ بَكَائِي فَلْيَفْرَعْ لِلْوَمِ الحَمَائِمِ

وله قطعة كاملة نحا فيها هذا المنحى فقال :

غَدَاً يَرْحَلُونَ فَيَا يَوْمَ رَسَلَكْ كُنْ بِالظَّلَامِ بَطِيءَ اللِّحَاقِ
وَيَا دَمْعَ عَيْنِي سُدَّ الطَّرِيقَ وَأَفْرَغْ عَلَيْهِمْ نَجِيعَ الْمَآقِي
وَيَا نَفْسِي جِئْتُهُمْ مِنْ أَمَامٍ وَقَائِلُهُمْ بِنَسِيمِ احْتِرَاقِ
وَيَا هَمَّ نَفْسِي بِهِمْ كُنْ ظَلَاماً وَقَيْدَهُمْ عَنِ نَوَى وَإِنِّطَاقِ

ويا ليلُ من بعدِ ذَا إنْ ظفِرَتْ بالصُّبْحِ فاقذفْ به في وثاق
سيدرون كيفَ يبينونَ عني إلا على جِهَةٍ الإستراق

فهو يريد من اليوم أن يتمهل فلا يلحق بالظلام سريعاً ، ويطلب إلى
دمع عينه أن يكون بحراً من دم يسد على الراحلين الطريق ، وإلى نَفْسِه أن
يكون هبوة نار ، وإلى همته أن يصبح ظلاماً يقيدهم عن السفر ، وإلى الليل
أن يقيد الصبح فلا يريم ، عندئذ تتصافر عليهم كل هذه المعوقات ، فلا
يستطيعون السفر العمد ، وإنما قد يفارقون استراقاً . والشأن في هذه الإحالة
كلها الاستطراف ، إلا أن عنصر الإغراق يضيف إلى هذه الآيات من ناحية
الطرافة لينقصها من الناحية المعقولة الداخلة في حدود الإمكان .

واستبقى الرمادي من مذهب الغزال الأثر التواسي في الخمر ، وشيئاً
من السخرية ، إلا أنه نقل السخرية من حقائق الحياة ومتناقضاتها إلى العيب
بالمواضع الدينية والاجتماعية ، ولا ريب في أن فزعه من إراقة الخمر
في أيام الحكم يدل على أن شعره كان ينبع من نزعته اللاهية أول الأمر ؛
وأشعاره في الخمر تذكّرنا بروح التحدي عند أبي نواس وبإصراره ومجاهرته
في شربها ، ومن ذلك قوله :

أفي الخمرِ لامتْ خلتي مُستَهامها
لمحمولة في الفلّك في جنةِ المنى
فخادَعَهُ إبليسُ عنها لعلِمِه
ففازَ بثليها ونوحٌ بثليها
له حظٌ أني وهو حظٌ مُدكرٍ
كفرتْ بكأسي إن أطعتْ ملامها
قد أوحي لنوحٍ غرَسَها وضامها
بها فرأى كتمانها واغتمامها
ولولا مُضِيّ عنه لم يكُ رامها
قليلٌ لعيني أنْ أطيلَ انسجامها

فقوله كفرت بكأسي ، ونسبته الخمر إلى القدم ، والخصومة عليها بين إبليس ونوح وفوز إبليس بثلاثيها وهو حظ الذكر ، وفوز نوح بثلاثيها ، يرينا مبلغ فنائه في الخمر ، كما تشير آياته في روحها الأسطورية إلى الميل القصصي الأصيل عنده ، ذلك الميل الذي كان يبعده عن الإغراب ويسلمه إلى السرد والتحليل ، كما في قصيدته الرائية التي قالها في حادثة إراقة الخمر ، وفيها يقول مخاطباً الأمرين بإراقتها :

تَحَرَّيْتُمْ بِذَلِكَ الْعَدْلَ فِيهَا	بَزَعْمَكُمُ فَإِنْ يَكُ عَنْ نَحْوِي
فَإِنَّ أبا حَنِيفَةَ وَهُوَ عَدْلٌ	وَقَرَّ عَنْ الْقَضَاءِ مَسِيرَ شَهْرٍ
فَقِيهِ لَا يَدَانِيهِ فَقِيهِ	إِذَا جَاءَ الْقِيَاسُ أَنِّي يَبْدُرُ
وَكَانَ مِنَ الصَّلَاةِ طَوِيلَ لَيْلٍ	يُقَطِّعُهُ بِلا تَغْمِيضٍ شَفَرُ
وَكَانَ لَهُ مِنَ الشَّرَابِ جَارٌ	يُوَاصِلُ مَغْرِبًا فِيهَا بِفَجْرٍ
وَكَانَ إِذَا انْتَشَى غَنَى بِصَو	تِ الْمَضَاعِ بِسَجْنِهِ مِنْ آلِ عَمْرُو
« أَضَاعُونِي وَأَيَّ فَتَى أَضَاعُوا	لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَسَدَادٍ تُغْرُ »
فَغَيَّبَ صَوْتَ ذَلِكَ الْجَارِ سَجْنٌ	وَلَمْ يَكُنِ الْقَقِيهِ بِذَلِكَ يَدْرِي
فَقَالَ وَقَدْ مَضَى لَيْلٌ وَثَانٌ	وَلَمْ يَسْمَعِ غَنَى : لَيْتَ شِعْرِي !
أَجَارِي الْمُؤَنَسِي لَيْلًا غَنَاءٌ	لَخَيْرٍ قَطَّعُ ذَلِكَ أُمَّ لَشَرِّ
فَقَالُوا إِنَّهُ فِي سَجْنِ عَيْسَى	أَتَاهُ بِهِ الْمُحَارِسُ وَهُوَ يَسْرِي

وهكذا إلى نهاية القصة ، وهو نفس قصصي جيد يذكرنا بالغزال ، وميله إلى البسط والتحليل .

أما سخريته التي نقلها إلى الهزء بالمواضع العامة فتدل على أنه كان فقيراً إلى النظرة الشاملة ، وأنه لم تكن لديه التجربة العميقة التي كانت للغزال ، وإنما تشير إلى استهتار وانحلاخ مجوني عابث ، جاءه من تهالكه على

الحر ، ولذلك استعمل صور القداسة ، ساخراً ، حتى تحدث عن الحر ،
فقال :

تُسْرِعُ النَّاسُ نَحْوَهَا بِازْدِحَامٍ كازدحام الحجيج في عَرَقاتِ
وقال :

فإذا ما انقضى دنان^١ على الله و اعتمدنا مواضع الصلوات
وأنفق كثيراً من طاقته الشعرية في التغزل بالغللمان ، حتى إن السجن لم
يشغله عن هذا الموضوع ، بل ظل سادراً فيه ، ومن الإنصاف له أن نسجل
له مزجه بين التهتك والتعفف في مقام واحد ، ذهاباً مع ما يسميه هو المروة
أو الفتوة .

ومع ذلك فإن السجن كان من أقوى الدوافع التي كادت أن تحطم عليه
طريقته الشعرية التي قامت على المجانة واللهو في الموضوع وعلى الإغراق
والإحالة في تعقب الصور والمعاني ، وانطلقت أشعاره في السجن من خلجات
الحزن العميق ودوافعه ، وردّه وضعه إلى شيء من التأمل في نفسه وفي نهايته ،
وملاً أبياته بالبكاء حيناً وبالتشوق إلى الانطلاق حيناً آخر ، وحلت العاطفة
الحياشة في شعره محل التصنيع الذهني ، ومن أمثلة ذلك قوله^١ :

وقالت تظنُّ الدهرَ يجمعُ بيننا فقلتُ لها مَنْ لي بظنِّ مُحَقَّقِ
ولكنني فيما زجرتُ بمقتلي زجرتُ اجتماعَ الشملِ بعدَ التفرُّقِ
أباكيةً يوماً ولم يأنِ وقتهُ سينفدُ قبلَ اليومِ دمعلُك فارقُتي

ومن قصائده التي انبعثت من المحبس أيضاً^٢ :

١ المطمح : ٧٢

٢ المطمح : ٧٣

على كِبَرِي تَهْمِي السحابُ وتَدْرِفُ وعن جَزَعِي تبكي الحمامُ وتَهْتِفُ
كأنَّ السحابَ الواكفاتِ غواسلي وتلك على فقدي نوائحُ هُتَفُ

ولو أنا قارنًا هذه الانطلاقات العاطفية بأبياته التي أوردتها من قبل في وصف الأزهار والربيع لتبين لنا الفرق واضحاً ، فهناك اهتدى إلى معنيين جميلين بعد الكد والإجهاد ، حين زعم أولاً أن الماء قد غاص في حشا الثرى فأظهر أسراره ، كأنه ليس ماء على التحقيق ، بل خمرة تخرج المكنون في النفوس ثم توهم أن السماء افتخرت على الأرض ، فنصر الأرض عليها وقال : إن خضرة الأرض تفوق خضرة السماء والنوار يقوم مقام النجوم ، أما الشمس والبدر والغيث فكلها قد تجمعت في شخص واحد هو شخص الممدوح ، ولكن حكايته عن عواطفه الحزينة في أيام السجن أقل احتفالاً بالاستطراف في المعنى وأكثر اتصالاً بالحال النفسية ، على وجهها الطبيعي . ومن الخطأ أن نظن أن الرمادي كان دائماً شديد الغوص كثير الكد في استخراج المعاني وتوليدها ، فإن له شعراً تلمح عليه رونق الطبع كقوله ^١ :

صدَّ عني وليس يعلمُ أني كنتُ في كُرْبَةٍ ففرَجَ عني
وتجنّيتُ عليَّ من غيرِ ذنبٍ فتجنّيتُ عليَّ كثيرَ التجني
حُسْنُ ظنّي قضى عليَّ بهذا حكّمَ اللهُ لي على حُسْنِ ظني

وبينا نقرأ له هذا اللون السهل المنساب نراه يمعن في التكلف حين يقول ^٢ :

عزمتُ على قتلي بغيرِ تحرُّجٍ شجّيتُ بك حتى تقتلَ الهائمَ الشجي

١ الجذوة : ٣٤٩

٢ البتيمة ١ : ٤٣٦

ولم يُبدِ سرِّي فيكَ رأبي وإنّما تَبَدَّى فِرَاراً من حثِّي مُتَوَهِّج
نَحولي ودَمعي دَبَّجا وجنني بما رأْتُ مقلتي من خدكَ المتدبِّج
بهاراً ودرأ هبَّتِ الریحُ فوقه بقروِ فغَطَّتْ وَرْدَهُ بالبِنفسج

فهو على هذا يتعاوره تياران - كابن عبد ربه - ولكنه إلى الثاني أميل ،
وبه عرفه قومه ، وقدموه ، وشهدوا له بالتفوق .

ولو وصلنا من شعره الكثير لاستطعنا أن نستكشف فيه على وجه أوضح
مدى دينه لأستاذه ابن عبد ربه وابن هذيل ، وقد ذهب ابن بسام إلى أن
قوله ١ :

ولم أرَ أحلى من تَبَسَّمِ أعينِ غداةِ النوى عن لؤلؤِ كان كامنا

مأخوذ من قول ابن عبد ربه :

وكانّما غاصَّ الأسي بجفونها حتى أتاك بلؤلؤ مشور

فاحتال الرمادي حتى أتى باللؤلؤ وعوض من الغائص التبسم ، ووقعت
له استعارة التبسم موقعا لطيفا .

ويختلط البيتان التاليان لهما ، فبعضهم ينسبهما لابن هذيل وبعضهم للرمادي ٢ :

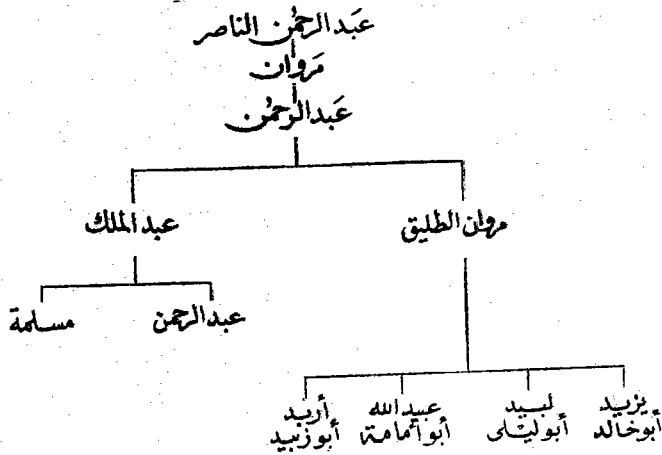
لا تَلَمَّني على الوقوفِ بدارِ أهلها صبروا السقامَ ضجيجي
جعلوا لي إلى هواهمُ طريقاً ثمَّ سدّوا عليّ بابَ الرجوعِ

وهما يربطان بين الطريقتين ، وتصحُّ نسبتهما لكل من الرجلين .

١ الذخيرة ١/١ : ٢٧٦

٢ النفع ٢ : ١٠٠٨

٣ - الشريف الطليق



عدّ ابن حزم للخليفة عبد الرحمن الناصر أحد عشر ولداً من الذكور ، منهم مروان الذي رزق ولداً اسمه عبد الرحمن ؛ وكان لعبد الرحمن هذا ولدان هما مروان الذي شهر من بعد بلقب « الطليق » وأخوه عبد الملك ، وكان الثاني في أيام ابن حزم يسكن مدينة دروقة^١ ؛ وعلى هذا فإن النسب الصحيح للطليق هو مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر ؛ وقد أخطأ المقرئ في النسخ فذكر أنه « مروان بن عبد الرحمن بن عبد الملك ابن الناصر »^٢ . وكان مروان هذا يكنى أبا عبد الملك وهي كنية اكتسبها من

١ الجمهرة : ١٠٣ (الطبعة الثانية) .

٢ النسخ ٢ : ٣٩٨ (ط . أوروية) .

اسمه فقط وإلا فإن أولاده الأربعة الذين عددهم ابن حزم لم يكن فيهم من يحمل هذا الاسم .

عاش مروان ثمانية وأربعين عاماً وتوفي قريباً من سنة ٤٠٠ (ولعله توفي على الأرجح سنة ٣٩٦) ؛ وهذا يجعلنا نقدر أنه ربما ولد قبل وفاة جده الأعلى الخليفة الناصر بمدة غير طويلة (أي حوالي ٣٤٧ أو ٣٤٨) . وتقدير سنه قد يخضع لحكم المفارقة ، فقد قيل إنه عاش قبل أن يسجن ست عشرة سنة ثم مثلها في السجن ، ثم مثلها بعد خروجه منه ؛ ومثل هذه الملاحظة قد تكون مدعاة للوقوف فيها ، إذ لو لم يكن الأمر كذلك لما استوقفت النظر وأثارت التأمل .

لماذا سجن الشريف المرواني ؟ يذكر الحميدي رواية لا يقطع بتعيين راويها ، فهو : إما محمد بن إدريس أو غيره ، حدثه فيها أن مروان بن عبد الرحمن هذا كان يحب جارية نشأت معه في بيتهم ، وكان يظن أنها ستكون من نصيبه غير أن أباه استأثر بها دونه ، فداخلته من ذلك غيرة شديدة جعلته يفقد توازنه ويقدم على قتل أبيه^١ ، فاجأه في بعض خلواته مع تلك الجارية نفسها فقتل عليه ، فأخذ بجرمه ذلك وسجن ؛ ولعل القضاء راعى سنه يومئذ ولكننا لا ندري كم كانت المدة التي حكم عليه أن يقضيها في السجن ؛ وإذا كانت تلك الحادثة قد تمت وعمره ١٦ عاماً فمعنى ذلك أنه أقدم عليها حوالي عام ٣٦٣ أو العام التالي ، ومن ثم يصدق القول بأن الذي سجنه هو المنصور بن أبي عامر الذي كان ذا سلطات كثيرة قبيل وفاة الحكم المستنصر (٣٦٦) وبعد وفاته .

كانت الغيرة العمياء ونزق الشباب وعدم التفكير في عواقب الأمور

١ الجنوة : ٣٢٢ والنفع ٢ : ٣٩٩ والخلة ١ : ٢٢٠ - ٢٢١

طريق الشريف المرواني إلى السجن ، وكان ما يزال يومئذ في جميل المحيا ،
تعشقه العين ؛ وكان حظه من الثقافة ضئيلاً لا يعدو مبادئ القراءة والكتابة .
ولذلك أثبت السجن من بعد أنه كان المدرسة التي علمته الأدب والشعر ،
وعمقت في نفسه الرغبة في الإقبال على التعلم ، كما فتحت لديه قريحته
الشعرية ، ودربته على الصبر وتحمل الألم . فقد قيض له حين سجن أن يجتمع
في المطبق إلى عدد من رؤساء الأدباء : « فلم يزل الطليق يأخذ عنهم ويستمد
منهم حتى ثري تربه وطلع عشبه وسما ذكره وطار شعره »^١ وأخذ ينظم
في السجن قصائد تصل إلى أسماع الناس ويرددونها ، وكان المنصور بن
أبي عامر إذا سمع أشعاره لم يصدق أنها من نظمه ، وقد يظن أن بعض الشعراء
المسجونين معه كان يعينه بها أو يعاونه على نظمها .

ولا نعرف من أولئك الشعراء زملاء الطليق يومئذ إلا شاعراً واحداً هو
محمد بن مسعود البجائي المنتسب إلى غسان ، ويصفه ابن بسام بقوله : « كان
شاعراً مجوداً جزل المقاطع حسن المطالع ، جيد الابتداء لطيف الاختراع ،
كثير الغوص على دقيق المعاني . حسن الاستخراج للألفاظ الرائقة والتصريف
لمستعمل الكلام »^٢ . ويقول الحميدي : إنه كان مليح الغزل طيب الهزل^٣ ؛
ويبدو أن السبب الذي أدى إلى سجنه اتهامه بالزندقة^٤ ، ومن السهل أن تعلق
به هذه التهمة لأن إقباله على الهزل كان يؤدي به إلى شيء من الاستهتار ؛
وقد كلف البجائي هذا بالطليق حين وجده غلاماً وسيماً ، فتصور نفسه أحد

١ الذخيرة ٢/١ : ٨٠ .

٢ الذخيرة ٢/١ : ٧٩ .

٣ الخذوة : ٨٦ ؛ وانظر المغرب ٢ : ١٩١ - ١٩٢ في ترجمته ، والمسالك ١١ : ٤٠٠ .

٤ النفع ٢ : ٢٦٤ والذخيرة ٢/١ : ٧٩ - ٨٠ .

اثنين دخلا السجن مع يوسف الصديق ، رمز الجمال ، فقال يذكر ذلك في شعره^١ :

غَدوتُ في السجنِ خدناً لابنِ يعقوبِ وكنتُ أحسبُ هذا في التكاذيبِ
رأمتُ عدايتيَ تعذبي وما شعرتُ أن الذي فعلوه ضدَّ تعذبي
راموا بعادي عن الدنيا وزخرفها فكان ذلك إدنائي وتقريبي
لم يعلموا أن سجنِي لا أبا لهمُ قد كانَ غايةَ مأمولي ومرغوبي

والآيات لا تدل على عشق بمقدار ما تدلُّ على إعجاب بجمال الطليق ،
وتهوين من وقع السجن على النفس ، وهذا الحكم لا يتنقض بقوله فيها :

وفيكَ ما يتسلى العاشقون بهِ من حسن خلقٍ ومن ظرفٍ ومن طيبِ

ففي هذا البيت شهادة بما كان عليه الطليق من صفات الجمال والظرف
وحسن العشرة والخلق ؛ ثم إنَّ البجائي انصرف بعد ذلك عن مثل هذا القول في
قصيدته إلى التحدث عن آلام السجن وإلى الحنين لشخص غائب عن عينيه ، لا
إلى الطليق . ومهما يكن من شيء ، فإن اتصال الطليق بتلك الجماعة من الشعراء
في حبسه ومنهم البجائي هو الذي يهمننا من ناحية التأثير في توجيهه الوجهة الأدبية .
وكانت السنوات التي قضاها مروان معتقلاً خصبة بالنتاج الشعري حتى
ذكرت المصادر أن أكثر شعره في السجن^٢ ، إلا أن هذا « الأكثر » لم يتبق منه
إلا القليل ؛ وهذا الذي تبقى فيه تصوير للسجن نفسه ، ذلك المكان المظلم إزاء
مدينة الزهراء التي تتلألأ أنوارها :

في منزلٍ كالليلِ أسودَ فاحم داجي النواحي مظلم الأثباحِ

١ النسخ ٢ : ٢٦٤

٢ الحلقة ١ : ٢٢١

يسودّ والزّهراء تشرقُ حولهُ كالحبرِ أودع في دواة العاجِ

وفيه إلى ذلك استشعار بالحزن والفناء في لحظة من لحظات الضيق التي لا تستطيع رغم إرهاقها وعسرها أن تحجب عن عيني ممارسها شعاع التفاؤل^١ :

ألا إنّ دهرأ هادماً كلّ ما نبتني سيّلبى كما يبلى ويضنى كما يفني
وما الفوزُ في الدُّنيا هو الفوز إنّما يتفوزُ الفنى بالريحِ فيها مع الغين
يجازى بؤسٍ عن لذيذِ نعيمها ويخني الردى ممّا غدّت كفه تخني
ولا شكّ أن الحزن يجري لغاية ولكنّ نفسَ المرء سيئة الظن

الحزنُ إلى أجل ؛ ولكن النفس تسيء الظنون حتى يغيب عنها وجه الأمل ؛ وبعد ستة عشر عاماً - فيما تقول الرواية - لاح وجه الأمل ، وانطلق الشريف المرواني من سجنه إلى الحياة في المدينة الكبيرة - قرطبة - . متى أطلق الشريف من الاعتقال ولماذا أطلق ؟ يقول الذين ترجموا له إنّه خرج قبل خروج صديقه البجاني ، ويجعل ابن سعيد عام ٣٧٩ تاريخاً لانطلاق البجاني^٢ ؛ وهذا قد يحدّد تاريخ إطلاق الشريف المرواني، فهو إما تمّ في ذلك العام نفسه أو قبله بقليل ؛ ولما خرج من سجنه كانت علاقته بالبجاني قد انقلبت إلى كره ، ولذلك هجاه البجاني بما يشير إلى تبرمه واستنقاله ، فمن ذلك قوله فيه^٣ :

قد قذيتُ من لحظه مُقلتي وقرحت من لفظه أذني
نادمني في السجن من قُربه أشدّ في السجن من السجنِ

١ الخلة ١ : ٢٢١

٢ المغرب ٢ : ١٩٢

٣ الذخيرة ١/٢ : ٨١ والنفع ٢ : ٢٦٤

ولا ندري هل قابله المرواني بمثل هجائه ، فما تبقى من شعره ليس فيه إشارة إلى ذلك الصديق الذي انقلب عدوًّا ، والمعجب الذي فقد إعجابه . أما سبب إطلاقه فتختلف فيه الروايات ، فهو إمّا عطفٌ تلقائي من المنصور عليه لأنه قد قضى من السنين ما يكفي ، فلما أطلقه بعد تلك المدة لقبه الناس بالطلق إحساساً منهم بمقدار ما أقام معتقلاً . وقيل إنَّ هذا الإطلاق لم يكن عفويّاً بل تدخل فيه توجيه القدر ، وفي تعليل ذلك التوجيه وردت روايتان : إحداهما تقول إن المنصور رأى النبي صلى الله عليه وسلم في منامه يأمره بإطلاقه^١ ، والأخرى تعزو الفضل إلى النعمة؛ وقصة ذلك أن الشريف المرواني ضاق ذرعاً بالسجن فكتب بطاقة إلى المنصور يسترحم فيها ويستعطف ، فأخذ ابن أبي عامر البطاقة وأدرجها مع رقايع أخرى ودخل إلى داره ، فجاءت نعمة كانت هناك ، فجعل يلقي إليها الرقايع فتبتلع شيئاً وتلقي شيئاً ، فلما ألقى لها رقعة الشريف – دون أن يقرأها – أخذتها ودارت بها وألقته في حجره ، فردّها إليها ، وتكرّر ذلك مراراً ، فعجب المنصور وأخذ الرقعة وقرأها وخيل إليه كأن النعمة تحدّثه بلسان القدر ، فأمر بإطلاق الرجل ؛ ولذا لم يلقب الشريف – حسب هذه الرواية – بالطلق وحسب ، وإنما لقب « طليق النعمة »^٢ .

كان الطليق يوم فكّاه قد دخل سن الكهولة ، وأصبح في الثانية والثلاثين من عمره ، وفي الثلث الثالث من حياته – فيما أقدر – تزوج ؛ إلا أن نفترض أنه تزوج وهو في السجن ، وهو شيء غير مستبعد ولكنه غير طبيعي . ورزق من زواجه أربعة أبناء هم يزيد وليد وعبيد الله وأربد ؛ وفي

١ النسخ ٢ : ٣٩٩

٢ المعجب : ٢٨٥ - ٢٨٦

هذه الفترة نفسها عاد إقباله إلى حياة اللهو بعد أن فطمه السجن عنها مدة طويلة ، ونراه في أحد مواقفه عند بعض الرؤساء من أسرته المروانية ، والرئيس يقدم إليه قدحاً من فضة فيه راح صفراء ويقول له : اشرب وصف ، فذاك ابن عمك ؛ فيقف الطليق لإجلالاً ويشرب معبراً بصياحه عن سروره ثم يقول : الدواة والقرطاس ، فإذا أحضرا إليه كتب^١ :

اشرب هنيئاً لا عداك الطرب سرّ كريم في العلا منتخب
 وافاك بالراح وقد ألبست بُرد أصيل معلماً بالحبيب
 في قدح لم يكُ يسقى به غير أولي المجد وأهل الحسب
 ما جار إذ سقاك من كفه في جامد الفضة ذوب الذهب
 فقم على رأسك برّاً به واشرب على ذكره طول الحقب

شعره

كان الطليق عند نقاد الأندلس مقدّماً في الشعر ؛ فابن حزم يقول فيه : « كان مروان هذا من الشعراء المفلقين المحسنين »^٢ كما يقول في موضع آخر : « أبو عبد الملك هذا في بني أمية كابن المعتز في بني العباس ملاحظة شعر وحسن تشبيهه »^٣ ؛ ولم ينس الشنندي وهو يفتخر بأجود ما لدى الأندلس أن يذكره في رسالته فيقول : « وهل منكم من وصف ما تحدّثه الحمرة من الحمرة على الوجنة بمثل قول الشريف الطليق :

أصبحتُ شمساً وفوه مغرباً ويدُ السّاقِي المحيبي مشرقاً

١ النسخ ٢ : ٣٩٩

٢ جمهرة الأنساب : ١٠٢

٣ جنوة المقتبس : ٣٧١ والحلة ١ : ٢٢١

فإذا ما غربت في وجهه تركت في الخلد منه شفقا»

وكان هناك إحساس لدى ابن بسام وابن الأبار بأن إغفاله لا يجوز ، رغم أنه لا يقع ضمن شرط هذين المؤلفين في كل من الذخيرة والحلة السراء . وقد وصف بأنه شاعر مكثراً ؛ ولكن ما تبقى من شعره يعد - إلى جانب تلك الكثرة - قليلاً ؛ وقد لمح ابن حزم الصفة الغالبة عليه وهي شدة ميله إلى التصوير ، ولذلك اهتم بشعره الكتب التي تعنى بالتشبيهات مثل الفرائد في التشبيه من الأشعار الأندلسية لأبي الحسن علي بن محمد القرطبي وكتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس لابن الكتاني الطيب . ولكن المقارنة بينه وبين ابن المعتز ربما لم تكن موفقة كثيراً . صحيح أننا قد نلمح في مثل قوله مقارناً بين سواد السجن وتلألؤ الأضواء في الزاهرة :

يسودُّ والزهراء تشرقُ حولهُ كالخبرِ أودع في دواة العاج

أنه يستعمل أدوات ابن المعتز في التشبيه ، ولكنه لا يملك تلك القرينة التركيبية التي كانت تجمع في صور ابن المعتز عناصر لا رابطة بينها في واقع الحياة ، وتكاد أغلب صور الطليق أن تكون من الأشياء المألوفة ، فإذا سمع البرق والرعد ، تمثل صورة محب وأن الرعد أنينه والبرق نار حرقته والمطر دموعه :

فكان الغمام صباً عميد أن بالرعد حرقه واشتكاء
وكان البروق نار جواه والحيا دمعته يسيل بكاء

وإذا وقف وحيداً في ديار حبيته تمثل أنه يشبه غيلان ذا الرمة وأن ديار

حيبته هي ديار مية :

فبقيت في العرصات وحدي بعدهم حيران بين معاهد ما تعهد
فكأنهن ديار مي إذ خلت وكأني غيلان فيها ينشد

وهو يرى - ما يراه أي شاعر تقليدي - في جريان المياه ثعابين فضة
منبعثة في السواقي ، والحصباء كالدرّ على اللبّات :

وكأنّ المياه فيها ثعابين بلجين تبعث في السواقي
وكأن الحصباء في رونق الما ء سنا الدرّ في بياض التراقي

هنالك حقيقة نقرها : وهي أنه حقاً شغوف بالتشبيه ، غير أنه لا يشد
في ذلك عن المقدّمين في قرطبة من شعراء عصره كابن هذيل والرمادي وغيرهما ،
وهو أيضاً مثلهم ضحية الإسراف في طلب الصورة ، ثم العودة من تلك الرحلة
الشاقة بصور مألوفة موضوعة في صياغة جديدة .

وقد استطاع أحياناً أن يخفّف من التعمد البيّن لاقتناص الصور حين
مزج صورته بموسيقى عذبة . وخير ما تبقى لنا من هذا اللون في شعره قصيدته
القافية التي اشتهرت عند الأقدمين ، واقتبسوا منها شواهد على قدرته في الشعر
ووصفها ابن الأبار بأنها قصيدة فريدة ، ومطلعها :

غصن يهتر في دعص نقا يجتني منه فؤادي حرّقا

وهي قصيدة طويلة ، فقد بقي ممّا اختير منها ثمانية وثلاثون بيتاً ، وتدلّ
الأجزاء الباقية على أنه أرادها جامعة لعدة ظواهر ، فهو يصف الساقى والخمر
وما يتصل بها ثم يعرّج على وصف يوم عاصف ماطر ، ثم يتحدث عن حلول
الصحو ومنظر الأزهار غبّ المطر ؛ وكل هذا يبدو في نسق واحد في نظر

الشاعر الأندلسي حيثنذ . وتعد هذه القصيدة - من هذا المنحى - مقدمة لوصفيات ابن حمديس؛ ولكن الطليق يحتم قصيدته في الفخر بنفسه وبقومه . ومن أجزائها اللافتة حقاً وصفه للخمر وشاربها الجميل ، وذلك حيث يقول :

ربّ كأس قد كست جنح الدجى ثوب نورٍ من سناها أشرفا
بتّ أسقيها رشا في طرفه سينة تورث عيني أرقا
خفيت للعين حتى خلقتها تنقي من لحظة ما يتقى
أشرفت في ناصع من كفه كشعاع الشمس لاقى الفلقا
وكان الكاس في أنمله صفرة النرجس تلعو الورقا
أصبحت شمساً وفوه مغرباً ويدُ الساقى المحيي مشرفا
فإذا ما غربت في وجهه تركت في الخلد منه شفقا

وقد تكون المعاني في هذه الأبيات ترديداً لما ألفناه في شعر أبي نواس ، وقد تكون بعض الصور - إذا أخذت كل واحدة على حدة - ممّا لا يمثل أية جدة في التصوير ، ولكنها جميعاً في هذا النسق الموسيقي الجميل الذي يخيّل إلينا أن الألفاظ تتدافع تدافعاً عفويّاً تحدث أثراً عميقاً حين مزجت بين الناحيتين التصويرية والموسيقية .

وربما لفت انتباهنا في حديثه عن المطر تشبيهه الأرض بأنها سجن وأنّ ما يغيب في جوفها من ماء المطر هو الجاني المعتقل :

فكان الأرض منها مطبق وكأن الهضب جانٍ أطبقا

فإذا انتهى الشاعر من رسم تلك اللوحة الكبيرة للطبيعة بين مطر وصحو وهي تحفّ بمجلس الشراب توصلّ إلى الفخر بنفسه ، وهذا الفخر ربما لم

يستوقف اهتمامنا إلا من ناحيتين : الأولى غرابة صلته ببقية أجزاء القصيدة ،
والثانية التعرف إلى ناحية شخصية عند الطليق بعد إذ لم يبق من شعر الفخر
لديه إلا هذه الأبيات ، وفيها يقول :

من فني مثلي لباس وندى ومقالٍ وفعالٍ وتقى
شرفي نفسي وحليبي أدبي وحسامي مقولي عند اللقا
ولساني عند من يجبره أفصوان ليس تثنيه الرقي
ويمني بمن عافٍ معسر جمعت حمداً غدا مفترقا
جدتي الناصر للدين الذي فرقت كفاه عنه الفرقا
أشرف الأشراف نفساً وأباً حيز يعلوه وأعلى مرتقى
أنا فخر العيشمين وبي جدّ من فخرهم ما أخلقا
أنا أكسو ما عفا من مجدهم بجلى رونق شعري رونقا

ومن المفارقة أن نسمع في هذا الحديث الكثير عن اللهو والساقى والحمز
ذكراً للتقوى ؛ غير أن الشاعر الذي يفتخر بنفسه ويجده الناصر لا ينسى
أن يتحدث عما يحسه صفة مميزة له ، وهي شعره الذي يجدد ما درس من
مجد بني عبد شمس ويكسوه رونقاً .

وكان هذا النسق الموسيقي أعجب الشاعر لإعجاب الناس به يوم شاعت
بينهم القصيدة فنظم قصيدة أخرى على غرارها شينية القافية يقول فيها :

قمرى الوجه أبدى بضحي وجهه خط الغوالي غبشا

ولم يبق من هذه القصيدة - حسبما احتفظ بها ابن بسام^١ - إلا التغزل ،
ولكنها جاءت أقل خفة من القصيدة السابقة ، لأنها توحى بالبناء المصنوع

وذلك أن القافية التي اختارها الشاعر تحدّد طبيعة كل بيت قبل أن يهيم بصياغته ،
مثل قوله :

جمشت الحاظ عيني خدّه مثلما باللحظ قلبي جمشا
نقشت عيني عليه أسطراً أعربت عما بقلبي نقشا

فلولا التأسيس على لفظي « جمشت » و « نقشت » لما كان للبيتين وجود ؛
كذلك فإن السياق العام الذي استدعى قافية « القاف » كان أخف وقعاً من
السينات .

ومهما يكن من شيء فإن الطليق حاول أن يتميز بهذا اللون التصويري
الراقص النغم في الشعر ، وقد تنبه النقاد الأقدمون إلى ذلك ، حتى ذكر المقرّي
أن بعض النقاد قالوا : « وهذا النمط قد فات به أهل عصره »^١ ؛ وهذا
الحكم قد يكون غير بعيد عن الصواب ، ولكن شان بينه وبين حكم آخر
أورده المقرّي نفسه مقدّمة لأبيات له ، فقال : « ويظن أنه لا يوجد لأحد
منهم أحلى وأكثر أخذاً بمجامع القلوب من قوله :

ودّعتُ من أهوى أصيلاً ليتني ذقت الحِمام ولا أذوق نواه
فوجدت حتى الشمس تشكو وجده والورق تندبُ شجوها بهواه
وعلى الأصائل رقة من بعده فكأنها تلقى الذي ألقاه »

فقد كان الحديث عن تأثير الطبيعة لفراق المحبوب موضوعاً جميلاً ولكن
حين تناوله هنا وضعه وضعاً مبتدلاً ، وحاول أن يستنقذ موضوعه من برائث
الابتدال حين ناقض بين الجانين : أعطى للطبيعة إحساساً إنسانياً ، وأعطى
للمحبيب صورة الروضة (أو الطبيعة) :

الزهرُ مسمهُ ونكهته الصبا والورد أخضله الندى خداه
فلذلك أولع بالرياض لأنها أبداً تذكرني الذي أهواه

ولكنه لم ينجح في رسم هذا التعاكس ، لأن جمع مفارقتين مبتدلتين لا
يشير طرافة جديدة .

وإذا استثنينا أبيات الطليق في الفخر استطعنا أن نقول إن قصائده التي
وصلتنا تتجه نحو تصوير الناحية البهيجة في حياة الحب والطبيعة والخمر ،
وإن مقطعاته متترعة من قصائد لتكون أمثلة على القدرة التصويرية عنده ،
وقلماً نجد في ما تبقى من شعره ما يمكن أن يتخذ سنداً تاريخياً ؛ ولعل صورة
الشاعر تزداد وضوحاً لو وصلنا ديوانه^١ .

١ نقدر أنه صنع لنفسه ديواناً جمع فيه شعره الكثير ، وإن لم تحدثنا المصادر بشيء عن هذه الناحية .

الشعراء المتأثرون بالفتنة البربرية

قد اخترنا ثلاثة شعراء شهدوا عهد الفتنة البربرية ، وعاشوا بعدها ، مدداً متفاوتة ، وانعكست لها في نفسياتهم آثار متفاوتة كذلك ، وهم : ابن دراج وابن شهيد وابن حزم . أما الأول فقد حولته الفتنة إلى متسكع على الأبواب هارب من أشباح الجوع ، ينقل معه أولاده حيثما انتقل ، وأما الثاني فقد أصيب بما يشبه «توقف النمو» ، فعكف على لذائذ الحياة لينسى ما أحدثته الفتنة وليعيش في ذكريات الطفولة ، وأما الثالث فانفض كأنما كان نائماً ، وهب من رقدته يجري لاهثاً ليشرب من نهر النجاة ، بعد أن أدرك أنه ضيع قطعاً من العمر في طلب الدنيا . وهكذا فإن تبيين أثر الفتنة يعد دراسة لنفسيات هؤلاء الناس أكثر مما هو دراسة لأشعارهم . وبسبب هذه الصلة القوية بفعل الفتنة في نفوسهم تجوزنا بعض الشيء في النظر إلى الناحية الزمنية ؛ فابن دراج عاش أكثر حياته قبل الفتنة ، وابن حزم عاش مدة طويلة في عصر ملوك الطوائف ؛ ومع ذلك فإن نقطة التحول في حياة الفرد تستطيع أن ترسم حدود ما قبلها وما بعدها ، لأنها ذات إشعاعات على ما كان وما سيكون . وكذلك كانت الحال في دراسة هؤلاء الشعراء الثلاثة .

١ - أبو عمر

أحمد بن محمد بن دراج القسطلي

المحرم ٣٤٧ - ٤٢١ / مارس ٩٥٨ - ٢١ يونيو ١٠٣٠

والجذوة : ١٠٢	والصلة : ٤٤	والنخيرة ١ / ١ : ٤٣ - ٧٨	والنجوم الزاهرة ٤ : ٢٧٢
والمطرب : ١٤٥	وشذرات الذهب ٣ : ٢١٧	ومسالك الأبصار ١١ : ٢٠١	والمغرب ٢ : ٦٠
والتسعة ١ : ٤٢٨	والنفع ٢ : ٩٠٦، ٨٥٦، ٨٠٠، ٧٨٢	والروض المعطار : ١١٥ ، ١٦٠	وأعمال الأعلام : ١٢٣ ، ١٩٧ ، ٢١٢ ، ٢٢٣
والرايات : ٧٣	والتسعة ١ : ٤٣ ، ١٣٢ ، ٣٨٣	والتسعة ١ : ٤٣ ، ١٣٢ ، ٣٨٣	والتسعة ١ : ٤٣ ، ١٣٢ ، ٣٨٣

كان قد تجاوز الخمسين عندما نشبت الفتنة ، ولكن تلك الحادثة أثرت في نفسيته وشعره ، وتحولت به تحولا لم تستطع أن تحدثه تلك السنوات الطوال التي عاشها قبلها .

وأول ما نرى أحمد بن محمد هذا المنتسب إلى بني دراج - وهم فرع من صنهاجة^١ المنسوب لقسطلة دراج من أعمال جيان^٢ - يحاول التماس منزلة عند المنصور بن أبي عامر ، ولعل الخطوة التي نالها صاعد عند المنصور بشعره

١ جمهرة الأنساب : ٤٦٦

٢ وهناك قسطلة أخرى تسمى اليوم Cacella وهي في البرتغال وكانت تعرف عند العرب باسم قسطلة الغرب ، وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنها هي بلدة ابن دراج ولكن يبدو أن قسطلة المدودة من أعمال جيان هي موطنه (راجع مقدمة ديوانه ٢٨ - ٣٢) .

قد أثرت في نفسه فأراد لنفسه شيئاً شبيهاً بها ، فنظم قصيدة عارض فيها صاعداً ،
منها^١ :

أضياء لها فَجَرُّ النُّهى فَنَهاها عن الدَنِيفِ المُنْتَنِى بِمَجْرَها
وضَلَلها صُبْحُ جِلا ليلة الدجى وقد كان يهدىها إليّ دُجاها

وأراد أن يكون له بها اسم مقيد في ديوان الشعراء ، فثأب عليه النقاد
فيما يبدو ، ودفعوه عن مرتبة الإجازة ، وربما أهموه بأنه لا يستطيع إلا
المعارضة ، وادعوا عليه عند المنصور أنه متحل سارق لا يستحق أن يكون
له عطاء منظم ، وفي نفس المنصور من ذلك شيء لأنه لم يرغب عنه أن القصيدة
جيدة ، ومع ذلك عقد له مجلس امتحان في ٣ شوال سنة ٣٨٢ (وسن ابن
دراج يومئذ لا تقل عن ٣٥ سنة) واقترح عليه النظم في موضوع معين ،
فنظم ما أعجب المنصور ، فأعطاه مائة دينار وأجرى عليه الرزق ، وكتب
اسمه في ديوان العطاء ، واتعظ ابن دراج بهذه الحادثة ، فأخذ يدأب على
تجويد الشعر ويسهر في حوكه ، وفي ذلك المجلس نفسه عبر للمنصور عن
المعنى الذي استحضر من أجله ، وكذب دعوى الذين أهموه بالسرقة ،
ودافع عن نفسه بقصيدة مشهورة عند الأندلسيين مطلعها^٢ :

حَسْبِي رِضاكَ مِنَ الدَّهْرِ الَّذِي عَتَبَا وَعَظْفُ نَعْمَاكَ لِلحِظَّةِ الَّذِي انْقَلَبَا

ومنها يذكر كيف أن الناس قد اعتادوا اتهام أجود المجيدين من الشعراء:

ولستُ أوَّلَ مَنْ أَعْيَتَ بدائِعُه فاستدعتِ القولَ ممَّنْ ظنَّ أو حَسِبا
ان امرأ القيس في بعضِ لَمْتَتِهِمْ وفي يديه لواء الشعر إن ركبا

١ الخنوة : ١٠٣ والديوان : ١٠

٢ الخنوة : ١٠٣ والديوان : ٣٦٣

والشعرُ قد أسر الأعشى وقيدَه دهرًا وقد قيلَ : والأعشى إذا شربا
وكيف أظما وبجري زاجرٌ فِطْنًا إلى خيالٍ من الضحَضاحِ قد نَصَبَا

مشيراً بذلك إلى القول الشائع « أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب ،
والأعشى إذا شرب » ودافعاً عن نفسه تهمة الأخذ لأن خياله واسع ، وخیال
من يتهم بالأخذ عنهم ضحَضاح قد قارب النضوب ، ثم يمضي طلقاً في الثقة
بنفسه مستمدّاً ذلك من تعصب المنصور له وانحيازه لحانبه :

عبدٌ لنُعْماكِ في فكَيْهِ نِجْمٌ هُدَى سارٍ بمدحكِ يجلو الشكَّ والرِّيبَا
إن شئتَ أملئْ بديعَ الشعرِ أو كَتَبَا أو شئتَ خاطبَ بالمشورِ أو خَطَبَا
كروضةِ الحزنِ أهدى الوشيَ منظرُها والمدَّ والزهرَ والأنوارَ والعُشْبَا
أو سابقِ الخيلِ أعطى الحُضْرَ مُتَّئِداً والشدَّ والكرَّ والتقريبَ والحِيبَا

وظل في ظل المنصور على هذه الحال من التقديم ، فأطب في مدحه
بطوال القصائد ، معترفاً بالجميل شاكراً لذلك الرضى ، فمن مدائحه فيه :

ما كُفِرَ نُعْمَاكَ مِنِّ شَانِي فَيْشْنِي عَمَّنْ توالى لنصرِ المُلْكِ والدينِ
ولا ثنائي وشُكْرِي بالوفاء بما أوليتني دونَ بذلِ النفسِ يكفيني
حقٌّ على النفسِ أن تبلى ولو فِيتَتْ في شكرِ أيسرٍ ما أضحيتَ توليتني
ها إنها نعمةٌ ما زال كوكبُها إليك في ظلماتِ الخطبِ يَهْدِينِي

وأكثر القصيدة في ذكر حاله وشكره ورضى المنصور عنه لا في مدح
المنصور مباشرة ، وربما استوقفنا منها قوله :

وحاشَ للخيلِ أنْ تُزْهِىَ عليَّ بها والبيضِ والسَّمْرِ أنْ تَحْظِي بها دوني

وربما كنت أمضي في مكارهها قدماً وأثبتت في أهوالها الجون
لكن سهام من الأقدار ما برحت على مراصد ذاك الماء ترميني

فما هي سهام الأقدار التي كانت تحول بينه وبين المشاركة في الحرب ،
أكان لديه عجز جسماني عن ذلك ؟ أكبر الظن أن هذا هو الذي يعنيه ، وإلا
فإنه كان أحياناً يصاحب المنصور إلى الغزو ، دون أن يكون في المحاربين ،
ونراه في غزوة شنت ياقب (٣٩٢) مع المنصور ، ومن هناك يكتب رسالة
إلى هشام المؤيد ليخبره بالفتح ، ويذكر الوقعة ويصف الكنيسة وصفاً دقيقاً ،
ويقول صاحب الروض المعطار^١ إن له في هذه الوقعة قصيدة مشهورة ،
ولعلها هي القصيدة التي مطلعها^٢ :

اليوم أنكص إبليس على عقبه مبرأ سبب الغاوين من سبيه

وتحدثنا بعض الروايات أن المنصور هو الذي طلب إليه أن يعارض قصيدة
أبي نواس الرائية في مدح الخصب^٣ ، ويهنا منها في هذا المقام أنه ما يزال
يلح على صاحبه بأن يمنحه كل ثقتي ، وأن لا يأخذه بجريرة ظروفه القاسية^٤ :

أثرتني لخطب الدهر ، والدهر مُعْضِلٌ
فقد تُخَفِّضُ الأسماءَ وَهِيَ سِوَاكِنٌ
وَيَعْمَلُ في الفَعْلِ الصَّحِيحِ ضَمِيرٌ
وتنبو الرُدَيْنِيَّاتُ وَالطُّولُ وَافِرٌ
وَكِلْتَا لَيْثِ الغَابِ وَهُوَ هِصُورٌ
وَيُبْعِدُ وَقَعُ السَّهْمِ وَهُوَ قَصِيرٌ

وفي هذه التلميحات ما يشير إلى أن سكونه قد يجر عليه الانخفاض ،
فهو يريد استشارة ودفعاً ، وثقة تجعله يقابل الدهر ويقتل الليث ، وهو أيضاً

١ الروض المعطار : ١١٦

٢ الديوان : ٤٤٠

٣ ابن خلكان : (الترجمة رقم : ٥٥) .

٤ اليتيمة : ١ : ٤٤٨ والخيرة ١ / ١ : ٦٦ والنبح ٢ : ٨٠٠ والديوان : ٣٠٣

يشبه نفسه بالسهم القصير ، الذي إذا استغله صاحبه وأحسن استغلاله أبعده وقعه وأثره حيث تعجز الردينيات الطويلة ، ومرة أخرى تستوقفنا هذه التلميحات : أهي تدل على عجز جسماني ؟ أم هي تدل على مجرد حالة نفسية ؟ أم هي حكمة ليس لها مدلول وراءها أكثر منها ؟

والحقيقة التي يجب أن نتذكرها في هذا المقام هي أن ابن درّاج في أول عهده بالمنصور لم يكن مطمئناً إلى ثبوت منزلته عنده واستقراره في ظلّه ، ولذلك عمد في قصائده الأولى إلى الاستكثار من معنيين أولهما ذكر مفارقتة لزوجته وابنته وصعوبة الفراق ثم تأميلة في أن ينال الخطوة لدى المنصور - ذكر هذا في أول قصيدة تقدّم بها إليه ١ :

ولله عزمي يوم ودّعت نحوه	نفوساً شجاني بينها وشجائها
وربة خدرٍ كالجمان دُموعها	عزيز على قلبي شطوط نواها
وبنت ثمان ما يزال يروعي	على النأي تذكاري خفوق حشاها
وموقفها والبين قد جدّ جدّه	منوطاً بجلي عاتقي يداها
تشكّي جفاء الأقربين إذا النوى	ترامت برحلي في البلاد فتاها
وأقسم جود العامري ليرجعن	حفيّاً بها من كان قبل جفاها

وعاد إلى هذا الموضوع بإطّباب كثير في معارضته لرأية أبي نواس ، ثم ذكره في قصيدته التي مطلعها : « ما كفر نعماك من شأني فيثيني ... » فقال ٢ :

أجاهدُ الصبرَ عنها وهي غافلة	عن لوعة في الحشا منها تناجيني
يا هذه كيف أعطي الشوق طاعته	وهذه طاعة المنصور تدعوني
شدّي عليّ نجادَ السيف أجعله	ضجيجَ جنب نبا عن مضجع الهون

رضيتُ منها وشيك الشوق لي عوضاً وقلت فيها للوعات الأسي : بيني

أما المعنى الثاني فهو حاجته إلى الرضى والثقة لكي يطمئن إلى أنه أصبح في منزلة لا يخشى معها صروف الأيام . وفي هذه القصائد الأولى كان - في الأغلب - تقليديّ المترع ، يتحرّى المقدمات الغزلية حين لا يجد سبيلاً إلى ذكر الزوجة وفراقها ، حتى إننا لنستطيع أن نحدد تاريخ بعض القصائد - على وجه تقريبي - من هذه العناصر التي تسيطر عليها ، أعني ذكر فراق الزوجة ، والإلحاح على الثقة والرضى واختيار المقدمة الغزلية ، فهذه القصيدة ^١ :

إذا شئت كان النجمُ عندك شاهدي بلوَعَةٍ مُشتاقٍ ومقلةٍ ساهدٍ
وهي في مدح المنصور ، لا يبعد أن تكون من أوائل قصائده فيه ، على أننا يجب أن نحذر من تضليل هذه العناصر أحياناً ، فقد أورد صاحب اليتيمة قصيدة قالها في مدح المنصور وهي ^٢ :

أصبح نخوي لدعوةٍ مستقيلٍ يُنادي من غيابات الحمولِ
رهينة كلِّهم مستكنٌ ونهزة كلِّ خطبٍ مستطيلِ

وفيهما يعود إلى نعمة الرضى وحب الانتشال من « غيابات الحمول » ، ولكن القرائن الداخلية في القصيدة تدلُّ على أنها ليست في المنصور بن أبي عامر وإنما هي في مدح منذر بن يحيى التجيبي الذي كان يلقب بالمنصور أيضاً ، وهي من ثمَّ تمثل مرحلة تالية في حياة ابن درّاج .

فلمّا اطمأن بجانبه إلى المهاد الدمث لم يعد بحاجة إلى كلِّ هذه المعاني ، بل أصبح يعيش تجربة الشعور الجماعي بروعة الانتقال من نصر إلى نصر - أصبح جزءاً خيماً نابضاً من ذلك التاريخ المجيد الذي كان يصنعه المنصور وابنه

عبد الملك المظفر ؛ فالانتصارات متوالية ، وهذا عدو يؤسر ، وذاك يفد
 طائعاً موالياً ، ولهذا حفلت قصائده بالاستبشار ، وارتفعت فيها النغمة الدينية ،
 ووصف أدوات الجهاد من خيل وسيوف ورماح ، ووصف العدو بالفرار
 أو بالاستسار ، ولم يعد الموضوع الجليل بحاجة إلى تمهيد من نسب أو شكوى
 أو غزل ، فأخذ ابن دراج يهجم على موضوعه بثقة كبيرة ، ولهذا جاءت
 مطالعه على مثل :

هو النصر والتمكين أدرك طالبه ولاحت وشيكاً بالسعود كواكبه
 شهدت لك الأبطال يوم كفاحها والحرب بين غدوها ورواحها
 تبلّج عن إشراق غرتك الصبح وأسفر عن إقدامك النصر والفتح
 سر سار صنع الله حيث تسير قدماً وساعد عزمك المقدور
 النصر حزبك في الضلالة فاحتكم واغضب لدين الله منها وانقم
 الله جارُّك ظاعناً ومقيماً ومثيك التبجيل والتعظيماً
 أهلاً بمن نصّر الإله وأيداً وحمى من الإشرار أمةً أحمداً

وهذه المطالع ليست في مدح المنصور وحسب ، بل إن بعضها في مدح
 ابنه المظفر ؛ وقد كان ابن دراج مهتد للحظوة أيام المظفر منذ عهد بعيد إذ
 كان كلما مدح أباه عرّج على مدحه ومدح أخيه عبد الرحمن شنجول ، فبقيت
 مكانته على حالها بعد وفاة المنصور ؛ ولا تقلّ قصائده في العامرين ورجال

دولتهم عن ستين من القصائد وأكثرها من المطولات .

ومدح من رجال الدولة العامرية ، الوزير المشهور أبا الأصبح عيسى ابن سعيد بن القطاع « قيم دولة ابن أبي عامر وحامل لوائها والمستقل بأعبائها ومالك زمام إعادتها وإبدائها » بقصيدة مطلعها^١ :

أفي مثلها تنبؤ أباديكَ عن مثلي وهذي الأمانى فيكَ جامعةُ الشملِ
وقد مدحه بها في أيام المظفر لا في أيام المنصور ، أي حين « تناهى عيسى في الاكتساب بالحضرة وجميع أقطار الأندلس ضياعاً ودوراً فات الناس إحصاؤها ، واشتمل على الملك هو وولده وصناعه » . وهو يشكو إلى أبي الأصبح فقره وحاجته إلى مركب ، مع أن الركبان إنما يحتقون غرائب شعره ، ويتقلون بدائعه على شراهم ولا شراب له ، ويستغيثه بقوله :

أبا الأصبح المعنيَّ هل أنتَ مُصْرِيخي وهل أنتَ لي مُغْنٍ وهل أنتَ لي مُعْلي
وقد قُتِلَ هذا الوزير في أيام عبد الملك المظفر ، لأنه فيما يقول أخذ يميل إلى الأموية على العامرية ، ومن المواقف المؤسفة أن يجد ابن دراج نفسه مهنتاً المظفر بالتخلص من وزيره عيسى بن سعيد ، في قصيدة له مطلعها^٢ :

شُكْرًا لِمَنْ أَعْطَاكَ مَا أَعْطَاكَ مَلِكٌ أَذَلَّ لِمُلْكِكَ الْأَمْلاكَ
حتى إذا هبت ريح الفتنة على قرطبة وعصفت بدورها وقصورها
وشردت أدبائها وعلماءها ، وقضت بالموت على فريق منهم ، بقي ابن دراج مع فريق الشعراء الذين « نسجت على أفواههم ومحاريبهم العناكب » كما يقول ابن حيان ، فقيراً معدماً منكوباً معيلاً كبير المسؤولية تجاه الأهل

١ الديوان : ٤٣

٢ ابن عذاري ٣ : ٢٥٠ والديوان : ٣٢

والأولاد ، حائراً ملبساً في أمره ، ولقد ظن أن انتصار المستعين يحقق له عودة الحياة الطيبة التي كان يحياها في ظل العامريين ، فما كاد المستعين يدخل قرطبة حتى خف إليه ابن دراج ، يهته بالملك بل يهتئ الملك به ، ويشمت بالمهدي ويسميه قعيد الخزي^١ :

هنيئاً لهذا الملك رَوْحٌ وَرَيْحَانُ وللدِّينِ والدُّنيا أمانٌ وإيمانُ
فإنَّ قعيدَ الخزي قد ثلَّ عَرشُهُ وإنَّ أميرَ المؤمنينَ سليمانُ
ودخل عليه أول مجلس له بالقصر فأنشده^٢ :

شَهِدَتْ لكَ الأيَّامُ أنكَ عِيدُهَا لك حنٌّ مَوْحِشُهَا وآبَ بَعِيدُهَا
وأضَاءَ مُظْلِمُهَا وَأَفْرَخَ رَوْعُهَا وأطَاعَ عاصِيهَا ولانَ شَدِيدُهَا

وأظن في وصف المعارك التي انتصر فيها ، وفي وصف رجال حربه ، وباء من سليمان بالإخفاق ، فإن سليمان كان مشغولاً عن الشعر والشعراء ، لم يجبر لهم عثرة ، ولا عطف عليهم بنظرة ، فعزم ابن دراج على الرحيل في طلب الرزق ، وكتب في ذلك إلى سليمان يستأذنه^٣ : « حاشا لله أن أستشف الحسيني قبل جمومه ، وأستكره الدرّ قبل حفوله ، أو أتعامى عن سراج المعذرة ، وأرغب عن أدب الله في نظيرة إلى ميسرة ، ولكن :

« ماذا تقول لأفراخٍ بلدي مَرَّخٍ حُمُرِ الخواصلِ لا ماءً ولا شَجَرٍ »
ما أَوْضَحَ العَقْدَ لي لو أنهم عذروا وأجملَ الصبرِ بي لو أنهم صبروا

١ أعمال الأعلام : ١٢٣ والنخيرة ١/١ : ٥٣ والديوان : ٥٤

٢ النخيرة ١/١ : ٥١ والديوان : ٦٠

٣ النخيرة ١/١ : ٤٦

لكنهم صَغُرُوا عن أزمَةٍ كَبُرَتْ فما اعتداريَ عمَّنْ عُدْرُهُ الصَّغَرُ
وقد قلبتُ لهم ظهر الأمور ، وميزتُ بين المعسور والميسور ، فما وجدتُ
أحسن بدءاً ولا أحمد عوداً مما أذن الله فيه لعباده الذين أعمارهم أرضه وسخر
لهم بره وبحره ، أن يمشوا في مناكبها ويأكلوا من رزقه ، وحيث نتقلب
ففي كرمك وأين نأمن ففي حرمك .

وليس بعيد أن يكون قد كتب هذه الرسالة إلى المستعين ليذكره بنفسه ،
رجاء أن يجد لديه ما يعوضه الرحلة والمشى في مناكب الأرض . ولكن النتيجة
تدل على أن المستعين لم يلتفت إليه ، وهنا تبدأ سلسلة من التجوال وقرع
الأبواب ، والوقوف على الأمراء الذين اقتسموا الأندلس بعد الفتنة ؛ قال ابن
حيان : « فاستقرى ملوكها أجمعين ما بين الجزيرة الخضراء فسرقسطة من
الغر الأعلى يهز كلاً بمدبحه ويستعينهم على نكبته وليس منهم من يصغي له
ولا يحفظ ما أضيع من حقه وأرخص من علقه »^١ .

١ - فأول من قصد منهم خيران العامري صاحب المرية ، ومدحه
صدر سنة ٤٠٧ بقصيدة عارض فيها قصيدته النونية التي قالها في المستعين^٢ :
لكَ الخَيْرُ قد أوفى بعهدك خيرانُ وبُشْرَاكَ قد آواكَ عزُّ وسلطانُ
وكان قد ركب البحر إليه مع أهله وبنيه فوصف في هذه القصيدة سيره
والأهوال التي لاقاها في البحر :

إليك شحنا الفلْكَ تهوي كأنها وقد ذعرت من مغربِ الشمس غربانُ
على لُجَجٍ خُضِرٍ إذا هبتِ الصَّبَا ترامي بنا فيها ثبيرٌ وثهلانُ

١ النخيرة ١/١ : ٤٤

٢ أعمال الأعلام : ٢١٢ والنخيرة ١/١ : ٧٤ والديوان : ٨٦

وفي طيّ أسمالِ الغريبِ غرائبُ
 إذا غيَضَ ماءَ البحرِ منها مَدَدَتَهُ
 سكنَ شغافَ القلبِ ، شيبَ وولدانُ
 بدمعِ عيونِ تمترينَ أشجانُ
 يقلنَ وموجُ البحرِ والهَمُّ والدُّجى
 أأهلٌ إلى الدنيا معادٌ وهل لنا
 وهبنا رأينا معلّمَ الأرضِ هل لنا
 من الأرضِ مأوى أو من الإنسِ عرفانُ
 سوى البحرِ قبرٌ أو سوى الماءِ أكفانُ

ويأسى في القصيدة على أن بلاد الغرب قد ضيعته ، ويزعم أن بغداد
 ترحب بمقدمه ، ويقدر قيمة نفسه وهو يستعطف الملوك لأولاده :

فإن غرَبتَ أرضُ المغربِ موطني وأنكرني فيها خليطٌ وخِلانُ
 فكم رَحَبتَ أرضُ العراقِ بمقدمي وأجزتِ البُشرى عليَّ خراسانُ
 فإنَّ بلاداً أخرجني لِعَطَلٌ وإنَّ زماناً خانَ عهدي لِحَوَانُ

ويتذكر أصدقاءه وأهله الذين طواهم الموت ، ثم يمني أولاده بالخير حين
 يتزلون قصر المرية لأنهم يتزلون « ببحر ندى يمانه در ومرجان » ، ويطنب
 في مدح هذا البحر ، وقد شهرت هذه القصيدة حتى عارضتها إحدى شواعر
 الأندلس عندما مدحت خيران العامري نفسه^١ :

أنجزعُ أنْ قالوا سَتَظَعَنُ أظعانُ وكيف تطيق الصبرَ ويحك إنْ بانوا

ولم يكافىء خيران هذا النفس الطويل بما يستحق قبضه حظه في الجائزة ،
 وسمع بذلك طيب فاضل اسمه أبو جعفر ابن جواد فقصد ابن دراج بخمسة
 عشر مثقالاً ودفعها إليه وقال له : اعذر أخاك فإنه في دار غربة^٢ .

١ الجفوة : ٣٨٩

٢ الجفوة : ٣٧٠

٢ - ثم مدح المرتضى الذي حاول فتیان العامرين أن يعيدوا بيعته
سلطان الدولة الأموية بقصيدته^١ :

جِهَادُكَ حُكْمُ اللَّهِ مَنْ ذَا يَرُدُّهُ وَعِزْمُكَ أَمْرُ اللَّهِ مَنْ ذَا يَصُدُّهُ
وَطَائِرُكَ الْيُمْنُ الَّذِي أَنْتَ يُمْنُهُ وَطَالِعُكَ السَّعْدُ الَّذِي أَنْتَ سَعْدُهُ

وما بقي من هذه القصيدة ليس فيه استعطاف للأهل والأولاد .

٣ - وقصد مظفرًا ومباركًا العامرين صاحبي بلنسية ، وجمع مدحهما
في قصيدة كاجتماع سلطانهما^٢ :

أَنُورُكَ أَمْ أَوْقَدْتِ فِي اللَّيْلِ نَارَكَ لِبَاغِي قِرَاكِ أَمْ لِبَاغِي جَوَارِكَ
وَرِيَاكَ أَمْ عَرَفْتُ الْمَجَامِرَ أَشْعَلْتِ بَعُودَ الْكِبَاءِ وَالْأَلْوَةَ نَارَكَ
وَمَبْسَمِكَ الْوَضَّاحُ أَمْ ضَوْءُ بَارِقِ حِدَاهُ دَعَائِي أَنْ يَجُودَ دِيَارَكَ
وَطَّرَةَ صَبْحِ أَمْ جِيْنِكَ سَافِرًا أَعْرَتِ الصَّبَاحَ نوره أَمْ أَعَارَكَ

وبعد مقدمة غزلية طويلة انتقل إلى مدح مظفر ومبارك فقال :

وَأَرْضِي سِيُولَ مِنْ خِيُولِ مُظَفَّرِ وَلِيْلِي نَجُومَ مِنْ سِيُولِ مُبَارَكِ
فَحَيْثُ وَجَدْتِ الْأَمْنَ يَهْتَفُ بِالْمُنَى هَلْمِي إِلَى غَيْثِيْنَ جَادَا سِرَارَكَ
هَلْمِي إِلَى سَيْفِيْنَ وَالْحَدِّ وَاحِدٍ يَجِيرَانِ مِنْ صَرْفِ الْحَوَادِثِ جَارَكَ
هَلْمِي إِلَى طَرْفِيْ رِهَانٍ تَقْدَمَا إِلَى الْأَمْدِ الْجَالِيِ عَلَيْكَ اخْتِيَارَكَ
هَلْمِي إِلَى قُطْبِيْ نَجُومِ كِتَابِيْ تَنَادِي نَجُومِ التَّعْسِ غُورِي مَغَارَكَ

ويحاول أن يقنع نفسه ، كما بشرها حين وفد على خيران ، بأن الأمل

١ اللخيرة ١/١ : ٦٤ والديوان : ٨١

٢ أعمال الأعلام : ٢٢٢ والديوان : ١٠١

لا بد متحقق ببلنسية ، ولكن ارتحاله عنهما إلى غيرهما يدل على أن الحفاوة التي لقيها لم تكن لترضيه بالبقاء .

٤ - ويبدو أنه عاد في بعض تلك الأيام إلى قرطبة ، مجدداً العهد بها ، لعله يجد عند ابن حمود صاحبها الحديد ما يغنيه عن الضرب في الأرض ، وربما زاره قبل زيارته لمبارك ومظفر ، ومدحه بقصيدة مطلعها^١ :

لعلك يا شمسُ عند الأصيلِ شجيتَ لشجوِ الغريبِ الدليلِ

وذكر ابن حمود بما لقيته قرطبة من عناء وشدة :

ومن دوننا آسأتُ الديارِ نِهَابِ الحمى موحشاتُ الطلولِ
مغاني السرورِ لبسنَ الحدادِ على لابساتِ ثيابِ الدهولِ
خطيباتُ حَظْبِ النوى والمهورِ مَهَارِي عليها رحالُ الرحيلِ
فمن حرّةٍ جَلِيتُ بالجلَاءِ وعذراءُ نَصَّتْ بنصِّ الذميلِ
ولا حلني إلا جُمانُ الدموعِ تسيلُ على كلِّ خدِّ أسيلِ

ثم أطب في مدح ابن حمود ، وخاصة بنسبه العلوي .

٥ - وأخيراً استقر به المطاف عند منذر بن يحيى صاحب سرقسطة الملقب بذي الرياستين ، وبشر نفسه في رحابه بانتهاء عهد الفقر والتعاسة ، ولدينا من قصائده في منذر ما يزيد على ثلاثين قصيدة منها^٢ :

بشراك من طول الترحُّلِ والسُّرى صُبْحُ بروحِ السفرِ لاحِ فأسفرا

وفيها تعرض لذكر أبنائه والمصعوبات الجمّة التي لقيها قبل أن يصل

إلى منذر :

١ الذخيرة ١/١ : ٧٠ وابن عذاري ٣ : ١٢٤ والديوان : ٧٥

٢ أعمال الأعلام : ١٩٨ والذخيرة ١/١ : ٥٦ والديوان : ١٢٤

فلئن صفا ماء الحياة لديك لي فبِما شَرِقْتُ إليك بالماء الصّرى
ولئن خلعت عليّ بُرداً أخضرا فلقد لبستُ إليك عيشاً أغبرا
ولئن مددت عليّ ظلاً بارداً فلکم صليتُ إليك حرّاً مُسعِراً

وهو في هذا يعارض المتنبي في قصيدة مدح بها ابن العميد أبا الفضل ،
ويتبع سياق تلك القصيدة في مثل قوله :

ولتعلم الأملاكُ أنني بعدَهُمُ أَلْفَيْتُ كُلَّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفَرَا
.....
كلا وقد آنتُ من هودٍ هُدَى ولقيتُ يعربَ في القَبُولِ وَحَمِيرَا
والحارثَ الجفنيّ ممنوع الحمى بالخيْلِ وَالْأَسَادِ مَبْدُولَ الْقِرَى
وحططتُ رحلي بين نارِي حاتمٍ أَيامَ يَقرِي مُوسِراً أو مُعْسِرا
ولقيتُ زيدَ الخيلِ تحت عِجاجةٍ تكسو غلائلُها الجيادَ الضُمُرا

ومنها قصيدة قالها فيه حين ورد عليه صاعد اللغوي ، ومنها :

علا فحوى ميراثِ عادٍ وتُبَعِ بهمتِهِ العَلِيَا ونِسْبَتِهِ الدُّنْيَا

ومدح فيها صاعداً وقارن بين نفسه وبين منذر في قوله :

وقد لاذَ أبطالُ الجِلالِ بعطفِهِ كما لاذَ أطفالُ الجِلاءِ بعطفِيَا
وقد قَصُرَتْ عنهم رِماحُ عُداتِهِ كما قَصُرَتْ عنهم رِياشُ جِناحِيَا

وبكى ضياعه وتأسف لمصيره ، وأتته مدفون في الحياة :

فيا لك من ذكري سناء ورفعةٍ إذا وضعوا في الترابِ أيمنَ شِقِيَا

وفاحت ليالي الدهر مني ميتاً فأخزين أياماً دُفنتُ بها حياً

فيا عبّرتي سِحّي لعلّي مُبَلَّلٌ بِجَرِّكَ ما أَنزفتُ من ماء خديّنا
ويا خلّتي إن سوّف الغوثُ بالمني ويا غلّتي إن أبطأ الغيثُ بالسقيا
فقوما إلى ربّ السماء فأسعداء تَقَلَّبَ وَجْهِي في السماء وكفّياً

فهو يحسُّ في أسى أنه أنزف ماء وجهه ، وأن خلته لم تسد وغلته لم
ترو ، وأنه لا يزال يدعو الله أن ينزل عليه الرحمة ، ومعنى هذا أنه في
ظل منذر لا يزال يحس بالفقر ، دع عنك إحساسه بالغرابة .

وثالثة عدها الحميدي من مذهبات أشعاره في منذر وهي ^١ :

قلّ للربيع اسحب ملاء سحائي واجرُرْ ذبولك في مجرّ ذوائي

وفيها يتشوق إلى قرطبة ويقول مخاطباً الربيع أيضاً :

واجنح لقرطبة فعانقْ تُربّها عني بمثلِ جوانحي وترايبي
وانشرْ على تلك الأباطح والرّبي زهراً يخبّرُ عنك أنك كاتبي

وهذا التشوق يدل على أن شيئاً من الاستقرار قد أخذ يصرفه عن بكاء
نفسه والاستجداء لأولاده ، وأخذ يستعيد ذكرياته في الوطن ، ويلتفت
عن حاضره إلى ماضيه وكان كثير الاهتمام في تصوير ذلك الحاضر .

أما الرابعة فقد بقي منها قوله ^٢ :

يا عاكفين على المدامِ تَسَبَّهوا وسلوا لساني عن مكارمِ مُنْذِرِ

١ الجذوة : ١٠٥ والديوان : ١٦٧

٢ الجذوة : ١٠٥ والمطرب : ١٠٦

مَلِكٌ لَوْ اسْتَنْهَبْتُ حَبَّةَ قَلْبِهِ كَرَمًا لَجَاءَ بِهَا وَلَمْ يَتَعَدَّرِ

ومن ممدوحى ابن دراج في هذه الفترة شخص يدعى ابن أزرُق (أو ابن أزرُق) وأظنه أبا عامر ابن أزرُق أحد من استكتبهم منذر بن يحيى^١ ، ومدحه لأحد الكتاب معناه أن شيخوخته حالت بينه وبين العمل في الكتابة عند منذر ، فظلاً يتكسب بشعره من منذر ورجاله .

ومن قصيدته في ابن أزرُق يذكر حاله وحال أطفاله أيضاً^٢ :

أخو ظمإٍ يمصُّ حشاهُ سَبْعٌ وأربعةٌ وكلُّهُمُ ظِمَاءُ
كأنَّجُمَ يوسفٍ عددًا ولكن برؤيا هذه برح الخفاء
خطوبٌ خاطبتهم من دواهٍ يموتُ الحزمُ فيها والدهاء

ونقل صاحب الذخيرة عن ابن حيان^٣ أن ابن دراج وجد ترحيباً عند منذر وأته لم يزل عنده وعند ابنه من بعده مادحاً لهما مثنياً عليهما رافعاً من ذكرهما غير باغ بدلاً بجوارهما ؛ وقد كان هذا النص قبل نشر ديوان ابن دراج محيراً حقاً ، لأن المصادر التاريخية لم تذكر إلا منذر بن يحيى التجيبي حتى خيل للباحث أن منذراً هذا حكم من سنة ٤٠٨ - ٤٣٠ وأن ابن دراج توفي قريباً من ٤٢٠ ، فهو إذن لم يشهد إلا ولاية والٍ واحد من التجيبيين في سرقسطة ، ولكن الديوان احتوى على ٢٦ قصيدة في مدح يحيى بن المنذر ، مما يدل على أن الشاعر شهد عهد والٍ آخر بعد المنذر الأول . وقد جلا الدكتور محمود مكى هذا الغموض حين بين أن المنذر الأول حكم من

١ انظر الذخيرة ١/١ : ١٥٤

٢ الذخيرة ١/١ : ٦٧ والديوان : ٣٢٧

٣ الذخيرة ١/١ : ٤٤

٤ مقدمة الديوان ، هامش : ٧٥

٤٠٨ - ٤١٢ وخلفه ابنه يحيى الذي حكم من ٤١٢ - ٤٢٧ وتلاه في الحكم ابنه المنذر الثاني الذي قتل سنة ٤٣٠ على يد عبد الله بن حكم أحد أقربائه ، وبقي ابن حكم هذا في سرقسطة حتى جاء سليمان بن هود سنة ٤٣١ فتملكها ؛ وهكذا يكون ابن درّاج قد عاصر الوالين الأولين ، على أن له مدائح في الثالث منهم وهو المنذر الثاني ، إلا أن تلك المدائح قيلت فيه يوم كان ولياً للعهد .

وتبلغ بعض قصائده في المنذر بن يحيى وابنه يحيى أحياناً حدّاً كبيراً من الطول ، ونراه في بعضها قد عاد إلى الغزل وأطال فيه على نحو بالغ ، مما يصور مدى الناحية التقليدية إذ هو في عمرٍ لم يعد يسمح بمثل هذا الغزل عن تجربة ، كذلك يكثر الإشارة إلى ما حباه به المنذر من عطف وما يرجوه لديه من استقرار ، ويتحدث عن أبنائه فيطيل الحديث ، ويصف في تضاعيف ذلك ما لقوه جميعاً من مصاعب في التنقل والاعتراب ، كقوله في إحدى تلك القصائد^٢ :

وبينَ ضلوعي بضع عشرة مهجة ظمأ إلى جدوى يدبك حوائمُ
تلد الليالي لحمها ودماها وطعم الليالي عندهنّ علاقم
قطعت بين الليل والليل جامد وخضت بهن الآل والآل جاحم
إذا ملأ الهولُ الميئُ صدورَها تحرك من ذكراك فيها تمائمُ

وتعود به الذاكرة أحياناً إلى الفتنة التي كانت سبب غربته وإدبار حظوظه فيتحدث عنها متصوراً أنها كانت « عهد جاهلية » تستقسم فيه الأزلام وأن المهجات كانت هي الجزور المجزأ لضرب القداح وأن النفوس كانت هي

١ انظر تفصيل الخبر عن منذر الثاني ومقتله في الذخيرة ١/١ : ١٥٢ - ١٥٨

٢ الديوان : ١٦٥

القربان المدمى على الأنصاب ، ولكنه لا يحتمل مسئوليتها إنساناً بعينه ، لأنه
حام حول جميع الذين أرثوا نارها أو حاولوا الإفادة منها^١ :

فسكرت والأيام تسلبُ جدي	والدهر ينسجُ لي ثيابَ سلابي
سكرين من خمر كأن خمارها	فقدُ الشباب وفرقةُ الأجاب
لمدى تناهى في الغواية فانتهى	فينا إلى أمدٍ له وكتاب
وهوى تقاصر بالمنى فأطال بي	هماً إلى قلبي سرى فسرى بي
في جاهلية فتنة عبت بها	دونَ الإله مضلة الأرباب
تستقسم الأزلام في مهجاتنا	وتسيل أنفسنا على الأنصاب
غيراً من الأيام أصبح ماؤها	غوراً وأعقب صفوها بعقاب
وبوارقاً للغي أضرم نورها	ناراً وصاب غمامها بالصاب

وهي قطعة فريدة في تصوير حادث الفتنة البربرية .

ويسرف في قصيدة أخرى في وصف حاله وحال أولاده حتى يبلغ ما
نظمه في هذا الموضوع ٤٦ بيتاً (عدا ما سقط من القصيدة في هذا الموضوع
من أبيات)^٢ ، على أنه في هذه الفترة مثال الشكور العارف بالجميل لا يزال
في كل حين يذكر صنيع المنذر لديه ، وما لقيه من راحة وأمن في ظله^٣ :

وجزاء ما آويت وحش تغربي	وفسحت روضك لارتقاء سوامي
وفعمت لي بجر الحياة مبادراً	بحياة ذابلة الكبود ظوامي
وبسطت لي وجهاً كسفت بنوره	كرب الجلاء وخلّة الإعدام

١ الديوان : ١٨٤

٢ انظر القصيدة رقم : ٤٧

٣ الديوان : ٢١٥

ووجدت ذلك بعد يأس تقلبي وطن الرجاء ومنزل الإكرام
فكان وجهك غرة الفطر الذي وافى بفطري بعد طول صيامي

وتظل قصائده في يحيى بن المنذر حافلة بالتفاؤل ، إلى أن نجده في إحدى
القصائد - ولعلها من القصائد المتأخرة في مدح يحيى - يعاتبه لإهماله له
ويشكو له العوز وكيد الواشي وعدوان العادي ، ويطلب إليه أن « يقسم له
سهماً » لقاء حمده وشكره ويترع سهم الأسي من فؤاده ^١ :

أبتغرب عندك نجم اغترابي ومطلعه لك في الأرض باد
وأسقي الوري عنك ماء الحياة وأرشف منك حمي الشماد
وزرعني فيك حصيد الخلود وحضي منك لقيط الحصاد
سداداً من العوز المستجار وأكثره عوز من سداد
قضاء له في يد الاقتضاء زمام ومن سابق البغي حاد
كعلمك من خطب دهر رماني بأسهم واش وغاوي وعاد
يسلون بين الأمانى وبينى سيوف القلي ورماح البعاد
زمان كأن قد تغذى لسعي لعاب أفاع وحيات واد

ومما يدل على أن الحال تغيرت أنه يشكو إلى ابن باق - أحد رجال
الدولة التجيبية بسرقسطة - ما يلقاه من إهمال ، ويذكر فضله ^٢ :

ونكرت من جور الحوادث أتني وظام وبجر الجود فوق طام
وبصرت من خلل التجمل خلتي وفهمت من صمت الحياء كلامي

١ الديوان : ٢٩١

٢ الديوان : ٤٩٢

ثم يعود إلى ابن باق هذا نفسه بقصيدة تدل على انهيار معنوي تام ، حتى
ليطلب حق ابن السبيل والجار والمستضام^١ :

بما خُطَّ للجار وابن السبيل وأوجب للمستضام الغريب
ثم يقول :

فتلكَ نقائصُ سَعيي وسعدي يُنَادِين يَا للعجَاب العجيب
وتلكَ بضائعُ نثري ونظمي ضوَارِب فِي الأَرْض هل من ضريب
حتى ابن باق نفسه قد تغيَّر :

فحينَ افتتحتَ بنصر عزيز ييشر عنكَ بفتح قريب
ترقيتَ في هضبة العزِّ عني وأهويتَ بي لمهيلٍ كثيب
ولفتتكَ دوني غصونُ التَّعيمِ وأسلمت ضاحيَ مرعى جديب

على أنه لا يزال يرجو أن يتذكره وأن يذكره لسيدته الأمير :

فإن تُنهِ عني فأولى مجابٍ دعا للمكارم أهدي مجيبٍ

وفي آخر القصيدة يهدد - وهو لم يعد ذا قدرة على التهديد - بأن عدم
الترحيب بالضيف يعني رحيله :

ومن يمنع الضيفَ رجبَ الفناء فقدَّ قاده للفضاء الرحيب

والظنَّ قويَّ بأن ابن باق أصمَّ سمعه عنه وأن يجيبى شغل عن برّه ، أو
لعلهما معاً سثما هذا الإلحاح المتوالي ، وأصبح ابن درّاج في سرقسطة مقيماً

١ الديوان : ٤٦٩

مملولاً لا ضيفاً ، خفيف الظل ، ، وهل يمكن أن يظلّ ضيفاً من أقام حوالي
أحد عشر عاماً يوالي المدائح وجاء أن يصيب رزقاً ؟ وعاد ابن الثانية والسبعين
يحدّد التنقل ، ولعله في هذه الفترة مدح المؤتمن عبد العزيز بن أبي عامر ، وهو
ابن شنجول ، وقد أصبح صاحب بلنسية فترة طويلة من الزمن (امتدت من
٤١٢ - ٤٥٢) ومن المقطوع به حسب رواية الديوان أنه مدح مجاهداً العامري
سنة ٤١٩^١ بدانية ؛ ولعله توفي هنالك ليلة الأحد لأربع عشرة ليلة بقيت من
جمادى الثانية سنة ٤٢١ (٢٧ يونية ١٠٣٠)^٢ . لقد أكرّم الشاعر طرق
الأبواب بعد الفتنة ، ولكن أطول إقامة له كانت في سرقسطة وفيها روى عنه
أناس منهم : محمد بن ميمون القرشي - وهو من أهل العلم بالأدب والعربية -
ومظفر الكاتب السرقسطي^٣ .

من كل ما تقدم يتجلى لنا كيف وقع ابن دراج ضحية للفتنة ، كما وقعت
قرطبة نفسها ضحية لها ، وكيف تدهورت نفسيته إلى حد أن أصبح شعره
متردداً بين الاستبشار والحية ، بين شكوى الحال والتكفف الضارع ، بين
تصوير حال الأطفال وحال المملوحين ، وقد سخرت الأيام سخرية غير
رفيقة بابن دراج ، فقد بدأ مذهبه الشعري بالاتكاء على تصوير فراقه لزوجه
وأطفاله ، وتعلقهم به ، ورقته عليهم في حال الفراق المتخيل ، ثم انتهى
إلى التحدث عن هؤلاء الأطفال - أو الأبناء - حديثاً مستمداً من الواقع
لا من الخيال ، وأضرعته النكبة من أجلهم في الواقع لا في الخيال أيضاً .
كان غير راضٍ بالنعمة دون رضى ، فأصبح يرضى بالرزق من أي كف
جاءه ، وتلك حال من الانهيار النفسي الذي تلمح بذوره في المرحلة الأولى

١ الديوان : ٤٧٨

٢ انظر ابن خلكان ، الترجمة رقم : ٥٥

٣ التكملة : ٣٩٦ ، ٧١٣

ولكنه لم يكن ليتحقق سريعاً لولا اجتماع النكبة والشيخوخة معاً .
ويبدو من السياق العام لشعره أنه كان جاداً في أكثر شتونه ، محباً
لأطفاله ، قيماً بالمسئولية العائلية ، مترفعاً عن كثير من صفات الأمور وتوافه
المشاغل ؛ ارسل إليه أحد الأدباء لغزاً وسأله أن يفسره فلم يتعب فكره في
ذلك بل كتب إلى السائل على ظهر رقعة بديهة^١ :

إذا شذت عن العرب المعاني فليس إلى تعرّفها سبيلُ

واستشدد الطرف المرواني بمض شعر له يقول فيه :

إلى أن دهاني إذ أمنت غروره سفاهاً ، وأداني لما ليس يُذكر

فأعجب بالشعر ، إلا أنه انتقد عليه قوله : « وأداني لما ليس يُذكر »
لأنه وجد في هذا التعبير إيماءات غير مستساغة ، فاغتاظ الأموي منه وقال
له : يا أبا عمر من أين جرت العادة بأن تمزح معي في هذا الشأن ؟ فراجع
أبو عمر وسكن غضبته بأن قال : حلمُ بني مروان يحملنا على أن نخرق العادة
في الحمل على مكارمهم^٢ . وشعره وكتابه يدلان على أنه كان ذا حظ طيب
من الثقافة وسعة الاطلاع .

آراء النقاد في شعره

نال كثيراً من تقدير النقاد الأندلسيين وغيرهم ، فقال فيه ابن حزم :
« لو قلت إنه لم يكن بالأندلس أشعر من ابن دراج لم أبعده . وقال مرة أخرى :
« لو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن دراج لما تأخر عن شأو حبيب

١ الجنوة : ١٠٥

٢ الفتح ٢ : ٨٥٦ - ٨٥٧

والمتنبي^١ . وعده ابن حيان « سباق حلبة الشعراء العامرين وخاتمة محسني أهل الأندلس أجمعين »^٢ وبقریب من هذا قال ابن بسام نفسه ، وقال فيه الثعالبي : « بلغني أن أبا عمر القسطلي كان عندهم بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام ... وكان يجيد ما ينظم »^٣ . وقد افتخر الأندلسيون بذكر الثعالبي له ، وسماوا ابن دراج متنبي المغرب . ووصفه ابن شرف بأنه « شاعر ماهر عالم بما يقول ... حاذق بوضع الكلام في مواضعه لا سيما إذا ذكر ما أصابه في الفتنة وشكا ما دهاه في أيام المحنة ، وبالجملة فهو أشعر أهل مغربه ، في أبعـد الزمان وأقربه »^٤ . وقال ابن شهيد : « والفرق بين أبي عمر وغيره أن أبا عمر مطبوع النظام ، شديد أسر الكلام ، ثم زاد بما في أشعاره من الدليل على العلم بالخبر واللغة والنسب ، وما تراه من حوكه للكلام ، وملكه لأحرار الألفاظ ، وسعة صدره ، وجيشة بجره ، وصحة قدرته على البديع ، وطول طلقه في الوصف ، وبغيته للمعنى ، وترديده وتلاعبه وتكريره ، وراحته بما يتعب الناس ، وسعة نفسه فيما يضيق الأنفاس »^٥ .

وافتخر به الشقندي واختار له قصيدته الرائية في معارضة أبي نواس ثم شفع ذلك بقوله^٦ : « وأنا أقسم بما حازته هذه الأبيات من غرائب الآيات ، لو سمع هذا المدح سيد بني حمدان لسلا به عن مدح شاعره الذي ساد كل شاعر ، ورأى أن هذه الطريقة أولى بمدح الملوک من كل ما تفتن فيه كل ناظم وناثر » .

١ الجذوة : ١٠٥ - ١٠٦

٢ الذخيرة ١/١ : ٤٣

٣ اليتيمة ١ : ٤٣٨ والذخيرة ١/١ : ٤٤

٤ الذخيرة ١/٤ : ١٦٥

٥ الذخيرة ١/١ : ٤٥

٦ التفح ٢ : ٧٨٢ - ٧٨٣

شعره

إليه انتهت الطريقة التي اختارها الأندلسيون وارتضوها بعد الغزال، وعنده بلغت آخر الشوط في تطورها وتعقدتها والتواترها، لأنه جمع بين أبي تمام والمتنبي، وحاول أن يبدّ كل من تقدمه في المعاني والصياغة، مازجاً كل ذلك بجلبة ابن هانيء، مطيلاً إطالة ابن الرومي، معتمداً في أكثر شعره على الكد والمصابرة والنحت، ولقد أصاب ابن شهيد من بين النقاد الذين تقدمت الإشارة إليهم في النص على أكثر مميزاته حين وصفه:

- أ - بشدة الأسر في الشعر والصبر على حوك الكلام.
- ب - بالاعتدال على البديع إذا قورن بمن تقدمه من الأندلسيين.
- ج - بطول النفس في قصائده وبخاصة في الوصف.
- د - بتعقب المعاني والتلاعب بها وترديدها.
- هـ - بالغموض - نتيجة لذلك - حتى تنبهر أنفاس القارئ وهو يحاول فهم شعره وإدراك حدوده ومعانيه. ونسي ابن شهيد أنه يتميز بقريحة تعتمد المقايسة، لأنه يكون على خير أحواله في الشعر إذا هو عارض غيره، إلا أن في أبحره ثقلاً كثيراً، وفي كثير من قوافيه شذوذ عن طبيعة الموضوع، وعن الموسيقى العامة. ولقد عارض صاعداً والمتنبي وأبا نواس، ولكن شعره يظهر أنه كان يقيس على أمثلة من أشعار غيره، ثم يطنب في استغلال هذه المقايسة ويبالغ ليظهر تفرده، فيسمع المتنبي مثلاً يقول:

أريقك أم ماء الغمامة أم خمر

فيطلع بقصيدة على هذا التشكيك ويكثر من ذلك فيقول:

أنورك أم أوقدت بالليل نارك لبغي قيراك أم لبغي جوارك

وريتك أم عَرَفَ المِجَامِرَ اشْطَعَتْ يعود الكيِّاء والألوة نارك
ومبسمك الوضاح أم ضوء بارق حداهُ دعائي أنْ يهودَ ديارك
وطرّة صبحٍ أم جيّتك سافراً أعرت الصبّاحَ نورَه أم أعارك
وأنت أجرت الليل إذ هزَمَ الضّحي كتابتهُ والصبحُ لما استجارك
فللصبح فيما بين قرطيك مطلَعٌ وقد سكن الليلُ البهيمُ حِمَارك
فيا لتنهاري لا يغيظُ ظلامه ويا لظلامٍ لا يغيظُ نهارك
ونجمُ الثريا أم لآلٍ تقسّمت يميناك إذ ضمّنتها أم يسارك

ولعله أن لا يكون ناظراً في هذا إلى المتنبي ، فإنه يجب شعر ابن هانيء
الأندلسي في قوله :

فتكات لحظك أم سيوفُ أيكِ وكؤوسُ خمري أم مراشفُ فيكِ

حتى لتجده ناظراً إلى هذه القصيدة نفسها حين يقول :

إن كان واديك ممنوعاً فموعدنا وادي الكرى فلعلّي فيه ألقاك

فهذا من قول ابن هانيء :

عينك أم مغناك موعدنا وفي وادي الكرى نلقاك أم واديك

بل لعله أن لا يكون متأثراً بالمتنبي ولا بابن هانيء ، فهذه الطريقة من
التمويه التشكيكي موجودة عند كثير من الشعراء ، والمهم أن ابن دراج إذا
جرى فيها أبعد الغاية ، وأسهب ، وقد أطلت الاقتباسة من القصيدة المتقدمة
لدلالاتها على هذا الإسهاب ، ولدلالاتها على شيء آخر في شعر ابن دراج

وهو تعلقه بالصورة الواحدة مسافة طويلة في شعره ، وإلحاحه على جوانبها بشدة ، فترى الصورة في الأبيات السابقة هي النار أو النور وما يكتنف ذلك من ليل ، وتستمر هذه الصورة في كل الأبيات المتقدمة دون ملل ، وهذا إن دل في هذا المقام على شيء فإنما يدل على الاسترسال وحب الإطالة ، لا على تحقيق وحدة ما ، أو على شغف بالصورة نفسها ، ولكن كلما وجد ابن دراج سبيلاً لكي يمد في عمر المعنى - وفي عمر الصورة تبعاً لذلك - فإنه لا يتردد في أن يسلكه ، وهذا شيء ينتظم شعره ونثره ، ويخرج أحياناً إلى حد الإملال ، فمن ذلك أنه قد يشبه أبناءه بيوسف وإخوته والأحد عشر كوكباً فيسترسل مستخرجاً كل الملابس التي تليق بالموضوع من قصة يوسف وإخوته ، فيقول :

أخو ظلم يمص حشاه سبع	وأربعة وكلّهم ظمء
كأنجم يوسف عدداً ولكن	برؤيا هذه برح الخفاء
خطوب خاطبتهم من دواه	يموت الحزم فيها والدهاء
وكلّهم كيوسف إذ فداه	من القتل التغرّب والخلءاء
وانسجن حواه فكم حواهم	بطون الفلك والقفر القواء
وإن أقوت مغاني العزّ منهم	فكم عمرت بهم بشرّ خلاء

فانظر إليه كيف استخرج من قصة يوسف كل ما ينطبق على بنيه أو وجه المعاني التي في قصة يوسف ليمنحها لهم ، فذكر أنهم أحد عشر كأنجم يوسف ، وكل واحد فيهم هو يوسف الذي نجته الغربة من القتل ، وإذا كان يوسف قد سجن فكل واحد فيهم قد مرّ في سجن السفينة أو وجد

في القمر سجنًا ، وكل واحد منهم لجأ إلى بئر حلاء بعد مغاني العز الواسعة .
وهذا تشويق للمعنى وإسهاب فيه ، والأصل فيه التوليد المصاحب للمعنى
التثري ، وابن دراج بدأ كالتبأ وانتهى كاتباً شاعراً ، غير أنه يبني شعره
على النهج الفكري في التثر ، ويحاول أن يوشحه بالمبدع والقوة اللفظية .
وتسيطر على ابن دراج الصور الحربية في ثرّه وشعره ، وإذا أخذ في
هذا النوع من الصور أسرف فيه كثيراً ، وإذا تذكرنا أنه صرح ببعجزه أحياناً
عن المشاركة في الحرب عرفنا في شغفه بالصور الحربية نوعاً من التعويض ،
فمن ذلك في شعره :

أَوْجَعْتُ خَيْلي فِي الهوى وَرِكايبِ	وَقَدَفْتُ نَبلي فِي الصِّبا وَحِرابِ
وَسَلَّتُ فِي سُبُلِ الغَوايَةِ صارِماً	عَضْباً تَرَقَّرَقَ فِيهِ ماءُ شِبابِ
وَرَفَعْتُ لِلسُّوقِ المِبرِحِ رايَةَ	خِفاقَةَ بِهَزائِجِ الأَطرابِ
وَلَبِسْتُ لِلتَّوامِ لِأُمَّةٍ خالِعِ	مِسرودَةَ بِصِبابَةِ وَتِصابِ
وَبَرَزْتُ لِلسُّكوى بِشِكاةِ مُعَلِّمِ	نِكاصِ المِلامِ بِها عَلى الأَعقابِ
فاسأَلُ كِمي الوِجِدِ كِيفَ أَثَرُتُهُ	بِغِروبِ دِمعِ صائِبِ التِساكِبِ
واسأَلُ جِنودَ العِذْلِ كِيفَ لِقِيتِها	فِي جِحاظِ البِرحاءِ والأوصابِ
وَلِقدِ كَرَرْتُ عَلى المِلامِ بِزَقَرَةِ	ذَهِيلِ العِتابِ بِها عَنِ الاعتابِ
حَتى تَرَكتُ العاذِلينَ لِما بِهَمِ	شِغفاً بِجِباةِ التِساكِمِ لِما بِي
مِنَ كُلِّ مِمنوعِ اللِقاءِ اغتالِها	صَرفُ النوى فِناى بِه وَدِنا بِي
حَتى افْتِحتُ عَنِ الأَجِبَةِ مَعقِلاً	وَعرَ المِسالِكِ مِقفَلِ الأَبوابِ
وَوَقَفْتُ مَواقِفَ عاشِقٍ حَلَّتْ لِه	فِي غَنيمةٍ كاعِبِ وَكِعاِبِ

وفي كل ذلك تلحظ أدوات القتال وفتون الحرب ، حتى يصل
إلى الغنيمة ، وهكذا تحول بمنظر الحب إلى منظر الموقعة الحربية ، وأزجى

فيه من الصور ما شاء . وجمع إلى هذا كله في طريقته الشعرية فنون البديع
فأكثر في هذا الموقف من الجناس « لبست للتوأم لأمة » ، « وبرزت للشكوى
بشكة » ، وهو في غير هذا الوطن شديد الغرام بالمطابقات ، وأحياناً بالإشارات
على مثال أبي تمام في كثرة إشاراتة التاريخية ، كقوله :

وما شكر النخعيُّ شكري ولا وفى وفائي - إذ عزَّ الوفاء - قصيرُ
وكالإشارات الكثيرة في قصيدته الرائية التي مدح بها صاحب سرقسطة
منذر بن يحيى ، ومنها :

وأصبتُ في سبيلِ مورثٍ مُنكِّها يسبي الملوكَ ولا يدبُّ لها الضرا
والحارثَ الجفنيَّ ممنوعَ الحمى بالخيل والآساد ، مبدولَ القرى
وحططتُ رحلي بين نارِي حاتمِ أيامَ يقري موصراً أو معسراً

ثم تضيق هذه الحلقة بين الكلف بالمعنى والكلف بالفنون البديعية ، فإذا
معاني ابن دراج ألغاز عسرة الحل تتطلب من القارئ تحيلاً في الفهم وشروداً
في التصور . فإذا أراد استخراج صورة جديدة يصور فيها غرام ممدوحه
بجمال الجيوش وقاتلها وأعلامها قال :

وأجنادُهُ في مَوْقِفِ الرَّوْعِ رَوْضُهُ وأعلامُهُ في مَوْرِدِ الموتِ وَرْدُهُ
والتلاعب اللفظي في هذه الصورة ، يزيد إلى عسر التلاعب المعنوي .
ومن معيابه قوله :

الطرفُ مرآةٍ عيني أستدلُّ بها على الصباحِ إذا ما خيفَ ساطعُهُ
جوناً أزيدُ به ليلَ الرقيبِ دجى ويستتيرُ لي الإصباحِ لامعُهُ

ويعد في استعاراته حين يتحدث عن الإبل التي أوصلته إلى المدوح
فيقول :

بُدُنٌ فَدَتْ مَنَا دِمَاءَ نَحُورِهَا ببقائها في كلِّ أفقٍ منْحَرا
نَحَرْتُ بِنَا صَدْرَ الدُّبُورِ فَأَنْبَطْتُ قَلَقَ المَضَاجِعِ تَحْتَ جَوْأِ أَكْدَرَا
[خُوصٌ تَفْحَنُ بِنَا الْبَرَى حَتَّى انْثَنَتْ أَشْلَاؤُهُنَّ كَثَلِ أَنْصَافِ الْبُرَى]
وَصَبَّتْ إِلَى نَحْرِ الصَّبَا فَاسْتَخَلَصْتُ سَكَنَ اللَّيَالِي وَالنَّهَارَ الْمَبْرَا

والمعنى أن هذه الجمال - وشبهها بالهدي الذي ينحر في عرفات - قد
استنقذت منا دماء نحرها حين ظلت منحرًا في كل وجه ، أي ما عاشت
إلا لتموت ، فواجهت الدبور فأثارت مضاجع قلقته في جو أغبر ، ثم مالت
إلى نحر الصبا فلما قتلت الصبا استخلصت هدوء الليالي والنهار المبصر ، وإنما
جاءه هذا التكلف من طلب المعنى ، ومن الإلحاح على صورة النحر والقداء .
ويقول في قصيدة أخرى :

فِي وَقْعَةٍ قَامَتْ بَعْدَرٍ سَيُوفِهِمْ لَوْ ذَابَ مِنْ حَرِّ الْجِلَادِ حَدِيدُهَا
وَيَضِيقُ فِيهَا الْعَدْرُ عَنْ خَطِيئَةٍ سَمَرَاءَ لَمْ يُوْرُقْ بِكَفِّكَ عَوْدُهَا

والمعنى أن السيوف لو ذاب حديدها في أيدي أولئك الأبطال من حر
المعركة لكان في ذلك عذر لهم ، أما الرمح الذي كنت تحمله أيها المدوح فلا عذر
له لأنه لم يورق من ندى كفك ؛ وهذا غاية في الصنعة والإحالة ، وتقليب
المعاني التي تتردد عند الشعراء الآخرين ومزج أحدها بالآخر لإخراج معنى
جديد . وقد يقف المرء حائرًا إزاء قوله :

وَتَلِكْ مَرَاتِبُ الْأَخْطَارِ مَنِي حَمَائِمُ يَنْتَجِبْنَ عَلَى هَدِيلِ

وربما عني أن مراتب الأخطار ثاكلات كالحمام اللواتي فقدن الهديل

منذ القدم فهن ينحن عليه ، وكذلك المراتب العليا ، إنها تتطلع إليه ولا تجده ،
ومن حق مملوحيه أن يرفعه إلى تلك المراتب .

ومثال آخر من التعقيد سببه حبّ التوليد للمعنى ورسم المتقابلات قوله
في وصف المرأة الرومية التي قتل بعلمها في المعركة ١ :

شجيت بمصرع بعلمها ثم انثت مطلوبةً بجفونها أوتارها
من كل مغرمة بجملٍ تمري ألسيف أمضى فيه أم تذكّارها

فهذه المرأة حزنت لمصرع زوجها ولكنها هي كانت قد قتلت من قبل
بجمال عينيها ولذلك طلبت بثأر ما كانت قد جنت من أوتار ؛ وهي إذ تشهد
مصرع خليلها الذي تحبه تشكّ أيهما أمضى نفاذاً في جسمه ألسيف أم ذكريات
أيامه بصحبتها ، وكلّ هذا تكلف وتعقيد يراد به ابتكار معنى أو تصوير
المفارقة بين شيئين متباعدين . وليس كل شعر ابن درّاج بهذه الصعوبة
ولكنك لا تعدم أن تجد هذا اللون من التعقيد متناثراً هنا وهناك في ديوانه ،
وعند هذا الحدّ يغدو شعره لوناً من الشعر المتأفيريقي المغرب الملتوي عن
تعمد ، ويصدق فيه قول ابن شهيد : « وراحته بما يتعب الناس وسعة نفسه
فيما يضيق الأنفاس » .

على أنّنا يجب ألا ننكر أنّ ابن درّاج أول شاعر أندلسي لا يتزل شعره
عن مستوى الجزالة ، وأن صياغته بالغة درجة عجيبة من القوة ، حتى يمكننا
أن نقول إن إغرابه في طلب الصورة ثم محافظته على هذا اللون من الصياغة
القوية كان مزجاً عجيباً بين طريقة العرب وطريقة المحدثين ؛ وتجيء قصيدته
على مسرد واحد لا ارتفاع فيها ولا انخفاض ، لا أعني بالانخفاض الرداءة

وبالارتفاع الجوده ، وإنما أعني المراهقة بين المستويات العالية والذرى ؛
 فليس في قصائد ابن درّاج ذروة أو ذرى ينتقل بها القارىء من المستوى العام
 إلى ثبج الموجة العالي ، كما يفعل المتنبي حين ينتقل مثلاً من المدح إلى الحكمة ،
 وإنما هي موجة واحدة هادئة من أول القصيدة إلى آخرها ؛ وسرُّ ذلك
 فيما أعتقد أن ابن درّاج لم يكن يتصور قصيدته تصوراً عاماً وإنما كان
 يرسم حدودها التفصيلية بدقة كأنه يكتب رسالة ، ولذلك فإنه يتدرّج
 فيها بتفصيل لا حذف فيه ، يملك على القارىء أقطار فكره وخياله ، ولا
 يدع مجالاً كبيراً للإيحاء . خذ مثلاً هذه القصيدة التي يهنيء فيها المنصور بن
 أبي عامر بإقبال ابن شانجة محكماً له في نفسه إثر ما كان من إيقاع المنصور
 به^١ تجد فيها صورة التسلسل الموضوعي بعد مطالعها :

ألا هكذا فليسمُ للمجد من سما ويحمِ دمار الملك والدين من حمى

وفي هذا القسم يتحدث عن حقّ من كان مثل المنصور : ماذا يحرز :

وحق لمن لاقى فأقدم سيفه على غمرات الموت أن يتقدما

ومن ... ومن ... ومن ... إلى أن استنفذ جميع ما يمكن أن ينسبه
 للمنصور من حقوق لقيامه بأمر الدين والواجب ، ثم ينتقل إلى القسم الثاني
 حيث يذكر قدوم ابن شانجة ، فلا يترك شيئاً يتعلق بهذا القدوم دون أن يذكره :
 فإذا قدم ابن شانجة فإنه يمر بين صفوف الجند ذوي الرايات المزركشة
 المطرزة بصور الحيات والعقبان ، فلا بد أن يتحدث عن الجند ومنظر راياتهم ،
 ويكون الختام بتهنئة المنصور ... طريقٌ لاحب طويل ، ولكن ابن درّاج

١ هي القصيدة رقم : ١٠٧ في الديوان

يتبعه دون سأم آتياً على كل ما فيه من أمور دقيقة وجزئيات صغيرة .
وقد يسأل سائل : ها إن ابن درّاج مدح أناساً كثيرين ، كان بعضهم على غير وئام مع الآخرين ، ومجدّ عهوداً متفاوتة فلم لم يتفاوت شعره إلى حدّ واضح ، ولم لم يقع في التناقضات الكثيرة ؟ والجواب على ذلك أن ابن درّاج لم يكن يحوّج إلى مفهوم عام في نظراته للمواقف المختلفة والأشخاص المختلفين ؛ كان نظره إلى الأمر الواقع يجلب عنه كلّ ما تقدّم ، ولا يمكنه من استشراف ما يمكن أن يحدث ، فكل قائم بالأمر إنما هو « مبعوث العناية الإلهية » في تلك اللحظة ، دون اعتبار لما تقدمها أو لما يبجى بعدها ، وكل أميرٍ — في ظرف ما — فإنّما يحقّق حدود الله وينصر شريعته ويذب عن دينه ؛ ولم ينظر ابن درّاج أبداً إلى الجذور ولا نظر إلى النتائج مجتمعة حين كان يفكر في أمر الأندلس ، ولولا بعض لحظات التأمل والاعتبار لما حصلنا منه على تلك الأبيات التي بصوّر فيها أثر الفتنة البربرية ؛ ولم يكن ابن درّاج يتأمل في مشكلة الأندلس ، فقد شغل عنها بالتفكير في رزقه ورزق الأفواه الكثيرة الجائعة التي كان يجوب بها أرجاء البلاد مستدرّاً لعطف أمير بعد أمير .

فإذا قلنا إنّه أتقن فن المدح لم نكد ننسى أنّه أتقن وصف حال أطفاله ، حتى جعل هذا الموضوع هو المحرك العاطفيّ — بعد النكبة — في كثير من قصائده . ولا يخفى الناظر في شعره أن يلحظ كثرة اقتباسه للتعبير القرآني ولعبارات من محفوظه القديم ؛ وليس لديه قصائد كثيرة في غير موضوع المدح ؛ هنالك عدد قليل من القصائد في الرثاء وأخرى في وصف الأزهار نظّمها بطلب من المظفر بن أبي عامر ، وبعض مطالع غزلية مطوّلة تدلُّ على إحكام للصنعة الشعرية ، ولكن ليس فيها عمق عاطفيّ .

لقد مكنتنا استكشاف ديوانه من أن ندرس شعره في أدواره المختلفة ،

ولكن طول قصائده وكثرتها يجعل كل دراسة لديوانه لمحات موجزة ، في مثل هذا المقام^١ .

١ كان محمد بن إبراهيم القيسي من أهل وشقة - وسكن سرقطة - قد جمع شعر ابن دراج وزاد فيه كثيراً على ما بأيدي الناس سنة ٤٦٧ ، ورآه ابن الأبار بخطه في بلنسية سنة ٦٣٥ ، ولعل سكناه لسرقطة أعانته على جمع ما زاده من شعر (التكملة : ٤٠٤) . وأجاز ابن دراج لابن حزم رواية شعره وعن ابن حزم رواه الحميدي وشريح بن محمد (فهرسة ابن خير ٤١٤ - ٤١٥) ورأى ابن خلكان ديوانه ونقل منه وقال إنه في جزئين ، ثم نشر ديوانه أخيراً بتحقيق الدكتور محمود مكّي (دمشق ١٩٦١) . وقد احتوى الأصل على ١٦٢ قصيدة أضيف إليها ملحق ببعض قصائد لم ترد في الديوان ، وفي كتاب التشبيهات شعر لم يرد في ديوانه ولا في الملحق ، فالديوان بحالته هذه لا يمثل جميع ما قاله ابن دراج . كذلك فإن في النفس من ترتيبه شيئاً ، وذلك أن اعتماد الترتيب التاريخي هو الذي يستوحى من مواطن كثيرة في الديوان ، إلا أن هذا الترتيب يختلف في عدة مواضع ، وأكبر الظن أن الخلل سببه اضطراب في النسخة لا في عمل جامعه الأول .

٢ - ابن شهيد

أبو عامر أحمد بن عبد الملك

الذخيرة ١/١ : ١٦١	الجذوة : ١٢٤	بغية الملتبس رقم : ٤٣٧
المغرب ١ : ٧٨	المطوح : ١٦	البييمة ١ : ٣٨٢
الخريدة ١٢ : ٢٠١	المطرب : ١٤٧	الشذرات ٣ : ٢٣٠
إعتاب الكتاب : ٧٤	المسالك ١١ : ٢٠٦	معجم الأدباء ٢ : ٢١٨

وانظر صفحات متفرقة في النفع والشريشي .

بيت نبي شهيد من بيوتات الشعر في الأندلس ، وهم أشجعون من ولد
الوضاح بن رزاح الذي كان مع الضحاك بن قيس يوم مرج راهط . وكان
عبد الملك أبو مروان والد أبي عامر الذي ترجم له من شيوخ الوزراء في
الدولة العامرية ، مقرباً عند المنصور بن أبي عامر ، وقد استعمله المنصور والياً
على الجهات الشرقية ، جهات بلنسية وتدمير ، فبقي هنالك تسعة أعوام ،
ثم سئم العمل فكتب إلى المنصور يقول : « إن كبير حق المولى لا يذهب بصغير
حق العبد ، ولي حرمة أدل بها ، وذمة أنبسط لها ، وقد طالت علي الغربية ،
وسئمت الخدمة ، ومللت من النعمة ، فالإدالة الإدالة »^١ . وقد أعفاه المنصور
من الخدمة حسب رغبته ، فعاد إلى قرطبة وقد أثرى ، إذ كان معه حين
عودته أربعمائة ألف دينار ناضية ومائة ألف من ذهب آتية ، ومائتان من
رقيق الصقل ، ولم يحاسبه المنصور على هذا الثراء ، بل إنّه صرف له فوق

١ الذخيرة ١/١ : ١٦٧

ذلك ألفي مدي من قمح وشعير مناصفة ، لأن السعر كان عالياً ، وكانت نفقته الشهرية من القمح سبعين مدياً ومن الشعير علف ثمانين دابة .
وفي قرطبة أصبح أبو مروان من ندامي المنصور ومستشاريه . وكان من الناحية الثقافية كثير الاهتمام بالتاريخ والخبر واللغة والأشعار ، مع سعة روايته للحديث والآثار . وقد ألف كتاب التاريخ الكبير في الأخبار ورتبه على السنين - بدأ به من عام الجماعة سنة أربعين وانتهى إلى أخبار زمانه^١ . وأصيب بالقرس في شيخوخته ، فأهدى إليه ابن أبي عامر محفة من خيزران ليحمل فيها ، وكان في مرضه يحضر مجالس الأئس ويستخفه الطرب فيرقص إذا أخذ منه الشراب ، ويرتجل الشعر ، ومما ارتجله في بعض تلك المواقف^٢ :

هاك شيخٌ قاده عذرٌ لكا	قام في رَقَصَتِهِ مُسْتَهْلِكَا
لم يُطِيقُ يِرْقُصُهَا مُسْتَبْتَا	فَانْتَنِي يِرْقُصُهَا مُسْتَمْسِكَا
عاقه من هزها معتدلاً	نِقْرِسٌ أَنحَى عَلَيْهِ فَاتِكَا
أنا لو كنتُ كما تعرفُني	قمتُ إجلالاً على رأسي لكا
فهقه الإبريقُ مني ضحِكَا	ورأى رعشةَ رجلي فبكي

وفي شيخوخته كان ما يزال قويَّ الشهوات ، منطلق النفس وراء لذاته ، إلا أنه نسك في أخريات أيامه ، وتوجه إلى الآخرة ، وعزف عن الدنيا ، ثم أدركته منيته من ذبحة أصابته ، وقبيل وفاته كان المنصور قد نقله من منية المغيرة إلى منية النعمان ليكون قريباً منه^٣ .

١ الصلة : ٣٣٨

٢ الذخيرة ١/٤ : ١٧

٣ الصلة : ٣٣٩

وفي الحلي المسمى منية المغيرة وفي الدار المعروفة بدار ابن النعمان ، بين
تضاعيف هذا النعيم ، ولد أحمد بن عبد الملك ، وشهد عزاً أبيه في ظل العامرين
بل فتنه مجد العامرين وثوراهم وقصورهم ، وكان طفلاً شديداً الحساسة ،
فانطبت في ذاكرته منذ الصغر ذكريات لم تنطمس من بعد ، نلمس فيها
الثورة الحبيثة على أبيه ، والتشوف إلى الثراء وحب الظهور ، واستشعار
السيادة في ذلك الدور المبكر من حياته .

فقد ظل يذكر كيف دخل وهو في الخامسة من عمره على المنصور
ابن أبي عامر ، فرأى بين يديه تفاحة كبيرة ، فأخذ يتأملها تأمل الشبه ،
فأمره المنصور أن يأخذها ويأكلها ، فلما أطبق على بعضها فمه لم يستطع أن
يقطع منها شيئاً ، بل إن يده ضاقت عنها ، فتناولها المنصور منه ، وأخذ
يقطع له بفمه ويطعمه ، وكأن هذا العطف كان يذكره بأنه حُرْم شيئاً كثيراً
من عطف أبيه الذي كان مشغولاً بمجالسه وبأمور الدولة أكثر من النظر
إلى أبنائه . ثم سلمه المنصور إلى من حمله إلى بيت المنصور حيث السيدة زوجه ،
ولم ينس الطفل أحمد ما استقبل به من حفاوة من النساء ، وكيف غمرته
بالهدايا ، وقدمت له زوج المنصور ألف دينار عن نفسها وثلاثة آلاف عن
زوجها ، وظنّ الطفل أنه حر التصرف فيما أهدي إليه لأنه يملكه ، ولكنه
ما كاد يعود إلى البيت حتى استولى أبوه على كل شيء ، فوزع منه ما وزع ،
واستبقى منه ما شاء . وتلك حادثة أثرت في نفسية أحمد تأثيراً عميقاً يشبه
الحقد ، ذلك أنه كان يرجو أن يشبع رغبته من تلك الألوف ، لا بشراء
اللعب فحسب ، « والحليل إذ ذاك نجب من قصب ، والدرق قشور من خشب » ،
بل ليفرق ما يريد تفريقه من ذلك المال على الخدم والحواري وأطفال الحلي .

وقد نُقل إلى المنصور أن هذا الطفل غضب مما فعله أبوه ، ولعله بكى لديه ،
فمنحه خمسمائة دينار وأقسم على أبيه أن يبيح له التصرف التام بها ، فبدها
على لعبة وفرق كثيراً منها على لذاته .

وحادثة ثانية كانت أعمق أثراً من الأولى ، وهو يقول إنها كانت أفدح
نازلةٍ نزلت بصوته^١ ، ذلك أن أباه حين نكسك ، نسي حق الطفولة في اللهو ،
فطرح ذيل نكسه وتشفه على أبنائه ، وعمد إلى ابنه أحمد وكان يومئذ في
الثامنة ، فحلق لمته ، وانتزع ما عليه من ثياب الخبز والوشى ، وألبسه بدلاً
منها ثياباً بسيطة ، فتلقى الطفل هذه بآلم شديد ، ومر به الوزير ابن مسلمة ذات
مرة ، فسأله عن حاله ، فأجابه بالشيخ والعجيج ، - مظهر من مظاهر
الحساسية الشديدة والنشأة المدللة - فما كان من الوزير إلا أن حكى الأمر
للمظفر ابن المنصور - وكان المنصور غائباً - فاستقدم الغلام إليه وألبسه
ثياب الحرير ، وحمله على فرس بسرجه ولجامه ، وأعطاه ألف دينار ،
وعقد له - عقداً صورياً - على الشرطة . فأرضى في نفسه الصغيرة تشوفها
إلى المراكز العالية الكبيرة ، وتطلعها إلى الحديد من الثياب والوافر من الأموال .
من أجل ذلك كانت نكبة قرطبة حادثاً جليلاً بالنسبة له لأنها هوت بالمجد
العامري ، وقضت على الأيام السعيدة في ظل العامريين ، وكانت نشأة أبي
عامر لا تقويه على الكفاح والمغامرة من جديد ، لنعومتها أولاً ، ولفرقه
الشديد من تقلبات الأيام في المهجرة ، فبقي في قرطبة ينظر إلى معاهدها
الدارسة في أسى ، ويبكي قصورها ومنتزهاتها ، ويعللُ عجزه عن مفارقتها
بحبه للوطن ، بحبه لقرطبة وإن كانت عجوزاً متغيرة الريح ، ساقطة الأسنان ،
زانية بالرجال « طاب له الموت على هواها »^٢ :

١ انظر الذخيرة ١/١ : ١٦٤

٢ الذخيرة ١/١ : ١٧٥

عجوزٌ لعمُرُ الصِّبا فانيه^٥ لها في الحشا صورةُ الغانية^٥
زنتُ بالرجالِ على سنِّها^٥ فيا حبدا هي من زانية^٥
تقاصرُ عن طولها قونكة^٥ وتبعدُ عن غننجها دانية^٥
ترديتُ من حزنِ عيشي بها^٥ غراماً فيا طولِ أحرانية^٥

وكان أبو عامر عند النكبة في ريعان الشباب ، وفورة الهوى ، تجاوز العشرين بقليل وقد تعود حياة اللهو التي تهبها المدينة الكبيرة ، ولكنه أيضاً شعر ، بحكم سنه وما يحيط به من مثالية في النظر إلى الأمور ، أن الفتنة غيرت المقاييس وزعزعت القيم ، فرفعت وخفضت دون معيار صحيح ، « وأن الفتنة نسخُ للأشياء من العلوم والأهواء ترى الفهم فيها باثر السلعة ، خاسر الصفة ، يلمحُ بأعين الشنان ، ويستقل بكل مكان »^١ . حقاً ان الفتنة لم تتركه منظوياً على نفسه ولكنها قتلت فيه طموح الطفولة والصبا إلى السيادة ، فأخذت الحاجة وحدها تدفعه — كما دفعت ابن دراج — إلى مدح هذا أو ذلك ممن تعاقبوا على حكم المدينة ، مع شعور عميق بأن العامرين وحدهم هم الذين كانوا يستطيعون أن يفردوه ويميزوا مكانته بين ذوي الفهوم . وكما أن الفتنة قوت في نفسه حب السلامة في تلك الفترة المتقلبة ، فإنها أضافت شيئاً إلى المرارة التي كان يحسها نحو الأشياء والناس وأذكت من نار النعمة عنده على بعض معاصريه ، حتى لتحس من بعض رسائله أنه كان يرى من حوله يكيدون له ، حباً في الكيد أو حسداً لعبقري مثله . ومما زاد في نقمته أنه رأى بعض من كان يعاشرهم من فتيان العامرين ، قد صاروا سادة في مختلف جهات الأندلس ، فأخذ يحس ، محققاً أو ظاناً ، أن أصدقاءه تنكروا له ،

ومن هؤلاء مجاهد العامري أبو الجيش ، الذي كان رفيق صباه ، فلما حدثت
النكبة وهبت على مجاهد ربيع السعد « وجاءت المنى من تهامة ونجد » حاصراً
عن الوفاء ، فانقطع عن مراسلة صديقه القديم ، فدفعت الحاجة بابن شهيد
أن يقصده ثم انصرف - كما يقول - « بين الحاليتين ، لا قرب ولا شحط ،
ولا رضى ولا سخط »^١ وهو موقف أشبه بنجية الأمل منه بفوز الرجاء .
ومع أن أبا عامر يقول : « فما سقطنا على سوقة بهش إلينا ، ولا دفعنا
إلى ملك يصبو بنا » ، فإنه أحرق قسماً من جهوده الفنية بخوراً على أعتاب
المستولين على قرطبة ، فمدح المستعين لما تم له الأمر بقصيدة مطلعها :

بكى أسفاً للبينِ يومَ التفرُّقِ وقد هونَ التوديعُ بعضَ الذي لقي

وهي قصيدة لم يبق منها إلا مقدمتها الغزلية ، ولما أصبح أمر قرطبة في
يد بني حمود (٤٠٧) ، وصل أبو عامر بهم أسبابه ، غير أنه « دبت إليه
عقارب ، برئت منها أباعد وأقارب ، واجهه بها صرف قطوب ، وانبرت إليه
منه خطوب . . . وأقام مرثناً ولقي وهناً »^٢ ، وقد ماله في تلك الأيام فكتب
إلى ابن حمود رسالة في صفة السجن والمسجون^٣ وألحق بها قصيدة يمكن
أن يستنتج منها أنه كان يعاني الضيق الشديد من الفقر والانحباس في السجن ،
إذ يقول :

فراقٌ وسجنٌ واشتياقٌ وذلةٌ وجبارٌ حُفَاطٌ عليٌّ عتيدٌ
فمنَ مبلغِ الفتيانِ أنِّي بعدَهُمُ مقيمٌ بدارِ الظالمينَ وحيدٌ

١ الذخيرة ١/١ : ١٩٢ وما بعدها .

٢ المطمح : ٢٠

٣ أعتاب الكتاب : ٧٤

مقيمٌ بدارٍ ساكنوها من الأذى
ويُسمعُ للجنانِ في جنّباتها
قيامٌ على جَمَرِ الحِمامِ قُعودُ
بسيطٌ كترجيعِ الصِّبَا ونشيدُ

ثم يستعطف المعتلي بن حمود صاحب مالقة وإشبيلية بقوله :

وراضتُ صعايبي سَطْوَةً عَلاوِيَةً
تقولُ التي من بيتها خفَّ مركبي :
لها بارقٌ نحو النَّدى ورعودُ
أقربُك دانٍ أم نواكٍ بعيدُ
فقلتُ لها: أمري إلى من سَمَتُ به
إلى المجدِ آباءٍ له وجدودُ

وفيهما يقول مصرحاً بذكر المعتلي :

إلى المعتلي عاليتُ همّي طالباً
همامٌ أراهُ جودهُ سُبُلِ العُلا
لكرتيه إنَّ الكريمَ يعودُ
وعلمتهُ الإحسانُ كيفَ يسودُ

ومنها :

خنانيكَ إنَّ الماءَ قد بلغَ الزُّبى
ظمئتُ إلى صافيِ الهواءِ وطلَّقتهِ
وأنحتُ رزايا ما لهُنَّ عديدُ
فهل لي يوماً في رضاك ورُودُ

غير أن علاقته بالمعتلي تحسنت حين استجاب هذا الوالي لرجائه وأطلقه ، فأخذ يمدحه ويبعث إليه بالمدايح من قرطبة . من ذلك أن المعتلي لما أوقع بالفرقة الزنجية في إشبيلية كتب أبو عامر إليه يمدحه ويقول :

غناكَ سَعْدُك في ظلِّ الصِّبَا وسقى
« فاشربْ هنيئاً عليكَ التاجُ مُرتفِيقاً »

ومنها :

أجريتَ للزَّنَجِ فوقَ التهرِ نهرَ دَمٍ
حتى استحالَ سماءُ جُلَّتْ شَفَقاً

وساعدَ الفلَّكُ الأعلى بِقَتْلِهِمْ حَتَّى غَدَا الفُلُكُ بِالنَّاجِي بِهِ غِرِقَا
 ولما انتصر المعتلي على ابن الشَّرْبِ ، أنشده الشعراء قصائدهم فلم تعجب
 أبا عامر وأنشده يومئذ^١ :

فريقُ العِدا من حدِّ عزمك يَفَرِّقُ وبالدهر ممّا خافَ بطشك أولقُ
 عجبتُ لمن يَعتدُّ دونك جنةً وسهمك سَعْدُ والقضاءُ مُفَوِّقُ
 وما شربَ ابنُ الشَّرْبِ قبلك خمرةً من الذلِّ بالعجز الصريح تُصَفِّقُ

وقد يكون أبو عامر أنشد هذه القصيدة في قرطبة أو في مالقة ، لأن المعتلي
 هذا لما رأى ضعف القاسم بن حمود بقرطبة زحف عليها من مالقة ، ودخلها
 دون قتال وهرب منها القاسم ، وظل يحيى المعتلي فيها حتى سنة ٤١٣ حين
 عاد القاسم بجيش من البربر فأخرجه عنها ، وهرب المعتلي إلى مالقة . ويبدو
 أن ابن شهيد كان ميالاً للمعتلي ، ولذلك فإنه فكر في اللحاق به إلى مالقة ،
 ولا ندرى هل نفذ هذا العزم أو رجع عنه ، ولكن له قصيدة قالها وقد أزمع
 الخروج عن قرطبة لاحقاً يحيى وهو يذكر فيها أنه محسود ببلده ، وأن
 أمية هضموا حقه ، وأن هاشماً (أي العلوي يحيى) سيرد له حقوقه ، يقول^٢ :

أرى أعيناً تَرَنُّوْا إليّ كأنما أدورُ فلا أعتامُ غيرَ مُحَارِبِ
 وتساوِرُ منها جانبيّ أراقمُ وأشقى امرئاً في قرية الجهلِ عالمُ
 وأسعى فلا ألقى امرئاً لي يُسالمُ ولكن شجى تنسُدُّ منه الحلاقمُ
 ففي الأرضِ بناءونَ لي ودعائمُ فهاهنا بداري فاهندِ موها دعائماً

١ اللخيرة ١/١ : ٢٧٣

٢ اللخيرة ١/١ : ٢٧٥

لئن أخرجتني عنكم شرُّ عَصْبَةٍ ففي الأرضِ لإخوانِ عليٍّ أكارمُ
وإن هَشَمَتْ حتَّى أُمِيَّةٌ عندها فهاتنا على ظهْرِ المحَجَّةِ هاشمُ

وأراد أهل قرطبة بعد خروج يحيى أن يبايعوا واحداً من بني أمية فقدموا عليهم عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار الذي تلقب بالمستظهر (٤١٤) ووزر له ابن حزم أبو محمد فلم يمكث في الخلافة أكثر من شهر ونصف ، وخلفه الذي ثار عليه ولقب بالمستكفي ، فحكم ستة أشهر وأياماً ، ثم عاد يحيى الحمودي ، فلما انقضت أيامه بايع أهل قرطبة أموياً جديداً هو هشام بن محمد ، من نسل الناصر (٤١٨) ، فتلقب المعتد بالله ، وبقي ينتقل في الثغور ثلاثة أعوام دون استقرار ، ثم سار إلى قرطبة فدخلها في الثامن من ذي الحجة سنة ٤٢٠ ، فلم يقم بها إلا يسيراً حتى خلعه الجند ، وبخلعه انقطعت الدعوة لبني أمية بناتاً . ولا ندري شيئاً من أمر ابن شهيد في هذه الفترة المتقلبة غير أنه وزر أولاً للمستظهر مع صديقه ابن حزم ثم أصبح جليساً لهشام المعتد^١ ، وقد زها مرةً حين تفوق في تلك المجالس على أصحابه أنفسهم ، وشمّت بانخداهم لأنهم لا يعترفون بعقريته ولا ينصفونه^٢ ، ورثى المعتد حين خلع بقوله^٣ :

أحللتني بمحلة الجوزاء ورويت عندك من دم الأعداء
وحملتني كالصقر فوق معاشري تحي كأنهم بنات الماء

وظلت صلة ابن شهيد طوال هذه المدة وثيقةً باثنين من العامرين هما

١ المغرب ١ : ٨٥ ، ١٢٣

٢ الذخيرة ١/١ : ٢١٠

٣ المغرب ١ : ٨٥

المؤمن عبد العزيز الذي كان أبو عامر يرأسه كثيراً ويمدحه^١ ، وأبو عامر ابن المظفر الذي ظل في قرطبة، في عيشة راضية، حتى خاف المعتد على نفسه ، فهرب منها ولجأ إلى مواليه العامريين بالثغور فخذلوه ، ولما يشن المعتد من عودته إلى قرطبة استولى على أملاكه ، وجعل يتطلب ودائعه عند الناس فوقع من ذلك بلاء عظيم على بعض أهل قرطبة ، واضطر بعضهم إلى الجلاء عنها بسبب بحث المعتد عن ودائع العامريين^٢ . ومن أوائل التقارب بين ابن شهيد وابن المظفر هذا أن الثاني طلب مرة أن يستعمل حمام ابن شهيد لأن حمام بيته كان تحت التصليح في يد البنائين^٣ ، ثم تقاربا وتصادقا وامتد بينهما جبل الصداقة ، حتى لرى ابن شهيد يسهر عند ابن المظفر ويشرب ، وقد سهر ذات ليلة ، وفي مجلسهم طفلة صغيرة تسقيهم تسمى أسماء ، فعجبوا من مكابذتها السهر على صغر سنها وطلب ابن المظفر إلى ابن شهيد وصفها فقال^٤ :

أفدي أسيماء من نديمٍ ملازمٍ للكؤوسِ راتبٍ
قد عجبوا في السهادِ منها وهي لعمري من العجائب
قالوا تجافى الرقادُ عنها فقلتُ : لا ترقدُ الكواكب

ومن مدائحه في ابن المظفر :

جُمِعَتْ بطاعةِ حُبِّكَ الأضدادُ وتألَّفَ الأفضاحُ والأعيادُ
كُتِبَ القضاءُ بأنَّ جدَّكَ صاعدٌ والصبحُ رَقٌّ والظلامُ مِدادُ
ومرت أكثر أيام ابن شهيد وهو في قرطبة ، في مناقضات ومباحكات

١ انظر الذخيرة ١/١ : ١٦٣ - ١٧١ ، ١٧٣ - ١٨٠

٢ الذخيرة ١/١ : ٢٦٠ - ٢٦١

٣ الذخيرة ١/١ : ٢٥٧

٤ الذخيرة ١/١ : ٢٦٠ والنفع ٢ : ٨٠٦

بينه وبين معاصريه من الأدباء والشعراء ، فتصدى له من الشعراء خصمه
 وصديقه ابن الحناط الأعمى الذي كان مُغرّياً بالكيد له ، وجرت بينه
 وبين ابن شهيد « مناقضات في عدة رسائل وقصائد أشرفت أبا عامر بالماء
 وأخذت عليه بفروج الهواء »^١ ، ومن رسائله التي أنحى فيها على طريقة
 ابن شهيد في النظم والنثر : « الإسهاب كلفة ، والإيجاز حكمة ، وخواطر
 الألباب سهام ، يصابُ بها أغراض الكلام ، وأخونا أبو عامر يسهب نثراً
 ويظيل نظماً ، شامخاً بأنفه ، ثانياً من عطفه ، متخيلاً أنّه قد أحرز السباق في
 الآداب ، وأوتي فصل الخطاب ، فهو يستقصر أساتيد الأدباء ، ويستجمل
 شيوخ العلماء .

« وابن اللبّون إذا ما لُزّ في قرّين لم يستطع صولة البزل القناعيس^٢ »

ومع ذلك فإننا نجد ابن الحناط هذا يمدح أبا عامر في قصيدة ، منها^٣ :

أما الفراقُ فلي في يومه فرّقُ وقد أرقّتُ له لو يتنفع الأرقُ
 أظعانهم سابقت عيني التي انهملتُ أم الدموعُ مع الأظعان تستبِق
 عاق العقيقُ عن السلوانِ واتضحّت في توضيح لي من نهجِ الهوى طرق

بل إن ابن الحناط لما نعي إليه أبو عامر بكى وراثه بديهةً بقوله^٤ :

لما نعي الناعي أبا عامرٍ أيقنتُ أنتي لستُ بالصابرِ
 أودى فتي الظرفِ وتربُّ الندى وسيدُ الأولِ والآخِرِ

١ الذخيرة ١/١ : ٣٨٣

٢ الذخيرة ١/١ : ٣٨٥

٣ الجذوة : ٥٤

٤ الجذوة : ٥٤ والنفع ٢ : ٨١٦

وهو في رسائله يهاجم اثنين ممن كانوا يكيدون له، أحدهما يسمى ابن فتح والآخر أبا عبد الله الفرضي، أحد المشتغلين بالكيمياء، ويقول إن الثاني كاد له أيام المستظهر (٤١٤)، وصنع على لسانه شعراً في هجاء القائم بالأمر يومئذ، منه^١:

يا كسرة دهمتنا ليس تنجبرُ وسبّةً لحقتنا ما لها عذرُ

ويزعم أن ابن فتح أفسد عليه نية ابن عباس وزير زهير الفقي الصقلبي صاحب المريّة، وربما كان شيء من ذلك، ولكن التنافر بين ابن شهيد وابن عباس كان يتم دون حاجة إلى تدخل الآخرين ودسائسهم، فقد كان كل منهما معجباً بنفسه وبقدرته الأدبية، ثم إن ابن شهيد هجا ابن عباس فأقذع حينما ورد مرة على قرطبة، وذلك أن ابن عباس هذا، في قدّمته تلك، جمع لمة من الأدباء من أصحاب ابن شهيد وهم: ابن برد وأبو بكر الرواني وابن الحناط والطبي، وسألهم عن ابن شهيد وأمرهم أن يوجهوا في استدعائه، قال ابن شهيد^٢: «فوافاني رسوله مع دابة له بسرج محلى ثقيل، فسرت إليه ودخلت المجلس وأبو جعفر غائب، فتنحرك المجلس لدخولي وقاموا جميعاً لي حتى طلع أبو جعفر علينا ساجباً للذيل لم ير أحد سحبه قبله وهو يترنم، فسلمت عليه سلام من يعرف حق الرجال فردّ ردّاً لطيفاً، فعلمت أن في أنفه نعرة لا تخرج إلا بسعوط الكلام... فرأيت أصحابي يُصيخون إلى ترنمه، فسألتهم عن ذلك، فقال لي الحناطي، وكان كثير الإنحاء عليّ، جالباً في المحافل ما يسوء الأولياء إلي، إن الوزير حضره قسيم من شعره، وهو يسألنا إجازته، فعلمت أنني المراد». ومن الجدير بالملاحظة هنا نظرة ابن شهيد إلى

١ الذخيرة ١/١ : ١٨٩

٢ الذخيرة ١/١ : ٢٦٢ والنضج ٢ : ٩٨٩

نفسه أولاً ، وكيف لم يغب عن باله أن يذكر قيام الأصحاب في المجلس له ، ثم نظرته إلى ابن عباس وكبريائه ورأيه في طبيعة العلاقة بينه وبين الخناطي . ثم إنته أخذ قلماً وأجاز القسيم بديهته وانصرف ، وبعد قليل لحق به أصحابه وأنباوه أن ابن عباس لم يُعْجَبَ بما جاءت به بديته ولم يرتضه ، وسألوه هجاءه ، فهجاه مقذعاً ، فلا غرابة إذا لم يكن بين الرجلين شيء من الانسجام . ومع ذلك فبينه وبين ابن عباس مراسلات يقول في بعضها : « إلى وزير كان لي وزراً ، رقرق شرابي وأخصب به جنابي »^١ ويعدده ابن عباس بصرف ضيعة له كانت بجهة تدمير من أملاك أبيه لما كان والياً بتلك الناحية^٢ ، ويقول ابن حيان في وصف ما صنعه ابن عباس حين قدم قرطبة : « ومن عَجِبُه أنه دخل قرطبة - ومنها متمناه - وهم بقية الناس ، فحجب كبيرهم الشيخ أبا عمر بن أبي عبدة من غير عذر . . . وتنقص أديبهم أبا عامر بن شهيد ، ولم يك يحسن مستملياً له ، ثم أجمل وصف جماعتهم وقد سئل عنهم فقال : ما رأيت بقرطبة إلا سائلاً أو جاهلاً »^٣ .

وكان أشد ما يغيظ ابن شهيد إلصاقُ العيب بإنشائه وشعره ، ولذلك صب سوط عذاب على أبي بكر المعروف باشكمياط لأنه زعم أن ابن شهيد يتحلل ما لغيره ، وتعقب ابن الإفليلي أحد معلمي اللغة في قرطبة بشدة وتهكم به كلما سنحت الفرصة ، وبسببه جرد قلمه لكتابة رسالة التوايع والزوايع وهاجم من أجله طبقة المعلمين جملة بعنف وشدة ، فمما قاله فيهم « وقوم من المعلمين بقرطبتنا ممن أتى على أجزاء من النحو ، وحفظ كلمات من اللغة ، يحنون على أكباد غليظة ، وقلوب كقلوب البعران ، ويرجعون إلى فِطْنٍ

١ الذخيرة ١/١ : ١٨٢

٢ المصدر نفسه ١/١ : ١٦٦

٣ الذخيرة ٢/١ : ١٨٦

حمئة ، وأذهان صدئة «^١ . وكان ابن الإفليلي هذا حجة في علم اللسان والضبط لغريب اللغة في ألفاظ الأشعار الجاهلية والإسلامية ، وقد نال جاهاً عند بني حمود ، ثم استكتبه المستكفي بعد ابن برد فوق كلامه بعيداً من البلاغة لأنه على طريقة المعلمين المتكلفين ، وفي أيام هشام المعتد لحقته تهمة في دينه فسجن في المطبق مع من سجن من الأطباء كابن عاصم والبسباسي ، ثم أطلق .

غير أن ابن شهيد أنشأ في قرطبة أيضاً علاقات إخوانية طيبة ، فكان أبو المغيرة بن حزم من أقرب أصدقائه إليه حتى كانا كما قال الفتح : « لا ينفصلان في رواح ولا مقيل ، ولا يفترقان كمالك وعقيل ، فكانا بقرطبة رافعي ألوية الصبوة ، وعامرّي أندية السلوة »^٢ . وكان من أصدقائه أيضاً الفقيه أبو محمد ابن حزم نفسه ، لأنهما نشأ معاً في الدولة العامرية وسنّاهما متقاربتان ، ولما مرض ابن شهيد كتب إلى ابن حزم بأبيات يذكر فيها أخوته وصدائقه ، ويطلب إليه أن يؤبنه ، ويشيع ذكره ويدعو له الله أن يغفر ذنبه^٣ :

فمن مبلغ عني ابن حزم وكان لي	يدأ في ملماتي وعند مضايقي
عليك سلام الله إني مفارق	« وحسبك زاداً من حبيب مفارق »
فلا تنس تأييني إذا ما فقدتني	وتدكار أيامي وفضل خلافتي
فلي في ادكاري بعد موتي راحة	فلا تمنعونيها علالة زاهق

فأجابه ابن حزم بقوله :

أبا عامر ناديت خيلاً مصافياً	يُفدّيك من دهم الخطوب الطوارق
وآلت قلباً مخلصاً لك منحضاً	بودك موصول العرى والعلائق

١ الذخيرة ١/١ : ٢٠٥

٢ المطمح : ٢٢

٣ الجنة : ١٢٥

ثم يهدىء من جزعه ويتمنى له بعد الشدة رخاء ، ويتفجع لفقده ، إن حدث . وقد كتب ابن حزم لابن شهيد أيضاً رسالة مستقصاة يبين له فيها أن القرآن خارج عن نوع بلاغة المخلوقين وأنه على رتبة قد منع الله تعالى جميع الخلق عن أن يأتوا بمثله^١ . وهناك شخص ثالث من أصدقائه يدعى أبا بكر ابن حزم واسمه يحيى ولا يمتّ بالقرابة للثنتين الأولين ، وقد وجه إليه ابن شهيد رسالة التواضع والزواجر التي سماها أيضاً « شجرة الفكاهة »^٢ ، وكانت بينه وبين القاضي ابن ذكوان علاقة طيبة ، وفي أحد مجالسه عنده جيء بباكورة باقلاء فارتجل ابن شهيد أبياتاً في وصفها^٣ ، ولما توفي هذا القاضي رثاه ابن شهيد فقال^٤ :

ظننا الذي نادى مُحِقاً بِمَوْتِهِ لِعُظْمِ الذي أَنحى من الرُزءِ كاذبا
 وخلصنا الصبَاحَ الطَّلُقَ ليلاً وَأَنسا هبطنا خُدُارياً من الحزنِ كاربا
 نكلنا الدُّنَا لِمَا استقلَّ وَإِنما فقدناكَ يا خير البرية ناعبا
 وما ذهبَتْ اذ حلَّ في القبرِ نَفْسُهُ ولكنَّما الإسلامُ أَدْبَرَ ذاهبا

ومن أصدقائه الخالص أبو جعفر ابن اللماثي^٥ أحد أئمة الكتاب في وقته ، وقد شق على ابن شهيد موته لأنه نعي له وابن شهيد طريح الفراش ، فكان في فقده ، على أنه صديق عزيز ، إنذار لابن شهيد بسطوة الموت ، فرثاه بقصيدة حزينة مطلعها^٦ :

- ١ الفصل ١ : ١٠٧
- ٢ انظر في ترجمة يحيى هذا كتاب الجنوة : ٣٥١
- ٣ النفع ٢ : ٨٠٦
- ٤ النفع ٢ : ٨٦٥
- ٥ انظر ترجمته في الذخيرة ١/٢ : ١٣٢ والمطمح : ٢٥
- ٦ الذخيرة ١/١ : ٢٨٣ والنفع ٢ : ٩٦٠

أَمِنْ جَنَابِهِمْ النِّفْحُ الْجَنُوبِيُّ أُسْرَى فِصَاكُ بِهِ فِي الْغُورِ غَارِيٌّ
وَقَدْ نَحِيلُ فِيهَا كَيْفَ مَرَّةً بِهَ اللَّيْلِ ، فَسَأَلَهُ أَذَاكَ النَّفْحُ الزَّاكِي مِنْ أَزْهَارِ
فِكْرَةِ اللَّمَائِيِّ فَأَخْبَرَهُ أَنَّ اللَّمَائِيَّ مَاتَ :

فَقُلْتُ وَالسَّقْمُ مَنْشُورٌ عَلَى جَسَدِي يَحْدُو الرَّدَى وَرِدَاءُ الْعَيْشِ مَطْوِيٌّ
أَهْدَى اللَّمَائِيُّ مِنْ أَزْهَارِ فِكْرَتِهِ نَشْرًا فَقَالَ الدَّجِي مَرَّةً اللَّمَائِيُّ
فَقِيلَ : مَاتَ فَقَالَ اللَّيْلُ : قَارِبَ ذَا فَانْهَلْ مِنْ مَقَلَّتِي نَوْءَ سِمَاكِي
وَبْتُ فَرْدًا أَنْادِي مَقَلَّتِي شَغْفًا كَأَتْتِي فِي نَقُوبِ الدَّارِ جِنِّي
لَا عَشْتُ إِنْ مَتَّ لِي يَا وَاحِدِي أَبَدًا وَمَوْتُنَا وَاحِدٌ لَا شَكَّ مَرْتِي
إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا مَا مَاتَ صَاحِبُهُ أَوْدَى بِهِ الْوَجْدُ وَالشُّكْلُ الطَّبِيعِيُّ

ورثي ابن شهيد أيضاً حسان بن مالك بن أبي عبدة الوزير (- ٤٢٠)
وهو من الأئمة في اللغة والأدب في أيام الدولة العامرية^١ ، وممن لهم علاقة
وكيدة بالقاضي ابن ذكوان ، وأحسب أن ابن شهيد لم يرثه لصداقة بينهما ،
فقد توفي الرجل عن سن عالية ، ولكنه رثاه اعترافاً بفضله وأدبه ، فقال :

أَتِي كُلَّ عَامٍ مَصْرَعٌ لِعَظِيمِ أَصَابَ الْمُنَايَا حَادِثِي وَقَدِيمِي
وَكَيْفَ اهْتَدَائِي فِي الْخُطُوبِ إِذَا دَجَّتْ وَقَدْ فَقَدَتْ عَيْنَايَ ضَوْءَ نَجْمِي
مَضَى السَّلْفُ الْوَضَّاحُ إِلَّا بَقِيَّةً كَغُرَّةِ مُسَوِّدِ الْقَمِيصِ بِهَيْمِ
فَإِنْ رَكِبْتَ مَنِّي اللَّيَالِي هُضِيمَةً فَقَبْلِي مَا كَانَ اهْتِضَامٌ تَمِيمِ

وفيها يذكر فضله وفوائده في العلم والأدب :

كَأَنَّكَ لَمْ تَلْقَحْ بِرِيحٍ مِنَ الْحَجِيِّ عَقَائِمَ أَفْكَارٍ بِغَيْرِ عَقِيمِ

١ انظر ترجمته في الجنوة : ١٨٣ والمطعم : ٢٦

ولم نَعْتَمِدْ مَغْنَاكَ غَدَوْاً ولم نَزَلْ نُؤْمٌ لِفَصْلِ الْحَكْمِ دَارَ حَكِيمٍ

ومن أوثق العلاقات ما كان بينه وبين عبد العزيز بن أبي عامر ، فإليه وجه ابن شهيد كثيراً من رسائله ومدحه بقصائد جمّة ، وذكره دالته على العامريين ، وتحرم بفضلّه ، ولم يستكف من أن يشكو إليه حاجته أحياناً وضيق ذات يده ، وربما كان يشير إلى أيامهما معاً في قوله ^١ :

سَقِيّاً لَطِيبِ زَمَانِنَا وَسُرُورِهِ وَعَزِيزِ عَيْشٍ مُسْعِفِ بَغْزِيرِهِ
ومن أجمل مدائحه فيه وأطولها قصيدته التي مطلعها ^٢ :

هَاتِبِكَ دَارَهُمْ فَفَقِفْ بِمَعَانِيهَا تَجِدِ الدَّمُوعَ تَجِدُ فِي هَمَلَانِيهَا

ويطول بنا القول لو أردنا أن نحصر طبيعة العلاقات بين ابن شهيد والمقربين إليه ، فهو يخاطب في مرض موته صديقاً له يدعى أبا عمرو ، ولا شك أيضاً في أنه كان على صلة بالكاتب أبي حفص بن برد مولى الشهيدين ، ولما مات محمد بن ريب كان ابن شهيد هو الذي اقترح على ابن برد رثاءه ، ولم يرثه بنفسه - فيما يبدو - ^٣ وابن برد رثى ابن شهيد أيضاً كما رثاه أبو الأصبغ القرشي وكثيرون غيرهما ^٤ ، وكان من أصدقائه الذين توفوا قبله أيضاً أبو الوليد الزجاجي .

١ الذخيرة ١/١ : ١٧٦ والشريشي ١ : ١٩٤ ، ٢٣٠

٢ الذخيرة ١/١ : ١٧٣

٣ الذخيرة ٢/١ : ٥١

٤ الذخيرة ١/١ : ٢٨٨

علته ووفاته^١ :

بدأ مرض ابن شهيد في مستهل ذي القعدة سنة ٤٢٥ ، ولازمه حتى قضى نحبه ، ومعنى هذا أنه ظل مريضاً سبعة أشهر كاملة ، قاسى فيها العذاب الشديد ، ويقول ابن بسام إن الفالج غلب عليه ، ولكنه لم يقض على حركته تماماً فكان يمشي إلى حاجته على عصا مرة ، واعتماداً على إنسان مرة ، وفي العشرين يوماً الأخيرة صار حجراً لا يبرح ولا يتقلب ، ولا يحتمل أن يحرك لعظيم الأوجاع ، أما الحميدي فيقول - نقلاً عن ابن حزم - إن علته هي ضيق النفس والنفخ ، ويبدو أنهما اجتمعتا عليه معاً ، وأن إصابته بالعلّة الثانية ترجع إلى ما قبل إصابته بالفالج ، وأن هذا المرض أي الفالج هو الذي استمر سبعة أشهر ، ولما بلغت منه الأوجاع مبلغاً شديداً همّ بقتل نفسه ، ثم آثر الرضى بقضاء الله ، وفي ذلك يقول :

أَنُوحُ عَلَى نَفْسِي وَأُنْدَبُ نُبْلَهَا إِذَا أَنَا فِي الضَّرَاءِ أَزْمَعْتُ قَتْلَهَا
رَضِيْتُ قِضَاءَ اللَّهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ عَلِيٍّ وَأَحْكَامًا تَيْقَنْتُ عَدْلَهَا

وعلى ما أصاب جسمه من وهن ، بقي ذهنه متفتحاً ، وقريحته متوقدة ، وإن الشعر الذي صدر عنه في فترة المرض وإن صدر عن نفس يائسة متألّة ، ليبل على حيوية شعرية غير عادية . ففي علته رثى ابن اللمائي - كما تقدم - وكتب قصيدة إلى ابن حزم ، تقدمت الإشارة إليها كذلك ، وفيها كتب إلى صديق له اسمه عمرو يقول :

إِقر السلام على الأصحابِ أَجْمَعِهِمْ وَخُصَّ عَمراً بِأزكى نورِ تسليمِ

١ راجع الذخيرة ١/١ : ٢٨١ - ٢٨٩

وقل له يا أعزَّ الناسِ كلَّهمُ شخصاً عليّ وأولاهمُ بتكريمِ
اللهُ جارِك من ذي مننَةٍ ظفرتُ منه اللبالي بعلتقٍ غيرِ مذمومِ

وكتب إلى جماعة من إخوانه يقول :

هذا كتابي وكفَّ الموتِ تززعجني عن الحياةِ وفي قلبي لكمُ ذكراً
إن أفضيكمُ حقكمُ من قلَّةِ عمري إنني إلى الله لا حقٌّ ولا عمُرُ

ومن الجدير بالذكر أنه يقرأ في هذه الآيات الوداعية السلام على المنصور
أفضل من سعى لثأر نبي الإسلام وعلى ابنه المظفر ، فلا تزال صورة المجد
العامري تخاليل عينيه وهو على فراش المرض .

وفي علته قال أيضاً :

تأملتُ ما أنفيتُ من طولِ مُدَّتِي فلم أره إلا كلمحةِ ناظرٍ
وحصَّلتُ ما أدركتُ من طولِ لَدَّتِي فلم ألفه إلا كصفقةِ خاسرٍ
وما أنا إلا رهنٌ ما قدَّمتُ يدي إذا غادروني بين أهلِ المقابرِ

وتحدث في الآيات عن أصدقائه الذين سيذكرونه بعد موته ، فقد كان
يرتاح للذكر بعد الموت ، ثم وصف سطوة الموت نفسه ، وفي كل أشعاره تلمح
هذا الأسى على فراق أصدقائه ، وموقفه منهم موقف المودع الذي يعرف
أن نهايته اقتربت ، على أنه لا يشير في الظاهر إلى خوفه من الموت ، ولكنه
يتجلد في الغالب ، وآخر ما قاله مودعاً لأصدقائه :

أستودعُ اللهَ إخواني وَعِشْرَتَهُمْ وكلَّ خِرْقٍ إلى العلياءِ سِباقِ
وفتيةً كنجومِ القَدْفِ نيرَهُمْ يهدي ، وصائبُهُمْ يُودي بإحراقِ

ثم يقول مشيراً إلى صديق حميم :

وكوكباً لي منهم كان مغربُهُ قلمي ومشرقُهُ ما بينَ أطواقِ
اللهُ يعلمُ أنني ما أفارقُهُ إلا وفي الصدرِ منِّي حرٌّ مُشتاقِ
كنا أليفينِ خانَ الدهرِ ألفتنا وأيُّ حرٍّ على صَرفِ الرَدَى باقي

وقد أوصى قبل وفاته بهذه الوصايا :

أ - أن يصلي عليه الرجل الصالح أبو عمر الحصار (فتغيب إذ دعي
وصلى عليه جهور بن جهور أبو الحزم صاحب قرطبة حينئذ) .

ب - أن يسن التراب عليه دون لبن أو خشب (فلم ينفذ هذا أيضاً) .

ج - أن يدفن بجانب صديقه أبي الوليد الزجاجي .

د - أن تكتب هذه الكلمات على قبره : بسم الله الرحمن الرحيم قل
هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون . هذا قبر أحمد بن عبد الملك بن شهيد المذنب ،
مات وهو يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده
ورسوله ، وأن الجنة حق وأن النار حق وأن البعث حق وأن الساعة آتية لا
ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور [ثم تاريخ الوفاة بالشهر والسنة]
ويكتب تحت النثر هذا النظم :

يا صاحبي قم فقد أطلنا	أنحن طول المدى هجود
فقال لي : لن تقوم منها	ما دام من فوقنا الصعيد
تذكرُكم مرةً لهونا	في ظلها ، والزمان عيد
وكم سرور همي علينا	سحابة ثرة تجود
كل كان لم يكن تقضى	وشؤمه حاضر عتيد
حصله كاتب حفيظ	وضمه صادق شهيد
يا ويلنا إن تنكبنا	رحمة من بطشه شديد
يا رب عفواً فأنت مولى	قصر في أمرك العبيد

وكان أبو عامر شديد الخوف من الموت ، ومن شدة السوق ، فأخذ يدعو الله عزّ وجل ويشهد شهادة التوحيد ، ويرغب إلى الله أن يرفق به ، حتى أسلم الروح ضحى يوم الجمعة آخر يوم من جمادى الأولى سنة ٢٤٦ هـ ودفن يوم السبت ثاني يوم وفاته في مقبرة أم سلمة ، ولا عقب له ، وتكاثر الناس في جنازته ، وكثر البكاء والعويل عند قبره ، وأنشدت جملة من المرائي .

صفته وأخلاقه وثقافته :

كان ابن شهيد أصم ، ومن فكاهات ابن الحناط أنه حين سئل : كيف كان هشام المعتد ؟ قال : يكفي من الدلالة على اختياره أنه استكتبني واتخذ ابن شهيد جليساً ، وكان ابن الحناط أعمى ، وابن شهيد أصم^١ ، ولما كان ابن عباس يترنم بقسيم من الشعر لم يسمع ابن شهيد ما كان يقول واضطر أن يسأل أحد الجماعة ليُسمعه ما كان يترنم به . وكان أيضاً أطلس والدليل على ذلك قوله في رسالة التواضع والزواجع على لسان صاحب عبد الحميد الكاتب « أهكذا أنت يا أطلس ، تركب لكل نهجه ، وتعج إليه عجه ؟ فقلت : الذئب أطلس وإن التيس ما علمت^٢ . وهذا كل ما نعرفه من صفاته الجسمانية ، وربما كان لصممه أثر بعيد في تكييف علاقاته بالناس ، ومحاولته الترفع عن نظرائه ومعاصريه ، وإساءة الظن فيهم .

وقد اشتهر بين معاصريه بخلال أربع :

الأولى : ميله إلى اللهو والبطالة « فلم يحفل في آثارها بضياح دين ولا مروءة ، فحطّ في هواه حتى أسقط شرفه ووهم نفسه راضياً في ذلك بما

١ المغرب ١ : ١٢٢

٢ الذخيرة ١/١ : ٢٣٠

يلذه ، فلم يقصر عن مصيبة ولا ارتكاب قبيحة «^١ ، وقال الحنجاري في وصفه « كان أزم للكأس من الأطيبار بالأغصان ، وأولع بها من خيال الواصل بالمهجران »^٢ .

الثانية : إسرافه في الكرم حتى كان لا يلبق شيئاً ، وأشرف في أواخر أيامه على الإملاق ، وكانت عند أهل قرطبة قصص مشهورة عن جوده وسخائه تلحق بالأساطير ، من ذلك تلك القصة التي رواها صاحب المطرب عن رجل من طليطلة قصد أبا عامر فألقى لديه صنوف الإكرام ، بل وهبه أبو عامر داراً في قرطبة ومركباً وخادماً ونعماً كثيرة وفرشاً وثيرة^٣ .

الثالثة : عزة النفس المصحوبة بالعجب ، وقد تنازل عن عزة النفس في حالات إيساره ، ولكنه كان يقهر نفسه بحيث لا تستشعر الندم على فائت ، وكثيراً ما يتمدح بعزته النفسية في شعره تمدُّحه بالكرم فيقول :

والنفسُ نفسٌ منْ شهيدٍ سنخُها سنخٌ غَدَّتْ منه العُلا بلبانِها

ومصدر عجبه شيثان : نسبة الشهيد الأشجعي :

من شهيدٍ في سرِّها ثم من أشدَّ جعَّ في السرِّ من لباب اللباب

واقتراده على الثر والشعر ، اقتداراً يرى كل معاصريه وكثيراً من غير معاصريه دونه ، وقد قال له أصحابه ذات مرة : « إنك لآت بالعجائب وجاذب بذوائب الغرائب ، ولكنك شديد الإعجاب بما يأتي منك »^٤ .

١ الذخيرة ١ / ١ : ١٦٢

٢ المغرب ١ : ٨٥

٣ المطرب : ١٤٧ - ١٤٨

٤ الذخيرة ١ / ٤ : ٢٧ والنفع ٢ : ٨٠٧

الرابعة : الفكاهة ، والميل إلى الهزل ، وأكثر ما بقي له من هذا يشير إلى حدة في الطبع ، وحرارة في الأجوبة ، وهجوم على التعريض الكاوي ، والألفاظ المقذعة ، وهو شيء تبرزه رسائله لا أشعاره ، فإن الفكاهة في شعره قليلة أو معدومة ، وخصوماته الأدبية كثيرة ، وهي معرض لهذه الحدة المزوجة بالتندر ، إلا أنه كان - على إعجابه وحدثه - محبباً إلى نفوس أصدقائه ، يأنسون بمجلسه ويغترفون من كرمه ، ويقضون الوقت في داره طاعمين شاربين أو متنزهين في البساتين أو متحدثين في جامع قرطبة . على أنه بعد ذلك دائم التبرم من الزمان لأنه لم ينصفه وقدّم غيره ، محقراً لأكثر الملكات الأدبية في بلده ، زار على النشاط الثقافي فيه ، ولعل انصرافه إلى اللذة وتبطله مقترن أولاً بيبأسه من أحوال قرطبة بعد الفتنة ، متصل أيضاً بفرقه الشديد من الموت ، وقد كان يؤمن بأنه عبقرى ، وأنه لا يعمر طويلاً ، وقد قال فيه جني أبي الطيب ^١ : « إن امتد به طلق العمر فلا بد أن ينفث بدرر ، وما أراه إلا سيحتضر ، بين قريحه كالجمر ، وهمة تضع أخمصه على مقرق البدر » . ولعل نغمته على الحياة وقلة احتفاله بجد الأمور ازدادتا حينما وجد أنه لا يعيش له أبناء ، ولا ندرى كم رزق منهم ، ولكنه رثى بنية له ماتت صغيرة ، بقصيدة منها ^٢ :

أيها المعتدُّ في أهلِ النهى لا تدبْ إثرَ فقيدٍ ولها
وفيها يقول :

وإذا الأُسْدُ حَمَتْ أغيالَها لم يضرَّ الخيسَ صرعاتُ المِها

١ الذخيرة ١/١ : ٢٢٨

٢ الذخيرة ١/١ : ٢٢٤

وغريباً يا ابنَ أقمارِ العُلا أنَ يرَاعَ البدرُ مِنَ فقْدِ السُّها

وجل اعتماده في شعره على شحذ قريحته ، لأن ثقافته لم تكن عميقة ولا واسعة الأطراف ، وقد قرأ وحفظ كثيراً من شعر المشاركة ونثرهم ، فعرف بشاراً وأبا نواس وصریح الغواني وأبا تمام والمتنبي وعبد الحميد وابن المقفع والجاحظ وسهل بن هارون وقابوس بن وشمكير وبدیع الزمان ، وقرأ كثيراً من آثارهم ، ولم يزد إلى ذلك ثقافة في فنون أخرى علمية سوى ثقافته الأدبية الخالصة ، ولما توفي لم توجد لديه كتب إلا القليل^١ ، وقد قال في التوابع والزوابع إنه جلس في صغره إلى الأساتيد ، غير أنه لم يسم أحداً منهم ولكنه افتخر إلى جانب ذلك بأن « يسير المطالعة من الكتب » يفيدته ، وتهكم بسعة الاطلاع في الرسالة المذكورة حين سأله تابع ابن الأفلح : على من قرأ ، ولما قال له : فطارحني كتاب الخليل ، قال له : هو عندي في زنبيل^٢ .

شعره :

ليس في الأندلسيين الذين درسنا شعرهم حتى عصر ابن شهيد من كان أكثر منه توقداً في القريحة ، وأنفذ بصرأ في نقد الشعر ، وقد يدانيه ابن حزم وابن حيان المؤرخ في الحلة الذهنية ، ثم تفرق السبيل بهؤلاء فيذهب كل في طريقه ، وهو - في الشعر - خير ثمرة لمدرسة القالي التي جنحت إلى القوة والجزالة البلوية ، بينما هو في النثر تلميذ نابه للجاحظ وبدیع الزمان ، وقد استطاع أن يفصل بين شعره ونثره ، فلم يكن كابن دراج الذي بنى القصيدة على طريقته الكتابية ، ولم يجمع ابن شهيد بين الطريقتين إلا في القليل النادر ،

١ الذخيرة ١/١ : ١٦٢ والمغرب ١ : ٧٨

٢ الذخيرة ١/١ : ٢٣٤

وذلك في بعض الموضوعات التي استحسناها له معاصروه في النثر ، كوصف النحلة وصفة البرغوث ، فإنه عاد يعالج مثل هذه الموضوعات في شعره^١ ، وهو أقل شعره قيمة . وقد أثرت فيه نظراته النقدية لأنها جعلته على وعي بما يريد أن يصنعه في الشعر - كان يعرف التطور الذي أصاب الشعر بعد صريع الغواني وبشار وأبي نواس وكيف أسرف أبو تمام في التجنيس « وطاب ذلك منه وامثله الناس ، فكل شعراً لا يكون اليوم تجنيساً أو ما يشبهه تمجده الآذان ، والتوسط في الأمر أعدل »^٢ ، وهذا قد يدل على الطريقة التي انتهجها في نظراته إلى البديع ، وأنه سلك في شعره مسلكاً متوسطاً ، في هذا الاتجاه . بل إن قارئ شعره ليحس أنه يصف مذهبه حين يقول : « ومنهم الكارع في بحر الغزارة ، القادح بشعاع البراعة ، الذي يمر مر السيل في اندفاعه . والشؤبوب في انصبابه ، لا يشكو الفشل ، ولا يكلّ على طول العمل »^٣ ، وابن شهيد قد بنى شعره في أكثره على هذا الاندفاع الجامح ، والحدة العارمة ، حتى ليجد من يقرأ شعره أنه في حدة غاضبة لا تكاد تهدأ . وهو يقر أنه يعتمد استعمال وحشي الكلام غير أنه لا يجعله نائياً في شعره لأنه يحسن وضعه في مواضعه^٤ ، بل إن ابن شهيد الناقد هو الذي اختار للناس روائع شعره ووضعها في أيديهم ليشهدوا له أو عليه ، وذلك في رسالة التوابع والزوابع ؛ فبالإضافة إلى ما تحتويه هذه الرسالة من فكاهة وتندُّرٍ بآب الأفيلي وبعض خصوم ابن شهيد في قرطبة ، وما تثيره من تخيلات في عالم الجن ، تعرض محاسن شعر ابن شهيد التي يراها خير ما يقدم من الشعر ، إزاء شعر المشرق ، وتكشف

١ انظر أمثلة من ذلك الذخيرة ١ / ١ : ١٨٥

٢ الذخيرة ١ / ١ : ٢٠٣

٣ الذخيرة ١ / ١ : ٢٠٤

٤ الذخيرة ١ / ١ : ٢٠٠

هذه الرسالة أيضاً عن سر ابن شهيد نفسه في مذهبه حين تقف به عند شاعر
شاعر ، محاولاً التفوق على مشاهيرهم ، ما عدا المتنبي . فهو يعارض عمر
ابن أبي ربيعة في رائيته ، وطرفة في قصيدة له لامية ، وقيس بن الخطيم
في قصيدته الحماسية التي يقول فيها :

طعنتُ ابنَ عبدِ القيسِ طعنةَ نائِرٍ لها نَقْدٌ لولا الشِّعاعُ أضاءها

ثم يعارض المحدثين كالبحرّي وأبي نواس ، ويتهيب أن ينشد المتنبي
ثم يسمعه عدداً من قصائده - دع ذكر الناثرين - ، ثم تطلعنا كيف كان
المعنى الواحد من معاني هؤلاء المتقدمين يذهب ويحيى في نفسه ، ويدهشه
أحياناً ثم لا يلبث أن ينشق خاطره عن معنى مولّد منه ، فقد ملك إعجابه
- مثلاً - قول امرئ القيس :

سموتُ إليها بعدما نامَ أهلُها سُمُو حَبَابِ الماءِ حالاً على حالِ

وافتنن به ، ورأى عمر بن أبي ربيعة قد حاوله فقصر عنه حين قال :
وَتَقَفَّتْ عَنِّي النَّوْمَ أَقْبَلْتُ مِشِيَةَ الْا حَبَابِ وَرَكْنِي خَيْفَةَ الْقَوْمِ أَزْوَرُّ
وظلّ يتأمل هذا المعنى حتى بدا له من وجوهه ما مكنه أن يقول :

ولمّا تَمَلَّأَ مِنْ سُكْرِهِ فَنَامَ وَنَامَتْ عَيُونُ الْعَسَسِ
دَنَوْتُ إِلَيْهِ عَلَى بُعْدِهِ دُنُو رَفِيقِي دَرَى مَا التَّمَسِ
أدبٌ إليه ديبَ الكَرَى وأَسْمُو إِلَيْهِ سُمُو النَّفْسِ

وظلّ معنى أبي الطيب :

أَلْخَعُ الْمَجْدَ عَنْ كَفِّي وَأَطْلُبُهُ وَأَتْرِكُ الْغَيْثَ فِي غِمْدِي وَأَنْتَجِعُ

— ظلّ يحيك في نفسه حتى استطاع أن يقول :

وَمِنْ تَحْتِ حِصْتِي أَيْضُ ذُو سَفَاسِقٍ وفي الكفّ من عَسَّالَةِ الحِطِّ أَسْمَرُ
فَذَا جَدُولٌ فِي العِمْدِ تُسْقَى بِهِ المَنَى وَذَا غُصْنٌ فِي الكَفِّ يُجْتَى فَيُثْمِرُ

وأقلقه بيت أبي الطيب :

وأظنّما فلا أبدي إلى الماء حاجةً وللشمسِ فوقَ اليَعْنَلاتِ لُعبُ

حتى قال ، وأعجب بقوله :

إذا الشمسُ رامتْ فيه أكلَ لحومنا جرى جَشَعاً فوقَ الجيادِ لُعبُها

ويستشفّ من رسالته هذه أن المتنبي هو الرمز الكبير الذي كان يأسره ويملك إعجابه ويدفعه إلى المحاكاة وتوليد المعاني . وقد أدى ابن شهيد كل ذلك ولم يضعف لأنّه بنى شعره كما تقدم على الاندفاع والعنف والغضب ، ولم تقصر به المحاكاة ، وأبرز توليد المعاني منه شاعراً متوقداً القريحة ، للاحاً ، مجدداً للصور — كان عيبه الكبير هو ميزته الكبرى أعني شعوره بأنّه متفوق على كل شاعر ، وأنه يستطيع أن يساوي المتنبي إن لم يتفوق عليه ، وكثرت عليه الروافد من هنا وهناك ، فمضى يروض قريحته على الاضطلاع بهذا العبء الكبير ، بل إنّه لا يطيق أن يثني الناس على قطعة شعرية لأبيه ، فبعد أن روى القطعة السابقة التي منها « قهقه الإبريق مني ضحكا . . . » قال :
« فإن استهل الطاعن صارخاً ، وقال : هكذا الشعر وهكذا الطبع وهكذا الماء رقة وعذوبة والهواء لطافة وسهولة . . . قلنا له :

أَذَنَ الدِّيكِ فَثَبَّ أَوْ ثَوَّبَ وَانْضَحَ القَلْبَ بِمَاءِ العِنَبِ

ومضى يروي قصيدة له ، يرى أنها لا تقصر عن مقطوعة أبيه .
ومن رياضة القريحة وكدها ، أطاعه القول وأسمع ، وليس هناك من
كان يجمع بين الميزتين كابن شهيد ، أعني بين التعب الذي يتكلفه في الإحاطة
بالمعاني وانتقاء الألفاظ ، وبين سرعة البديهة والقدرة على الارتجال . وقد
عرف فيه أصحابه ذلك فكانوا يعتقدون له المجالس ويمتحنونه في القول على
البديهة - ذلك ما فعله الوزير ابن عباس حين قدم قرطبة ، ومثل ذلك أيضاً
قام به جماعة من أصحابه ، حين طلبوا إليه أن يصف مجلساً سمجاً رديء
الهيئة فيه باب غريب معرض ، ولبد أحمر مبسوط على الأرض ، وقد خلعوا
نعالم على إحدى حواشيه ، فقال بديهة قطعته التي مطلعها ١ :

وفتية كالنجوم حسناً كلهم شاعرٌ نبيلٌ

ومنها في صفة المجلس :

في مجلسٍ شابه التصابي وطاردت وصفه العقولُ
كأنما بابه أسيرٌ قد عرّضت وسطه نصولُ
ينظرُ من ليدِه لِدِينَا بحر دمٍ تحته يسيلُ
كان أخفافنا عليه مراكبٌ ما لها دليلُ

واجتاز يوماً بحانوت بعض معارفه من الطرائفين وبين يديه رامشة جميلة
في زنبيل ملآن حرشفاً فجعل الطرائفي يده في لجام دابة ابن شهيد وقال :
صف هذا يا أبا عامر فإن صاعداً رام وصفه فلم يأت بشيء ، فقال ابن

شهيد وهو على ظهر دابته^١ :

هل أَبْصَرْتَ عَيْنَاكَ يَا خَلِيلِي قَنَافِذًا تَبَاعُ فِي زَنْبِيلِ
مَنْ حُرِّشُفُ مُعْتَمِدٍ جَلِيلِ ذِي إِبْرَةٍ تَنْفُذُ جِلْدَ الْفَيْلِ
كَأَنَّهَا أَنْيَابُ بِنْتِ الْغُولِ نُقْلُ السَّخِيفِ الْمَاتِقِ الْجَهُولِ

إلى آخر الأرجوزة . وارتجل مرة أخرى وصف طبق من الباقلاء في مجلس ابن ذكوان . وامتحن أصدقائه له لا يدل على إعجابهم بقدرته فحسب ، بل ربما أشار ضمناً إلى شيء من ريبتهم — أول الأمر — فيما يتتجه من شعره ، حتى كان بعضهم يقول إذا سمع شعره أو نثره : إنه ليس له ، وقوله التالي يشير إلى هذا الاتهام^٢ :

وَبُلُغْتُ أَقْوَامًا تَجِيشُ صُدُورَهُمْ عَلِيًّا وَإِنِّي مِنْهُمْ فَارِغُ الصَّدْرِ
أَصَاخُوا إِلَى قَوْلِي فَأَسْمَعْتُ مُعْجِزًا وَغَاصُوا عَلَى سِرِّي فَأَعْيَاهُمْ أَمْرِي
فَقَالَ فَرِيقٌ : لَيْسَ ذَا الشَّعْرِ شِعْرَهُ وَقَالَ فَرِيقٌ : أَيُّمْنُ اللَّهِ مَا نَدْرِي

ولا ريب في أن اتهامهم له بالانتحال مبني على الحسد ، وإن كان اتهاماً لا يعدم حظاً ضئيلاً من الصواب . وقد غطى على محاكاته وأخذه بعض المعاني من غيره ، أنه يحاول دائماً أن يكون مبتكراً مجدداً ، يضيف إلى ما يأخذه ، أو يبتكره معنى أو صورة جديدة . وربما لم يكن من الغلو أن أميزه بكثرة الصور المبتكرة ، لا بين شعراء الأندلس فحسب بل بين شعراء المشاركة أيضاً ، ومن ذلك :

فَكَانَ النُّجُومَ فِي اللَّيْلِ جَيْشٌ دَخَلُوا لِلْكَمُونِ فِي جَوْفِ غَابِ

١ الذخيرة ١/٤ : ٢٨

٢ الذخيرة ١/١ : ٢٢٣ والشريشي ١ : ٤٦

وكانَ الصّباحُ قانصُ طيْرِ قَبَضَتْ كَفَّهُ بِرِجْلِ غُرَابِ

ففي البيتين صورتان هما الغاية في الطرافة ، وصورة الصبح منهما تدل على دقة عجيبة في الرسم والتجسيم معاً . ومن صورهِ أيضاً :

ورعيتُ مِنْ وَجْهِ السَّماءِ خَمِيلَةً خضراءَ لآحِ البدرِ مِنْ غُدْرانِها
وكانَ نَشْرَ النجمِ ضأنٌ وَسَطَها وكأنا الجوزاءِ راعي ضانِها

فتصور القمر غديراً من تخيلات ابن شهيد الخاصة ، أما رؤية النجوم في شكل ضأن أو صوار فهي متوفرة في الشعر القديم ، كشعر ذي الرمة ، وقد أضاف إليها ابن شهيد جعله الجوزاء راعياً وجمع بين البيتين لتمام منظر واحد .

ومن غرائب ذلك قوله في الغزل :

فَمَشَتْ نَحوي وقد مَلِكْتُها مِشِيَةَ العُصْفُورِ نَحوَ الثَعْلَبِ

وتساند الموسيقى الهادرة مع الصور المنظورة في شعره ولكنه إلى الثانية أكثر ميلاً ، فإذا تحدث عن الأصوات كانت مدوية أو مزججة ، أي قوية شديدة ، ولعل لذلك صلة بثقل سمعه ، ولذلك أيضاً - فيما أعتقده - يرتاح إلى المرثيات أكثر ، ولا يستطيع أن يبعث في شعره موسيقى خفيفة إلا نادراً ، وإن كان يتحدث عن التذاذه بالغناء وصوت المزهار والكيثار وغيرها . ومن الطريف في هذا - وهو الأصم - ميله في الشعر إلى الحوار (راجع قصيدته في رثاء ابن اللمائي) ومن ذلك قوله :

قلتُ : هبْ لي يا حَبِيبِي قَبْلَةَ تَشْفِ من عَمَكِ تَبْرِيحِ الصَّدَى
فانثى يهترُّ من منكبِهِ قائلاً : لا ، ثمَّ أعطاني اليدا

قال لي يلعبُ : خُذْ لي طائراً فتراني الدهرَ أجري بالكدا
وإذا استنجزتُ يوماً وَعَدَهُ قال لي يَمَطُلُ : ذَكَرْتِي غَدًا

ولكن حديثه كثيراً ما يكون مناجاةً بينه وبين نفسه أو حكايةً على لسان
أشياء لا تعقل كهذا الحوار بينه وبين الغمام :

وغمامٍ باكرتنا عَيْنُهُ تُشْرِعُ الأفقَ بدمعٍ صَبِيبِ
فسألناه وقد أعجبنا حَشْوُهُ العَيْنَ بمرأى عَجَبِ
أنت ماذا؟ قال : مُزِنٌ عَلِمْتُ كَفَّهُ النَّجْعَةَ كفاً دَرِبِ
سامني بالشرق أن أسقيكمُ رحمةً منه بأقصى المغربِ
فسألناه : أَيْنَ ذاكَ لنا قال : هل يخفي ضياء الكوكبِ؟

وأكثر شغفه بالصور السابجة المعتلية عن مستوى الأرض المقترنة بالجو أو
بالنجوم أو بالطيور أو بظهور الخيل ، وهو يتصور نفسه على ارتفاع ، ومردُّ
هذا كله إلى شعوره بالاستعلاء بالنسبة لمن حوله ، وإلى خوفه من الموت ،
حتى إنه حين تصور قدوم الموت تمنى قائلاً :

تَمَنَيْتُ أَنِي سَاكِنٌ فِي غِيَابَةِ بِأَعْلَى مَهَبِ الرِّيحِ فِي رَأْسِ شَاهِقِ
وقد كان في حياته - لا شعورياً - يعيش في رأس شاهق ، والرياح تجأر
من حوله ، كان جواداً والناس حُمُرٌ ، فإذا أحس أن زمانه لم ينصفه أسبي
لذلك الجواد الذي كبا فنهقت الحمير تضحك منه :

وَكَبُوتٌ طِرْفًا فِي العُلا فاستضحكت حُمُرُ الأَنَامِ فما تريمُ نُهاقَها
إلا أن همته في السماء رغم تقصير حظه :

هِمَّةٌ فِي السَّمَاءِ تَسْحَبُ ذَيْلًا مِنْ ذِيولِ العُلا وَجِدُّ كَابِي

وهو بأسي كثيراً على المعتدّ ، ويقول :

وَحَمَلْتَنِي كَالصَقْرِ فَوْقَ مَعَاشِرٍ تَحْتِي كَأَنَّهُمْ بِنَاتُ الْمَاءِ

بل إن بحر بيانه إذا طما ، بلغ جدول منه في مدّة قرن الشمس :

وَلَمَّا طَمَى بَحْرُ الْبَيَانِ بِفِكْرِي وَأَغْرَقَ قَرْنَ الشَّمْسِ بَعْضَ جَدَاوِلِي

وتشيع هذه الصور السابحة المعتلية في شعره ، فتقله عن الأرض ، وتبعده عن القبر ، وعن الناس ، وهذا الطيران هو الذي طاف به على ديار الجن « وسار كالطائر يجتاب الجو فالجو » ، وهذه هي صورة الأديب الحق لديه - « كَاللَّقْوَةِ فِي الْمَرْقَبِ ، سَامٍ نَظْرُهُ » ، قد ضم جناحيه ووقف على محله لا تناح له جارحة إلا اقتصمها ولا تنازله طائرة إلا اختطفها ، جرأته كشفرته ، وبديته كفكرته . ومن ثم تعجبه صور النجوم في حيرتها أو تعلقها وصورة الليل :

تَرَاهُ كَمَثَلِ الرَّزْجِ فِي فَرْطٍ كَبِيرِهِ إِذَا رَامَ مَشِيًّا فِي تَبَخُّثِهِ أَبْطَا
مُطْلَأًا عَلَى الْآفَاقِ وَالْبَدْرِ تَاجَهُ وَقَدْ عَلِقَ الْجُوزَاءُ فِي أُذُنِهِ قُرْطَا

فإذا ترك هذه الصورة ، بقيت الموسيقى العامة في شعره تصور التحدّر والاندفاع ، مستعيناً على ذلك ببعض الجناس ، كقوله :

قَضَّتِ النَّوَى بِذِيَادٍ رُجِّحَ عَيْنِهِمْ ظُلْمًا وَكَانَ الدَّهْرُ مِنْ أَعْوَانِهَا
زَجَرُوا اغْتِرَابًا مِنْ نَعِيبِ غُرَابِهِمْ وَقَضُوا بَيْنَ مِنْ مُغَرِّدِ بَانِيهَا

ويصبح شغفه بالجناس أحياناً ضرباً من التكلف خارجاً عن حد الاعتدال ، كما أن شغفه بالموسيقى الصاخبة يملكه أحياناً فينسى كل ما عداه كما في قوله :

وتكفري برداء وصل مقرطق كتبوا بنقس المسك في كافوره
 متلفع بحريه ، متضمخ بعبيره ، مرتح بفتوره
 وسنان ناولتي مدامه طرفه فشربتها وسمعت من طنوره
 يدعو يلكنة بربري لم يزك يستف بالصحراء حب بريه
 متقدم بمضائه متلفع بردائه متكلم في غيره

ومع ذلك فإن وراء هذا الثوب من الصنعة ، روحاً بدوية ، تجعل ابن
 شهيد أقرب الأندلسيين شياً بشعراء المشرق ، الذين يتسجون في عالمهم
 الحضاري على نماذج الجاهلية وصدر الإسلام ، وتحس مثل ذلك في قوله :

يا صاحبي إذا ونى حاديكما فتنشقا النفحات من ظيانيها
 وخذا لمرتبغ الحسان قرئما شفع الشاب فكنت ألف حسانها
 عاودت ذكر العيش فيه وما انقضت من صبوتي وطويت من أزمانها
 فبكيت من زمن قطعت مراحلاً وشيبة أخلقت من ريعانها

وابن شهيد غير مقصر في موضوعات المدح والثناء متفوق في الأوصاف
 والحمريات والمجونيات والإخوانيات والأهاجي ، إلا أنه يفقد العمق الذي
 تجده عند الغزال ، كما أنه برىء من الغموض العسر الذي شاب أشعار ابن
 دراج ، وتفوق في الحدة والاندفاع في الشعر على كل من سبقه من شعراء
 الأندلس . وقد عابه معاصروه بشيئين : الانتحال والتطويل ، وكان هذان
 الاثنان - بالمعنى الذي يفهمه ابن شهيد - من مصادر تفوقه .

٣ - ابن حزم
أبو محمد علي بن أحمد بن سعياء

٣٨٤ - ٤٥٦ هـ

الجدوة : ٢٩٠	البنية رقم : ١٢٠٤	الصلة : ٣٩٥
طبقات الأسم : ٨٦	المغرب ١ : ٣٥٤	الذخيرة ١ / ١ : ١٤٠
المعجب : ٣٠	النفح ١ : ٣٦٤	تذكرة الحفاظ ٣ : ٢٤١
النجوم الزاهرة ٥ : ٧٥	شذرات الذهب ٣ : ٢٩٩	
تاريخ الحكماء للقفطي : ١٥٦		

كان أكثر الثلاثة تأثراً بالفتنة . وأعمقهم إحساساً بالتغير الذي أحدثته ، لأنها فاجأته وهو شاب في ظل النعيم وحياة القصور ، وأخرجته من نعمته وراثته ووطنه ، وغيرت مجرى حياته ، حتى إن الناظر إلى حال ابن حزم في نشأته الأولى وحاله بعد خراب قرطبة ، ليدهش لما أصاب خط حياته من انكسار ، غير أنه لم يتخاذل للانقلاب ، فاستنقذ نفسه من إفسار الماضي ، وتجلبد بقوة وهو ينظر إلى المجد الزائل ، وإذا ابن حزم الشاب المترف شخصية جديدة ، قوية جبارة ، تبرز القوة بالمرارة ، وإذا هو يولد من جديد ، ليفي ملكاته المدهشة في خدمة مجتمعه ، بعد أن كان هشاً في عهد الشباب يعيش لنفسه . إن حياة ابن حزم صورة للإرادة التي لا تعرف التردد والضعف ، وصورة لليقظة النفسية التي أثارها الفتنة .

اختلف الباحثون المحدثون في نسبه : فذهب دوزي وجولدنسيهر إلى القول بأن جده أو والد جده لم يكن عربياً ولم يولد مسلماً ، وإنما اعتنق

الإسلام ، ومثل هذا الرأي يعتمد على إشارة لابن حيان قال فيها « فقد عهده الناس خامل الأبوة ، مؤكّد الأرومة ، من عجم لبلة ، جده الأدنى حديث عهد بالإسلام »^١ ، أما تلميذه الحميدي فيقول إن أصله من الفرس وجده الأقصى في الإسلام اسمه يزيد مولى ليزيد بن أبي سفيان^٢ ؛ وقد رددت أكثر المصادر هذا الرأي ، وسخر معاصره ابن حيان من هذه الدعوى ؛ وذهب إلى أن والده أحمد بن سعيد مؤسس مجد يغنيه عن النسب والسابقة « ولم يكن إلاّ كلا ولا حتى تخطى عليّ هذا رايبة لبلة ، فارتقى قلعة اصطخر من أرض فارس ، فالثه أعلم كيف ترقاها ، إذ لم يكن يؤتى من خطلٍ ولا جهالة »^٣ . وقد ذكر ابن حزم نفسه نسبه إلى الفرس ، وافتخر بها في إحدى قصائده كما افتخر بولائه لبني أمية ، فقال^٤ :

سَمَا بِي سَاسَانَ وَدَارَا وَبَعَدَهُمْ قُرَيْشُ الْعُلَى أَعْيَاصُهَا وَالْعَبَاسُ
فَمَا أُخْرَتْ حَرْبٌ مَرَاتِبَ سُودَدِي وَلَا قَعَدَتْ بِي عَن ذُرَى الْمَجْدِ فَارَسُ

وكلا النسبين لا يدعيان النسبة إلى العرب ، ولكن الفرق بينهما أن الثاني يمنح ابن حزم عدداً كثيراً من الآباء المسلمين ويجعل لأسرته جذوراً راسخة في الإسلام ، أما الأول فيقصر علاقته بالإسلام على جده الأدنى ، أو والد جده - على الأكثر - . وقد مال لهذا الرأي عدد من الباحثين لأنه يصل ابن حزم بالمسيحية أو بالاسبانية عموماً ، رغبةً منهم في أن يدرسوه على ضوء الوراثة القريبة ، ولكي أميل إلى ترجيح النسبة الفارسية ، لأنّ آهام ابن

١ الذخيرة ١/١ : ١٤٢

٢ الجذوة : ٢٩٠

٣ الذخيرة ١/١ : ١٤٢ - ١٤٣

٤ انظر الملحق من ديوان ابن حزم

حزم في نسبه الفارسي إنما صدر عن رجل ميال للذم والثلب ، هو ابن حيان المورخ ، ولا يبعد أن يكون انعدام السابقة والأولية قبل صعود نجم أحمد بن سعيد ، والد أبي محمد ، هو الذي أوحى بهذا الاعتقاد ، ثم إن ابن حزم أتقى لله من أن يلفق لنفسه نسباً غير نسبه ، وليست وراء هذا التلفيق غاية كبيرة لرجل يرى أن الناس يتفاضلون بأعمالهم لا بأسابهم . وقد نسب نفسه إلى الولاء ، وكان هو وأبوه كلاهما ميالاً لبني أمية في عهد العامريين ، ولم يكن هذا الميل ليكسب لهما رضى العامريين ، ولا بد أن يكون في صدق الولاء القديم ما يدفعهما إلى مثل ذلك ، وقد دهش ابن حيان نفسه من هذه الموالاتة ، كما دهش من أن يكون ابن حزم مدعياً في نفسه ، إذ لا يعرف عليه خطل أو جهالة .

وأياً كان الأمر فإن والد علي وُلد بقورية من عمل ليلة تسمى منت لشم ويقول آئن بلاسيوس أنها تقابل ما يسمى اليوم كاسا مونتيجا (Casa Montija) . ثم هاجر منها إلى قرطبة ، ليتتف ، فقال من الثقافة ما أدهش معاصريه ، وكان زميلاً لابن أبي عامر وبينهما بعض المنافسة ، إلا أن هذه المنافسة لم تمنع الحاجب من الاستفادة من مواهب أحمد بن سعيد ، فاتخذ أول وزير له سنة ٣٨١ ، « واستخلفه أوقات مغيبة على المملكة ، وصير في يده خاتمه ، فلما تناهت حاله في الجلالة وأمّنته الخاصة والعامة أتته المنصور بآته قد زها عليه برأيه وآنس منه عجباً بشأنه ، فصرفه عن الوزارة ، وأقصاه عن الخدمة ، دون أن يغير عليه نعمة . وكان يقول : « والله إن ابن حزم للنصيح جيياً ، الأمين غيباً ، ولكنّه زها برأيه وظنّ أن سلطاني مضطراً إلى تدبيره » ، فردّد في نكبتة ، ثم أخرج لينظر في كور الغرب باسم الإقامة فرثم العزلة

وتبرأ من الدالة . فلماً زكن المنصور ذلك منه أعاده إلى حُسْنِ رأيه فيه وصرفه إلى خطته « ١ » .

وكان يجمع إلى سعة العلم قوّة في البلاغة ، وممّا يدل على مذهبه الكتابي قوله في بعض المناسبات : « لآني لأعجب ممّن يلحن في مخاطبة ، أو يجيء بلفظة قلقة في مكاتبة ، لأنّه ينبغي إذا شك في شيء أن يتركه ويطلب غيره ، فالكلام أوسع من هذا » ٢ .

وقد تأثر عليّ بشخصية والده ، وظلت له في نفسه صورة جميلة لم تطمسها الأيام ، لأنّه فقدّه وهو في أول شبابه ، يوم كان محتاجاً إلى رأيه وتوجيهه . ولذلك ظلّ وفيّاً لما سمعه من إرشاداته ونصائحه . وظل يذكر قوله له ٣ :

إذا شئتَ أنْ تحيا غنياً فلا تكنْ
على حالةٍ إلاّ رضيتَ بدونها

وفي مجلس والده تعرّف على كثير من الرجال كأبي عمر أحمد بن حبرون ، وروى عنهم ، وأفاد ممّا كان يسمعه منهم . ومن الوصايا التي أثرت في نفسه وظلّ يكيّف حياته بمقتضاها قولة لأبي عبد الله محمد بن إسحاق الزاهد ، كان يقولها لأبيه الوزير على سبيل الوعظ وهي : « احرص على أن لا تعمل شيئاً إلاّ بنية فإنك توجر في جميع أعمالك . فإذا أكلت فانو بذلك التقوى لطاعة الله ، وكذلك في نومك وتفرجك وسائر أعمالك ، فإنك ترى ذلك في ميزان حسناتك » ٥ . وفي مجلس أبيه كان يستمع إلى الشعراء الذين

١ اعتاب الكتاب : ٦٩

٢ الجذوة : ١١٨ ، وانظر ترجمته أيضاً في الصلة : ٣٠

٣ الصلة : ٣١

٤ الجذوة : ٥٩

٥ الجذوة : ٤١

يمدحون الوزير ويحفظ ما يستجيده من أشعارهم^١. وقد كان والده أيضاً أحد مصادر الشفوية في التاريخ لآتته كان يقص عليه بعض الأحداث التي شهدتها في وزارته للمنصور بن أبي عامر كما أن والده كتب كتاباً ضخماً في التاريخ أيضاً. ولذلك كان ابن حزم - عن طريقه - مطلعاً على كثير من دقائق الأمور التي تجري في بلاط المنصور أو في معاركه^٢، وهذه الثقافة هي التي حبت إليه الاستكثار من الرواية التاريخية، وميزته بالمعرفة الدقيقة للأخبار.

ولكن قيل هذا كله قضى علي^٣ قرة طفولته وصباه حتى بلغ حد الشباب بين الجواري. فهن اللواتي علمنه القرآن ورويته كثيراً من الأشعار ودرّبه في الخط فلم يجالس الرجال إلا وهو في حد الشباب^٤. وقد جعلته هذه النشأة رقيقاً في شبابه، حياءً من مجالس الرجال، كما طبعته على سوء الظن بالمرأة لأنه شاهد من أسرار النساء ما لا يكاد يعلمه غيره، وكان همه الوقوف على ما يجري بينهن، والترقب لما يفعلنه. وأورطته أيضاً نشأته هذه في علاقات عاطفية مبكرة، فأحب في صباه جارية شقراء الشعر. ومنذ ذلك الحين لم يكن يستحسن من النساء إلا الشقراء، وظل على ذلك طوال حياته، وهذا ما عرض لأبيه نفسه وعلى هذا جرى إلى أن وافاه أجله^٥. وأحب جارية اسمها «نعم»، وتزوجها وهو دون العشرين، وكان هو أبا عذرتها. ثم اختطفها الموت منه، فحزن عليها أبلغ الحزن وأعجبه، حتى إنه ظل سبعة أشهر كاملة لا يغير ثيابه بعد وفاتها^٥. وقد حدثنا علي بشيء عن علاقاته العاطفية في الطوق،

١ الجذوة : ٢٤٢

٢ نقط المروس : ٧٧ ، ٨١ ، والجذوة : ١١٨

٣ الطوق : ٥٠

٤ الطوق : ٢٨

٥ الطوق : ٩١

وكان صريحاً في تذكر هذه الفترة من حياته في قصور قرطبة ، وفي التحدث عن شؤون قلبه ، وعن حبه لبحارية أخرى ألفها في أيام صباه ^١ .
 وأول تجاربه في المجتمع - خارج هذا النطاق - أن نراه في مجلس المظفر عبد الملك بن المنصور سنة ٣٩٦ هـ وسنه يومئذ حوالي أربعة عشر عاماً (ولد ليلة الفطر قبل طلوع الشمس وبعد سلام الإمام من صلاة الصبح آخر ليلة الاربعاء ، آخر يوم من شهر رمضان المعظم وهو اليوم السابع من نونبر سنة ٣٨٤) ^٢ وفي ذلك المجلس كان صاعد ينشد المظفر في يوم عيد الفطر قصيدته التي مطلعها :

إليك حَدَوْتُ نَاجِيَةَ الرِّكَابِ مُحَمَّلَةً أَمَانِي كَالهِيضَابِ

فأخذ علي يستحسنها ويصغي إليها ممّا حدا بصاعد أن يكتبها له بخطه وينفذها إليه ^٣ . ثم تقوى صلته بوالده بعد ذلك ويصبح من شهود مجلسه .

وبقي أحمد وأبناؤه يعيشون في الجانب الشرقي من قرطبة في دورهم المحدثه بربض الزاهرة ، على مقربة من المنصور أولاً والمظفر ثانياً ، إلى أن قام المهدي يحاول أخذ الخلافة ، فانقلوا من الجانب الشرقي إلى الغربي حيث دورهم ببلاد مغيث ، وهي مساكنهم القديمة ، في جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ .
 وبدل هذا الانتقال على أن الوزير ابن حزم كان يميل إلى إعادة السيادة الأموية ، وأنه نفّض يده من الولاء العامري ومن الرضى بخلافة هشام المؤيد معاً . وفي تلك الأثناء أشيع أن هشاماً المؤيد توفي ، فحضر علي ووالده الوزير جنازته « المزورة » ^٤ . غير أن المؤيد لم يلبث أن عاد (٧ ذي الحجة سنة ٤٠٠) فاتهما

١ الطوق : ١١٥

٢ الصلة : ٣٩٥

٣ الجذوة : ٢٢٤

٤ الفصل ١ : ٥٩

بأنهما المحرکان للمهدي « وامتحننا بالاعتقال والترقب والاغرام الفادح والاستتار . وأرذمت الفتنة وألقت باعها وعمت الناس وخصتنا »^١ . وفي أثناء الفتنة توفي أبوه يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة سنة ٤٠٢ هـ . وأصبح علي يواجه الأزمة مع أهله دون أن تكون شخصية الوزير المحبوب إلى جانبهم ، فأجلوا عن منازلهم وتغلب عليهم جند البربر ونهبوا منازلهم الغربية ، واستوطنوها . وخرج ابن حزم عن قرطبة أول سنة ٤٠٤ هـ^٢ . وتكاد هذه الحادثة أن ترسم خطأ فاصلاً في حياته . ولكنه لم ييأس من العودة إلى الوطن وانتهاز كل فرصة لذلك . وكان يجب أن إعادة الخلافة الأموية كفيلاً بإرجاعه ، وإرجاع دوره وقصوره ، فلذلك شايح من قام منهم للمطالبة بالخلافة . ذلك أنه بعد رحيله عن قرطبة لجأ إلى المرية ، وحاكمها يومئذ خيران العامري ، فنقل الوشاة إلى خيران أن ابن حزم وصديقه محمد بن إسحاق يسعيان في القيام بدعوة الأموية ، فاعتقلهما أشهراً ثم غربهما عن المرية ، فصارا إلى حصن القصر ونزلا على عبد الله بن هذيل التجيبي ، فأقاما عنده شهوراً مكرمين . ثم ركبا البحر قاصدين بلبنسية عندما سمعا بظهور المرتضى عبد الرحمن بن محمد الأموي فساكناه بلبنسية^٣ ، وسارا معه في محاصرته لغرناطة وفيها زاوي بن زيري الصنهاجي . غير أن آماله عادت فتحطمت لإخفاق المرتضى . ومع ذلك نجده يعود إلى قرطبة سنة ٤٠٨ هـ واليها يومئذ القاسم بن حمود . وهناك تحسس معاهده ودياره وبكاها بحرقة ، وتفقد أصدقاءه فوجدهم قد تفرقوا ومات بعضهم كصديقه الحميم ابن الطيبي . وانصرف في قرطبة إلى تلقي العلم ، لأنه أحسّ بنفسه ضائعاً لم ينل دنيا ، وتكاد الآخرة تفلت

١ الطوق : ١١١

٢ الطوق : ١١٢

٣ الطوق : ١١٨

من يده . وقبل أن نتحدث عن نشاطه العلمي تم الحديث عن نشاطه السياسي فنجد بعد ست سنوات (سنة ٤١٤) عندما فر القاسم بن حمود وبويع المستظهر الأموي ، يعود إلى التثبث بالآمال الأموية . فضمه المستظهر إلى حاشيته وأصبح له وزيراً . قال المقرئ في المستظهر : واشتغل مع ابن شهيد وأبني حزم بالمباحثة في الآداب ونظم الشعر والتمسك بتلك الأهداب والناس في ذلك الوقت أجهل ما يكون^١ . وكانت آخر تجاربه السياسية أن سجنه المستكفي هو وابن عمته أبو المغيرة^٢ . وبعدها أدركه اليأس من النجاح في السياسة ، وعرف أن العلم هو ميدانه الحقيقي ، فانصرف إلى نشر مذهبه الجديد ، وإلى التأليف . وهذا هو الدور الثاني من حياته ، حين عزف عن التعلق بالأسباب التي تصله بالثروة والمجد الدنيوي ، وعاش يكف أساه إلى الماضي ولذائذه ، منتقلاً في البلاد الأندلسية . فحيناً نراه يسكن شاطبة ، ومرّة أخرى نجده في مالقة يودع صديقه أبا عامر محمد بن عامر في سفرته إلى المشرق ، ومعهما صديقهما أبو بكر محمد بن إسحاق^٣ . وكان في تطوافه يلقي العلماء ويجادلهم ، كما يجادل الملحدين والذين لا يقرون بالنبوة ، ويجادل زعماء الأديان الأخرى مثل ابن النفرالة اليهودي وزير صاحب غرناطة^٤ . وهذه المجادلات العنيفة هي التي كونت له خصوصاً كثيرين ، كانوا يكيدون له عند ملوك الطوائف ، حتى جمع المعتضد بن عباد كتبه وأحرقها . وأعتقد أنه فعل ذلك بعد المناظرة التي قامت بين ابن حزم والباجي .

فبعد سنة ٤٥٢ ذهب ابن حزم إلى ميورقة ، وكان فيها الفقيه محمد بن

١ النسخ ١ : ٢٣١

٢ المغرب ١ : ٥٥ ، والتقريب : ١٩٩ بشي من التفصيل .

٣ انظر الطوق : ٤١ ، ١٨

٤ الفصل ١ : ١٧ ، ٢٥ ، ٦٥ - ٦٧ ، ٩٩ ، ١١٠ ، ١٣٥ وغيرها من الصفحات .

سعيد الميورقي يدرس الفقه والأصول . فلما وردها ابن حزم كتب محمد هذا إلى أبي الوليد الباجي يخبره بقدم ابن حزم ، فسافر الباجي إلى ميورقة من بعض سواحل الأندلس . وهناك تضافرا على ابن حزم وناظراه وأخرجاه منها . وكان الميورقي سبب العداوة بين الباجي وأبي محمد^١ . قال القاضي عياض في الباجي : « ووجد عند وروده بالأندلس لابن حزم الداودي صيتاً عالياً وظاهريات منكرة . وكان لكلامه طلاوة قد أخذت قلوب الناس ، وله تصرف في فنون تقصر عنها ألسنة فقهاء الأندلس في ذلك الوقت ، لقلّة استعمالهم النظر وعدم تحققهم به ، فلم يكن يقوم أحد بمناظرته . فعلا شأنه وسلموا الكلام له على اغتمامهم فحادوا عن مكالته . فلما ورد أبو الوليد الأندلس ، وعنده من الاتقان والتحقيق والمعرفة للطرق الجدل والمناظرة ما حصّله في رحلته ، أمله الناس فجرت له معه مجالس كانت سبب فضيحة ابن حزم وخروجه من ميورقة^٢ . وقد شهد ابن حزم للباجي بالتفوق في المذهب المالكي^٣ . ومما جرى بينهما في بعض المناظرات ، أن قال الباجي : أنا أعظم منك همّة في طلب العلم لأنك طلبته وأنت مُعانٍ عليه تسهر بمشكاة من الذهب . وطلبته وأنا أسهر بقتديل بائث السوق . فقال ابن حزم : هذا الكلام عليك لا لك لأنك إنّما طلبت العلم وأنت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي . وأنا طلبته في حين ما تعلمه وما ذكرته ، فلم أرجُ به إلاّ علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة ؛ فأفحمه^٤ .

وكثر أعداء ابن حزم في مدن الأندلس ، وأخذوا يؤلبون عليه أمراءها ،

١ التكملة : ٣٩١

٢ ترتيب المدارك ج ٢ الورقة : ١٥٨ نسخة دار الكتب المصرية ، وانظر النفع ١ : ٣٠٩

٣ النفع ١ : ٣٦٠

٤ النفع ١ : ٣٦٤

ويستصرخون ضده علماء الأمصار الإسلامية « فطفق الملوك يقصونه عن قريتهم ويسيرونه عن بلادهم إلى أن انتهوا به إلى منقطع أثره بتربة بلده من بادية لبلة »^١ . وهناك كان يختلف إليه الطلبة ، فيحدثهم ويفقههم . وواظب هو على التأليف والاكثار من التصنيف ، ولكن الناس أحجموا عن كتبه ، إذ حاربا الفقهاء ، وأحرق بعضها بإشيلية ومزق علانية . غير أنه مضى في سبيله ، لا يثنيه شيء ، حتى وافته منيته عشية يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ست وخمسين وأربعمائة ، وعمره إحدى وسبعون سنة وعشرة أشهر وتسعة وعشرون يوماً^٢ .

ثقافته واسبابته ومؤلفاته :

حصل ابن حزم في صباه شيئاً من الثقافة الأولية على يد الجوارى ، ثم أخذ يطلب العلم في قرطبة قبل الأربعمائة بقليل ، وظل مثابراً على طلب العلم أثناء الفتنة حتى إنه كان في سنة ٤٠١ يتلقى الحديث على أستاذه الهمداني في مسجد القبري بالجانب الغربي من قرطبة^٣ ، وبعد خروجه من قرطبة أفاد من تجواله في البلاد ومن لقاء بعض العلماء ، ولكنه لما عاد إليها أدرك أن محصوله من العلم ما يزال قاصراً ، فأكب على الطلب ، حتى حصل في مدة قصيرة ما لا يحصله غيره في العمر الطويل . وتمذهب أولاً للشافعي ، ثم اختار مذهب الظاهر . ووضعه موقف المنافع عنه موضع من لا بد له من ثقافة واسعة . وكان يأسه من الحياة السياسية سبباً في تعميق حياته العلمية ، ومن أشهر أساتذته :

١ - أبو الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت وهو فقيه عالم زاهد ، أثر

١ الذخيرة ١/١ : ١٤١ - ١٤٢

٢ الصلة : ٣٩٦

٣ الطوق : ١٣٥

في ابن حزم لميله إلى القول بالظاهر ، وقد سمع منه بعض الأخبار
والفوائد اللغوية^١ .

٢ - أبو القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد المصري ، كان مجلسه بالرصافة
وهو أستاذه في الجدل والكلام . وكان من زملائه في الطلب عليه
أبو عبد الله ابن الطنبلي صديقه الحميم . وفي مجلسه صادق أيضاً
أبا علي بن الحسين بن علي القاسي . وكان هذا عاملاً عالماً ممن
تقدم في الصلاح والنسك الصحيح في الزهد في الدنيا والاجتهاد
بالآخرة . وقد انتفع به ابن حزم وبتأثيره عرف قبح المعصية^٢ .

٣ - أبو سعيد الفتي الجعفري وهو يذكر أنه قرأ عليه معلقة طرفة^٣ .

٤ - وقد روى ابن حزم الحديث عن علماء كثيرين منهم محمد بن سعيد
ابن نبات ومحمد بن سعيد بن جورج التقيي وعبد الرحمن بن سلمة
الكتاني وأحمد بن قاسم البياني ويونس بن مغيث المعروف بابن
الصفار قاضي الجماعة بقرطبة وعن أبي الوليد الفرضي والد المصعب
ومحمد بن الحسن المدحجي المعروف بابن الكتاني وعن كثيرين
غيرهم^٤ .

٥ - أحمد بن محمد بن أحمد بن سعيد المعروف بابن الجسور الأموي .
روى التاريخ للطبري وعنه حدث ابن حزم بهذا الكتاب . وهو
أول شيخ سمع منه قبل الأربعمائة^٥ .

١ انظر الجذوة : ٣٢٨ ، ٢٢٦ ، والطوق : ١٠٥

٢ الطوق : ٧٢ ، ١١٧ ، ١٢٦ ، والجذوة : ١٨١

٣ الطوق : ٧٠

٤ انظر صفحات متفرقة من الجذوة والطوق ، والتكملة : ٣٨٣

٥ الجذوة : ٩٩ - ١٠٠

٦ - أبو عبدة حسان بن مالك وصفه ابن حزم بأنه كان أذكى من
لقيامهم للغة مع شدة عنايته بها وثقته وتحريه في نقلها^١. وقد عمل
حسان كتاباً على مثال كتاب ربيعة وعقيل للمنصور بن أبي عامر.
وهو من العلماء الذين أحملتهم الفتنة^٢.

٧ - أحمد بن محمد بن عبد الوارث أبو عمر المعروف بابن أخي
الزاهد، وهو مؤدبه في النحو^٣.

٨ - أبو محمد عبد الله بن ربيع بن بنوش التميمي القاضي وهذا أحد
تلاميذ أبي علي القالي وعنه أخذ ابن حزم بعض مؤلفات القالي
مثل فعلت وافعلت وكتاب النوادر كما روى عنه كتاب حديث
أبي خليفة الفضل بن الحباب الحمصي^٤.

ومن العسير أن يصور المدارس مدى ثقافة ابن حزم لتشعب هذه الثقافة
وشمولها لجميع أنواع المعرفة في عصره - ما عدا الحساب والهندسة - وهذا
هو الجانب المدهش حقاً : فهو متعمق للغة والحديث ، عارف بآراء أهل
المذاهب الأخرى ، مطلع على كتب أهل الأديان يناقش مادة التوراة والانجيل
مناقشة تفصيلية ، ويجمع إلى ذلك كله اطلاعاً واسعاً في اللغة والنحو والأدب
والتاريخ ، وقد قرأ كثيراً من مؤلفات أهل بلده في هذه العلوم ، كما أنه
درس الفلسفة والمنطق والفلك ، وقد عابه خصومه المترمتون بالمنطق واقليدس
والمجسطي ، ولما شاء أن يضع منهجاً كافياً للدارس في بعض العلوم اقترح

١ الأحكام ٤ : ١٢

٢ الجذوة : ١٨٤

٣ التكملة : ٧٩٠

٤ انظر صفحات متفرقة من فهرسة ابن خير .

الواضح في النحو للزبيدي والموجز لابن السراج ، واقترح في اللغة كتاب الغريب المصنف لأبي عبيد ومختصر العين للزبيدي ، وعد من التوغل في اللغة أن يدرس المرء كتاب خلق الانسان وكتاب الفرق لثابت والمذكر والمؤنث لابن الأنباري والممدود والمقصود والمهموز لأبي علي القالي والنبات لأبي حنيفة الدينوري ، ونصح بدراسة كتاب المجسطي لمعرفة الكسوفات وعروض البلاد وأطوالها ، وحث على النظر في المنطق ليقف الدارس على الحقائق ويميزها من الأباطيل ، وعلى النظر في الطبيعيات وعوارض الجو وتركيب العناصر وفي الحيوان والنبات والمعادن ، وعلى قراءة كتب التشريح وقراءة التواريخ القديمة والحديثة ، وعلى النظر في الكلام والحديث والفقه أو علم الشريعة جملة . وما وصف ابن حزم هذا كله إلا وهو مطلع عليه وعلى أكثر منه بكثير ، وتدل رسالته في فضل الأندلس على تقديره لثقافة أهل بلده ، وعلى سعة باعه في معرفة أكثر ما يتصل بأخبار رجالها وتاريخها ومؤلفاتها وأدبها وشعرها ، فقد كان يحفظ كثيراً من شعر ابن عبد ربه وابن دراج وصاعد وابن هذيل والمصحفي والطلق والغزال وكثير غيرهم ، وكتاب الجذوة معرض لمعرفة ابن حزم بشؤون الأندلس أيضاً ، فأكثر ما فيه إنتما يرويه الحميدي عن أستاذه ، هذا إلى قدرة فائقة في التجريح والتعديل ومعرفة الأنساب ، وكل ذلك يدل على ذاكرة عجيبة وحيوية عقلية فذة .

وقد صدق القاضي صاعد في قوله عنه : « كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلم الإسلام وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان والبلاغة والشعر والسير والأخبار »^١ . وكان جماعاً للكتب ، جمع منها في علم الحديث

١ نقله المقرئ في النفع ١ : ٣٦٤ ، أما ما ورد في كتاب صاعد فهو « ولأبي محمد بن حزم بعد هذا نصيب وافر في علم النحو واللغة وقسم صالح من قرص الشعر وصناعة الخطابة » (طبقات الأمم : ٨٧) .

والمصنفات والمسندات شيئاً كثيراً^١ . كما كان كثير التقييد لا يدع شيئاً يفوته من سماع أو قراءة أو مشاهدة . وبنسبة هذا الاطلاع الواسع كثرت مؤلفاته ، حتى بلغ مجموع ما ألفه في الفقه والحديث والأصول والنحل والملل والتاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المعارضين نحو أربعمئة مجلد (بين كتاب ورسالة) تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة^٢ . ومع أن كثيراً من مؤلفاته قد ضاع ، فقد بقي قدر صالح منها .

منها في الفقه والأصول : المحلى والإحكام ومراتب الاجماع وحجة الوداع وقسم من كتاب الإبطال ، ومنها في العقائد والمذاهب : الفصل وكتاب الأصول والفروع (مخطوط) وهو صورة مختصرة من الفصل ، وفي المنطق : كتاب التقريب ، وفي الأنساب والأخبار : كتاب الجمهرة وجوامع السيرة ، وفي الأدب : طوق الحمامة وقطعة من ديوانه . كما وصلتنا له رسائل كثيرة من أهمها رسالته في مراتب العلوم ورسالة في مداواة النفوس ورسالة في فضل الأندلس ورسالة التلخيص لوجوه التلخيص وغيرها .

شخصيته وأخلاقه :

كان ابن حزم ذكياً سريع الحفظ واسع الاطلاع متفانياً في طلب العلم ونشره . وكان في شخصه متواضعاً عاملاً بعلمه زاهداً في الدنيا متديناً كريم النفس ، وقد اتهمه ابن حبان بأنه يجهل « سياسة العلم » لحدة فيه وشدة عارضته في الرد على الخصوم ، وعدم الاعتماد على التلميح والتعريض والأناة في التوجيه ، وربما كان بعض ما يشوب هجماته من مرارة راجعاً إلى فيض عاطفي أصيل احتبسه التدين في نفسه ، حتى إننا لنسمعه يقول : إن .

١ الخدرة : ٢٩٠

٢ طبقات الأمم : ٨٧

مات في ساعة الوداع كان معذوراً^١ ، ولما نُعي إليه من يجب فرّ إلى المقابر . ولما ماتت جارية كان يحبها مكث أشهراً والحزن عليه غالب ، وصرح بظلم دائم إلى الألفة والمحبة فقال إنّه لم يروّ من ماء الوصل قط . هذا إلى أن تربيته الأولى بين الجوّاري قد غرست في نفسه سوء الظن بالعلاقات بين الرجال والنساء مع غيرة شديدة وجدت في طبعه . وكان أصدقاؤه يتهمونه بأنّه مدلّ بالأسرار لا يكاد يحفظ سرّاً ، غير أن ذلك لم ينقص فيه خلتين لازمتاه طوال حياته وهما : الوفاء وعزة النفس ، وهذه الثانية هي التي منحته صلابة عجيبة في مواقفه من الآراء ومن حكام عصره . وقد طبع كذلك على الثأني والتربص وعلى حب المسالمة وعدم التعرض لأذى أحد من أجل أدنى معرفة ناشئة . غير أن علاقته لم تكن لتقوم إلاّ بعد التجربة الطويلة ولا تصح محبته إلاّ بعد التماذي في الأُنس فما دخل عسيراً لم يخرج يسيراً^٢ . وكانت الشقرة في الجمال أكثر تأثيراً من غيرها في نفسه .

وقد تعاورت عليه علل غيرت من قواه الجسمانية ؛ أصيب مرّة بعلّة افقدته ما كان يحفظ وما عاوده حفظه إلاّ بعد أعوام ، وكان يكثر أكل الكندر مقاومة لما أصابه من خفقان في القلب وهو يعزو إلى ذلك جمود دمه في أشدّ المواقف العاطفية . وأصيب مرّة بالرمد ، ومرّة بمرض ولدّ عليه ربوآ في الطحال وهو يقول إن ذلك استلب منه الشعور بالفرح والبهجة وأورثه الضجر والضيق وقلة الصبر^٣ . وهذا يفصح عن سبب المرارة وحدة الخطاب في مناظراته ومجادلاته لمخالفيه .

وعلى شدة ضعفه أمام الجمال فإنّه لم يتورط في المحرّمات حتى قال :

١ الطوق : ٨٨

٢ الطوق : ٢٤

٣ الرسائل : ١٥٥

« يعلم الله أنني بريء الساحة سليم الأديم صحيح البشرة نقي الحجزه . وإنني أقسم بالله أجل الأقسام ما حلت مئزري على فرج حرام قط »^١ .
وزعم أبو الخطاب ابن دحية أن ابن حزم برص من أكل اللبان وأصابته
زمانة .

وغلى الجملة فإن رسم صورة كاملة لشخصية ابن حزم مما تضيق عنه
هذه الترجمة ، فقد كان نسيح وحده فيمن أنجبتهم الأندلس .

شعره :

كان يقول الشعر بسرعة على البديهة ولذلك كثر شعره ، وجمعه تلميذه
الحميدي على حروف المعجم . ولم يصلنا منه إلا قطعة صغيرة وإلا أشعاره
في الطوق وبعض متفرقات منه في شرح الشريشي على المقامات وفي الغيث
المنسجم للصفدي وما أشبهه ، وفي الكتب التي أوردت له ترجمة . وقد رأى
له ابن الأبار شعراً في رثاء أبي محمد جابر المعروف بالعطار ، وكان محدثاً على
مذهب أهل الظاهر^٢ . وبعض شعره قاله قبل بلوغ الحلم ، وأكثر ما نظمه
دون العشرين إنما كان تغزلاً^٣ ثم رثاء لجاريته « نعم » التي فقدتها فحزن على
فقدتها . وكان إخوانه يسومونه القول في ما يعرض لهم على طرائقهم ومذاهبهم
فيقول ما يناسب حالهم ومقصودهم ، وكان أحياناً يصنع الشعر بتكليف ، فقد
كلفته إحدى كرائم المظفر أن يصنع لها أغنية لتلحنها ففعل^٤ . ولم يكن له
وقت معين لقول الشعر ، فأحياناً يقول شعراً وهو نائم ويختار أحياناً أخرى أن
ينظم بعد صلاة الصبح^٤ ، وكان بينه وبين ابن عمه أبي المغيرة مراسلات بالشعر

١ الطوق : ١٢٦

٢ التكملة : ٢٤٧

٣ الطوق : ١١٤

٤ الطوق : ١٠٨ ، ١٤٦

وبينه وبين ابن شهيد مقارنات شعرية أيضاً ، وله مدح في هشام المعتد .

وقد حال بين ابن حزم وبين التجويد الشعري أمور كثيرة منها :

- ١ - إكثاره من القول على البديهة .
- ٢ - عدم إيمانه بقيمة الشعر في باب العلوم المقربة من الله تعالى .
- ٣ - عدم تدقيقه في اختيار الألفاظ ذات الموقع الجميل في النفس .
- ٤ - اعتقاده أن الشعر ميدان يصلح لكل موضوع .
- ٥ - استبحاره في الفقه والجدل والحديث وغلبة طرائقه في هذه العلوم على الشعر .

ولذلك قلَّ التعبير الجميل في شعره ، وإن كان شعراً زاخراً بالمعاني ، وكثرت المؤثرات الثقافية والإشارات إلى العلوم والعقائد والتعليقات والبناء الجذلي وأثر الفقه الظاهري واستعمال الألفاظ المتصلة بكل ذلك ، فمن أمثلة ذلك قوله :

كذب المدعي هوى اثنين حتماً مثلما في الأصول أكذب ماني

وقوله :

فأثرت أن يبقى ودادٌ وينمحي مدادٌ فإن القرع للأصل تابع

وقوله :

فهم أبدأ في اختلاج الشكوك بظن كقطعٍ وقطعٍ كظن

ويلجأ إلى التقسيم والتضريح على نحو يذكر بابن الرومي في قوله :

معهودُ أخلاقِكَ قِسْمَانِ والدهرُ فيكَ اليومَ صِنْفَانِ
فانكَ النعمانُ فيما مَضَى وكانَ للنعمانِ يَوْمَانِ
يومُ نعيمٍ فيه سَعْدُ الوَرَى ويومُ بأساءٍ وَعُدْوَانِ
فيومُ نِعْمَاكَ لغيري ويسو مي منكَ ذو بُؤْسٍ وهجرانِ
أليسَ حُبِّي لك مستأهلاً لأنَّ تجازيَه بإحسانِ

وبغض أحياناً كأنما يضع أمامنا قضية فلسفية في مثل قوله :

أليسَ يحيطُ الروحُ فينا بكلِّ ما دنا وتناهى وهو في حُجُبِ الصَّدْرِ
كذا الدهرُ جسمٌ وهو في الدهرِ روحه يحيطُ بما فيه وان شئتَ فاستَقْرِ

ولا يفتأ يرسل التلميحات ويشقق المعاني منها ، ومن أبرز ذلك قوله :

فكلُّ ترابٍ واقعٌ فيه رجلُهُ فذاكَ صعيدٌ طيبٌ ليس يُجْحَدُ
كذلكَ فعلُ السامريِّ وقد بدا لعينيه من جبريلَ إثرُ مُمَجَّدُ
فصيرَ جوفَ العجلِ من ذلكَ الثرى فقامَ له منه خوارٌ مُمَدَّدُ

وتمتلئ بعض قصائده بالحكمة ، وبعضها يتجه إلى تمجيد الزهد ، وبعضها

في تسبيح الله وتمجيده وإثبات حدوث العالم كالقصيدة التي مطلعها :

لك الحمدُ يا ربُّ والشكرُ ثمُّ لك الحمدُ ما باحَ بالشكرِ قَمُّ

وشهرت بين الأندلسيين قصيدته التي قالها في الرد على قصيدة شاعر

نقفور ، وبعض قصائده تعليم خالص في الحث على طلب الحديث وفي نظم

بعض الآراء الفلسفية ، وله قصيدة يعارض بها قصيدة ابن زريق البغدادي

لإعجابه بها .

وأحفل شعره بالعناصر الشعرية الصحيحة هي القصائد الذاتية التي ينافح

بها عن موقفه ويدافع عن غاياته ويذكر تكالب الناس على إيدائه والخط من قدره ، لأنها قائمة على القوة والجزالة والحدة وليست معرضاً للثنن في الرأي وإبراز المعاني من حجبتها ، من ذلك قصيدته التي يقول فيها :

أما لهم شغلٌ عني فيشغلهمُ أو كلهمُ بي مشغولٌ ومرتهنُ
كانَ ذكري تسبيحٌ به أمروا فليس يغفلُ عني منهمُ لسنُ
إن غبتُ عن لحظهم هاجوا بغيظهمُ حتى إذا ما رأوني طالماً سكنوا

وأقوى ما وردنا في هذا الباب من شعره قصيدته البائية التي خاطب بها قاضي الجماعة بقرطبة عبد الرحمن بن أحمد بن بشر وفيها يقول :

أنا الشمسُ في جوِّ العلومِ منيرةٌ ولكنَّ عيبي أنَّ مطلعي الغربُ
ولو أني من جانب الشرقِ طالعُ لجدَّ على ما ضاعَ من ذكري النهبُ
ولي نحو أكنافِ العراقِ صبايةٌ ولا غرو أن يستوحش الكليفُ الصبُ
فإن يتزلَّ الرحمنُ رحلي بيئتهمُ فحينئذ يبدو التأسفُ والكربُ
فكم قائلٍ أغفلتهُ وهو حاضرُ وأطلبُ ما عنه تبيء به الكتبُ
هنالك يدري أن للبعدِ قصةً وأن كسادَ العليمِ آفتهُ القربُ

وفي هذه الأبيات تبدو حسرة أبي محمد على إنكار أهل الأندلس لفضله ، وتوقعه الرحلة إلى العراق ، وهي أماني جاشت في نفسه في لحظة ثم صرفته الأيام عن كل ذلك .

وفي شعر أبي محمد جانب دقيق قد نسميه « الجانب الباطني » كان يهرب إليه أحياناً من قسوة الظاهر وحادّة صلابته ، وينقل إليه معاني التنزيه والتوحيد ويتأول الأشياء على غير ظاهرها ، حتى كان بعض أصدقائه يسمي قصيدته له

« الإدراك المتوهم » وهي التي يقول فيها :

تَرى كُلَّ ضِدِّ به قائماً فكيف تحدُّ اختلافَ المعاني
فيا أيها الجسمُ لا ذا الجهاتِ ويا عرضاً ثابتاً غيرَ فانِ
نَقَضْتَ علينا وجوهَ الكلامِ فما هو مُذْ لُحَّتْ بالمُستبانِ

وتجده - وهو المتمسك بأشدَّ ألوان التتريه - يقول :

أَمِنْ عَالَمِ الأَملاكِ أنتِ أمِ أنسيُّ أبينُ لي فقد أزرى بتمييزي العيِّ
أرى هيئةً إنسيةً غيرَ أنه إذا أُعْمِلَ التفكيرُ فالجِرمُ علنويُّ
ولا شكَّ عندي أنكِ الروحُ ساقه إلينا مثالٌ في النفوسِ اتصاليُّ
ولولا وقوعُ العينِ في الكونِ لم نقلُ سوى أنكِ العقلُ الرفيعُ الحقيقِيُّ

فهو في كل هذا المترع يذهب إلى التجريد المحض كقوله أيضاً :

كأنما هو توحيدٌ تضيقُ به نفسُ الكفور فتأبى حين تُودَعُهُ

ومن تأمل هذا اللون من الشعر في موضوع الحب خاصة وجد أن ابن حزم الظاهري المتشدد قد بلغ فيه مشارف التصوف « الباطني » ، وكأنما كانت نفسه تأنس بهذه الروحانية الغيبية كلما وجدت قلقاً من التشدد في الأخذ بالظاهر ، وهو في هذا الجانب الواهم متأثر بطريقة النظام ، إلا أن هذا اللون ليس أكثر شعره .

ولقد يشق علينا أن نعرف التيارات الشعرية التي أثرت في ابن حزم لأن حفظه لشعر المشاركة والأندلسيين لا يكاد يحصر ، وهو معجب بشعراء مختلفي الطرق والاتجاهات الشعرية ، وهو أيضاً حصيف في النقد عارف بجيد الشعر مميز له ، ولكن المرء رهن بظروفه ، وقد كان ابن حزم في ظروف تبعد به عن الشعر ولا تهيم له تجويده أو الانقطاع المتفرغ له .

النشر الأندلسي في هذا العصر



النثر الاندلسي في هذا العصر

كانت لفظة الكاتب في الأندلس تطلق على طبقتين من الناس : كتّاب الرسائل وكتّاب الزمام . أما كتّاب الرسائل « فله حظ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس وأشرف أسمائه الكاتب وبهذه السمة يخصه من يعظمه في رسالة ، وأهل الأندلس كثيرو الانتقاد على صاحب هذه السمة ، لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة ، فإن كان ناقصاً عن درجات الكمال لم ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه من تسلط الألسن في المحافل والطنن عليه وعلى صاحبه » .
وأما كتّاب الزمام فهو المسؤول عن شؤون الخراج^١ . وهذا الكلام عن الكتابة ينطبق على عهد متأخر ولكن الحال ربما لم يختلف كثيراً عن ذلك في عهد بني أمية .

وهناك أيضاً من يسمى الكاتب الخاص، ولدى كل أمير مثل هذا الكاتب، كما أن هيئة الكتابة عامة يطلق عليها « الكتابة العليا »^٢ .

وجودة الخط أمر مشترك بين كتّاب الانشاء وكتّاب الزمام ، وكان المنصور بن أبي عامر يتشدد في النص على جودة الخط حتى لقد أصدر عهداً يوبخ فيه العمال لاستكتابهم الجهلة الذين لم يبلغوا أن يحكموا الخط ويميزوا أنواع الرق والمداد ، وهدد المنصور بأن من كتب كتاب اعتراض أو عمل في رق ردي أو بمداد دني أو خط خفي فيه لحن أو بَشْرٌ فإنه معزول ومطالبه

١ النسخ ١ : ١٠٢ - ١٠٣

٢ الحلة : ١٩٢

باطلة وسيغرم المال الذي ذكره في ذلك القنداق^١ ، وهذا التشدد يوحى بالخوف من الخطأ والبشر في المسائل الخراجية .

وهكذا فإن من يلحقهم اسم كاتب في هذا العصر كثيرون جداً ، ولكن الكتابة الانشائية الفنية المستقلة غير واضحة الصورة إلا في أواخر هذا العصر لأن صورة الكتابة الديوانية قد غلبت عليها ، وكان هذا النوع من الكتابة هو مهدان لرسائل البلاغة حينئذ . وكما نسمع أن هذا أو ذلك كاتب بليغ مثل يوسف بن سليمان الكاتب فإنه كان كاتباً بليغاً عالماً بحدود الكتابة بصراً بأعمالها^٢ ، والرازي كان كاتباً بليغاً^٣ ، وأبو عبد الله محمد بن عبد الرؤوف كان بليغاً مرسلاً^٤ ، ولكننا لا نملك شواهد ذلك كله ، فقد ضاعت الكتب التي ألفت في كتاب تلك الفترة مثل : طبقات الكتاب بالأندلس للأندلسيين وكتاب آخر لسكن بن سعيد وكتاب ثالث لعبيد بن الجياني بعنوان «اللفظ المختلس من بلاغة الكتاب بالأندلس» وكلها ألفت في دور مبكر . ولذلك خفيت علينا صورة الكتابة الإخوانية والرسائل المستقلة فيما خلا خبراً عن رسالة لابن الجوزي ألفتها في مناقضة رسالة البتيمه لعبد الله بن المقفع^٥ ، غير أن وجود مثل هذه الكتب التي تعرض للكتاب والكتابة الأندلسية يدل على اهتمام بالكتابة وتقديرها وربما دل أيضاً على وفرتها . وتدل الكتابة الرسمية في هذه المرحلة على تفضيل الإيجاز والتقصير في التعبير وإتقان المعنى ، وأصحاب التوقيعات المتضمنة هم المشهود لهم بالبلاغة

- ١ الخبر : ١ / ١ : ٨٧
٢ طبقات الرازي : ٢٢٥
٣ المصدر نفسه : ٢٢٧
٤ المصدر نفسه : ٢٢٤
٥ طبقات الرازي : ٢٢٦

في هذا الشأن ، وتفضل الكتابة كلما انتحلت طبيعة التوقعات . ومن أقدم نماذج هذا النوع ما أملاه عبد الرحمن الأول إلى سليمان بن الأعرابي : « أما بعد فدعني من معاريف المعاذير والتعسف عن جادة الطريق ، لتمدنّ يداً إلى الطاعة والاعتصام بمجبل الجماعة أو لألقين بنائها على رصف المعصية نكالا بما قدمت يداك ، وما الله بظلام للعبيد »^١ . وهذه صورة إنشائية ذات حظ كبير من الفصاحة والقوة ، وهي لا تفرق عن بعض أنواع الإنشاء في العصر الأموي بالشرق . وهذا نموذج آخر كتبه أمية بن زيد كاتب عبد الرحمن إلى بعض عماله يستقصه فيما فرط من عمله : « أما بعد فإن يكن التقصير لك مقدماً فعند الاكتفاء يكون لك مؤخرأ ، وقد علمت بما قدمت ، فاعتمد على أيهما أحيت »^٢ .

وقد اقتضت مثل هذه المناسبات هذا الإيجاز والإيماء والقصد في القول والحدة في الخطاب ، غير أن ذلك لم يكن سمة عامة للإنشاء ، وفي العهد الذي أصدره الناصر عندما رغب في أن يلقب بالخلافة جانب من التطويل وشيء من الازدواج دون أن تدخله صنعة مقصودة^٣ . وهذا ما نجده أيضاً في كتاب أنشأه الحكم لما كان ولياً للعهد بأمر من أبيه إلى المشاور أبي إبراهيم حين تخلف عن حضور الإعذار الذي صنعه الناصر لأولاده ، وقد جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم — حفظك الله وتولاك وسددك ورعاك — لما امتحن أمير المؤمنين ، مولاي وسيدي — أبقاه الله — الأولياء الذين يستعد بهم وجدك متقدماً في الولاية متأخرأ عن الصلة . على أنه قد اندرك ، أبقاه الله ، خصوصاً للمشاركة في السرور الذي كان عنده ، لا أعدهم الله توالي المسرة ، ثم أندرت

١ ابن عذاري ٢ : ٨٦

٢ المصدر نفسه

٣ ابن عذاري ٢ : ٢٩٧

من قبل إبلاغاً في التكرمة ، فكان منك على ذلك كله من التخلف ما ضاقت عليك فيه المذرة ، واستبلغ أمير المؤمنين في إنكاره ومعاتبتك عليه فأعيت عليه عنك الحجة ، فعرفني أكرمك الله ما العذر الذي أوجب توقعك . . . » فرد أبو إبراهيم بقوله : « قرأت أبقى الله الأمير سيدي هذا الكتاب وفهمته ولم يكن توفي نفسي ، إنما كان لأمر المؤمنين سيدنا ، أبقى الله سلطانه ، لعلمي بمذهبه وسكوني إلى تقواه واقتضائه لأثر أسلافه رضوان الله عليهم فإنهم يستبقون من هذه الطبقة بقية لا يمتنونها بما يشينها ولا بما يفض منها ويطلق إلى تقيصها ، يستعدون بها لدينهم ويترينون بها عند رعاياهم ومن يفد عليهم من قصادهم ، فلهذا تخلفت ولعلمي بمذهبه توقفت إن شاء الله تعالى »^١ .

وكلتا الرسالتين في غاية البساطة والبعد عن التعامل ، وقد ظل أمر الكتابة بسيطاً لا تحلية فيه حتى أواخر أيام المستنصر ، وكان السجع يجيء في الرسائل عفواً دون تعمد ، حتى مقدمات الكتب كقصة قضاة قرطبة للخشي ظلت عارية من السجع إلا فيما ندر . ومن الشاذ في انتحال بعض السجع حينئذ رسالة ليزيد بن طلحة (في خلافة الأمير عبد الله) كتبها إلى أهل قرمونة يحضهم فيها على الطاعة ، ومنها : « إن أحق ما رجع إليه الغالون وألحق به التالون وآثره المؤمنون وتعاطاه بينهم المسلمون مما ساء وسر ونفع وضر ما أصبح به الشمل ملتئماً والأمر منتظماً والسيف مغموداً ورواق الأمن ممدوداً »^٢ ، ثم تستمر الرسالة بعد ذلك دون سجع .

تلك هي المرحلة الأولى من الكتابة في هذا العصر . أما المرحلة الثانية

١ النسخ ١ : ١٧٧

٢ طبقات الزبيدي : ٢٩٤

فتشغل عهد الدولة العامرية وفترة الفتنة وفيها ظهر أكابر الكتاب النافرين
ومنهم :

١ - ابن برد الأكبر

٢ - عبد الملك بن إدريس الجزيري

٣ - ابن دراج القسطلي

٤ - ابن شهيد

٥ - ابنا حزم

٧ - الحنّاط

٨ - ابن حيان المؤرخ

٩ - ابن زيدون .

وتماز هذه المرحلة عن سابقتها بمميزات كثيرة منها تغير المؤثرات التي
أخذ يتلقاها هؤلاء الكتاب ، إذ تغيرت النماذج المشرقية التي يحنّونها وأصبحت
طريقة سهل بن هارون والناظر أولاً ثم طريقة بديع الزمان ثانياً هما النموذج
الأعلى للمنشئين بالأندلس . ومنها احتفال الأندلسيين بالآثار الكتابية وإقبالهم
عليها فكان لبعض الرسائل بينهم شهرة خاصة كرسالة ألفها بعضهم فاشتهرت
عند أهل الثغر لبلاغتها^١ ورسائل لابن دراج كان الناس يتناقلونها ويعجبون
بها^٢ . وتماز هذه المرحلة أيضاً بالثورة على التقصير في الكتابة ، ويمثل هذه
الثورة قول والد الفقيه ابن حزم - وهو من الكتاب الوزراء المقدمين في الدولة
العامرية وكانت له في البلاغة يد قوية - : « إنني لأعجب ممن يلحن في
مخاطبة أو يجيء بلفظة قلقة في مكاتبة لأنه ينبغي له إذا شك في شيء أن يتركه

١ الخلة : ١٩١

٢ الخدوة : ١٠٤

ويطلب غيره فالكلام أوسع من هذا^١ ، وتبلغ هذه الثورة ذروتها عند ابن شهيد ضد المعلمين وعجزهم عن تعليم البيان ، بل هو يعيب الأندلسيين عامة لتقصيرهم في شؤون البلاغة وكلامه صادر عن العجب ولكن فيه دلالة على ما كان يطمح إليه من رفعة لشأن الكتابة .

وأكبر ما يميز الكتابة في هذه المرحلة تمييز أصولها وطرائقها وأماليبها ، وهذا راجع إلى قوة حركة النقد التي وصفناها من قبل ، فلم يكن يأخذ طرق المشاركة تقليداً فحسب ، بل كان مبنياً على فهم لتنوع الأساليب النثرية وإدراك لمميزاتها ، وقد كان ابن حزم ذا نظر ثاقب في نقد الأساليب وتمييز المذاهب النثرية ، كما أن لابن شهيد في هذا الباب بصيرة الناقد الحصيف إذ يقول :
« ألا ترى أن الزمان لما دار كيف أحال بعض الرسم الأول في هذا الفن إلى طريقة عبد الحميد وابن المقفع وسهل بن هارون وغيرهم من أهل البيان . . . ثم دار الزمان دوراناً فكانت إحالة أخرى إلى طريقة إبراهيم بن العباس ومحمد ابن الزيات وابني وهب . . . ثم دار الزمان فاعترى أهله باللطائف صلف ، وبرقّة الكلام كلف ، فكانت إحالة أخرى إلى طريقة البديع وشمس المعالي وأصحابهما »^٢ . ويفاضل ابن شهيد بين سهل والجاحظ فيذهب إلى أن سهلاً عالم والجاحظ كاتب وانهما إذا ذكر ميدان الكتابة مختلفا الطريقة وكلاهما محسن في بابهِ^٣ . ولا نزال نسمع من يفضل الايجاز على الإطالة مثل ابن الحناط الذي يقول : « الاسهاب كلفة والايجاز حكمة وخواطر الألباب سهام يصاب بها أغراض الكلام »^٤ .

١ الجذوة : ١١٨

٢ الذخيرة ١/١ : ٢٠٣

٣ الذخيرة ١/١ : ٢٠٧ - ٢٠٨

٤ الذخيرة ١/١ : ٣٨٥

وفي هذه المرحلة يستقل النثر الفني في بعض أحواله عن الكتابة الديوانية ، ويتخذ له موضوعات من الحياة تشبه الموضوعات التي يدور حولها الشعر وبخاصة الوصف ، وأصبح يعتمد الخيال كما في رسائل ابن شهيد وبعض رسائل ابن برد الأصغر كرسالة المفاخرة بين السيف والقلم . ويبرز كذلك التنوع في الأساليب بحيث يمكن لقارئ النماذج النثرية أن يفرد لابن دراج ولابن شهيد ولابن حبان ولابن زيدون خصائص أسلوبية واضحة .

وفي طليعة هذه الطبقة من النثرين يقف ابن الجزيري وابن برد الأكبر وابن دراج وهم المتأثرون بإنشاء ابن المقفع وسهل بن هارون والجاحظ ، وهم متقاربون في طبيعة الأسلوب بعض التقارب ، إلا أن ابن دراج اختط لنفسه طريقة حدها ابن حزم بقوله : « وقد كان أحدث ابن دراج عندنا نوعاً من البلاغة ما بين الخطب والرسائل »^١ ، وهذا أدق حكم على أسلوب ابن دراج فكان هذا الكاتب قد مزج الموروث الأندلسي في النثر بين بلاغة منذر بن سعيد البلوطي في خطبه وبين أعلى صور الرسائل الأندلسية ومسح كل ذلك ببعض التأثير المشرقي في الصنعة ، فكان في أسلوبه خارجاً عن المألوف العام من الأساليب في الأندلس وكان يترده بين السجع والازدواج ، ومن أمثلة نثره قوله « يا سيدي ومن أبقاه الله كوكب سعد في سماء مجد ، وطائر يمن في أفناء أمن ، مرجواً لدفع الأسواء مؤملاً في الأواء ، وكنت قد نشأت في معقل من الأمن والوفور ، محمداً بسور من الأمن والستر ، حتى أرسل إلي سلطان القفر رسولاً من نوب الدهر ، يريد استقرالي إليه وخضوعي بين يديه ... »^٢ والفرق بين ابن دراج والجزيري هو ما ينتج عن التباعد بين الروية والمرعة ،

١ التصريح : ٢٠٥
٢ الذخيرة : ١/١ : ٤٥ = ٤٦

فقد كان ابن دراج مروياً لا ينشئ إلاّ بعد الجهد والكد ، وكان الجزيري على عكس ذلك ، وشاهد هذا قول الحميدي : « إن ابن أبي عامر لما فتح شنت ياقب أو غيرها استدعى كاتبه هذين وأمر بإنشاء كتب الفتح إلى الحضرة ، فأما ابن الجزيري فقال : سمعاً وطاعة ، وأما ابن دراج فقال : لا يتم لي ذلك في أقل من يومين أو ثلاثة ، وكان معروفاً بالتنقيح والتجويد والتؤدة »^١ . ويستطيع القارئ أن يقارن بسهولة بين ما مر من أسلوب ابن دراج وبين قول الجزيري في كتاب كتبه عن المنصور يعاتب فيه جنده لنكوصهم عن المحاربة في بعض غزواته : « وكثيراً ما فرط من قولكم إنكم تجهلون قتال المعقل والحصون وتشتاقون ملاقة الفحول ، فحين جاءكم سانجه Sancho بالأمنية وقاتلكم بالشريطة أنكرتم ما عرفتم ونافرتم ما ألنتم حتى فررتم فرار اليعاقير من آساد الغيل وأجفلتم إجفال الرئال من المقتنصين ، ولولا رجال منكم رحضوا عنكم العار وحرروا رقابكم من الذل لبرئت من جماعتكم وشملت بالموجدة كافتكم »^٢ . وهذا الأسلوب في رأي أليق بالمقام ، ولكن التنوق في الكتابة غلب حتى على الرسائل الديوانية ، وابتليت الكتابة الأندلسية بشدة الزخرف بعد هذا العصر حتى أصبح التعبد للمحسنات أمراً بارزاً . ويقف ابن برد وسطاً بين هذين الكاتبين في أسلوبه فليس لديه استرسال الجزيري ولا حوك ابن دراج وإنما لديه تعمّل وازدواج ، وما وصلنا من رسائله فكله من نماذج الرسائل الديوانية^٣ .

وجاءت بعد هؤلاء طبقة ابن شهيد ومن أدرك زمان الفتنة وحضر جانباً من العصر التالي ، وتميزت طرائق هؤلاء الكتاب ، فكان ابن زيدون مكثرأ

١ الجذوة : ١٠٤

٢ أعمال الأعلام : ٧٢

٣ الذخيرة ١/١ : ٨٤ وما بعدها .

من الاقتباسات والتلميحات والإشارات ، يبني الرسالة - كالرسالة الهزلية - من محفوظه . وكان ابن حيان خير من يمثل النثر الأندلسي لاعتماده على نفسه في حوك العبارة وبنائها على الحدة والعنف وكثرة المتعاطفات وترتيبها على نحو خاص والإغراب في الاشتقاقات . وظل ابن حزم الفقيه يعتمد البساطة في التعبير ويبعد عن الزينة اللفظية والسجع ولا يهتم بتطرية الأسلوب بل يرسله إرسالاً دون التفات إلى حلاوة الجرس . أما ابن شهيد فلم يلتزم أسلوباً واحداً فهو حيناً يحاكي عبد الحميد وحيناً آخر يذكرنا بالجاحظ ، غير أنه شديد الإعجاب بطريقة البديع وكأنما أنشأ رسالته في صفة البرد والنار والحطب ورسالته في الحلواء ليحاكي المقامات . وهو مفتون بقدرة البديع على الوصف ، كما هي الحال في وصف الدينار ، فهو يسرف في محاكاة هذا اللون كثيراً كقوله في الثعلب : « أدهى من عمرو ، وأفتك من قاتل حديفة بن بدر ، كثير الوقائع في المسلمين ، مغرى بإرارة دماء المؤذنين ، إذا رأى فرصة انتهزها ، وإذا طلبته الكمأة أعجزها ، وهو مع ذلك بقراط في إدامه ، وجالينوس في اعتدال طعامه ، غداؤه حمام أو دجاج ، وعشاؤه تدرج أو دراج »^١ ، ومن هذه الباب وصف البرغوث ووصف الفالوج وغير ذلك ... وقد أثر بديع الزمان أيضاً في نثر أبي المغيرة ابن حزم فله رسالة يعارض فيها إحدى رسائل البديع^٢ . وأبو المغيرة من اسمح كتّاب الأندلس طبعاً في النثر ، هذا على أنه يقيد نفسه بالسجع في أكثر رسائله . ولا ريب في أن الرسائل المتبادلة بينه وبين ابن عمه الفقيه في أمر شجر بينهما إنما هي على حظ عالٍ من البلاغة^٣ .

١ الذخيرة ١/١ : ٢٣٥

٢ الذخيرة ١/١ : ١١٧

٣ انظر الذخيرة ١/١ : ١٢٦

وأكثر هؤلاء الكتاب يوشحون رسائلهم بالشعر ويحلون فيها الأبيات ،
ويقتبسون الأمثال ، كما أن أكثرهم يلحق بالعصر التالي ، عصر ملوك الطوائف .

اهم الآثار النثرية في هذا العصر

أكثر الكتب التي تتصل بهذا العصر إنما هي في التراجم . فأما الكتب
الأدبية فأهمها ثلاثة : العقد لابن عبد ربه ورسالة التوابع والزوابع لابن شهيد
وطوق الحمامة لابن حزم . فأما الأول فالصورة الأندلسية فيه باهتة كما أنه
يقوم على الجمع ، ويتبقى الكتابان الآخران وهما يستحقان منا وقفة في هذا
المقام :

١ - رسالة التوابع والزوابع

اسمها أيضاً « شجرة الفكاهة » ، ولم تصلنا كاملة وإنما وصلتنا منها
مقتطفات أوردها ابن بسام في الذخيرة ، وقد خاطب بها كاتبها صديقه أبا
بكر ابن حزم حينما تساءل معجباً ببلاغة صديقه : « كيف أوتي الحكم صبياً
وهزاً يجذع الكلام فاسأقط عليه رطباً جنيئاً » . وحاول ابن شهيد أن يعلل
ذلك في مطلع الرسالة بأنه ، وإن كان قليل الاطلاع ، ذو موهبة طبيعية .
وسمى هذه الموهبة ، كما كان قدماء العرب يسمون شياطين الشعر ، جنيئاً
تابعاً له كان يلهمه ويثير القول على لسانه ويخدمه في كل حال ويعينه إذا أرتج
عليه . وكانت « كلمة السر » بينهما أن ينشد :

والي زهيرَ الحبِّ يا عَزَّ إنَّهُ إذا ذكرتُهُ الذَّاكراتُ أتاها
إذا جَرَّتِ الأفواهُ يوماً بذكرها يُخَيَّلُ لي أنِّي أُقبِلُ فإها
فأغشَى ديارَ الذَّاكرينَ وإن نأتُ أجارِعَ مِن داري هوَى لهاها

فيحضر عندئذ صاحبه زهير بن نمير ، وهو مثله أشجعي ، ومعنى هذا أن كل قبيلة في الإنس لها ما يقابلها عند الجن ، وهؤلاء الجن - حسب وصف ابن شهيد - ليسوا جميعاً قباح الصور ، بل هم ربما كانوا مخلوقين على حسب الصور التي يمثلونها من بني الإنس ، ولذلك كان فيهم من هو على شكل الحمار والبغل والإوزة لأن الإنس في طبائعهم هذه الأشكال نفسها . ولما تنقل هو في أرض الجن مصاحباً لزهير لقي التابعين للأموات كما لقي التابعين لبعض الأحياء . أما أرض الجن فإنه يقول إنها ليست كأرضنا ، وجوها ليس كجونا ، ومع ذلك فإنه لا يميزها بشيء خاص ، بل نرى فيها أشجاراً متفرعة وأزهاراً عطرة وأكثر مناطقها كذلك من حيث المناظر وليس فيها ما يفردا عن ديار الإنس ، بل إن المشابهة بين كل شاعر وتابعه تجعل المشابهة متوفرة بين بيتيهما ، فهناك مثلاً ذات الأكيراح في دار الإنس وهناك واحدة مثلها في ديار الجن .

ولما سأله زهير بمن يريد أن يبدأ عند زيارة تلك الديار أجاب بأن الخطباء أولى بالتقديم ولكنه إلى الشعراء أشوق ، وهذا حكم عجيب يدل على أن الخطباء في رأي ابن شهيد الناقد مقدمون على الشعراء ، وكلمة « الخطباء » هذه تعني الناثرين لأنه حين يتقدم للقاء من يسميهم الخطباء يلقي تابعي عبد الحميد وابن المقفع والملاحظ وبديع الزمان .

وقد لقي من الشعراء صاحب امرئ القيس وطرفة وقيس بن الخطيم . أما امرؤ القيس - أو صاحبه - فظهر على فرس شقراء كأنها تلتهب ، وأما صاحب طرفة فإنه كان عند منظر طبيعي متميز : « وركضنا حتى انتهينا إلى غيضة شجرها شجران : سام يفوح بهاراً وشجر يعبق هندياً وغاراً ، فرأينا عيناً معينة تسيل ويدور ماؤها فلكياً ولا يحول . . . فبدا إلينا راكب جميل الوجه قد توشح السيف واشتمل عليه كساء خز ويده خطي » . ويرسم ابن شهيد لكل

شاعر صورة حسبما تخيله أو تأثر به من شعره .

وقد اكتفى بمقابلة ثلاثة من شعراء الجاهلية وانتقل من بعدهم إلى لقاء المحدثين ولم يأبه بالوقوف على واحد من شعراء صدر الإسلام والدولة الأموية وأغلب الظن أنه لا يقابل إلاّ من تربطهم به رابطة من محاكاة أو معارضة . وبدأ من المحدثين بأبي تمام فصوره صورة عجيبة حين جعل صاحبه يسكن تحت الماء ، وأنه إنّما يفعل ذلك حياء من التحسن باسم الشعر وهو لا يحسنه ، وهذا حكم عجيب . وقد زعم ابن شهيد أن أبا تمام استنشده فلم ينشده اجلالاً ، ثم أنشده فأكره ، وأوصاه أبو تمام وصية جيدة ، كما كان يوصي تلميذه البحرزي ذات يوم ، فقال : « فإذا دعيتك نفسك إلى القول فلا تكذباً قريحتك فإذا أكلت فجمام ثلاثة لا أقل ونقح بعد ذلك » . وأيضاً من العجيب أن تصدر مثل هذه الوصية عن أبي تمام ، وشعره يقوم على كد القريحة والتحليل عليها بمختلف الوسائل . وفي مقابلته للبحرزي نرى هذا الشاعر وقد امتلأ حسداً لابن شهيد ، وهي إشارة إلى أن الشاعر الأندلسي تفوق على « أبي الطبع » المشرفي . أمّا الصورة التي وجد عليها أبا نواس فهي مشتقة من شعره ، وتمثل بيئة مسيحية فيها النوايس والراهبين والكنائس والأديرة والحانات وأبو نواس سكران منذ أيام عشرة « ونزلنا وجاءوا بنا إلى بيت قد اصطفت دنانه وعكفت غزلانه وفي فرجته شيخ طويل الوجه والسبلة قد افترش أضغاث زهر واتكأ على زق خمر ويده طرجهارة وحواليه صبية كأظب تعطو إلى عرارة » . وقد نوع ابن شهيد الانشاد أمام أبي نواس فأنشده خميرية ومرثية في ابنته ومرثية في ابن ذكوان وقصيدة من قصائد السجن وقطعة مجونية ، وأقر له عند سماع المجونية بقوله : « هذا والله شيء لم نلهمه نحن » . وأخيراً انتهى من الشعراء إلى أبي الطيب « وهو صاحب قصص . . . فارس على فرس بيضاء كأنه قضيب على كتيب ويده قناة قد أسندها إلى عنقه ، وعلى رأسه عمامة حمراء قد أرخى

لها عذبة صفراء ، واتهمه أبو الطيب بأنه يستعير من غيره « يتأول » ،
وأكبر أبا الطيب أن ينشده وأخذ هو يعرض عليه شعره فتنبأ له أبو الطيب بأنه
ستفجر عبقريته ولكنّه سيموت مبكراً . ويجدر بنا أن نتأمل موقفه أمام كل
واحد من هؤلاء الشعراء وكيف أقروا له ومنهم الجاهلي والمحدث ، وكيف
أنشدهم هو شعراً من معارضاته وشعراً مستقلاً غير مبني على المعارضة .

وإذا كان قد مر بالشعراء واحداً إثر واحد ، كل في بيئته الخاصة وعلى
هيئته التي تصورها - وفي هذا ما فيه من حركة تخيلية - فإنه لقي من بسميهم
الخطباء مجتمعين في مرج واحد سماه « مرج دهمان » . وقد بدأه صاحب
الجاحظ بأن كلامه الثري نظم لأنه مغرى بالسجع ، فاعتذر عن ذلك بأنه
لا يجهل فضل الماثلة والمقابلة ، ولكنّه عدم يبده فرسان الكلام ، وهنا
تصدى للنثر الأندلسي والنثرين فعايهم جملة وذكر أن كلامهم ليس لسبويه
فيه عمل ولا للفراهيدي إليه طريق ولا للبيان عليه سمة إنما هي لكنة أعجمية
يؤدون بها المعاني تأدية الجوس والنبط . وقد ردّ على صاحب الجاحظ بكلام
فيه مماثلة - أي على طريقة الجاحظ - فتنبه لذلك صاحب عبد الحميد ورماه
بالتقصير لو أطال ، فرد عليه بكلام مائل به طريقة عبد الحميد أيضاً وقرأ
لها رسالته في الحلواء على طريقة البديع فاستحسننا سجعها فيها .

وبعد أن جاز الامتحان بنجاح أمام صاحب عبد الحميد وصاحب الجاحظ
انتقل يومئذ إلى معاصريه الذين يعيونه فعدهم منهم ثلاثة أشدهم عليه أبو القاسم
ابن الإفليبي ، فاستدعى جنيته إلى الحضرة ورسم له صورة كاريكاتورية :
« جني أشمط ربعة وارم الأنف يتظالم في مشيته كاسراً بطرفه وزاويماً لأنفه » .
وهنا يعرض علينا ما كان بينه وبين ابن الإفليبي من خصومة إذ يتهمه ابن الإفليبي
بقلة الاطلاع ويريد مناظرته في كتاب سبويه وشرح ابن درستويه فيسخر
ابن شهيد من هذه الكتب . فيتصدى له ابن الإفليبي زاعماً أنه أبو البيان أي

الصفة التي يدعيها الشهيد لنفسه ، فيُفهمه ابن شهيد أن البيان شيء لا يعلمه المؤدبون وإنما يعلمه الله الناس وأنه لن يكون ذا شأن في البيان إلا حتى يقول نثراً مثل وصف ابن شهيد للبرغوث والثعلب .

ثم يعرض له صاحب بديع الزمان فيقترح عليه ممتحناً أن يصف جارية فيصفها ، ويطلب إليه ابن شهيد أن يسمعه البديع وصفه للماء فيقول البديع متحدياً : ذاك من العقم (أي يعجز عنه ابن شهيد) فيثور ابن شهيد ويولد للماء وصفاً جديداً فيغتاظ صاحب البديع ، ويضرب الأرض برجله فتفترج عن هوة واسعة يتدهدى فيها حتى يغيب أثره . ويستمر هو في تحدي ابن الافليلي بالشعر بعد النثر فتظهر عليه الكآبة . ويحاول بعض الجن أن يصلح بينهما فيلج ابن شهيد ويزعم أن ابن الافليلي يتعقبه كثيراً ويجعله موضعاً للتندر في مجالس الطلب . وأخيراً يقول له صاحب الجاحظ وصاحب عبد الحميد إنهما في حيرة من أمره ، أبعداً أنه شاعر أم خطيباً ، ثم يجيزانه بأنه شاعر خطيب ، ويزدهي أبو عامر حتى يقول في هذا الموقف : « وانفض الجمع والأبصار إلي ناظرة والأعناق نحوي مائلة » .

ذلك هو القسم الأول الذي وصلنا من هذه الرسالة ، وغاية أبي عامر فيه أن يعرض محاسن شعره ونثره مقيسةً إلى روائع بعض الجاهليين والمحدثين وكبار النثرين حتى بديع الزمان ، وأن يبرز هنالك تميزه على أهل بلده ، ويؤكد ابن الافليلي الذي كان التهكم به غاية من غايات هذه الرسالة . وقد غفل ابن شهيد أثناء ذلك عن كثير من مقتضيات الحال ، فلا نراه إلا على ظهر فرسه يقابل هذا أو ذاك فلا هو يستريح ولا يشعر بشيء من الظمأ ، ولا يدعى إلى طعام أو شراب (ولعل ديار الجن خالية منهما) وتتمثل له دنيا الجن على نحو ناقص لا تعمل فيه القوة الخيالية الخلاقة ، بل إنه ليصدم أذواقنا بشدة إعجابه بنفسه وازدهائه كلما أنشد قريضاً أو قرأ

ثراً ، وليس في هذا القسم أي فرع من شجرة الفكاهة .
 أما القسم الثاني الذي احتفظ به ابن بسام فإنه يدور أيضاً حول مشكلة
 أخذ المعنى الواحد وتداوله بين الشعراء ، مثلما كانت المشكلة الأولى تدور
 حول المقارنة بين المعارضات . ويورد ابن شهيد أولاً معنى تداوله كل من
 الأفوه والنابعة وأبي نواس وصريع وحبيب والمنتبي وذلك هو معنى أن الطير
 تراقق المدوح لعلمها بانتصاره فتشبع من لحوم القتلى . وتدور محاوره حول
 المفاضلة بين هؤلاء الشعراء في ذلك المعنى عينه ، وهنا تفتق قريحة ابن شهيد
 فيتخذ لنفسه تابعاً آخر - عدا زهير - يسميه فاتك بن الصقعب ثم يستعرض
 معنى آخر أورده امرؤ القيس في قوله :

سموت إليها بعدما نام أهلها سموّ حباب الماء حالاً على حالٍ

وكيف حاوله عمر بن أبي ربيعة فأخفق ، وهنا يستمع ابن شهيد إلى نصيحة
 غالية تقول : « إذا اعتمدت معنى قد سبقك إليه غيرك فأحسن تركيبه
 وأرق حاشيته فاضرب عنه جملة وان لم يكن بد فني غير العروض التي تقدم
 إليها ذلك المحسن لتنشط طبيعتك وتقوى منتك » . ثم يقدم لنا نماذج من شعره
 جاذب بها المنتبي وهو معجب بكل ما يصنع ، ويسمعه شخص آخر من الجح
 فيسأله محقراً : « على من أخذت هذا الزمير ؟ » ويتحداه بأمثلة أخرى من
 شعر أبي الطيب فيرد عليه ابن شهيد بقصائد له معارضاً فإذا عرف الجحني أنه
 من أسرة أكثرها شعراء حلف أن لا يعرض له أبداً ، وقلّ واضمحل .
 أمّا هذا الجحني فاسمه فرعون بن الجحون وهو تابع رجل كبير في قرطبة . وعند
 هذه المرحلة يبلغ إعجاب الشهيدي بنفسه ذروته ، فمن قبل كان تلميذاً
 للمنتبي يتهيب الانشاد بين يديه ، أمّا وقد غاب المنتبي فلم يعجبه أن يتعصب
 أحد من أهل بلده للمنتبي ويفضله عليه بل يرى في نفسه شاعراً لا يقع دون

أبي الطيب في أحسن معانيه وأسيرها . وإذا كان الشعر هو إجادة المعارضة وإجادة الأخذ فقد حاز ابن شهيد في المرتين قصب السبق ، وظن أن ذلك يغنيه عن الأصالة بل ظن أن طريقه تلك هي الأصالة عينها ، وبذلك ينتهي القسم الثاني .

وفي القسم الثالث - وهو ما تبقى من الرسالة - منظران أولهما مفاضلة بين شعرين لحمارٍ وبغلٍ من عشاق الجن ، والثاني منظر إوزة تسمى العاقلة ، والمنظران قائمان على التندرّ بشخصين معروفين عند أبي عامر مجهولين عندنا وهما من أهل بلده ، أما في المنظر الأول فهناك بغلة ترضى بحكم أبي عامر في المفاضلة بين شعر البغل والحمار ثم تقرب لتعرفه بنفسها وتقول له : أنها بغلة أبي عيسى ، وتسأله : ماذا فعل الأحبة بعدي ؟ فيقول لها : « شب الغلمان وشاخ الفتيان وتنكرت الخلان ومن إخوانك من بلغ الإمارة وانتهى إلى الوزارة . ولا يخفى ما في هذا الكلام من تهكم بطبقة من اللدات عرفها أبو عامر بقرطبة . وأما الإوزة فإنها أيضاً تابعة شيخ من شيوخ قرطبة وقد رمز له بالإوزة لأنها صغيرة الرأس مشهورة بالحرق محرومة من عقل الطبيعة وقد وصفها بالكبر وادعى أنها أهمته بأنه لا يحسن شيئاً من النحو والغريب ؛ ومرة أخرى نعود إلى مثل موقف ابن الأفلح إذ يطلب إليها ابن شهيد أن تحاوره فيما يحسنه من البيان لا فيما ليس يحسنه .

وفي هذه الرسالة كشف أبو عامر عن كثير من آرائه في النقد وصوّر الصراع بين الموهبة وسعة الاطلاع ، وقدم خير ما يختاره من نظمه ونثره مبنياً في أكثره على المعارضة والأخذ ومزج كل ذلك بشيء من التخيل وقسط قليل من الفكاهة وكمية كبيرة من العجب والعنف .

اجتمعت لهذا الكتاب فنون من العناصر ميزته بين غيره من الكتب الأندلسية ، منها أنه كتاب في الحب يكتبه فقيه من فقهاء الأندلس كان شديد العارضة في المدافعة عن الدين ، وقد صرف حياته في المجادلات الفقهية العنيفة ، فتخصيصه شيئاً من وقته للحديث في هذا الموضوع مما يستوقف النظر . وقد كان يحس وهو يكتبه أن بعض المتعصبين سينكرون عليه تأليفه ويقولون إنه خالف طريقته ونجافى عن وجهته فقال : وما أحل لأحد أن يظن في غير ما قصده ، قال الله عز وجل ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ﴾ . وصرح أنه لا يجب المراءاة ولا أن ينسك نسكاً أعجيباً . ومنها الطريقة التي اتبعها ابن حزم في هذا الكتاب ، فقد ألف شيخه ابن داود الأصفهاني كتاب الزهرة وجمع فيه أشعار الحب وخط ذلك بشيء من أشعاره الخاصة ، أما ابن حزم فقد تقدم استاذة خطوات كثيرة ، حقاً إنه استغل هذا الكتاب ليعرض فيه أشعاره الغزلية في مواقف متنوعة ، كما فعل صديقه ابن شهيد في التوابع والزوابع ولكن ذلك لم يكن هو غايته الأولى من الكتاب بل كانت غايته الكبرى هي رسم صورة واقعية من حياته هو ومن حياة الناس ببلده حول موضوع واحد هو « الحب » ، مخفياً أسماء بعض الأشخاص حيناً مصرحاً بها في أحيان كثيرة ، وهذه الناحية من الكتاب هي أقوى ما فيه ، لأنها تضمنت اعترافاته الذاتية وتجاربه وتجارب من حواه في شؤون عاطفية ، فكان ذلك من أجمل ما سجلته كتب التراجم العربية في هذا الباب ، فالكتاب من بعض نواحيه « ترجمة ذاتية » تصور شجاعة صاحبها في الحديث عن نفسه وعن مجتمعه ، كما تدل على نوع دقيق من الاستبطان النفسي ، ومن دراسة عارضة لنفسيات الآخرين . ثم إن هذا الكتاب يحتوي نظرة في الحب تشبه أن

تكون مفلسفة أفلاطونية ، وهي نوع من الحب العذري لم يكن كثير الشيوخ في الشعر الأندلسي من قبل ، فشرح الحب على هذه الطريقة حدث هام في الأدب الأندلسي جعل بعض الباحثين من المستشرقين يعقد الصلة بين هذه النظرة الأندلسية وما طرأ من تغير على شعر الحب في أوروبا في القرن الثاني عشر ، وإلى كتاب طوق الحمامة يشير المشيرون حين يتحدثون عن هذا الأثر .

ولا نستطيع أن نعين بالضبط متى كتب ابن حزم كتاب الطوق ، ولكنه ألفه فيما يبدو بعد خروجه من قرطبة بوقت غير طويل ، إذ لا تزال حسرته على دياره ومعاهده التي خربها البربر حية قوية ، كما أنه يتحدث فيه عن مشاهداته في مدن الأندلس المختلفة ، مما يدل على أنه ربما بدأ بكتابته بعيد استقراره النهائي واعتزاله الحياة السياسية ، وهذا لم يتم قبل سنة ٤١٩ ، ويفصح أنه حين كتبه كان يسكن شاطبة وأن كتاباً لأحد أصدقائه وصله من المرية ، ثم جاءه صديقه زائراً وكلفه أن يصنف له رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأغراضه ، فتكلف التأليف إرضاء لصديقه ، وأخذ على نفسه ألا يقص قصص الأعراب والمقدمين « فسيلهم غير سيلنا ، وقد كثرت الأخبار عنهم ، وما مذهبي أن أنضي مطية سواي ولا أتخلّي بحلي مستعار » .

وقسم ابن حزم رسالته هذه على ثلاثين باباً :

عشرة منها في أصول الحب ، كعلاماته والحب في النوم والحب بالوصف والحب من نظرة واحدة والتعريض بالقول والإشارة بالعين والمراسلة بالكتاب والسفير - وفي هذا الترتيب نلمح التدرج من أخف أصول الحب - كالحب في النوم - إلى أقواها صلة في الواقع ، ثم كيف يتدرج من التعريض إلى الإشارة إلى المراسلة إلى السفارة .

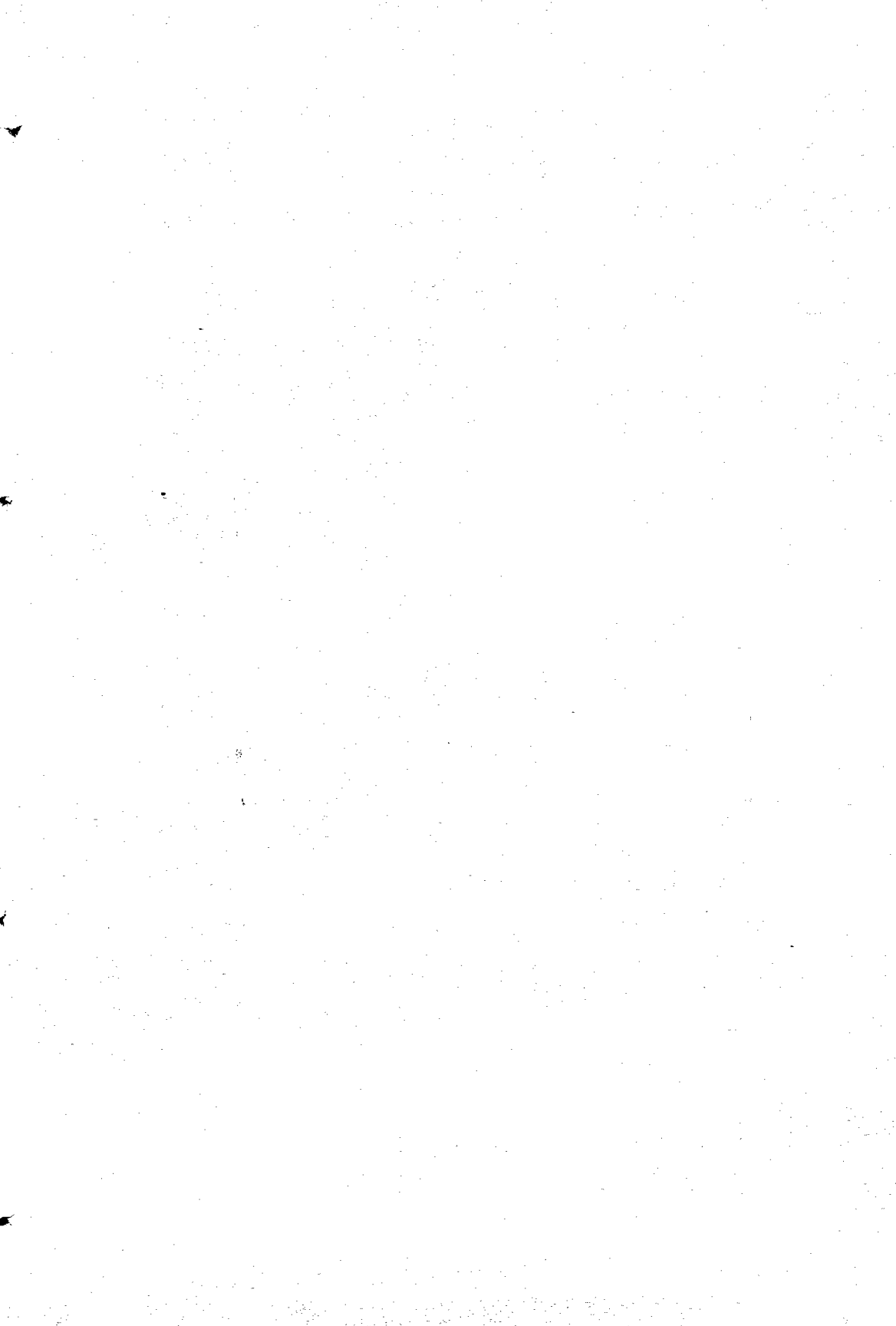
اثنا عشر في أعراض الحب وصفاته محمودها ومذمومها - وهو يقرن كل صفة بما يناقضها فإذا تحدث عن كتمان السر شفعه بالحديث عن الكشف

والإذاعة ، وإذا تحدث عن الطاعة الحقها بالكلام في المخالفة ، وشفح
الوفاء بالحديث عن الغدر وهكذا .

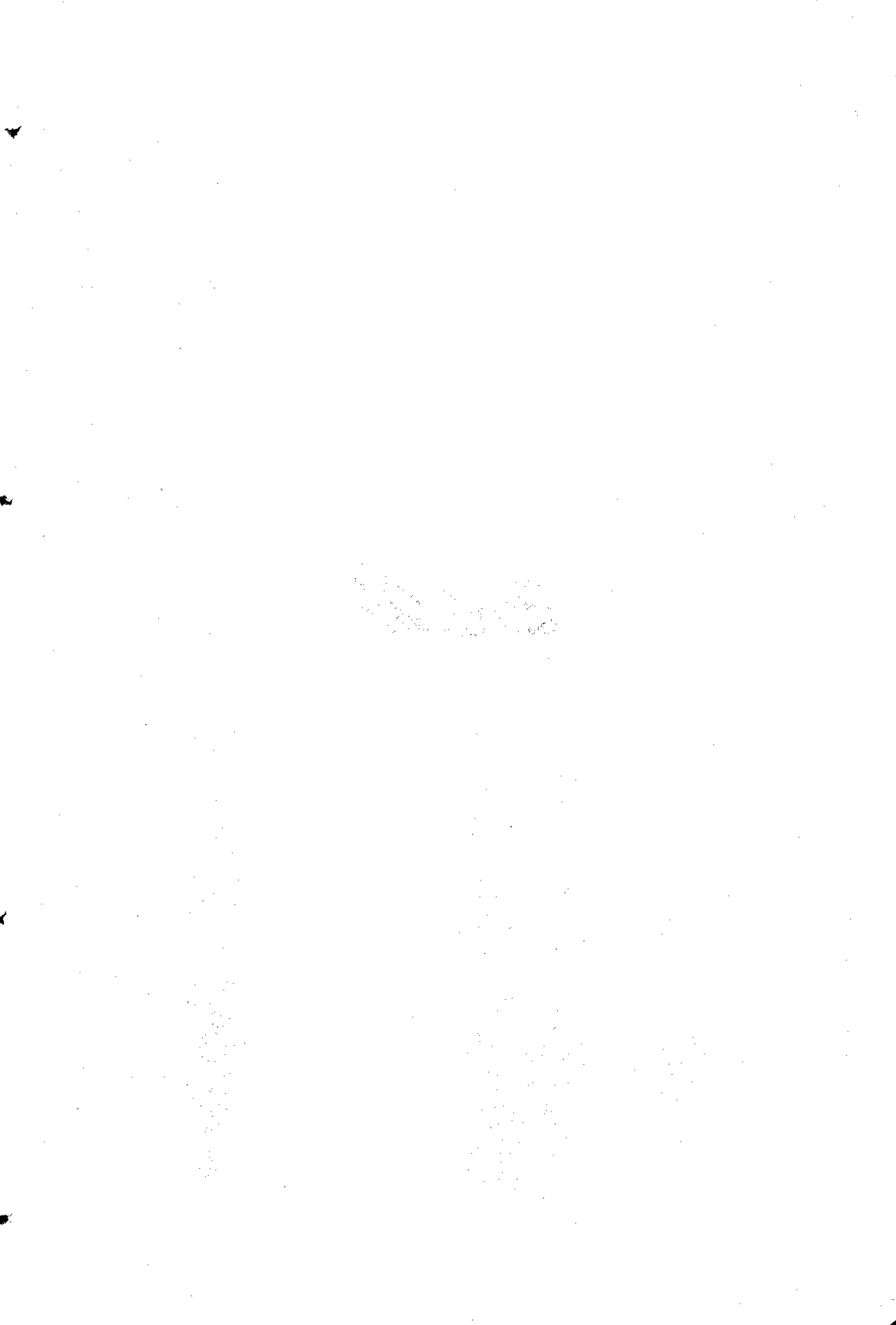
سنة أبواب في الآفات الداخلة على الحب وهي العاذل والرقيب والواشي
- وهؤلاء كلهم ذوات - ثم المهجر والبين والسلو - ومرة أخرى نجد
هذا التدرج المتصاعد في تصوير هذه الآفات .

خاتمة في بابين تحدث فيهما عن قبح المعصية وعن فضل التعفف لكي يقرن
الحب بروح التدين ويكون كلامه فيه داخلاً في باب الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر .

فالرسالة من حيث التوبيخ محكمة البناء ، ولكن ابن حزم يوسع فيها
من مدلول الحب ، وفي معرض الاستشهاد يقص قصصاً عن الصداقة مثلاً .
وقد يحكي في بعض الأحيان حكايات من الأدب المكشوف ، وهي قليلة
في الكتاب ، ثم هو يبالي في استطراف شعره ، وربطه بالأحداث التي يقصها ،
وفي كثير من الأحيان لا يكون شعره إلاً كلاماً منظوماً ، فيصنع مقارنة غير
ملائمة مع الحكايات المروية . ويتبسط أحياناً في الشرح والتفصيل حتى يخرج
إلى تقرير أمور بديهيّة مستغنى عنها . ومع ذلك كله فإن هذه العيوب لا تغض
كثيراً من قيمة الكتاب ، وقد كتبه مؤلفه في أسلوب حي دون أن يلجأ إلى
التزييق اللفظي أو التصنع ، ولو قارناه بالتواضع والزواج لفضلناه لسهولة
طبيعت ، وجريان أسلوبه المسترسل ، ولم نجد فيه جلبة لفظية ، هذا إلى ما
فيه من خصائص الكاتب المتأمل في الحياة والناس ، وهو شيء لا يحسنه امرؤ
مصعب بذاته مثل ابن شهيد .



مباحثات



١ - رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها

لابن حزم

« هكذا ساءها ابن خير في فهرسته : ٢٢٦ وسميت أحياناً « بيان فضل الأندلس وذكر علمائه » .
أوردها المقرئ في النسخ ٢ : ٧٦٧ وذكر أن الحسن بن محمد التميمي القيرواني كتب إلى أبي المغيرة
ابن حزم رسالة يذكر فيها تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضلائهم وسير ملوكهم ،
وأطلع أبو محمد على هذه الرسالة فرد عليها بعد وفاة القيرواني ، ويفهم من كلام ابن الأبار في
التكملة : ٣٨٨ أنه كتبها بطلب من محمد بن عبد الله الفهري بمن الدولة رئيس قاعة البونت من أعمال
بلنسية ، وذكر الحميدي أنه خاطب بها أبا بكر بن إسحاق صديقه الحميم (الجذوة : ٤٢) وتدل
بمقدمة الرسالة على أنه قام بالأمرين معاً فاستجاب لطلب بمن الدولة وخاطب أبا بكر » .

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله وعلى
أصحابه الأكرمين ، وأزواجه أمهات المؤمنين ، وذريته الفاضلين الطيبين .

١ - أما بعد يا أخي يا أبا بكر^١ سلام عليك ، سلام أخ مشوق طال
بينه وبينك الأميال والفراسخ ، وكثرت الأيام والليالي ، ثم لقيك في حال
سفر ونقلة ، ووادك في خلال جولة ورحلة ، فلم يقض من مجاورتك أرباباً ،
ولا بلغ في محاورتك مطلباً ، وإني لما احتلت بك ، وجات يدي في مكنون
كتيبك ، ومضمون دواوينك ، لمحت عيني في تضاعيفها درجاً فتأملت ، فإذا
فيه خطاب لبعض الكتاب من مصابيننا^٢ في الدار ، أهل إفريقية ، ثم ممن

١ هو أبو بكر محمد بن إسحاق صديق ابن حزم ، والمتنقل معه في الأندلس ، والمتنقل معه على
يد خيران (انظر الجذوة : ٤٢ وطوق الحمامة في صفحات متفرقة) .

٢ النسخ : مصابيننا .

ضمته حضرة قيروانهم ، إلى رجل أندلسي لم يعينه باسمه ، ولا ذكره بنسبه^١ ، يذكر له فيها أن علماء بلدنا بالأندلس ، وإن كانوا على الذروة العليا من التمكن بأفانين العلوم ، وفي الغاية القصوى من التحكم على وجوه المعارف ، فإن مهمهم قد قصرت عن تخليد مآثر بلدهم ، ومكارم ملوكهم ، ومحاسن فقهاءهم ، ومناقب قضائهم ، ومفاخر كتابهم ، وفضائل علمائهم ، ثم تعدى ذلك إلى أن أخلى أرباب العلوم منا من أن يكون لهم تأليف يحمي ذكركم ، ويبقي علمهم ، بل قطع على أن كل واحد منهم قد مات فدفن علمه معه ، وحقق ظنه في ذلك ، واستدل على صحته عند نفسه ، بأن شيئاً من هذه التأليف لو كان مناً موجوداً لكان إليهم منقولاً ، وعندهم ظاهراً ، لقرب المزار وكثرة السفار ، وترددنا^٢ إليهم ، وتكررهم علينا .

٢ - ثم لما ضمنا المجلس الحافل بأصناف الآداب ، والمشهد الآهل بأنواع العلوم ، والقصر المعمور بأنواع الفضائل ، والمنزل المحضوف بكل لطيفة وسبعة من دقيق المعاني وجليل المعالي ، قرارة المجد ومحل السؤدد ، ومحط رحال الخائفين ، وملقى عصا التسيار ، عند الرئيس الأجل الشريف قدومه وحسبه ، الرفيع حديثه ومكتسبه ، الذي أجله عن كل خطة يشركه فيها من لا توازي قومته وتومته ، ولا ينال حضرة^٣ هويناه ، وأرباباً به عن كل مرتبة يلحقه فيها من لا يسمو إلى المكارم سموه ، ولا يدنو من المعالي دنوه ، ولا يعلو في حميد الحلال علوه ، بل أكتفي من مدحه باسمه المشهور ،

١ هذا عجيب فقد صرح ابن بسام أن أبا علي ابن الربيب القروي كتب إلى أبي المنيرة ابن حزم رسالة بهذا المعنى وأن أبا المنيرة رد عليه برسالة أطال فيها القول وختمها بذكر جملة من تواليف أهل الأندلس . النخبة ١/١ : ١١١ - ١١٦ ، وهذا هو عين ما قاله صاحب النفع

٧٦٦ : ٢

٢ النفع : وترددهم .

٣ الحضرة : سرعة الجري .

وأجتري من الإطالة في تقريظه بمتماه المذكور ، فحسبي بذينك العلمين
دليلاً على سعيه المشكور وفضله المشهور ، أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن
قاسم صاحب البونت^١ ، أطال الله بقاءه ، وأدام اعتلاءه ، ولا عطل الحامدين
من تحليهم بحلاه ، ولا أخلى الأيام من تزينها بعلاه ، فرأيته أعزه الله تعالى
حريصاً على أن يجاوب هذا المخاطب وراغباً في أن يبين له ما لعله قد رآه
فنسي ، أو بعد عنه فخفي ، فتناولت الجواب المذكور ، بعد أن بلغني أن ذلك
المخاطب قد مات ، رحمتنا الله تعالى وإياه ، فلم يكن لقصده بالجواب معنى ،
وقد صارت المقابر له مغنى ، فلسنا بمسمعين من في القبور ، فصرفت عنان
الخطاب إليك ، إذ من قبَلِكَ صرت إلى الكتاب المجاوب عنه ، ومن
لذلك وصلت إليّ الرسالة المعارضة ، وفي وصول كتابي على هذه الهيئة حيثما
وصل كناية لمن غاب عنه من أخبار تأليف أهل بلدنا ، مثلما غاب عن هذا
الباحث الأول ، والله الأمر من قبل ومن بعد ، وإن كنت في إخباري إياك
بما أرسمه في كتابي هذا « كهدى إلى البركان نار الجباب » ، وباني صوّى
في مهيع القصد اللاحب ، فإنّك وإن كنت المقصود والمواجه فإنّما المراد
من أهل تلك الناحية من نأى عنهم عِلْمٌ ما استجلبه السائل الماضي ، وما
توفيتي إلاّ بالله سبحانه .

٣ - فأما مآثر بلدنا فقد ألف في ذلك أحمد بن محمد الرازي^٢ التاريخي
كتباً جمّة منها كتاب ضخّم ذكر فيه مسالك الأندلس ومراسيها وأمّهات

١ البونت : قرية من أعمال بلنسية ، استقل فيها بنو قاسم بعد الفتنة وأولهم عبد الله بن قاسم
الذي توفي سنة ٤٢١ وخلفه ابنه محمد الملقب بيمين الدولة ، وبقي فيها والياً حتى ٤٣٤ (أعمال
الأعلام : ٣٠٨)

٢ الجندوة : ٩٦ - ٩٧ وطبقات الزبيدي : ٣٢٧

مدنها وأجنادها الستة^١ ، وخواص كل بلد منها ، وما فيه مما ليس في غيره ، وهو كتاب مريح مليح . وأنا أقول لو لم يكن لأندلسنا إلا ما رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر به ، ووصف أسلافنا المجاهدين فيه ، بصفات الملوك على الأسرة ، في الحديث الذي رويناه من طريق أبي حمزة أنس بن مالك أن خالته أم حرام بنت ملحان ، زوج أبي الوليد عبادة بن الصامت ، رضي الله تعالى عنه وعنهم أجمعين ، حدثته به عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أخبرها بذلك لكفى شرفاً بذلك ، يَسْرُءُ عاجله ويقبط آجله . فإن قال قائل : لعله صلوات الله تعالى عليه إنما عنى بذلك الحديث أهل صقلية واقريطش ، وما الدليل على ما ادعيت من أنه صلى الله عليه وسلم عنى الأندلس حتماً ، ومثل هذا من التأويل لا يتساهل فيه ذو ورع دون برهان واضح وبيان لائح ، لا يحتمل التوجيه ، ولا يقبل التجريح . فالجواب ، وبالله التوفيق ، أنه صلى الله عليه وسلم قد أوتي جوامع الكلم وفصل الخطاب ، وأمر بالبيان لما أوحى إليه ، وقد أخبر في ذلك الحديث المتصل سنده بالعدول عن العدول بطائفتين من أمته يركبون ثبج البحر غزاة واحدة بعد واحدة ، فسألته أم حرام أن يدعو ربه تعالى أن يجعلها منهم ، فأخبرها صلى الله عليه وسلم ، وخبره الحق ، بأنها من الأولين ، وهذا من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم ، وهو إخباره بالشيء قبل كونه ، وصح البرهان على رسالته بذلك ، وكانت من الغزاة إلى قبرس ، وخرت عن بقلتها هناك ، فتوفيت رحمها الله تعالى ، وهي أول غزاة ركب فيها المسلمون البحر ، فنبت يقيناً أن الغزاة إلى قبرس هم الأولون الذين بشر بهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت أم

١ لعله يعني الأجناد التي نزلت الأندلس في طالعة بلج التشيري وفرقها أبو الخطار على الكور . انظر النفع ١ : ١١٢ والإحاطة ١ : ١٠٩ .

حرام منهم ، كما أخبر صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، ولا سبيل أن يظن به ، وقد أوتي ما أوتي من البلاغة والبيان ، أنه يذكر طائفتين قد سمى إحداهما أولى ، إلا والتالية لها ثانية ، فهذا من باب الإضافة وتركيب العدد ، وهذا مقتضى طبيعة صناعة المنطق ، إذ لا تكون الأولى أولى إلا لثانية ، ولا الثانية ثانية إلا لأولى ، فلا سبيل إلى ذكر ثالث إلا بعد ثانٍ ضرورة ، وهو صلى الله عليه وسلم إنتما ذكر طائفتين ، وبشر بفتين ، وسمى إحداهما الأولين ، فاقضى ذلك بالقضاء الصدقِ آخرين ، والآخر من الأول هو الثاني الذي أخبر صلى الله عليه وسلم أنه خير القرون بعد قرنه ، وأولى القرون بكل فضل بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه خير من كل قرن بعده . ثم ركب البحر بعد ذلك أيام سليمان بن عبد الملك إلى القسطنطينية ، وكان الأمير بها في تلك السفن هبيرة الفزاري ، وأما صقلية فإنها فتحت صدر أيام الأغالبة سنة ٢١٢ ، أيام قاد إليها السفن غازياً أسدُ بن القرات القاضي صاحب أبي يوسف رحمه الله تعالى ، وبها مات ، وأما اقريطش فإنها فتحت بعد الثلاث والمائتين ^١ ، افتتحها أبو حفص عمر بن شعيب ^٢ ، المعروف بابن الغليظ ^٣ ، من أهل قرية بطروج ^٤ ، من عمل فحص البلوط ، المجاور لقرطبة من بلاد الأندلس ، وكان من فلّ الربضيين ، وتداولها بنوه بعده إلى أن كان آخرهم عبد العزيز بن شعيب الذي غنمها في أيامه أرماتوس بن قسطنطين ملك الروم سنة

١ الجذوة : بعد الثلاثين والمائتين .

٢ ترجمته في الجذوة : ٢٨٢ وقد نقل الحميدي ما قاله ابن حزم .

٣ الجذوة : المعروف بالغليظ .

٤ ويقال : بطروش ، وهو حصن شامخ الحصانة من أعمال قرطبة ويحيط البلوط بجباله وسهوله ، وأهلها يحفظونه ، ويستعينون به على الغذاء في أيام الشدة .

٣٥٠ ، وكان أكثر المفتحين لها أهل الأندلس .

٤ - وأما في قسم الأقاليم فإن قرطبة ، مسقط رؤوسنا ومعقِّ تماثنا ، مع سرٍّ من رأى في إقليم واحد ، فلنا من الفهم والذكاء ما اقتضاه إقليمنا ، وإن كانت الأنوار لا تأتينا إلاّ مغرّبة عن مطالعها على الجزء المعمور . وذلك عند المحسنين للأحكام التي تدل عليها الكواكب ناقص من قوى ذلائلها ، فلها من ذلك ، على كل حال ، حظّ يفوق حظ أكثر البلاد ، بارتفاع أحد الثيرين بها تسعين درجة ، وذلك من أدلة التمكن في العلوم ، والنفاذ فيها عند من ذكرنا ، وقد صدق ذلك الخبر ، وأبانت التجربة ، فكان أهلها من التمكن في علوم القراءات والروايات ، وحفظ كثير من الفقه ، والبصر بالنحو والشعر واللغة والخبر والطب والحساب والنجوم ، بمكان رحب الفناء ، واسع العطن ، متنائي الأقطار ، فسيح المجال .

٥ - والذي نعاه علينا الكاتب المذكور ، لو كان كما ذكر ، لكننا فيه شركاء لأكثر أمهات الحواضر ، وجلائل البلاد ، ومتسعات الأعمال ، فهذه القيروان بلد المخاطب لنا ، ما أذكر أنني رأيت في أخبارها تأليفاً غير المغرب عن أخبار المغرب وحاشا تأليف محمد بن يوسف الوراق^١ ، فإنه ألف للمستنصر رحمه الله تعالى في مسالك إفريقية وممالكها ديواناً ضخماً ، وفي أخبار ملوكها وحروبهم والقائمين عليهم^٢ كتاباً جمّة ، وكذلك ألف أيضاً في أخبار تيهرت ووهران وتونس^٣ وسجلماسة ونكور والبصرة^٤ وغيرها

١ الجذوة : ٩٠ ، والبنية : ٣٠٤ والروافي ٥ رقم : ٢٢٢٧ .

٢ الجذوة : والغالين عليهم .

٣ الجذوة : وتنس .

٤ نكور مدينة في المغرب على ساحل البحر الأبيض ، والبصرة المعنية هنا موضع ببلاد المغرب أيضاً .

تأليف حسناً . ومحمد هذا أندلسي الأصل والفرع ، أبأوه من وادي الحجارة^١
ومدفنه بقرطبة وهجرته إليها ، وإن كانت نشأته بالقيروان .

٦ - ولا بد من إقامة الدليل على ما أشرت إليه هاهنا ، إذ مرادنا أن
نأتي منه بالمطلب ، فيما يستأنف ، إن شاء الله تعالى ، وذلك أن جميع المؤرخين
من أئمتنا السالفين والباقيين ، دون محاشاة أحد ، بل قد تيقننا إجماعهم على
ذلك ، متفقون على أن ينسبوا الرجل إلى مكان هجرته التي استقر بها ، ولم
يرحل عنها رحيل ترك لسكنائها إلى أن مات ، فإن ذكروا الكوفيين من
الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، صدروا بعلي وابن مسعود وحذيفة
رضي الله تعالى عنهم ، وإنما سكن علي الكوفة خمسة أعوام وأشهر^٢ ، وقد
بقي ٥٨ عاماً وأشهر^٣ بمكة والمدينة شرفهما الله تعالى ، وكذلك أيضاً أكثر
أعمار من ذكرنا . وان ذكروا البصريين بدأوا بعمران بن حصين ، وأنس
ابن مالك ، وهشام بن عامر ، وأبي بكر ، وهؤلاء : مواليدهم وعامة زمن
أكثرهم وأكثر مقامهم بالحجاز وتهامة والطائف ، وجمهرة أعمارهم خلت
هنالك . وان ذكروا الشاميين نوهوا بعبادة بن الصامت وأبي الدرداء وأبي
عبيدة بن الجراح ومعاذ ومعاوية ، والأمر في هؤلاء كالأمر فيمن قبلهم .
وكذلك في المصريين : عمرو بن العاص وخارجة بن حذافة العدوي ، وفي
المكيين : عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير^٣ ، والحكم في هؤلاء
كالحكم فيمن قصصنا ، فيمن هاجر إلينا من سائر البلاد ، فنحن أحقُّ به ،
وهو منّا بحكم جميع أولي الأمر منّا ، الذين إجماعهم فرض أتباعه ، وخلافه

١ تعرف أيضاً بمدينة الفرج بينها وبين طليطلة خمسة وستون ميلاً (الروض : ١٩٣) .

٢ علق ابن حجر على هذا بقوله : سوايه أربعة أعوام (الفتح ٢ : ٧٧٥) .

٣ هذا هو النظام الذي جرى عليه ابن سعد في الطبقات ، ولكن الأمر في ذلك يختلف عما يذهب
إليه ابن حزم ، فليس هناك من مترجم مثلاً يقول : إن علياً كوفي أو إن عمرأ مصري .

محرم اقتراه ، ومن هاجر منا إلى غيرنا فلا حظاً لنا فيه ، والمكان الذي اختاره أسعد به ، فكما لا ندع إسماعيل بن القاسم ، فكذلك لا ننازع في محمد بن هانيء سوانا ، والعدل أولى ما حُرِّصَ عليه ، والنَّصْفُ أَفْضَلُ ما دُعِيَ إليه ، بعد التفصيل الذي ليس هذا موضعه ، وعلى ما ذكرنا من الإنصاف تراضى الكل .

٧ - وهذه بغداد حاضرة الدنيا . ومعدن كل فضيلة ، والمحلة التي سبق أهلها إلى حمل ألوية المعارف ، والتدقيق في تصريف العلوم ، ورقة الأخلاق والنباهة والذكاء وحدة الأفكار ونفاذ الخواطر ، وهذه البصرة وهي عين العمور في كل ما ذكرنا : وما أعلم في أخبار بغداد تأليفاً غير كتاب أحمد بن أبي طاهر^١ . وأما سائر التواريخ التي ألفها أهلها ، فلم يخصصوا بلدتهم بها دون سائر البلاد ، ولا أعلم في أخبار البصرة غير كتاب عمر ابن شبة^٢ . وكتاب لرجل من ولد الربيع بن زياد المنسوب إلى أبي سفيان ، في خطط البصرة وقطائعها ، وكتابين لرجلين من أهلها يسمى أحدهما عبد القاهر ، كريزي النسب ، [في] صفاتها وذكر أسواقها ومحالها وشوارعها ، ولا أعلم في أخبار الكوفة غير كتاب عمر بن شبة^٣ ، وأما الجبال وخراسان وطبرستان وجرجان وكرمان وسجستان والسند والري وأرمينية وأذربيجان

١ أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور (- ٢٨٠) : ترجمته في معجم الأدباء ١ : ١٥٢ وتاريخ بغداد والفهرست ، وقد بقيت قطعة من كتابه تاريخ بغداد نشرها المستشرق هنري كلر بالزنكوغراف ١٩٠٨ وأعيد طبعها بمصر ١٣٦٨ هـ . وبقي من كتابه المنظوم والمنثور جزءان (القاهرة ، أدب ٥٨٧) .

٢ انظر ترجمة عمر بن شبة في معجم الأدباء ٦ : ٤٨١ ، والتهذيب ٧ : ٤٦٠ ، وبغية الوعاة : ٣٦١ . والكتاب الذي يشير إليه ابن حزم هو : أخبار أهل البصرة .

٣ ذكر السخاوي فيمن ألف في الكوفة : ابن مجالد ، وعمر بن شبة ، وأبا الحسين محمد بن جعفر التميمي الكوفي التحوي (الإعلان : ١٢٨) .

وتلك الممالك الكثيرة الضخمة فلا أعلم في شيء منها تأليفاً قصد به أخبار ملوك تلك النواحي وعلماؤها وشعرائها وأطبائها^١ ولقد تاقت النفوس إلى أن يتصل بها تأليف في أخبار فقهاء بغداد ، وما علمناه علم على أنهم العلية الرؤساء والأكابر العظماء . ولو كان في شيء من ذلك تأليف لكان الحكم في الأغلب أن يبلغنا كما بلغ سائر تأليفهم ، وكما بلغنا كتاب حمزة بن الحسن الأصبهاني في أخبار أصبهان^٢ ، وكتاب الموصلية وغيره في أخبار مصر ، وكما بلغنا سائر تأليفهم في أنحاء العلوم . وقد بلغنا تأليف القاضي أبي العباس محمد بن عبدون القيرواني في الشروط واعتراضه على الشافعي رحمه الله تعالى^٣ ، وكذلك بلغنا رد القاضي [عبد الله بن] أحمد بن طالب التميمي على أبي حنيفة وتشنيعه على الشافعي^٤ ، وكتب ابن عبدوس ومحمد بن سحنون^٥ وغير ذلك من عوامل تأليفهم دون مشهورها .

٨ - وأما جهتنا فالحكم في ذلك ما جرى به المثل السائر «أزهد الناس في عالم أهله» . وقرأت في الانجيل أن عيسى عليه السلام قال : «لا يفقد النبي

١ استفاض التاريخ للبلدان بعد ابن حزم ، انظر الإحاطة ١ : ٩٠ وما بعدها ، وانظر الاعلام بالتوبيخ للسخاوي ١٢١ - ١٣٥

٢ حمزة بن الحسن الأصبهاني : ترجم له أبو نعيم في تاريخ أصبهان ١ : ٣٠٠ وقد وصلنا من كتبه تواريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ، والدرة الفاخرة ، وهي الأمثال التي جاءت على وزن افعال التفضيل (ميونخ : ٦٤٢ والفايكان : ٥٢٦ وداماد إبراهيم : ٩٦٣) ، وشرح ديوان أبي نواس (نشر منه الجزء الأول بعناية فاغر) . ولم يوجد كتابه في أخبار أصبهان .

٣ انظر الحشي : ٣٠٦ ، وكان ابن عبدون قاضياً ، وكذلك : ٢٤٢ ؛ قال : وكان موثقاً كاتباً للشروط والوثائق .

٤ انظر المالكي : ٣٧٥ ، ٥٠٤ ؛ قال : وله كتب يرد فيها على الشافعي لا بأس بها .

٥ انظر الحشي : ١٨٢ ، ١٧٨ ، والمالكي : ٣٦٠ ، ٣٤٥ حيث ترجمته كل من ابن عبدوس وابن سحنون .

حرمة إلا في بلده . وقد تيقنا ذلك بما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من
 قريش ، وهم أوفر الناس أحلاماً ، وأصحهم عقولاً ، وأشدهم تثبناً ، مع
 ما خُصوا به من سكناتهم أفضل البقاع ، وتغذيتهم بأكرم المياه ، حتى خص
 الله الأوس والخزرج بالفضيلة التي أبانهم بها عن جميع الناس ، والله يؤتي
 فضله من يشاء . ولا سيما أندلسنا ، فإنها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر
 فيهم ، الماهر منهم ، واستقلالهم كثير ما يأتي به ، واستهجانهم حسناته ،
 وتبعهم سقطاته وعثراته ، وأكثر ذلك مدة حياته ، بأضعاف ما في سائر
 البلاد . ان أجاد قالوا : سارقٌ مُغِيرٌ ، ومنتحلٌ مُدْعٍ ، وإن توسط قالوا :
 غثٌ باردٌ وضعيفٌ ساقطٌ ، وإن باكر الحيازة لقصب السبق قالوا : متى
 كان هذا ؟ ومتى تعلم ؟ وفي أي زمان قرأ ؟ ولأمه الهبَل . وبعد ذلك ان
 ولحت به الأقدار أحد طريقين إما شفوفاً بائناً يُعليه على نظرائه ، أو سلوكاً
 في غير السبيل التي عهدوها ، فهناك حمي الوطيس على البائس ، وصار
 غرضاً للأقوال ، وهدفاً للمطالب ، ونصباً للتسبب إليه ، ونهباً للألسنة ،
 وعرضة للتطرق إلى عرضه ، وربما نُحِلَ ما لم يُقْبَلْ ، وطُوقَ ما لم يتقلد ،
 وأُلْحِقَ به ما لم يفه به ولا اعتقده قلبه ، وبالحرى ، وهو السابق المبرز ان لم
 يتعلق من السلطان بحظ ، أن يسلم من المتالف ، وينجو من المخالف . فإن
 تعرض لتأليفِ غَمِيزٍ ولز ، وتعرض وهمز ، واشتط عليه ، وعظم يسير
 خطبه ، واستشنع هين سقطه ، وذهبت محاسنه ، وسترَت فضائله ، وهتف
 وفودي بما أغفل ، فتنكس لذلك همته وتكلُّ نفسه وتبرد حميته ، وهكذا
 عندنا نصيب من ابتداء يحوك شعراً ، أو يعمل رسالة ، فإنه لا يفلت
 من هذه الحبائل ، ولا يتخلص من هذه النصب ، إلا الناهض الفاتح ، والمطفف
 المستولي على الأمد .

٩ - وعلى ذلك ، فقد جُمِعَ ما ظنَّه الظانُّ غيرَ مجموع ، وأُلْفِت

عندنا تأليف في غاية الحسن ، لنا خَطَرُ السبقِ في بعضها ، فمنها : كتابُ الهداية لعيسى بن دينار^١ ، وهي أرفع كتب جمعت في معناها على مذهب مالك وابن القاسم ، وأجمعها للمعاني الفقهية على المذهب ، فمنها كتاب الصلاة وكتاب البيوع وكتاب الجدار في الأفضية وكتاب النكاح والطلاق . ومن الكتب المالكية التي ألفت بالأندلس : كتاب القطني مالك بن علي^٢ ، وهو رجل قرشي من بني فهر ، لقي أصحاب مالك ، وأصحاب أصحابه ، وهو كتاب حسن فيه غرائب ومستحسنتات من الرسائل المولدات . ومنها كتاب أبي إسحاق [يحيى بن] إبراهيم بن مزين^٣ في تفسير الموطأ ، والكتب المستقصية لمعاني الموطأ وتوصليل مقطوعاته من تأليف ابن مزين أيضاً . وكتابه في رجال الموطأ وما للمالك عن كل واحد منهم من الآثار في موطأه .

١٠ - وفي تفسير القرآن : كتاب أبي عبد الرحمن بقي بن مخلد^٤ فهو الكتاب الذي أقطع قطعاً لا أستثني فيه أنه لم يُؤلف في الإسلام تفسير مثله . ولا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره . ومنها في الحديث مصنفه الكبير الذي رتبته على أسماء الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، فروى فيه عن ألف وثلاثمائة صاحب ونيف . ثم رتب حديث كل صاحب على أسماء الفقه وأبواب الأحكام ، فهو مصنف ومسند ، وما أعلم هذه الرتبة لأحدٍ قبله ، مع ثقته وضبطه واتقانه واحتفاله في الحديث وجودة شيوخه ، فإنه روى عن مائتي رجل و ٨٤ رجلاً ليس فيهم عشرة ضعفاء ، وسائرهم أعلام مشاهير .

١ الجذوة : ٢٧٩ (توفي ٨٢١٢ هـ) وكان يعجبه ترك الرأي والأخذ بالحديث ، ولم يورد الحميدي أسماء كتبه .

٢ في النسخ : القصي والتصويب عن الجذوة : ٣٢٤ ، وهو من نسل عبد الملك بن قطن الفهري والي الأندلس (توفي ٢٦٨ هـ) بعد أن كف بصره .

٣ الجذوة : ١٤٨

٤ الجذوة : ١٦٧ وهو ينقل النص الموجود هنا ، وانظر ترجمته في الصلة ١ : ١١٨

ومنها مُصَنَّفُهُ^١ في فضل^١ الصحابة والتابعين ومن دونهم ، الذي أربى فيه على مصنف أبي بكر ابن أبي شيبة ومصنف عبد الرزاق بن همام ومصنف سعيد بن منصور وغيرها ، وانتظم علماً عظيماً لم يقع في شيء من هذه ، فصارت تأليف هذا الإمام الفاضل قواعد للإسلام لا نظير لها . وكان متخيراً لا يقلد أحداً ، وكان ذا خاصة من أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه . ومنها في أحكام القرآن : كتاب ابن آمنة الحجاري^٢ ، وكان شافعي المذهب بصيراً بالكلام على اختياره ، وكتاب القاضي أبي الحكم منذر بن سعيد^٣ وكان داودي المذهب ، قوياً على الانتصار له ، وكلاهما في أحكام القرآن غاية ، ولمنذر مصنفات : منها كتاب الإبانة عن حقائق أصول الديانة . ومنها في الحديث : مصنف أبي محمد قاسم بن أصبغ بن يوسف بن ناصح^٤ ، ومصنف محمد ابن عبد الملك بن أيمن^٥ ، وهما مصنفان ربيعان احتويا من صحيح الحديث وغيره على ما ليس في كثير من المصنفات ، ولقاسم بن أصبغ هذا تأليف حسان جداً ، منها أحكام القرآن على أبواب كتاب إسماعيل^٦ وكلامه ، ومنها كتاب المجتبي على أبواب كتاب ابن الجارود المنتقى وهو خير منه [انتقاء]^٧ وأتقى حديثاً وأعلى سنداً وأكثر فائدة . ومنها كتاب في فضائل قريش وكنانة ، وكتابه في الناسخ والمنسوخ ، وكتاب غرائب حديث مالك بن أنس مما ليس

١ الجفوة : فتاوى .

٢ في النفع : ابن أمية ، والتصحيح عن الجفوة : ٣٨٠ .

٣ كان قاضي الجماعة في حياة الحكم المستنصر ، وهو خطيب الأندلس وفتيها ، انظر الجفوة : ٣٢٦ ، وطبقات الزبيدي : ٣١٩ ، وابن الفرضي ٢ : ١٤٢ ، ومن مصنفاته : الانباه

على استنباط الأحكام من كتاب الله .

٤ الجفوة : ٣١١ ، وتوفي ابن أصبغ سنة ٣٤٠ .

٥ انظر الجفوة : ٦٣ ، وتوفي ابن أيمن سنة ٣٣٠ .

٦ هو إسماعيل بن إسحاق القاضي .

٧ زيادة من الجفوة .

في الموطأ ، ومنها كتاب التمهيد لصاحبنا أبي عمر يوسف بن عبد البر^١ ، وهو الآن بعد في الحياة ، لم يبلغ سن الشيخوخة ، وهو كتاب لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله أصلاً ، فكيف أحسن منه . ومنها كتاب الاستذكار وهو اختصار التمهيد المذكور . ولصاحبنا أبي عمر ابن عبد البر المذكور كتب لا مثل لها منها كتابه المسمى بالكافي في الفقه على مذهب مالك وأصحابه خمسة عشر كتاباً^٢ اقتصر فيه على ما بالمفتي الحاجة إليه وبوبه^٣ وقربه فصار مغنياً عن التصنيفات الطوال في معناه . ومنها كتابه في الصحابة ليس لأحد من المتقدمين مثله ، على كثرة ما صنفوا في ذلك ، ومنها كتاب الاكتفاء في قراءة نافع وأبي عمرو ابن العلاء والحجة لكل منهما . ومنها كتاب بهجة المجالس وأنس المجالس مما يجري في المذاكرات من غرر الأبيات ونوادر الحكايات . ومنها كتاب جامع بيان العلم وفضله ، وما ينبغي في روايته^٤ . ومنها كتاب شيخنا القاضي أبي الوليد عبد الله بن محمد ابن يوسف بن الفرزي^٤ في المختلف والمؤتلف في أسماء الرجال ، ولم يبلغ عبد الغني الحافظ البصري في ذلك إلا كتابين ، وبلغ أبو الوليد رحمه الله تعالى نحو الثلاثين - لا أعلم مثله في فنه البتة . ومنها تاريخ أحمد

١ الجذوة : ٣٤٤ ، والصلة : ٦٤٠ ، وتوفي ابن عبد البر سنة ٤٦٣ هـ .

٢ الجذوة : ستة عشر جزءاً .

٣ اغفل ذكر الدرر في اختصار المغازي والسير وكتاب الشواهد في إثبات خبر الواحد وكتاب البيان عن تلاوة القرآن وكتاب التجويد والمدخل إلى العلم بالتجديد وكتاب العقل والعقلاء وكتاب أخبار أئمة الأنصار . أما كتاب جامع بيان العلم فقد طبع في جزئين (إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٦ هـ) وطبع مجرداً من الإسناد باسم مختصر جامع بيان العلم في جزء واحد .

٤ ابن الفرزي أبو الوليد هو الحافظ الراوية قتل في الفتنة ٤٠٣ ، انظر الجذوة : ٢٣٧ وقد وصلنا من كتبه كتاب في تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس .

ابن سعيد^١ ، ما وضع في الرجال أحد مثله ، إلا ما بلغنا من تاريخ محمد بن موسى العقيلي البغدادي ، ولم أره . وأحمد بن سعيد هو المتقدم في التأليف القائم في ذلك . ومنها كتب محمد بن [أحمد بن] يحيى بن مفرج القاضي^٢ وهي كثيرة ، منها أسفار سبعة جمع فيها فقه الحسن البصري وكتب كثيرة جمع فيها فقه الزهري . وممّا يتعلّق بذلك شرح الحديث لقاسم بن ثابت السرقسطي^٣ فما شأه أبو عبيد إلاّ بتقدم العصر فقط . ومنها في الفقه الواضحة والمالكيون لا تمنع بينهم في فضلها واستحسانهم إياها . ومنها المستخرجة من الأسمعة وهي المعروفة بـ « العتبية »^٤ ولها عند أهل إفريقية القدر العالي والطيران الحثيث . والكتاب الذي جمعه أبو عمر أحمد بن عبد الملك بن هشام^٥ الاشيلي المعروف بابن المكوي^٦ ، والقرشي أبو مروان المعيطي^٧ ، في جمع أقاويل مالك ، كلها على نحو الكتاب الباهر الذي جمع فيه القاضي أبو بكر محمد بن أحمد بن الحداد المصري أقاويل الشافعي كلها .

١ الجذوة : ١١٧ وأحمد بن سعيد هو الصديقي (توفي سنة ٣٥٠) ألف في تاريخ الرجال كتاباً كبيراً جمع فيه جميع ما أمكنه من أقوال الناس في العدالة والتجريح .

٢ الجذوة : ٣٨

٣ في النفع : عامر بن خلف السرقسطي ، والتصويب من الجذوة : ٣٢٢ وقد نقل تعليق ابن حزم هناك .

٤ الواضحة لعبد الملك بن حبيب والعتبية لتلميذه العتبي (الجذوة ٢٦٤ ، ٣٧) وهاتان يذكر ابن حزم ما تقتخر به الأندلس بقطع النظر عن رأيه هو فيه ، لأنه لا يرى عبد الملك أو تلميذه من ثقات أهل الحديث ، وفي الكتابين من غرائب الحديث ما لا يقبله مثل ابن حزم .

٥ الجذوة : هاشم .

٦ في النفع : الكوي .

٧ في النفع : البصري . وترجمة ابن المكوي في الجذوة : ١٢٣ ، والصلة : ٢٨ (توفي سنة ٤٠١) واسم المعيطي : محمد بن عبيد الله القرشي ، وقد قال ابن بشكوال أنها جمعا الكتاب للمستنصر ، أما الحميدي فذكر أنها جمعاها بأمر المنصور بن أبي عامر . واسم الكتاب المجموع « الاستيحاب » .

ومنها كتاب المنتخب الذي ألفه القاضي محمد بن يحيى بن عمر بن لبابة ،
ومارأيت لالكي قط كتاباً أنبل منه في جمع روايات المذهب وشرح مستغلقها ،
وتفريع وجوهها . وتآليف قاسم بن محمد^١ المعروف بصاحب الوثائق ، وكلتها
حسن في معناه ، وكان شافعي المذهب نظاراً ، جارياً في ميدان البغداديين .

١١ - ومنها في اللغة الكتاب البارع^٢ الذي ألفه إسماعيل بن
القاسم يحتوي على لغة العرب ، وكتابه في المقصور والمدود والمهموز
لم يؤلف مثله في بابيه ، وكتاب الأفعال لمحمد بن عمر بن عبد العزيز
المعروف بابن القوطية^٣ ، بزيادات ابن طريف^٤ ، مولى العبديين ، فلم يوضع
في فته مثله ، وكتاب جمعه أبو غالب تمام بن غالب المعروف بابن التياتي في
اللغة^٥ ، لم يؤلف مثله اختصاراً وإكثاراً وثقة نقل ، وهو أظن في الحياة
بعد . وهاهنا قصة لا ينبغي أن تخلو رسالتنا منها ، وهي : أن أبا الوليد عبد
الله بن محمد بن عبد الله المعروف بابن الفرضي حدثني أن أبا الجيش مجاهداً
صاحب الجزائر ودانية وجهه إلى أبي غالب أيام غلبته على مرسية ، وأبو غالب
ساكن بها ، ألف ديتار أندلسية ، على أن يزيد في ترجمة الكتاب المذكور
« ممّا ألفه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد » فردّ الدنانير وأبى من ذلك ،
ولم يفتح في هذا باباً البتة وقال : والله لو بذل لي الدنيا على ذلك ما فعلت ،
ولا استجزت الكذب ، لأنني لم أجمعه له خاصة ، بل لكل طالب [عامة]^٦ .

١ الجذوة : ٣١٠ وتوفي قاسم سنة ٢٧٨ وله كتاب الإيضاح في الرد على المقلدين .

٢ بقيت من هذا الكتاب قطعة أخرجها Fulton بالزركوغراف ، لندن ١٩٢٣ .

٣ في النسخ : محمد بن عامر العزي والتصويب عن الجذوة : ٧١ ، وقد وصلنا من كتبه كتاب
الأفعال وكتاب افتتاح الأندلس .

٤ انظر ترجمة ابن طريف في الجذوة : ٢٨١

٥ الجذوة : ١٧٢ وقد نقل الحكاية عن مجاهد العامري وابن التياتي . وانظر أيضاً الصلة ١ : ١٢٢

٦ زيادة من الجذوة .

فاعجب لهمة هذا الرئيس وعلوها ، واعجب لنفس هذا العالم ونزورها ومنها
 كتاب أحمد بن أبان بن سيد^١ في اللغة المعروف بكتاب «العالم» نحو مائة
 سفر على الأجناس ، في غاية الإيعاب ، بدأ بالفلك ، وختم بالذرة ، وكتاب
 النوادر^٢ لأبي علي إسماعيل بن القاسم وهو مبدأ لكتاب الكامل لأبي
 العباس المبرد ، ولعمري لئن كان كتاب أبي العباس أكثر نحواً وخبراً ، فإن
 كتاب أبي علي أكثر لغةً وشعراً . وكتاب الفصوص لصاعد بن الحسن
 الربيعي^٣ وهو جار في مضممار الكتابين المذكورين . ومن الانحاء تفسير الجرفي^٤
 الكتاب الكسائي حسن في معناه ، وكتاب ابن سيده في ذلك المنبوز بـ «العالم
 والمتعلم» وشرح له لكتاب الأخصش^٥ .

١٢ - ومما ألف في الشعر : كتاب عبادة بن ماء السماء في أخبار
 شعراء الأندلس^٦ ، كتاب حسن ، وكتاب الحدائق لأبي عمر أحمد بن

١ الجذوة : ١١٠ ، والصلة : ١٤ وكان صاحب الشرطة بقرطبة ، أخذ عن القاضي كتاب
 النوادر ، وتوفي سنة ٣٨٢ وترجم له صاحب الجذوة مرة أخرى تحت «ابن سيد» :
 ٣٨١ ونقل ما قاله ابن حزم هنا .

٢ هو المشهور باسم «كتاب الأمالي» .

٣ ترجمة صاعد في الجذوة : ٢٢٣ ، والبغية رقم : ٨٥٢ .

٤ في النفع : الحوفي والتصحيح عن الجذوة : ٣٨٤ وضبطه بالجميم وضماها ، وهو في البغية رقم :
 ١٥٧٦

٥ ترجمة ابن سيده ، رقم ٨٩٢ في الصلة (٢ : ٣٩٦) ، وهو صاحب المخصص والمحكم
 وغيرها ، وتوفي سنة ٤٥٨ ، وقد ذكر الحميدي كتاب العالم والمتعلم وشرح كتاب الأخصش
 عنه الكلام على ابن سيد المتقدم الذكر ، ويبدو أن المصادر اضطربت في نسبة هذين الكتابين
 لتشابه الاسمين ولكن من الغريب أن يذكر ابن حزم مؤلفات ابن سيد في مكانين .

٦ عبادة بن ماء السماء : ترجم له في الجذوة : ٢٧٤ والصلة : ٤٢٦ والذخيرة ، ولابن حيان
 في المقتبس نقول عن كتاب عبادة ، وكذلك ينقل ابن سعيد في المغرب عن كتابه في طبقات
 الشعراء (انظر المغرب ١ : ١١٥ ، ١٢٥) .

فرج^١ ، عارض به كتاب الزهرة لأبي [بكر] محمد [بن] داود رحمه الله تعالى ، إلا أن أبا بكر إنما أدخل مائة باب ، في كل باب مائة بيت ، وأبو عمر أورد مائتي باب في كل باب مائة بيت ، ليس منها باب تكرر اسمه لأبي بكر ، ولم يورد فيه لغير أندلسي شيئاً ، وأحسن الاختيار ما شاء وأجاد ، فبلغ الغاية ، وأتى الكتاب فرداً في معناه . ومنها كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس جمعه أبو الحسن علي بن محمد بن أبي الحسين الكاتب^٢ وهو حي بعد . ومما يتعلق بذلك : شرح أبي القاسم إبراهيم بن محمد الافليلي لشعر المتنبي ، وهو حسن جداً .

١٣ - ومن الأخبار : تواريخ أحمد بن محمد بن موسى الرازي في أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم وذلك كثير جداً ، وكتاب له في صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها ، على نحو ما بدأ به ابن أبي طاهر في أخبار بغداد ، وذكر منازل صحابة أبي جعفر المنصور بها . وتواريخ متفرقة رأيت منها : أخبار عمر بن حفصون القائم برية ووقائعه وسيره وحروبه . وتاريخ آخر في أخبار عبد الرحمن بن مروان الجليقي القائم بالجوف^٣ . وفي أخبار بني قسي والتجيبين وبني الطويل بالثغر^٤ . فقد رأيت من ذلك كتباً

١ أحمد بن فرج : ترجمته في الجفوة : ٩٧ والصلة : ١ : ١٢ والمغرب : ٢ : ٥٦ والبيضة : ١ : ٣٦٨ وقلائد العقيان : ٧٩ ، ولم يصلنا كتاب الحدائق ولكن الحميدي وابن الأبار في الخلية وابن سميح في المغرب نقلوا عنه كثيراً .

٢ علي بن محمد بن أبي الحسين الكاتب : ترجمته في الجفوة : ٢٩٠ قال الحميدي : كان في الدولة العمارية وعاش إلى أيام الفتنة .

٣ انظر المقتبس : ١٥

٤ من أخبار هؤلاء الثائرين طرف في المقتبس وابن عذاري ، وانظر في التعريف بهم وبأنسابهم كتاب الجهمرة : ٤٤ ، أما التجيبون فهم من العرب ، وأما بنو قسي وبنو الطويل وهم بنو شبراط فإنهم من المولدين .

لمصنفة في غاية الحسن ، وكتاب مجزأ في أجزاء كثيرة في أخبار رية وحصونها وحرورها وفقهاؤها وشعرائها تأليف إسحاق بن سلمة بن إسحاق القيني^١ . وكتاب محمد بن الحارث الخشني في أخبار القضاة بقرطبة وسائر بلاد الأندلس ، وكتاب في أخبار الفقهاء بها^٢ . وكتاب لأحمد بن محمد بن موسى في أنساب مشاهير أهل الأندلس ، في خمسة أسفار ضخمة من أحسن كتاب في الأنساب وأوسعها ، وكتاب قاسم بن أصبغ في الأنساب في غاية الحسن والإيعاب والإيجاز . وكتابه في فضائل بني أمية . وكان من الثقة والجلالة بحيث اشتهر أمره وانتشر ذكره ، ومنها كتب مؤلفة في أصحاب المعامل والأجناد الستة بالأندلس . ومنها كتب كثيرة جمعت فيها أخبار شعراء الأندلس للمستنصر رحمه الله تعالى ، رأيت منها أخبار شعراء البيرة في نحو عشرة أجزاء ، ومنها كتاب الطوالع في أنساب أهل الأندلس ، ومنها كتاب التاريخ الكبير في أخبار أهل الأندلس ، تأليف أبي مروان ابن حيان نحو عشرة أسفار ، من أجل كتاب ألف في هذا المعنى ، وهو في الحياة بعد ، لم يتجاوز الاكتهال^٣ ، وكتاب المآثر العامرية لحسين بن عاصم^٤ في سير ابن أبي عامر وأخباره ، وكتاب الأقتنين محمد بن عاصم النحوي في طبقات الكتاب

- ١ في النسخ : الميبي ، وترجمته في الخدوة : ١٥٩ ومعجم البلدان (رية) .
٢ توفي الخشني ٣٦١ هـ ، وترجمته في الخدوة : ٤٩ ، وقد وصلنا كتابه في أخبار قضاة الأندلس الذي ألفه بطلب من الحكم المستنصر ونشره ريبير ١٩١٤ ونشر بمصر ١٣٧٢ وكذلك وصلنا كتابه علماء إفريقية وهو مطبوع مع الكتاب الأول ، وقول ابن حزم « بها » يدل على أن للخشني كتاباً في علماء الأندلس وفقهاؤها وهو غير الكتاب السابق .
٣ مؤرخ الأندلس المشهور حيان بن خلف أبو مروان ، انظر ترجمته في الصلة ١ : ١٥٠ والذخيرة ٢/١ : ٨٤ - ١١٤ ، وانظر ملحق بروكلمان ١ : ٥٧٨ لأسماء كتبه ، وقد نشرت قطعة من المقتبس بناية الأب ملثور انطونية بباريس ١٩٢٧ ومن تواريخ ابن حيان نقول كثيرة في الكتب الأندلسية وبخاصة في الذخيرة .
٤ حسين بن عاصم : ترجمته في الخدوة : ١٨١

بالأندلس^١ . وكتاب سكن بن سعيد في ذلك^٢ . وكتاب أحمد بن فرج في المتزين والقائمين بالأندلس وأخبارهم . وكتاب أخبار أطباء الأندلس لسليمان ابن جلجل^٣ .

١٤ - وأما الطب : فكتب الوزير يحيى بن إسحاق وهي كتب رفيعة حسان^٤ . وكتب محمد بن الحسن المذحجي استاذنا رحمه الله تعالى ، وهو المعروف بابن الكتاني ، وهي كتب رفيعة حسان^٥ . وكتب التصريف لأبي القاسم خلف بن عباس الزهراوي ، وقد أدركناه وشاهدناه ، ولئن قلنا إنه لم يؤلف في الطب أجمع منه ولا أحسن للقول والعمل في الطبائع ، لنصدقن^٦ . وكتب ابن الهيثم^٧ في الخواص والسموم والعقاقير من أجل الكتب وأنفعها .

١٥ - وأما الفلسفة : فإنني رأيت فيها رسائل مجموعة وعيوناً مؤلفة لسعيد بن فتحون السرقسطي المعروف بالحمار ، دالة على تمكنه من هذه

-
- ١ الأثنتين : ترجمته في الجذوة : ٧٤ والبقية رقم : ٢٤٣
 - ٢ سكن بن سعيد : ترجمته في الجذوة : ٢١٩ والبقية رقم : ٨٣٤
 - ٣ ألف ابن جلجل هذا الكتاب سنة ٣٧٧ وقد نشر نشرة محققة جيدة بعناية الأستاذ فواد السيد (مطبعة المعهد الفرنسي بالقاهرة ١٩٥٥) ، مع مقدمة ضافية في التعريف بالكتاب ومؤلفه .
 - ٤ يحيى بن إسحاق : ترجمته في ابن جلجل : ١٠٠ وابن أبي أصيبعة ٣ : ٦٨ والجذوة : ٣٥١ والبقية رقم ١٤٦٠
 - ٥ محمد بن الحسن المذحجي : (يكتب ابن الحسين في طبقات صاعد وابن أبي أصيبعة ، ويكتب ابن الحسن حيث ورد في مؤلفات ابن حزم من مطبوع ومخطوط) ترجمته في ابن أبي أصيبعة ٣ : ٧٣ والجذوة : ٤٥ والبقية رقم : ٨١
 - ٦ خلف بن عباس (في التلخيص : عياش) الزهراوي : ترجمته في ابن أبي أصيبعة ٣ : ٨٥ والجذوة : ١٩٥ والبقية رقم : ٧١٥ ومن كتبه التصريف نسخ مخطوطة في برلين وباريس وولي الدين وغيرها (راجع ملحق بروكلمان ١ : ٤٢٥)
 - ٧ اسمه عبد الرحمن بن إسحاق وترجمته في ابن أبي أصيبعة : ٧٤

الصناعة^١ ، وأما رسائل أستاذنا أبي عبد الله محمد بن الحسن المدحجي في ذلك فمشهورة متداولة وتامة الحسن فائقة الجودة عظيمة المنفعة .

١٦ - وأما العدد والهندسة فلم يقسم لنا في هذا العلم نفاذ ، ولا تحققنا به ، فلسنا نتق بأنفسنا في تمييز المحسن من المقصر في المؤلفين فيه من أهل بلدنا ، إلاّ أنني سمعت من أثق بعقله ودينه من أهل العلم ممن اتفق على رسوخه فيه يقول : إنه لم يؤلف في الازياج مثل زيج مسلمة^٢ وزيج ابن السمع^٣ . وهما من أهل بلدنا . وكذلك كتاب لأحمد بن نصر فما تقدم إلى مثله في معناه .

١٧ - وإنّما ذكرنا التآليف المستحقة للذكر ، والتي تدخل تحت الأقسام السبعة التي لا يؤلف عاقل عالم إلاّ في أحدها^٤ ، وهي إمّا شيء لم يسبق إليه يخترعه أو شيء ناقص يتمه أو شيء مستغلق بشرحه أو شيء طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه ، أو شيء متفرق يجمعه أو شيء مختلط يرتبه ، أو شيء أخطأ فيه مؤلفه يصلحه . وأمّا التآليف المقصرة عن مراتب غيرها فلم نلتفت إلى ذكرها ، وهي عندنا من تأليف أهل بلدنا أكثر من أن نحيط بعلمها .

١ سعيد بن فتحون السرقسطي : ترجمته في الجذوة : ٢١٦ والبيضة رقم : ٨١٣ وطبقات الأمم : ٧٨ وله تأليف في الموسيقى ورسالة في المدخل إلى علوم الفلسفة ساهما «شجرة الحكمة» ورسالة في تعديل العلوم . نالته منحة أيام المنصور بن أبي عامر فهاجر إلى صقلية وبها توفي .
٢ مسلمة : هو أبو القاسم مسلمة بن أحمد من أهل قرطبة توفي ٣٩٨ وله تعديل زيج البتاني ولعله الذي يشير إليه ابن حزم (ابن أبي أصيبعة ٣ : ٦٢ وطبقات الأمم : ٧٨ وابن القفطي : ٣٢٦ وانظر مؤلفاته التي وصلتنا في بروكلمان الملحق ١ : ٤٣١) .

٣ ابن السمع : أبو القاسم اصبح بن محمد بن السمع المهندس الغرناطي كان في زمن الحكم ومن كتبه زيج الذي ألفه على أحد مذاهب الهند توفي سنة ٤٢٦ (ابن أبي أصيبعة ٣ : ٦٢ وطبقات الأمم : ٧٩ وانظر مؤلفاته التي وصلتنا في تاريخ بروكلمان ١ : ٤٧٢ والملحق ١ : ٨٦١) .
٤ التوالم السبعة : قابل بين ما جاء هنا وما ذكره ابن حزم في كتاب التقریب : ١٠

١٨ - وأما علم الكلام فإن بلادنا وإن كانت لم تتجاذب فيها الحصوم ، ولا اختلفت فيها النحل ، فقلّ لذلك تصرفهم في هذا الباب . فهي على كل حال غير عربية عنه ، وقد كان فيهم قوم يذهبون إلى الاعتزال ، نُظَّارٌ على أصوله ، ولهم فيه تأليف منهم : خليل بن إسحاق^١ ويحيى بن السمينة^٢ والحاجب موسى بن حدير^٣ وأخوه الوزير صاحب المظالم أحمد ، وكان داعية إلى الاعتزال لا يستر بذلك .

١٩ - ولنا على مذهبنا الذي تخيرناه من مذاهب أصحاب الحديث كتاب في هذا المعنى ، وهو وإن كان صغير الحرم ، قليل عدد الورق . يزيد على المائتين زيادة يسيرة ، فعظيم الفائدة ، لأننا اسقطنا فيه المشاغب كلها ، وأضربنا عن التطويل جملة ، واقتصرنا على البراهين الملتخبة من المقدمات الصحاح الراجعة إلى شهادة الحس وبديهية العقل لها بالصحة ، ولنا فيما تحققنا به تأليف جمّة ، منها ما قد تم ، ومنها ما شارف التمام ، ومنها ما قد مضى منه صدر ، ويعين الله تعالى على باقيه ، لم نقصد به قصد مباهاة فنذكرها ، ولا أردنا السمعة فنسميها ، والمراد بها ربنا جل وجهه ، وهو ولي العون فيها ، والمليّ بالمجازاة عليها ، وما كان لله تعالى فسيبدو ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

٢٠ - وبلدنا هذا على بعده من ينبوع العلم ، ونأيه من محلة العلماء ، فقد ذكرنا من تأليف أهله ما إن طُلبَ مثلها بفارس والأهواز وديار مضر وديار ربيعة واليمن والشام ، أعوز وجود ذلك ، على قرب المسافة في هذه

١ خليل بن إسحاق : لعل صوابه خليل بن عبد الملك (ابن الفرضي ١ : ١٦٥) والتكلمة ١ : ٣٠٩) وهو من صحب ابن مسرة وكان يقول بالاستطاعة وتتلذذ له ابن السمينة .
٢ يحيى بن السمينة توفي سنة ٣١٥ ، ترجمته في طبقات الأمم : ٧٤ وابن الفرضي ٢ : ١٨٥ .
٣ موسى بن محمد بن حدير : ترجمته في الجذوة ٣١٦ واللفية رقم : ١٣٢٠ وأخوه أحمد بن محمد بن حدير ولي أيضاً الوزارة والقيادة لعبد الرحمن الناصر .

البلاد من العراق التي هي دار هجرة الفهم وذويه ومراد المعارف وأربابها .

٢١ - ونحن إذا ذكرنا أبا الأجر جعونة بن الصمة الكلابي^١ في الشعر ، لم نباه به إلا جريراً والفرزدق لكونه في عصرهما ، ولو أنصف لاستشهد بشعره ، فهو جار على مذهب الأوائل لا على طريقة المحدثين . وإذا سمينا بقي بن مخلد لم نسابق به إلا محمد بن إسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج النيسابوري وسليمان بن الأشعث السجستاني وأحمد بن شعيب النسائي ، وإذا ذكرنا قاسم بن محمد لم نباه به إلا القفال ومحمد بن عقيل الفريابي ، وهو شريكهما في صحبته المزني بن إبراهيم^٢ والتلمذة له ، وإذا نعتنا عبد الله بن قاسم بن هلال ومنذر بن سعيد لم نجار بهما إلا أبا الحسن ابن المفلح (المغلس؟) والخلال والديباجي ورويم بن أحمد وقد شاركهم عبد الله في أبي سليمان وصحبته . وإذا أشرنا إلى محمد بن عمر بن لبابة^٣ وعمته محمد بن عيسى وفضل بن سلمة^٤ لم نناطح بهم إلا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ومحمد بن سحنون ومحمد ابن عبدوس . وإذا صرحنا بذكر محمد بن يحيى الرباحي^٥ وأبي عبد الله محمد ابن عاصم لم يقصرا عن أكابر أصحاب محمد بن يزيد المبرد .

ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن دراج القسطلي لما تأخر عن شأو بشار بن برد وحبيب والمتنبي ، فكيف ولنا معه جعفر بن عثمان الحاجب وأحمد بن عبد الملك بن مروان وأغلب بن شعيب ومحمد بن شخيص وأحمد ابن فرج وعبد الملك بن سعيد المرادي ، وكل هؤلاء فحل يهاب جانبه ،

١ - ترجمة جعونة في الجذوة ١٧٧ والبغية رقم : ٦٢٦ والمغرب ١ : ١٢١

٢ الجذوة : أبي إبراهيم المزني .

٣ الجذوة : ٧١ والبغية رقم : ٢٢٢

٤ فضل بن سلمة الجهني مولاهم توفي سنة ٣١٧ أو ٣١٩ ، انظر الجذوة : ٣٠٨ والبغية رقم : ١٢٨٢

٥ محمد بن يحيى الرباحي : ترجمته في الجذوة : ٩١ والبغية رقم : ٢١٢

وحصان ممسوح الغرة .

ولنا من البلغاء أحمد بن عبد الملك بن شهيد صديقنا وصاحبنا وهو حي بعد ، لم يبلغ سن الاكتهال ، وله من التصرف في وجوه البلاغة وشعائها مقدار يكاد ينطق فيه بلسان مركّب من لساني عمرو وسهل . ومحمد بن عبد الله ابن مسرة في طريقه التي سلك فيها وإن كنا لا نرضى مذهبه ، في جماعة يكثر تعدادهم .

وقد انتهى ما اقتضاه خطاب الكاتب رحمه الله تعالى من البيان ، ولم نتزيد فيما رغب فيه إلا ما دعت الضرورة إلى ذكره لتعلقه بجوابه ، والحمد لله الموفق لعلمه ، والهادي إلى الشريعة المزلفة منه والموصلة ، وصلى الله على محمد عبده ورسوله وعلى آله وصحبه وسلم وشرف وكرم .

انتهت الرسالة

قطعة من شعر ابن حزم^١

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آل محمد وسلم
قال الفقيه الإمام الأوحى أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي
رضي الله عنه^٢ :

١

لك الحمدُ ما باح بالشكرِ قم	لك الحمدُ يا ربَّ والشكرُ ثم
فقد خصني منك فضلٌ وعم	لك الحمدُ في كلِّ ما حالة
ومن بعد ذلك لحمٌ ودم	من الماء أنشأتني نطفةً
وأجعلتها في طباقِ الرحيم	وأسكنت في جسدي روحه
وبلغتني درجاتِ الفهم	وأخرجتني بعدُ في عالمي
وسمعٌ وذوقٌ ونطقٌ وشم	فمنك لي البصرُ المُتفتي
خلقت بأنواعه من أمم	وحسٌ صحيحٌ وتمييزُ ما
بيادي الكلامِ وخطَّ القلم	ومكنتني من فنونِ العلوم

١ انما أثبت هذه القطعة لأنها وردت مجتمعة في مخطوطة مستقلة كتب عليها اسم ديوان ابن حزم ، وليس لها فيها إلا القصائد الواردة هنا ، وبقية المخطوطة من لزوميات أبي العلاء ، وقد وردت القصائد بهذا الترتيب في مسالك الأبصار مما يدل على أن هذه القطعة قد تكون مأخوذة من ذلك الكتاب .

٢ قال ابن خير في فهرسته : ٤١٧ إن هذه القصيدة ٧٣ بيتاً ، وقد بلغت هنا ثمانين .

وعلمتني الحكم في هل وما
 وحد الحقائق ميّزت لي
 ببرهان صدق يلجح اليقين
 ويوفي المسمى بيان اسمه
 ومن هيئة الفلك المستدير
 وما فيه من فلك دائري
 فأكبرها قاصدا مغربا
 إدارة رب لها منشيء
 يخالف ما بين أدوارها
 ليعلم أهل النهى أنها
 وأن ليس تختار شيئا ولا
 يدير بأزمانها دهرها
 وتشهد أن الذي صاغها
 هو الأول المبتدي خلقها
 فأبدى الزمان وأبدى المكان
 هواء وماء وأرض ونار
 نهار مضي وليل أحمر
 وركب لاميتها كيف شاء
 ونبت يقوم على ساقه
 بلا فيم قطعاً ولا ليم ولا
 ولا كان شيء سواه له

وأطلعتني طلع كيف ولِم
 من الباطل المتقى في الكلم
 وينفي المحال ويبيد الحكم
 ويحتد بالوصف ما لم يسم
 وقفت على حده المنتظم
 ومن كوكب قاطع كالعلم
 وسائرهما جهة الشرق أم
 بصرفها أمره حيث حم
 على سنن راتب مستتم
 مدبرة الحكيم حكم
 لها الحكم بل لإله الأمم
 فيبت مبدؤها ليفهم
 هو الواحد الحق باري النسم
 كما شاء إذ شاء فرق وضم
 وما فيهما صاغ بدءاً ولم
 ومشرق أنوارها والظلم
 وبحر عميق وطود أتم
 سكان بر وسكان يتم
 وآخر لا ساق يعليه ثم
 هنالك ميم ولا فيه كم
 مثلاً ولا مخرباً ما نظم

١ انظر أقسام السؤال في كتاب التقریب : ١٨٢ ، والأبيات ٩ - ١٢ فيها حمد لله تعالى على ما علمه من أصول منطقية .

فصاغَ العقولَ كما شاءها
وركبها في النفوس التي
وما كان من قبل عقل ولا
ولا كان عدل ولا حكمة
ولو كان ذلك لم يعتدل
لأن الكثير له عدة
وما حصرته حدود الكلام
نهاياته جامعات له
ولكن مبدعها واحد
وليس بمعجزه ما يقوم
ولا شيء يشبهه جملة
فأبدى اللغات وأعطى العلوم
ولولا التعاليم لم ندرها
فصح بذلك إرسال من
فيا لك برهان حق بدا
بصدق النبوة والمبتدي
فأرسل مرسله بالهدى
محمد المصطفى بالكتاب
فشق له القمر المستنير
وأبدى اليتامى من كفه
وأعجز في نظم قرآنه
ودان الملوك لآياته
على غير خوف له يتقى

فمن شاء أذكى ومن شا أصم
كما شاء أنشأها ربكم
سفاه ولا كان مدح وذم
ولا كان ظلم ولا من ظلم
وجود الأمور ولم يستقم
تعد وتحصره إذ نعم
فوجدانه صح بعد العدم
فقد صح مبدؤه وانتظم
هو الأول الحق أفنى إرم
بوهم إليه وما لم يقم
تحقق ذلك من قد علم
وأفشى الصناعات والكل زم
ولا عاش حي ولم تغد أم
به علم الناس ما قد علم
فجلى من الجهل ما قد أهم
لخلق الجميع ومنشي النعم
على ما قضاه وما قد حتم
به أنبياء الهدى قد ختم
بحضرة راضين أو من رغم
فأروى به الجيش والجيش جم
أولي حصر وبدادة الحيم
خلاف التكاذيب ممن زعم
ولا رغبة عنده تغنم

فحلوا له عقده نيجانهم
 بطب النفوس بلا سل سيف
 كباذان في اليمن المتقي
 إلى ذي الكلاع وذي زرود
 وصح لنا نقل أعلامه
 فما فيه معرض يتقى
 وقد ظهر الحق فيما به
 كنقل التصارى ونقل اليهود
 أحاديث لم تك في أصلها
 ولم تأت إلا بنقل أنى
 مناقضة بعضها بعضها
 فشتان بين الهدى والعمى
 فما جاء من عند رب الجميع
 ولا تعده واطرخ غيره
 تفز بالحقيقة مستعجلاً
 ولا تلتفت لدعاء وأنت
 ولا تشتغل بالذي نفعه
 فما هذه الدار إن حصلت
 سيفى العزيز وبقى الدليل
 يبيد الجميع فلا تغترز
 فأين الذين بنوا تدمراً
 وأين الألى أحكموا قادساً
 أولئك أهل القوى قد مضوا
 وحلوا له ملكهم فأنهدم
 ولا يذل مال له يقتسم
 وأهل عمان وضاحي قدم
 إلى ابن ظليم فأقصى إرم
 وأحكامه باتصال سليم
 بأطباق عرب ونقل العجم
 أنى لا كنقل كثير السقم
 ونقل المجوس لأخبار جم
 تبأح ولكنها نكنتم
 به كل متحل منهم
 تكاذيبها باديات تنم
 وشتان نور الضحى والعتم
 على يد مرسله قل نعم
 وإن لأم فيه أخ وابن عم
 وتسلم إذا مت من كل غم
 لقوم براهينها لم تقم
 لدنيا لها أمد منصرم
 حقيقتها غير طيف الألم
 وتقى القوى وسيقى الألم
 بما لا يدوم لمن لم يدم
 وباني البرابي وباني الهرم
 وعقد قناطرها والصنم
 كما قدمضى سد سبل العرم

فَمِنْ حَالِ طِفْلِ إِلَى صَبَوَةٍ وَشَرَحَ شَبَابٍ وَيَأْتِي الْهَرَمَ
 وَتَأْتِي الْمَنِيَّةُ لَا بُدَّ أَنْ يُطِيفَ بِنَا حُكْمُهَا الْمُتَتَرِمَ
 وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ دَارُ الْجَزَاءِ وَمَا قَدْ مَضَى فَكَمَا ضِيَ الْحُلْمُ
 فِدَارُ النِّعَمِ لِأَهْلِ الْفَلَاحِ وَنَارًا لَمَنْ قَدْ عَصَى تَضَطَّرِمَ
 فَبَادِرُ قُبَيْلِ حُلُولِ الرَّدَى فَتَنْدَمَ إِذْ لَيْسَ يُغْنِي النَّدَمَ

هذه القصيدة في إثبات حدوث العالم وصحة نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وفيها وعظ حسن ، ارتجلها الفقيه في مجلس الخلافة دون أعمال روية ، رحمه الله .

٢

ذكر في صلة الصلة وهو التاريخ المعروف بتاريخ الفرغاني أن النقفور ملك النصارى أرسل بقصيدة نظمها كاتب مرتد وأرسلها إلى أمير المؤمنين المطيع رضي الله عنه وذلك إذ أخذت النصارى بعض ثغور الإسلام فلما وصلت إلى مجلس الخلافة وقرئت بين يدي أمير المؤمنين المعتد بالله تعالى بالأندلس ، ولم يقصد بها المعتد وإنما وردت من بلاد المشرق ، اهتز الفقيه الإمام أبو محمد رضي الله عنه عند سماعها غضباً لله عز وجل ولرسوله ولدينه وارتجل قصيدة على البديهة ولم يتثبت فيها لشدة غضبه وهمه رضي الله عنه ، فقال ، رحمه الله^١ :

من المحتمي لله ربِّ العوالمِ ودين رسولِ الله من آلِ هاشمِ
 محمدِ الهادي إلى الناسِ^٢ بالتقى وبالرشدِ والإسلامِ أفضلِ قادمِ^٣

١ وردت هذه القصيدة في طبقات الشافعية للسبكي ٢ : ١٨٤ والبداية والنهاية لابن كثير ١١ : ٢٤٧ وهي كثيرة التصحيف والتحريف في هذين المصدرين ولذلك لم أشر إلى فروق القراءات إلا عند الضرورة . وقال ابن خبير إنها ١٣٩ بيتاً ، ولم يكن ابن حزم هو الوحيد الذي رد على قصيدة شاعر نقفور بل هناك قصيدتان أيضاً في الرد عليها إحداها لأبي بكر القفال الشاشي والثانية للفقيه أبي الأصمغ عيسى بن موسى ابن زروال الفرناطي ؛ انظر فهرسة ابن خبير : ٤٠٩ (س = السبكي ، ب = البداية والنهاية) .

٢ س : الله .

٣ س ب : قائم .

عليه من الله السلام مُرَدَّ دَا
إلى قاتلٍ بالإفك جهلاً وضلةً
دعوت إماماً ليس من أمر آله
دهته الدواهي في خلافته كما
ولا عجب من نكبة أو ملية
ولو أنه في حال ماضي جدوده
عسى عطفة الله في أهل دينه
فخرتم بما لو كان فهم يريكم
إذن لعرتكم خجلة عند ذكره
سلبناكم دهرأ فلذتم بكرة
فطيرتم سروراً عند ذاك ونخوة
وما ذاك إلا في تضاعيف غفلة
ولما تنازعنا الأمور نخاذلاً
وقد شغلت فينا الخلائف فتنة
بكفر أيادهم وجحد حقوقهم
ألم نتزع منكم بأيدي وقوة
ومصر وأرض القيروان بأسرها
أم تنتصيف منكم على ضعف حالها
أحلت بقسطنطينية كل نكبة

إلى أن يوافي البعث^١ كل العوالم
عن التقفور المنتري في الأعاجم
بكفيه إلا كالرسوم الطواسم
دهت قبله الأملاك دهم الدواهم
تصيب الكرم الحر وابن الأكارم
لجرتهم منه سؤوم الأرقام
تجدد ميثهم دارسات المعالم
حقائق دين الله أحكم حاكم
وأخرس منكم كل قيل مخاصم
من الدهر أفعال الضعاف العزائم
كفعل المهين الناقص المتعظيم
عرتنا وصرف الدهر جم الملاحم
ودالت لأهل الجهل دولة ظالم
لعبدانهم من تركهم والديالم
لمن رفعوه من حضيض التهائم
جميع بلاد الشام ضربة لازم
وأندلساً قسراً بضرب الجماجم
صقلية في بحرها المتلاطم
وسامتكم سوء العذاب الملازم

- ١ ب : الحشر .
٢ البيت مختلف الرواية في ب .
٣ ب : بأعظم قوة .
٤ البيت سقط من ب .

لنا وبأيدينا على رَغْمِ رَاغِمِ
 بأيدي رجال المسلمين الأعظم
 وكرسيكُم في القُدس في أورشالم
 كما ضمت الساقين سود الأدهم
 ودهراً بأيدينا بذل الملاغم
 وكرسي قسطنطينة في المقاوم
 إلينا بعزم قاهر متعظم
 على باب قسطنطينة بالصوارم
 بجيش لهُم كالليوث الضراغم
 بنى فيكم في عصرنا المتقادم
 ألا هذه حقاً صريمة^٢ صارم
 إتاوة^٣ مغلوب وجزية غارم
 جانا بها الرحمن أرحم راحم
 إلى لجة البحر البعيد المخارم
 أبى الله ذاكم يا بقاة الخرائم
 بضائع نوكمي تلك أضغاث حالم^٤
 ويكشف مغبر الوجوه السواهم
 إذا صدمتكم خيل جيش مُصادم
 ليالي أنتم في عداد الغنائم

مشاهدُ تقديساتكم وبيوتها
 أما بيت لحم والقمامة بعدها
 وكرسيكُم في أرض اسكندرية
 ضممناهم قسراً برغم أنوفكم
 وكرسي أنطاكية كان برهة
 فليس سوى كرسي رومة فيكم
 ولا بد من عود الجميع بأسره
 أليس يزيد حل وسط دياركم
 ومسلمة قد داسها بعد ذاكم
 وأخذمكم بالذل مسجدنا الذي
 إلى جنب قصر الملك في دار ملككم
 وأدى لهرون الرشيد مليككم
 سلبناكم مسرى^٤ شهوراً بقوة
 إلى أرض يعقوب وأرياف دومة
 فهل سرتم في أرضنا قط جماعة^٥
 فما لكم إلا الأمانى وحدثها
 رويداً بعد نحو الخلافة نورها
 وحيث تدرن كيف فراركم
 على سلف العادات منا ومنكم

١ س : أرض .

٢ ب : صرامة .

٣ ب : رفادة .

٤ ب : مصر .

٥ ب : أحلام نائم .

سَبَيْتُمْ سَبَايَا لَيْسَ يَكْثُرُ عَدُّهَا ۱
فَلَوْرَامَ خَلَقَ عَدَّاهَا رَامَ مُعْجَزاً
بِأَبْنَاءِ حَمْدَانَ وَكَافُورَ صَلْتُمْ
دَعِيٌّ وَحِجَّامٌ أَنْوَكُمْ فَتَهَمُ
لِيَالِي قَدْ نَاكُمُ كَمَا اقْتَادَ جَاوِزُ
وَسُقْنَا عَلَى رِيسْلِ بَنَاتِ مَلُوكِكُمْ
وَلَكِنْ سَلَّوْا عَنَا هِرَقْلًا وَمَنْ خَلَا
يُخْبِرُكُمْ عَنَا الْمَتَوَجُّ مِنْكُمْ
وَعَنْ مَا فَتَحْنَا مِنْ مَنِيحِ بِلَادِكُمْ
وَدَعُ كُلِّ نَدَلٍ يَتَمِي لَا تَعْدُهُ
فَهِيَهَاتِ سَامِرًا وَتَكْرِيَتَ مِنْكُمْ
مُنَى يَتَمَنَّاهَا الضَّعِيفُ وَدُونَهَا
وَمَنْ دُونَ بَغْدَادِ سَيْوْفُ حَدِيدَةٍ
مَحَلَّةُ أَهْلِ الزُّهْدِ وَالْخَيْرِ وَالتَّقَى
دَعُوا الرَّمْلَةَ الدِّمْنَاءَ عَنْكُمْ فَدُونَهَا
وَدُونَ دِمَشْقَ كُلِّ جَيْشٍ كَأَنَّهُ
وَضَرْبُ بُلْقِي الرُّومِ كُلِّ مَذَلَّةٍ
وَمَنْ دُونَ أَكْنَافِ الْحِجَازِ جِحَافِلٌ

وسيبكم فينا كقطر الغمام
وأنتى بتعداد لريش الحمام
أراذل أنجاس قصار المعاصم
وما قدر مصاص دماء المحاجم
جماعة أتياس لحز الخلاقم
سبايا كما سيقن ظباء الصرائم
لكم من ملوك مكرمين قماقم
وقبصركم عن سبيننا كل آيم
وعن ما أقمنا فيكم من مآم
إماماً ولا من مُحكمات الدعائم
إلى جبالا تلکم أمانى هائم
تطايير همام وحز الغلامم
ميسرة للحرب من آل هاشم
ومنزلة يحتلها كل عالم
من المسلمين الصييد كل مخصم
سحائب طير تنتحي بالقوادم
كما ضرب السكتي بيض الدراهم
كقطر الغيوث الهاملات السواجم

١ ب : يحصر المد دونها .

٢ بعد هذا البيت في ب بيت مضطرب .

٣ البيت مختلف الرواية في ب .

٤ ب : يختارها .

٥ س : الغراء .

٦ ب : الفر كل مخصم ، س : كل ملازم .

بها من بني عدنان كل سَمَيْدَعٍ
 ولو قد لقيتم من قُضَاعَةَ عَصْبَةَ^١
 إذا صَبَحَوكُمُ ذَكَرَوكُمُ بما خَلَا
 زمانَ يَقُودُونَ الصَّوْفَانَ نَحُوكُمُ
 سَيَاتِيكُمُ مِنْهُمُ قَرِيباً عَصَائِبُ
 وَأَمْوَالِكُمُ فِي^٢ لَهْمُ^٣ وِدْمَاؤِكُمُ
 وَأَرْضِكُمُ حَقّاً سَيَقْتَسِمُونَهَا
 ولو طَرَفْتِكُمُ مِنْ خِرَاسَانَ عَصْبَةَ
 لَمَا كَانَ مِنْكُمُ عِنْدَ ذَلِكَ غَيْرُ مَا
 فَقَدَ طَالَمَا زَارُوكُمُ فِي دِيَارِكُمُ
 وَأَمَّا سَجِسْتَانُ وَكِرْمَانُ وَالْأَلَى
 فَمَغْزَاهُمُ فِي الْهِنْدِ لَا يَعْرِفُونَكُمُ
 وَفِي فَارَسِ وَالسُّوسِ جَمْعُ عَرْمَرَمُ
 فَلَوْ قَدِ أَنْتَاكُمُ جَمَعُهُمْ لَغَدُونُمُ
 وَبِالْبَصْرَةِ الزَّهْرَاءُ^٤ وَالْكُوفَةُ الَّتِي
 جَمُوعُ تَسَامِي الرَّمْلِ جَمْعُ عَدِيدِهِمْ^٥
 وَمِنْ دُونَ بَيْتِ اللَّهِ مَكَّةَ الَّتِي

١ ب : كبة .

٢ س : حل لنا .

٣ ب : الصدور .

٤ ب : ذل .

٥ س : لذكر التهازم ، والبيت ساقط من ب .

٦ ب : الفراء .

٧ ب : عدأ وكثرة .

٨ ب : بسالم .

محلّ جميع الأرض منها تَبَقْنَا
 دفاع من الرحمن عنها يَحْفُفُهَا
 بها دَفَعَ الأحيوشَ عنها وِقبلهم
 وجمع كوج البحر ماضٍ عرمرم
 ومن دون قبر المصطفى وَسَطَ طيبة
 يقودهم جيشُ الملائكة العلى
 فلو قد لقيناكم لعدم رمائماً
 وباليمَنِ المنوع فتیان غارم
 وفي جلدتهتي أرض اليمامة عَصْبَة
 ستفنيكم والقرمطيّين دولة
 خليفة حق ينصر الدين حكمه
 إلى ولد العباس تُنمى جدوده
 ملوك جرى بالنصر طائرُ سعدهم
 محلتهم في مسجد القدس أو لدى
 وإن كان من عليا عدي وتيمها
 فأهلاً وسهلاً ثم نُعْمى ومرحبا
 هم نصرُوا الإسلام نصرأ مؤزراً
 رويدأ فوعدُ الله بالصدقِ وارد
 سفتحُ قسطنطينة وذواتها
 ونملك أقصى أرضكم وبلادكم

محلة سُفيل الخلف من فُصّ خاتم
 فما هو عنها كَرَّ طرف برائم
 بحصباء طير من ذرى الجوّ حائم
 حمى سُرّة البطحاء ذات المحارم
 جموع كسود من الليل فاحم
 كفاحاً ودفعاً عن مُصلّ وصائم
 بمن في أعالي نجدنا والحضارم
 إذا ما لقوكم كنتم كالمطاعم
 مغاور أنجاد طوال البراجم
 تعود لميمون النقية حازم
 ولا يتقي في الله لومة لائم
 بفخر عميم أو لزهر العباشم
 فأهلاً بماضٍ منهم وبقادم
 منازل بغداد محلّ الأكارم
 ومن أسد أهل الصلاح الحضارم
 بهم من خيار سالفين أقادم
 وهم فتحوا البلدان فتشع المراعِم
 بتجريع أهل الكفر طعم العلاقم
 ونجعلكم قوت النور المشاعم
 ونلزمكم ذلّ الجزى والمغارم

- ١ ب : وقع الأحيوش ملكي .
 ٢ الشطر الثاني في ب مختلف تماماً .
 ٣ س : غارة .

بجيش لأرض الترك والخزر حاطم
 وليست كأثال العقول السقائم
 جميع البلاد بالجيوش الصوام
 بعيد عن المعقول بادي المآثم
 فيا لك سخفاً ليس يخفى لكاتم^٢
 كلام الألى فيما أتوا بالعظام
 له يا عقول الهاملات السوائم
 بأيدي يهود أذلين الأثم
 فما دين ذي دين لنا بمقاوم
 محمد الآتي يدفع المظالم
 ببرهان صدق ظاهر في المواسم
 وأهل عمان حيث رهط الجهاضم
 ومن بلكد البحرين قوم اللهاضم
 ولا رغبة تحظى بها كف عادم
 لحق مبين بالبراهين قائم^٥
 وصير من عاداه تحت المناسم
 ولا دفعوا عنه شتمة شاتم
 ولا دفع مرهوب ولا لمسلم

ونفتح أرض الصين والهند عنوة
 مواعيد للرحمن فينا صحيحة
 إلى أن نرى الإسلام قد عم حكمه
 أيقرن يا مخدول دين مثلث
 يدين لمخلوق بدين عبادة^١
 أناجيلكم مصنوعة متكاذب^٣
 وعود صليب لا تزالون سجداً
 تدينون تضلالاً يصلب إلهكم
 إلى ملّة الإسلام توحيد ربنا
 وصدق رسالات الذي جاء بالهدى
 وأدعت الأملك طوعاً لدينه
 كباذان في صنعاء مالك دولة
 وسائر أملاك اليمانيين أسلموا
 أجابوا لدين الله دون مخافة
 فحلوا عرى التيجان طوعاً ورغبة
 وحاباه بالنصر الملك إلهه
 فقير وحيد لم تعينه عشيرة
 ولا عنده مال عتيد لناصر

١ س : بدين لمخلوق بدين عبادة .

٢ ب : لعالم .

٣ ب : قد تشابهت .

٤ ب : كما دان .

٥ ح : ناجم .

٦ ب : المكين .

بلى ، كان معصوماً لأقدرِ عاصم
 ولا مُكْتَتَ من جسمه يدُ لاطم
 على وجهِ عيسى منكم كلُّ آثم
 فيا لضلّال في الحماقةِ جاثم
 سيَلتقى دَعَاةُ الكفرِ حالةَ نادم
 من الناسِ مخلوقٌ ، ولا قولِ زاعم
 لقد عُتِمٌ ، في ظلمكم كلُّ ظالم
 وكم علّم أبداهُ للشركِ حاطم
 فللكلِّ من إعظامه حالُ خادِم
 وكُرْدٌ بهم قد فاز قِدْحُ المُساهِم
 ورومٌ رموكم دونه بالقواصِم
 فأبوا بحظِّ في السعادةِ جاثم
 ودانوا لأحكامِ الإله اللّوازم
 به دانيالٌ قبله حتمَ حاتم
 بدين الهدى في رَفَضِ دينِ الأعاجِم
 وأشبعَ من صاعٍ له كلُّ طاعِم
 فأروى به جيشاً كثيرَ القمامِ
 ولا كدعاوٍ غيرِ ذاتِ قوائم

ولا وَعَدَ الأنصارَ دنيا نخصهم
 فلم تمتهنهُ قَطُّ قوّةُ أسير
 كما يفترى زوراً وإفكاً وضلةً
 على أنكم قد قلمُ هو ربتكم
 أبى الله أن يدعى له ابنٌ وصاحبٌ
 ولكنهُ عبدٌ نبيٌّ مكرمٌ
 أيلطمُ وجهُ الربِّ تَباً لجهلكم
 وكم آيةٌ أبدى النبيُّ محمدٌ
 تساوى جميعُ الناسِ في نصرِ حقّه
 فعُربٌ وأحبوشٌ وتركٌ وبربرٌ
 وقبِطٌ وأنباطٌ وخزرجٌ وديلمٌ
 أبوا كُفراً أسلافٍ لهم فتحتفوا
 به دخلوا في ملّةِ الحقِّ كلهم
 به صحَّ تفسيرُ المنامِ الذي أتى
 وسندٌ وهندٌ أسلموا وتدينوا
 وشقٌّ لنا بدَرُ السمواتِ آيةٌ
 وسالت عيونُ الماءِ في سبَطِ كفه
 وجاء بما تقضي العقولُ بصدقه

- ١ ب : ظالم .
- ٢ ب : لاطم .
- ٣ ب : رسول .
- ٤ ب س : فقم .
- ٥ س : وفرس .
- ٦ س : وسط .

عليه سلامُ الله ما ذرَّ شارِقُ
 براهينهُ كالشمس لا مثل قولكم
 لنا كلُّ علمٍ من قديمٍ ومُحدثٍ
 أتيتمُ بشعريِّ باردٍ متخاذلٍ
 فدونكها كالعقد فيه زُمُردٌ
 يعاقبهُ ظلماءُ أسحمٍ غائِمٍ
 وتخليطكم في جوهرٍ وأقائِمٍ
 وأنتم حميرٌ دامياتُ المحازمِ
 ضعيفٍ معاني النظمِ جمُ البلاغمِ
 ودرّ وياقوتٌ بإحكامٍ حاكمِ

رضي الله عن قائلها وأتابه الجنة بمنه ورحمته : إنه هو الغفور الرحيم .

٣

وقال رضي الله عنه إذ أكثر الناس في عدله وتأنيبه :

قالوا تحفظُ فإنَّ الناسَ قد كثرتُ
 فقلت : هل عيبهمُ لي غيرَ أني لا
 وأنتي مولعٌ بالنصِّ لستُ إلى
 لا أنثني نحوَ آراءٍ يُقالُ بها
 يا برِّدَ ذا القولِ في قلبي وفي كبدي
 دعهمُ بعضُوا على صمِّ الحصى كدأ
 إنني لأعجبُ من شأني وشأنهمُ
 ما إن قصدتُ لأمرٍ قطُّ أطلبهُ
 أما لهمُ شغلٌ عني فيشغلهمُ
 كانَ ذكريّ تسبيحٌ بهِ أميرُوا
 إن غبتُ عن لحظهمُ هاجوا بغیظهمُ
 أقوالهمُ وأقوابلُ العدا ميحنُ
 أقولُ بالرأي إذ في رأيهمُ فیتن
 سواهُ أنحوُّ ولا في نصره أهين
 في الدين بل حسي القرآنُ والسُنن
 ويا سروري بهِ لو أنهمُ فطِنوا
 من مات من قوله عندي له كفن
 واحسرتا إنني بالناسِ مُمتحن
 إلا وطارت بهِ الأظعانُ والسفن
 أو كلهمُ بي مشغولٌ ومرتهن
 فليسَ يغفلُ عني منهمُ لسن
 « حتى إذا ما رأوني طالعا سكونا »

١ س : عام .

دعوا الفضولَ وهَبُوا للبيانِ لكي
يُدْرِي مقيمٌ على الحسنَى ومُفتتنٌ
وحسبيَ اللهُ في بدءِ وفي عقبِ
بذكره تُدْفَعُ الغَماءُ والإحْنُ

٤

وقال رحمه الله في مدح كتب الحديث والحث على طلبه :

أناثمُ أنتَ عن كُتُبِ الحديثِ وما
أتى عن المصطفى فيها من الدينِ
لُسلمُ والبخاريُّ اللذان هما
شدا عُرَى الدينِ في نَقْلِ وتبيينِ
أولى بأجرٍ وتعظيمِ ومَحْمَدَةَ
من كلِّ قولٍ أتى مِن رأيٍ سخونِ
يا مَنْ هَدَى بهما اجعلني كمثلِهما
في نَصْرِ دينِكَ محضاً غيرَ مفتونِ
لا تجعلتني ربَّ العرشِ دونهما
يومَ الحسابِ وفي وَضْعِ الموازينِ

٥

وقال رضي الله عنه :

أَجَلٌ هُوَ رِبْعٌ قَد عَفَتَهُ الرَّوَامِيسُ
لَقَلَّ لَهُ أَنْ تَحْبِسَ الْعَيْسَ سَاعَةً
عَلَى أَرْبَعٍ قَد كَانَ دَهْرًا بَطُولُهُ
عَسَى يَسْتَجِيبُ الرَّبْعُ إِذْ أَنَا سَائِلٌ
فَعُجِبْتُ عَلَيْهِ نَاقِيٌّ وَهُوَ سَبْسَبٌ
وَقَلْتُ وَدَمْعِي سَاكِبٌ مُتَحَدِّرٌ
لَقَدْ كَانَ عَيْشِي فِيكَ لَوْدَامٌ مُوْنِقًا
لِيَالِيٍّ مِنْ أَهْوَاهِ يُمْنِي كَأَنَّهُ
فَهَلْ أَنْتَ فِيهِ وَيَسَّ بِغَيْرِكَ حَابِسُ
عَلَيْهِ فَتُبْكِيكَ الرِّسُومُ الطَّوَامِسُ
لِلْهَوَاكِ فِيهِ مَرَبَعٌ وَمَجَالِسُ
وَهَلْ تُرْجَعُ اللَّفْظُ الطَّلُولُ الدَّوَارِسُ
سَقَّتَهُ وَجَادَتُهُ الْغَمَامُ الرَّوَاكِسُ
وَإِنْسَانُ عَيْنِي فِي هَوَامِيهِ غَامِسُ
وَلَكِنْ أَبَتْ ذَلِكَ الْحِظْوُظُ الْأَبَاخِسُ
مِنَ الْعُفْرِ ظِيٍّ بِالصَّرِيمَةِ كَانِسُ

وإذ شَمَلْنَا باقِيَّ جَمِيعٍ مُّحَسَّدٍ
 فَكَانَ حَوَابُ الرِّبْعِ إِذْ أَنَا سَائِلٌ
 كَذَلِكَ حَكْمُ الدَّهْرِ آتٍ وَذَاهِبٌ
 فَعَرَجْتُ عَنْهُ مُوجِعَ الْقَلْبِ ثَاكِلًا
 وَفِي طَيِّبِي مِثْيَى الصَّفِيحِ عَلَى الثَّرَى
 غَرِيبُ صِفَاتِ الْحَسَنِ إِنْ تَبِعَ حَسَنَهُ
 إِذَا حُدَّ لَمْ تَحْوِ الْخُدُودُ جِهَاتِهِ
 فَدِينَاهُ مِنْ ظِيبي يَلُوحُ ضِيَاؤُهُ
 عَجِبْتُ لِدَهْرِ لَابِنِي وَهُوَ طَالِبِي
 إِذَا مَا اصْطَرَعْنَا فَالْتِدَاوُلُ بَيْنَنَا
 فَتَسَعٌ وَعِشْرُونَ أَتَيْتُ سَهَامَهَا
 كَانَ بِيَاضَ الرَّأْسِ يَنْفِي سَوَادَهُ
 فَأَهْلًا بُوَفِدَ الشَّيْبُ إِذْ جَاءَ وَافِدًا
 وَلَمَّا أَتَى رُدَّتْ نَفُوسٌ بِغَيْظِهَا
 وَلَمْ أَرَ مِثْلَ الشَّيْبِ أَوْفَى وَفِيَّةً
 وَكُنَّا نَجْمُومًا طَالَعَاتٍ مُضِيئَةً
 لَقَدْ كَانَ لِي فِي بَعْضِ ذَلِكَ وَاعِظٌ
 تَنَاءَيْنَ عَنِّي كَالْغَصُونِ وَأَعْرَضْتُ
 وَقَدْ طَالَمَا ارْتَاحَتْ وَهَزَّتْ غَصُونَتَهَا
 ظِبَاءٌ إِذَا قَيْسَ الظُّبَاءِ بِحُسْنِهَا
 زَمَانٌ يَسُودُ الْمَرْءَ فِيهِ مَحْقَرٌ

ولم تقتطعُ ذاك الدهورُ الدهارِسُ
 وهل تفهمُ القولَ الربوعُ الأَخَارِسُ
 وفي الدهرِ أصنافٌ مدُوسٌ ودائِسُ
 وبين الحشا لَدَعٌ من الحزُنِ نَاخِسُ
 للشكلِ والحسنِ لَابِسُ
 فأمنعُ معدومٍ هناك المِجانِسُ
 وإن قيسَ يوماً ضلَّ فيه المُقايِسُ
 على مثله حقّاً أصابَ المِبانِسُ
 بشارٍ ولا ينفكُ دأباً يُمَارِسُ
 عراكٌ فمُنهوسٌ هناك وناهِسُ
 لرأسي فغضتُ منه فالرأسُ هَارِسُ
 صباحٌ تفرّجُ عنه ليلٌ عُكَامِسُ
 وكنتُ ، وقلبي قبلَ ذا منه واجِسُ
 ولم تنبسطُ نحوِي الاِحاطُ النواعِسُ
 ليذعره بازيُّ النهارِ المُوانِسُ
 تنيرُ بأدائها الخطوبُ الحنادِسُ
 وما اختلستنيهِ الصروفُ الخوالِسُ
 ضواحكُ أقمارٍ وهنَّ عوابِسُ
 بقربِي أحقافُ الرمالِ الأواعِسُ
 فإن يعافِرَ الظبَاءَ خنَافِسُ
 ولا كزمانٍ ساد فيه الفِلاقِسُ

١ غير واضحة في ص .

٢ غير واضح في ص .

إذا ازدحمت عند الملوك القلائس
 وطلننا فلم ندرَكُ فما ثم نايِس
 فأيسرُ ففخري للمفاخرِ هارس
 وإنتي بعرضي دون رُوحِي مُتارس
 قريشُ العلى أعياصُها والعنابس
 ولا قعدتُ بي عن ذرى المجد فارس
 فهنّ مواضٍ صعُدتُ لا نواكس
 فحدتُ مُناويننا الحدود الأواكس
 لكل منيعِ التيّلِ في الناس فارس
 حَمَتها شياطينُ الردى والأبالس
 أقرؤا لنورِ حوَلتِه الأحامس
 بأسيافهمُ للمشركينِ مدارس
 وذلتُ بهم للمسلمينِ الكنائس
 وزارا وفيروزُ هُداةُ أشاوس

زعيمون أن يقضى لنا دون غيرنا
 سمونا فما في دهرنا غيرُ حاسدِ
 إذا ما تُراميني مفاخرُ معشرِ
 وإنتي بعرضي دون ديني مُتقى
 سما بي ساسانُ ودارا وبعدهم
 فما أحررتُ حربَ مراتبِ سُوددي
 هنالك مجدُ الدهر طالت فروعُه
 ملكنا ملوك الأَرْض في كل جانبِ
 إذا شبتِ الحربُ العوانُ فبأسنا
 أباحوا بيوتِ النارِ كل ذخيرةِ
 فلما أتى الإسلامُ بالحق والهدى
 فشدتُ عرى الإسلامِ فيهم وعطلتُ
 وأعلن دين الله في الأرض بأسهمُ
 فسائلُ بسلامٍ وبالْحَسَنِ الرضى

٦

وقال رضي الله عنه إذ حبس يشوق إلى أهله وولده وتروى لغيره :

قد طالما شَرِقتُ بالوجدِ أضلَعُه
 رجعُ الأنينِ سكبُ الدمعِ مُفزعُه
 قاسي الحديدِ فواقاً ذابَ أجمعه
 ظلَّتْ قواصِفُها باليأسِ تَقْرَعُه
 هبتَ له لوعةٌ رِقشاءُ تَلْسَعُه

مُسَهَّدُ القلبِ في خديهِ أدمعُه
 داني الهمومِ بعيدُ الدارِ نازحُها
 يأوي إلى زَفَراتِ لو يباشرُها
 إذا تَحَلَّلَ في أرجائها فَرِحَها
 وإن وَتتْ لوعةٌ عن كُنْهِ صولتِها

تاهت به في بحار الحزن فكرته
 كم فكرة داهمته في مسارجها
 ذكرى أفيراخيه في كل ناحية
 كم قد تحمل من أعباء نأيمهم
 قد عاند الحزن حتى عاد يرحمه
 وصار يرحمه من كان يعذله
 تجول حلتته في ذاته فترى
 جسم نخوت الأيام جثته
 تنابت نوب الدنيا محاسنه
 يشكو إلى القيد ما يلقاه من ألم
 يا هاجماً والرزايا لا تؤرقه
 أم كيف حاله حي ساكن جدياً
 قد طال في هاويات السجن محبسه
 فكم زفير يقد الصخر أيسره
 ما رجعت سجعها حيناً مطوقة
 ولا تجرع كأس الوجد من أحد
 يا راحلاً عند حي عنده رمقي
 وسله بالله عن عهدي أبخفظه
 وكيف عني وعن أنسي تصبره
 تجهمت نوب الدنيا لعامرها
 واطول شوقاه ما جد البعاد بهم
 لئن تباعد جثمانى فلم أرهم
 أقول والدهر قد غالت غوائله

حتى رمته سحياً ضل مرجعه
 تسقيه سمّاً تقيعاً بات يجرعه
 توحي إلى القلب أسراراً تقطعه
 نضواً نباً بلذيد النوم مضجه
 وسادر الدمع حتى جف ملمعه
 لما اصطفاه من الاعواز أشته
 آثار ما الدهر بالأحرار يصنه
 فعاد كالشن مرأه ومسمعه
 فالضيم ملبسه والسجن موضعه
 فبالأئين لدى شكواه يرجعه
 قل كيف يهجع من في الكيل مهجه
 يرنو بعين أسير عز مطمعه
 وانشت من شمله ما كان يجمعه
 وكم أنين بنار الوجد يشفه
 إلا ومن فضل شجوي ما ترجعه
 إلا ومن فضل وجدي ما تجرعه
 اقرا السلام على من لم أودعه
 فعهدته بمكان لا أضيغه
 أم كيف بعد بعادي عنه أربعه
 فلا يد عن يد الضراء تمنه
 إليهم مذ سعوا للين أفضه
 فعندهم وأيك القلب أجمعه
 وخط مني مكاناً كان يرفعه

عسى لطائف من لاشيء يعجزه
 بمبني المجد مذ حلت تائمه
 بحيث يشتجر الحطي في صفد
 بالحاجب المرتجى السامي أرومته
 سما إلى غاية في المجد سامية
 فأصحت قلل السامين خاضعة
 وارتاح للعرف والحاجات يسأها
 نعم الشفيح لمن ضاقت مذاهبه
 وكل زارع خير عند مضطهد
 فعش عزيزاً على الأيام محتكماً
 تحنوا على شملنا يوماً فتجمعه
 بحيث لا نوب الدنيا تضععه
 ويقطم السيف ذا بأس ويرضعه
 إلى هلال الذي بالسعد مطلعته
 فقال غاية ما قد كان يزومه
 لغزه وسساء المجد موضعه
 فغص بالوفد والآمال مصنعه
 لدى الخليفة أسمى من يشقه
 فسوف يحصد ما قد كان يزرعه
 ما هز ذيل الصبا غصناً يزرعه

منتخبات شعرية متنوعة

عباس بن ناصح

قال يصف طول الليل :

فبتُّ أرقبُ صباحاً سُدَّ مَطْلَعُهُ
 كأنه ونجومُ الليلِ قد جَعَلَتْ
 راعٍ تلبَّثَ قد أوصى بصرمته
 أخرى الرعاء يُزَجِّي سائِقاً هُبَّعاً^١
 يا ليلُ أصبحْ ويا صبحُ استترْ فلقد
 أبرحتماني فإن لم تفعلوا فدعاً^٢
 فلا أرى الليلَ عنْ مرقاته انصدعا
 تهوي على السمْت منها غُوراً خُضُعا

١ الصرمة : القطيع من الغنم ؛ والميع : ما نتج في آخر النتاج وضده الربع .

٢ أبرحتنا : أفرطنا وبالفتا .

عبد الله بن الشمير

قال يتبرم بكثرة الصيد في الشتاء والبرد والجليد والغزوات في الصيف
مع الأمير عبد الرحمن بن الحكم :

ليت شعري أمن حديد خلقنا أم خلقنا من صخرة صماء
كل عام في الصيف نحن غزاة والغرائق غزونا في الشتاء^١
إذ ترى الأرض والجليد عليها واقع مثل شقة بيضاء
فكأن الأنوف تجدع منا بالأشافي الحداد أو بالابساء^٢
نطلب الموت والفناء بالحا خ كأتنا نخاف موت الفناء

١ الغرائق : جمع غرنوق ، وهو طائر مائي أسود .

٢ الأشافي : جمع إشفى وهو المخرز .

أشعار للغزال^١

١

وإنَّ رجائي في الإيابِ إليكمُ وإن أنا أظهرتُ الغزاءَ قصيرُ
وإن كنتِ تبغينَ الوداعَ فبالغي فدونك أحوالٌ - أرى - وشهور

٢

يُعرَفُ عَقْلُ المرءِ في أربعِ مِشِيَّتُهُ أوَّلُهَا والحَرَكَ
ونورُ عَينِهِ وألفاظُهُ بعدُ عليهنَّ يدورُ الفلَّكُ

٣

إنَّ الفتاةَ وإنْ بدا لكَ حُبُّهَا فبقلبها داءٌ عليكَ دفينُ
وإذا ادَّعَيْنَ هوى الكبيرِ فإنَّما هوَ للكبيرِ خديعةٌ وقُرُونُ
وإذا رأيتَ الشيخَ يهوى كاعباً فعَلَيْهِ من دَرَكَ القُرُونِ زُبُونُ

٤

أنا شيخٌ وقلتُ في الشيخِ شيئاً يعلمُهُ كلُّ أبله وذاهينِ
كلُّ شيخٍ تراه يكثرُ من كَسِّ بِ الجوارِي فنَحْذُهُ لي بالقرونِ

١ المقطعات من ١ - ١١ استخرجت من بهجة المجالس لابن عبد البر (مخطوطة دار الكتب المصرية).

وَمَرَأٍ أَخَذَ النَّاسَ
 وَخُشُوعٍ يَشْبَهُ السَّقْفَ
 قَلْتُ : هَلْ تَأْلَمُ شَيْئاً
 قَلْتُ : لَا تَعْنِ بِشَيْءٍ
 إِنَّمَا تَبَيَّنِي عَلَى الْوَثْرِ
 لَيْسَ مِنْ يَخْفَى عَلَيْهِ
 سَبَسَتْ وَقَطُوبِ
 مَ وَضَعَفَ فِي الدَّيْبِ
 قَالَ : أَتُقَالُ الذَّنُوبِ
 أَنْتَ فِي قَالِبِ ذَيْبِ
 بَتَّةَ فِي حِينِ الْوَثُوبِ
 مِنْكَ هَذَا بَلِيْبِ

٦

تَسَأَلُنِي عَنْ حَالِي أَمْ عُمَرُ
 وَهِيَ تَرَى مَا حَلَّ بِي مِنَ الْعَيْبِ
 وَمَا الَّذِي يَسْأَلُ عَنْهُ مَنْ خَبِرَ
 وَقَدْ كَفَاهُ الْكَشْفُ عَنْ ذَاكَ النَّظَرِ
 وَمَا تَكُونُ حَالِي مَعَ الْكَبِيرِ
 أَرِيدُ مِنِّي الْوَجْهَ وَأَبْيَضَ الشَّعْرَ
 وَصَارَ رَأْسِي شَهْرَةً مِنَ الشُّهَرِ
 وَيَبَسَتْ نَضْرَةُ وَجْهِي وَأَقْشَعَرَ
 وَقَقَصَ السَّمْعُ بِنُقْصَانِ الْبَصْرِ
 وَصَرْتُ لَا أَنْهَضُ إِلَّا بَعْدَ شَرِّ
 لَوْ ضَامَنِي مَنْ ضَامَنِي لَمْ أَنْتَصِرِ
 فَانظُرْ إِلَيَّ وَاعْتَبِرْ ثُمَّ اعْتَبِرْ
 فَإِنَّ الْحَلِيمَ فِي مُعْتَبَرِ

لقد فسدت فما تلقى بها من ليس ذا شجن
 وصار الحي منا يغد بطُ الملقوف في الكفن

طالب الرزق الحلال لا يقرّ
 نهاره وليله على سفر
 في الحرّ والبرد وأوقات المطر
 وماله في ذلك نزر محقر
 إن الحلال وحده لا يختمر
 أين ترى مالا حلالاً قد ثمر
 ما إن رأينا صافياً منه كثر

لأني حلبت الدهر أصناف الدرر
 فمرة حلو وأحياناً مقير
 وعلقماً حيناً وأحياناً صبر
 وجل ما يسقيكه الدهر كدر
 فلم أجد شيئاً من الفقر أمر
 ألا ترى أكثر من فيها يفر
 مخافة الفقر إلى نار سقر

١٠

وإنَّ مَقَامِي شَطْرَ يَوْمٍ بِمَنْزِلٍ أَخَافُ عَلَى نَفْسِي بِهِ لَكثِيرُ
وَقَدْ يَهْرُبُ الْإِنْسَانُ مِنْ خَيْفَةِ الرَّدَى فَيُدْرِكُهُ مَا خَافَ حَيْثُ يَسِيرُ

١١

وإنَّ أُعْطِيَ سُلْطَانًا فَحَازِرُ صَوْلَةِ الزَّمَنِ
أَخُو السُّلْطَانِ مَوْصُوفٍ بِحَسَنِ الرَّأْيِ وَالْفُطَنِ
وَيَصْبِحُ رَأْيُهُ الْمَحْمُودُ دَ مَنْسُوبًا إِلَى الْأَفَنِ
وَتَبْصُرُ فِي مَطِيئِهِ سَقُوطَ الْعَيْنِ وَالْأَذَنِ
وَتَسْتَرْخِي مَفَاصِلَهُ وَتَكْسِي كَسُوةَ الْحَزَنِ
كَأَنَّ بَشَاشَةَ السُّلْطَانِ نَ حِينَ تَزُولُ لَمْ تَكُنْ

١٢

قَالَ لِي يَحْيَى وَصَرَ نَا بَيْنَ مَوْجِ كَالْجِبَالِ
وَتَوَلَّتْنَا رِيحًا مِنْ دَبُورِ وَشِمَالِ
شَقَّتِ الْقَلَمِينَ وَاز بَتَّتْ عُرَى تِلْكَ الْجِبَالِ
وَتَمَطَّى مَلِكُ الْمَوْتِ تِ إِلَيْنَا عَنْ حِيَالِ
فَرَأَيْنَا الْمَوْتَ رَأْيَ الْ عَيْنِ حَالًا بَعْدَ حَالِ
لَمْ يَكُنْ لِلْقَوْمِ فِينَا يَا رَفِيقِي رَأْسُ مَالِ

كَلَّفْتِ يَا قَلْبِي هَوَىٰ مَتَعِبًا غَالِبَتْ مِنْهُ الضَّيْفَمَ الْأَغْلِبَا
 لَأَنْتِ تَعَلَّقْتِ مَجْوسِيَّةً تَأْبَى لَشَمْسِ الْحَسَنِ أَنْ تَغْرِبَا
 أَقْصَى بِلَادِ اللَّهِ فِي حَيْثُ لَا يَلْقَى إِلَيْهَا ذَاهِبٌ مَذْهَبَا
 يَا نُودُ يَا رُودَ الشَّبَابِ الَّتِي تُطْلِعُ مِنْ أَزْرَارِهَا الْكُوكِبَا
 يَا بِأَبِي الشَّخْصِ الَّذِي لَا أَرَى أَحْلَى عَلَى قَلْبِي وَلَا أَعْدَبَا
 إِنْ قَلْتُ يَوْمًا إِنْ عَيْنِي رَأَتْ مُشْبِهَهُ لَمْ أَعُدْ أَنْ أَكْذِبَا
 قَالَتْ أَرَى فَوَدَّيْهِ قَدْ تَوَّرَا دَعَابَةً تَوْجِبُ أَنْ أَدْعِبَا
 قَلْتُ لَهَا يَا بِأَبِي إِنَّهُ قَدْ يُنْتَجِجُ الْمَرْءُ كَذَا أَشْهَبَا
 فَاسْتَضْحَكْتَ عَجِبًا بِقَوْلِي لَهَا وَإِنَّمَا قَلْتُ لَكِي تَعَجِبَا

قَصِدْتُ بِمَدْحِي جَاهِدًا نَحْوَ خَالِدٍ أَوْ مَلُّ مِنْ جَدَوَاهِ فَوْقَ مَنَاثِي
 فَلَمْ يَعْطِنِي مِنْ مَالِهِ غَيْرَ دَرَاهِمٍ تَكَلَّفَهُ بَعْدَ انْقِطَاعِ رَجَائِي
 كَمَا اقْتَلَعَ الْحَجَّامُ ضَرْسًا صَحِيحَةً إِذَا اسْتُخْرِجَتْ مِنْ شِدَّةِ بَيْكَاءِ

عبد الله بن فرح

قال في طفيلي يدعى ابن الإمام :

أفديك من متوجد غضبان
يقتاده شم القطار بأنفه
وعلا الدخان بشت طولة مريباً
وبحانة الملهين جاسوس له
صَبُّ إلى الطوفان مرتاح إلى الـ
فترى الإماميين حَوْلَ ركابه
لو يسمعون بأكلة أو شربة
زار الفتي القرشي لا لتعهد
حتى إذا وُضع الخوان تساقطوا
ورأيتهُ من بينهم متخمطاً
لم ينصرف إلا وفي أكمامه
وأخو ثقيف فرّ منه قاصداً
لو حلّ في نجران لم يبعد على
كالموت تسمى في التخلص جاهداً

حتى يلوح له ضباب دخان
مثل اقتياد النجم للحبران
يُبدى كمين مطايخ الإخوان
يُنبيه أين تناكح الزوجان
جودان مضطفن على الخلان
كالخيل صائمة ليوم رهان
بعمان أصبح جمعهم بعمان
منه ولا شوق إلى لُقيان
نهماً عليه تساقط الذبان
في لقمة كتخمط السكران
حمل وفي أعفاجه حملان
جيان لو أغنت قرى جيان
عزومات نيته مدى نجران
منه وتلقاه بكل مكان

عبد الملك بن جهور

١

يا أحسنَ الناسِ في عينيّ مبتسماً
حلّتْ بقلبيّ من عينيكِ نازلةً
لَمْ تبقْ جارحةً مني ألقبها
فأرحمُ مقامَ محبّ ما شكّا وبكى
وأعذبَ الخلقِ عندي منطقاً وفما
من الهوى صيرتني في الورى علما
إلاّ بعثتْ عليها بالهوى سقما
تبرئماً بالذي يلتقى ولا ندما

٢

أجلكَ أن تحلَّ بك الأمانى
وأكرهُ أن يمثلكَ التمني
ولو أنّي استطعتُ لفرطِ شجوي
وما أشكو إليكِ بغيرِ دمعي
فكيفَ بأن أراكَ وأن تراني
حذاراً أن يَبوحَ به لساني
علّيكِ لما رآكَ الحافظانِ
بيانُ الدمعِ أعربُ من بياني

أحمد بن فرج

١

يا غيمُ أكثرَ حاجتي سقي الحمى إن كنت تُسِيفُ
رشفُ صداه فطالما روَى الصدى فيه الرَّشَفُ
واخلع عليه من الريبِ ع ووشيه ثوباً مصنَّفُ
حتى ترى أنهاءهُ وكأنها أعشار مصحف
وتخال مرفضٌ الندى في روضه شكلاً وأحرف

٢

وطائفة الوصال عفت عنها وما الشيطان فيها بالمطاعِ
بدت في الليل ساترةً ظلام الـ لدياجي منه سافرةً القناعِ
وما من لحظةٍ إلا وفيها إلى فتن القلوب لها دواعي
فملكْتُ النهى جَمَحات شوقي لأجري بالعفاف على طباعي
وبتُ بها مبيتَ الطفلِ يظما فيمنعه الفطامُ عن الرضاعِ
كذاك الروضُ ليس به لثلي سوى نظري وشمٍ من متاعِ
ولستُ من السوائِمِ مهمّلاتٍ فأخذ الرياض من المراعي

ابن عبد ربه

١

بكرت عليّ عواذلي بلحبيبتني
إيهاً عليك فقد كبرت عن الصبا
أتى وكيف وقد رأيت تغيري
وعلى مفارقة الشباب شمتن بي
أدنيني حتى إذا التهب الحوى
وفتنني بلواظ تشكو الضنى
بذكين في قلبي وبين جوانحي
وعلى الذي لم يعدني أعديتني
ونهى المشيب عن الذي ينهيتني
عن عهدن إذا العيون رأيني
وعلى معاداة الصبا عاديتني
أقصيتني أضعاف ما أدنيني
دائي بهن ، وربما داويني
حرقاً بنار جحيمها أصليتني

٢

ألا إنما الدنيا غضارة أبكة
هي الدار ما الآمال إلا فجائع
فكم سخنت بالأمس عين قريرة
فلا تكتحل عينك منها بعبرة
إذا اخضر منها جانب جف جانب
عليها ولا اللذات إلا مصائب
وقرت عيون دمعها اليوم ساكب
على ذاهب منها فإنك ذاهب

٣

ومدامة صلتى الملوك لوجهها
رقت حشاشتها ورق أدبها
من كثرة التبجيل والتعظيم
فكأنها شيت من التسليم

وكان عين السلسيل تفجرت
راح إذا اقترنت عليك كؤوسها
تجري بأكتاف الرياض وما لها
حتى تحال الشمس يكسف نورها
لك عن رحيق الجنة المختوم
خلت النجوم تقارنت بنجوم
فللك سوى كفي وكف نديمي
والأرض ترعد رعدة المحموم

٤

صحيفة أفيت ليت بها وعسى
يراعة غرتي منها وميض سنا
فصادفت حجراً لو كنت تضربه
كانت ما صيغ من بخل ومن كذب
عنوانها راحة الراجي إذا يتسا
حتى مددت إليها الكف مقتبسا
من لؤمه بعضا موسى لما انبجسا
فكان ذاك له روحاً وذا نفسا

٥

أقتلني ظلماً وتجدني قتلي
أطلاب ذحلي ليس بي غير شادن
أغار على قلبي بعينه شادن
بنفسي التي ضنت علي بوصلها
إذا جثها صدت حياء بوجهها
كتمت الهوى جهدي فحرره الأسى
وإن حكمت جارت علي بحكمها
وأحبت فيها العذل لذكرها
أقول لقلبي كلما ضامه الأسى
برأيك لا رأي تعرضت للهوى
وقد قام من عينيك لي شاهدا عدل
بعينه سحر فاطلبوا عنده ذحلي
أطالبه فيه ، أغار على عقلي
ولو سألت قتلي وهبت لها قتلي
فيعجبني هجر ألد من الوصل
بماء البلا هذا يخط وذا يمل
ولكن ذاك الجور أحلى من العذل
فلا شيء أشقى في فؤادي من العذل
إذا ما أبيت العز فاصبر على الذل
وأمرك لا أمري وفعلك لا فعلي

وجدت الهوى نصلاً لموتى مغمداً
فإن كنت مقتولاً على غير ريةٍ
فجرّدته ثم انكيت على النصل
فأنت الذي عرّضت نفسك للقتل

٦

وإني لأغضي الطرف عنك جلالاً
ولو أنني أهملت عيني بأن ترى
وإني لأغضي الطرف عنك جلالاً
ولو أنني أهملت عيني بأن ترى
رأيت وشاة الكاشحين أباعداً
ولكن دمع من عديد وشاتي
زعمت بأنني حلت عنك ولم أكن
أغنيك في بي وفي حسراتي
وهل أنا إلا طالب لمنيني
إذا حلت عن من في يديه حياتي

يحيى بن هذيل

١

لا تلم هائماً قد استحسنت الوج
فأنا الطائع المشوق لمن صا
مرّ بي خاطراً يكاد من العج
في ملاء كأنه وهو فيها
يشتكى بالفتور من كسل المش
ولقد شفي وأسهر طرفي
سمته والظلام يفرّ عنه

د وكل أمره إلى استحسانه
ر يريني الهوان في عصبانه
ب به أن يراع في ريعانه
ورد خديّه في جنى سوسانه
ي ولا يشتكيه من أجفانه
لمع برق يرف في لمعانه
كافترار الزنجي عن أسنانه

٢

غنى وفوق جناحيه سقيط ندى
يهفو به خوط ريجان تغالنه
إذا استقلّ ومس الأرض تحسه
له ثلاثة ألوان تحال بها

والغيم ينجز للحوذان ما وعدا
في الجور ربح فتلوي متنه أودا
مصلباً إن تلقى سجدة سجددا
زمرداً وعقيقاً جاورا برّدا

٣

والأرض عاطرة النواحي غضة
والماء تدفعه إليك مئاعب

خضراء في ثوب أغرّ جديد
شئ من الميثاء والجلمود

صافٍ على صفة المِها ومذاقه
ملاً التلاع فأقبلت وكأنها
تنحو إلى حال الغطيِّ وربما
وتثيرُ طافية الحصى فكأنها
شهد ، فخذ من طيب وبرود
هجمات حيات ذوات حُقود
زأرت فسمعها زئير أسود
دلّت على الساعات فهم بليد

٤

وقفت على علياء والجزع بيننا
تقوم بطول الرمح ان هبت الصبا
فشبهتها في الحاليتين بقارىء
لأنظر من نارٍ على البعد تُوقدُ
وعند سكونِ الريح تهاد فقعد
إذا اعرضته سجدة ظل يسجد

٥

وأرى بقية مفرقي قد فرقت
كالطير لما فاجأها هجمة
أو كافتراق السفر في ديمومة
لم يخرجوا من قفرها تأويبا
ليرى بها ريش الغراب غريبا
للصقر فرّت في الجهات هروبا

يوسف بن هارون الرمادي

١

وما عجيبي إلا من الفرس إنهم
لتركهم أن يبعدوا نارَ زينب
وما بي تحيبُ الذنوبِ إليهم
وأحبُّ بها ناراً توقدُ للقري
وما حرُّ تلك النارِ إلا سلامة
لهم حِكْمٌ قد سيرن في الشرق والغربِ
ونارُ هوى منها توقدُ في قلبي
ولكن حُسْنُ الذنبِ عذرٌ لدى الذنبِ
حلالاتُ لأهل الأرض حِجراً على الصبِ
وبرداً لدى النارِ التي أودعت قلبي

٢

وقال حين أريقت الخمر وأحرق الحانات أيام الحكم المستنصر :

بخطبِ الشارين يضيّقُ صدري
وهل هم غير عشاقٍ أُصيبوا
أعشاقَ المدامة إن جزعتم
سعى طلابكم حتى أريقت
تضوعَ عرفها شرقاً وغرباً
فقل للمسفحين لها بسفح
وللأبواب إحراقاً إلى أن
تحرّيتُمُ بذلك العدلَ فيها
فإن أبا حنيفة وهو عدلٌ
وترمضني بليتهم لعمري
بفقدِ حبابٍ ومُنوا بهجرِ
لفرقتها فليس مكان صبرِ
دماء فوق وجه الأرض تجري
وطبق أفق قرطبة بعطري
وما سكنته من ظرفٍ بكسري
تركتم أهلها سكان قفري
بزعمكم فإن يك عن تحري
وفر عن القضاء مسير شهرِ

فقيهٌ لا يدانيه فقيهٌ
 وكان من الصلاةِ طويلَ ليلٍ
 وكان له من الشُّرابِ جارٌ
 وكان إذا انشأ غنّى بصوت الـ
 «أضاعوني وأيَّ فتى أضاعوا
 فغيبَ صوتَ ذاك الجارِ سجنٌ»
 فقالَ وقد مضى ليلٌ وثانٍ
 أجاري المونسي ليلاً غناء
 فقالوا إنّه في سجنِ عيسى
 فنادى بالطويلة وهي ممّا
 ويمّمَ جاره عيسى بن موسى
 فقال : سجنَت لي جاراً يُسمّى
 بسجني حين وافقه اسم جار الـ
 فأطلقهم له عيسى جميعاً
 فإن أحببتَ قل لجوارِ جارٍ
 فإن أبا حنيفة لم يؤب من
 نواقعها من أجل النهي سرّاً

إذا جاء القياسُ أتى بدرّ
 يقطعهُ بلا تغميضِ شقَرٍ
 يواصلُ مغرباً فيه بفجرٍ
 مضاعٍ بسجنه من آلِ عمرو
 ليومِ كريمةٍ وسدادِ ثغري
 ولم يكنِ الفقيهُ بذاك يدري
 ولم يسمعه غنّى «ليت شعري»
 لخيرِ قطعٍ ذلك أم لشربٍ
 أتاهُ به المحارسُ وهو يسري
 يكونُ برأسه لجليلِ أمرٍ
 فلاقاه بإكرامٍ وبرٍ
 بعمرٍ قال : يطلق كل عمرو
 فقيه ولو سجنتهم بوتري
 لجارٍ لا يبيت بغيرِ سكرٍ
 وإن أحببتَ قل لطلابِ أجرٍ
 تطلّبه تخلصه بوزرٍ
 وكم نهي نواقعه بجهرٍ

٣

ونزل أبو عمر يوسف بن هارون الرمادي على بني أرقم بوادي آش
 فقدّم إليه فيما أكرم به طبقٌ وردٍ ، وكان في فصل الشتاء ، فاستغربه
 ثم أخذ منه وردةً واحدةً وقال بديهياً :

يا خلود الحور في إجمالها
اغتربنا ، أنت من بجانة
واجتمعنا عند إخوانِ صفاً
عصبة إن سئلت عن نسبة
إن لثمي لك قد أمهم
لاجتماع في اغتراب بيننا
قد علتها حمرةٌ مكتسبة
وأنا مغربٌ من قرطبة
بالندى أموالهم منتهبة
فإلى أرقمها منتسبة
ليس فيه فعلةٌ مستغربة
قبل المغرب المغرّبة

عبد الملك بن إدريس الجزيري

قال يتشوق إلى ابنه الأصغر وهو سجين :

ألوى بعزم تجلدي وتصبري
شحط المزارُ فلا قرارَ ونافرتُ
أزرى بصبري وهو مشدودُ القوى
وطوى سروري كله وتلذذي
هلاً بما ألقى الحبيبَ توهماً
وإذا الفتي فقَدَ الشبابَ سما له
عجباً لقلبي يوم راعتنا النوى
ما خلّتي أبى خلافاً ساعةً
إنسان عيني إن نظرتُ وساعدي
فإذا شكوت إليه شكوى راحة
أربي عليّ فحظهُ ممّا بنا

نأي الأُحبةِ واعتيادُ تذكّري
عيني الهجوعَ فلا خيالٌ يعترني
وألانَ عودي وهو صلبُ المكسر
بالعيش طيَّ صحيفةٍ لم تُنشر
بضمير تذكاري وعين تفكري
حبُّ البنين ولا كحِبِّ الأصغر
ودنا فراقك كيفَ لم يتفطر
لولا السكونُ إلى أهلكَ الأكبر
مهما بطشتُ وصاحبي المستوزر
ذكرته فشكا إليّ بأكثر
حظُّ المعلّي من قداح الميسر

ابن درّاج القسطلّي

١

دعي عزمات المستضام تسيرُ
 لعلّ بما أشجاك من لوعة النوى
 ألم تعلمي أن الثواء هو الثوى
 ولم تـزجـري طير السرى بحروفها
 تخوفي طول السفار وإنه
 دعيني أردّ ماء المفاوز آجناً
 وأختلس الأيام خلسة فاتك
 فإن خطيرات المهالك ضمنّ
 ولما تدانت للوداع وقد هفا
 تناشدني عهد المودة والهوى
 عيبي بمرجوع الخطاب ولفظه
 تبوأ ممنوع القلوب ومهدت
 فكل مفسدة التائب مرضع
 عصيت شفيح النفس فيه وقادني
 وطار جناح الشوق بي وهفت بها
 لئن ودعت مني غيبوراً فإنني
 ولو شاهدتني والصواخذ تلتظي
 أسلط حرّ الهاجرات إذا سطا

فتنجدُ في عرض الفلا وتغورُ
 يعزّزُ ذليلٌ أو يفكُّ أسيرُ
 وأن بيوت العاجزين قبورُ
 فتنبئك إن بمنّ فهي سرورُ
 لتقبيل كفّ العامري سفيرُ
 إلى حيثُ مساء المكرمات نميرُ
 إلى حيث لي من غدرهنّ خفيرُ
 لراكبها أن الجزاء خطيرُ
 بصبري منها أنّة وزفيرُ
 وفي المهد ميغوم النداء صغيرُ
 بموقع أهواء النفوس خبيرُ
 له أذرعٌ مخفوفةٌ ونحورُ
 وكلّ حياة المحاسن ظيرُ
 رواحٌ لتداب السرى وبكورُ
 جوانحٌ من دعر الفراق تطيرُ
 على عزمي من شجوها لغبورُ
 عليّ ورقراقُ السرابِ يمورُ
 على حرّ وجهي والأصيل هجيرُ

وأستشقُّ النكباء وهي بوارحُ
وللموت في عين الجبانِ تلونُ
لبانَ لها أني من الضيمِ جازعُ
أميرٌ على غولِ التنائفِ ما له
ولو بصرتُ بي والسرى جُلُّ عزمي
وأعتسفُ المومةَ في غسقِ الدجى
وقد حومتُ زهرُ النجومِ كأنها
ودارتُ نجومُ القطبِ حتى كأنها
وقد خيلتُ طرُقُ المجرَّةِ أنها
وثاقبُ عزمي والظلامِ مروءُ
لقد أيقنتُ أن المتى طوعُ همتي
وأني بذكره لهمتي زاجرُ
وأني فتى للدينِ والملكِ والندی
مُجيرُ الهدى والدينِ من كلِّ ملحدٍ
تلاقتُ عليه من تميمٍ ويعربٍ
من الحَميريينَ الذين أكفهُمُ
ذوو دُولِ المُلُكِ التي سَلَفَتْ بها
لهم بَدَلُ الدهرِ الأبويِّ قيادَهُ
وهم ضربوا الآفاقَ شرقاً ومغرباً
وهم يستملّونَ الحياةَ لراغبٍ
وهم نصرُوا حزبَ المروءةِ والهدى
وهم صدّقوا بالوحي لما أتاهمُ
سناقبُ يعيا الوصفُ عن كُنهِ قدرها

وأستوطىء الرمضاء وهي تفورُ
وللذعرِ في سمعِ الجريءِ صفيرُ
وأنتي على مضى الخطوبِ صبورُ
إذا ربيعَ إلاّ المشرفيُّ وزيرُ
وجرسِي لحنانِ الفلاةِ سَميرُ
وللأسدِ في غيلِ الغياضِ زئيرُ
كواعبُ في خُضُرِ الحدائقِ حورُ
كؤوسُ مهأ والى بهنٍ مَديرُ
على مفرقِ الليلِ البهيمِ قَديرُ
وقد غصَّ أجفانِ النجومِ فتورُ
وأنتي بعطفِ العامريِّ جديرُ
وأنتي منه للخطوبِ نذيرُ
وتصديقِ ظنِّ الراغبينَ نَزورُ
وليس عليه للضلالِ مُجيرُ
شموسُ تلالا في العلى وبُدورُ
سحائبُ تهمي بالندی وبحورُ
لهم أعصُرُ موصولةٌ ودهورُ
وهم سكنوا الأيامَ وهي نَفورُ
يجمعُ يسيرُ النصرِ حيثُ يسيرُ
ويستصغرونَ الخطبَ وهو كبيرُ
وليسَ لها في العالمينَ نصيرُ
ومما النَّاسُ إلاّ عاندُ وكفورُ
ويرجعُ عنها الوهمُ وهو حَسيرُ

ألا كلُّ مدحٍ عن مذكِّمٍ مقصَّرُ
 تَمَلَّيْتِ هذا العيدَ عِدَّةَ أعْصُرِ
 ولا فقدتِ أيامَكَ الغرَّ أنْفُسُ
 ولما توافوا للسلام ورُفِعَتْ
 وقد قامَ من زُرْقِ الأسنَةِ دونها
 رأوا راحة الرحمن كيف اعتزازها
 وكيف استوى بالبحر والبدر مجلسُ
 فساروا عِجالاً والقلوب خواقُ
 يقولون والإجلالُ يُخْرِسُ السُّنَا
 لقد حاطَ أعلامَ الهدى بك حائطُ
 مقيمٌ على بذلِ الرغائبِ واللَّهْيِ
 وأين أنتوى فلُ الضلالة فانتهى
 وحسبكَ من خفضِ النعيمِ مُعَيِّداً
 فقدَّها إلى الأعداءِ شعناً كأنها
 فعزمتُك بالنصرِ العزيزِ مُخَبَّرُ
 وناداكِ يابنَ المُنعمينِ ابنُ عَشْرَةَ
 غنيٌّ يجدوى راحتك وإنه
 ومن دونِ سترِي عفتي وتجملي
 وضائلِ قدرِي في ذراكِ عوائقُ
 وما شكركِ النخعيُّ شكري ولا وفي
 فقدتِ لكشفِ الخطبِ والخطبِ مُعْضِلُ
 فقد تخفضُ الأسماءِ وهي سواكنُ

وكلُّ رجاءٍ في سواك غرورُ
 تُواليكَ منها أنعمُ وحبورُ
 حياتك أعيادُ لهم وسرورُ
 عن الشمسِ في أفقِ الشروقِ ستورُ
 صفوفُ ومن بيضِ السيوفِ سطورُ
 وآياتِ صنعِ الله كيف تُنيرُ
 وقامَ بعِباءِ الراسياتِ سريرُ
 وأدنوا بِطاءً والنواظرُ صورُ
 وحازتِ عيونُ مِلاها وصدورُ
 وقدَّرَ فيك المكرماتِ قديرُ
 وفكرُك في أقصى البلادِ يسيرُ
 وأين جيوشُ المسلمين تُغيرُ
 جهازُ إلى أرضِ العدى ونفيرُ
 أرقامُ في شَمِّ الربيِّ وصقورُ
 وسعدُك بالفتحِ المبينِ بشيرُ
 وعبدُك لنعماكِ الجسامِ شكورُ
 إلى سببِ يدي رضاك فقيرُ
 لرَبِّ وصرْفِ لازمانِ يجورُ
 جرتِ لي بَرِحاً والقضاءِ عسيرُ
 وفائي - إذا عزَّ الوفاءُ - قصيرُ
 وِكلتي لليثِ الغابِ وهو هصورُ
 ويعملُ في الفعلِ الصحيحِ ضميرُ

وينفذ وقع السهم وهو قصير
وان الذي يجزي به لغفور

وتنبو الردينيات والطول وافر
حنائك في غفران زلة تائب

٢

وعمرت كأس صبا بكأس نصاب
واللهو ، واللذات قد تغري بي
من صرف كأس أو جفون كعاب
أمنأ ولا نصغي لنعب غراب
ومحاسن الدنيا بغير نقاب
فثنى سني دداتي على الأعقاب
تسعى بجديتها إلى أترابي
وخلت معاهدتها من الأحباب
وخواطري بنوافذ الشباب
تعيي التجلد واحتسبت مصابي
ألا أخيس بجرمة الآداب
صبراً وغادرتي السقام لما بي
وكففت عن سعي الحسود عتابي
حظاً وأن الدهر غير محاب
أبدأ إذا عم القضاء الآبي
خدع المنى وعلائق الأسباب
ونذاك محيائي وحمدك دابي

أنضيت خيلي في الهوى وركابي
وعنيت مغرّي بالغواني والصبأ
في غمرة لا تنقضي تشواتها
أيام لا نرتاع من صرف النوى
أيام وجه الدهر نحوي مشرق
ولقد أضاء الشيب لي سنن الهدى
ورأيت أردية النهى منشورة
ورأيت دار اللهو أقوى ربعتها
وخلت بي التكببات ترمي ناظري
ولكم أصابتنني الخطوب بشكّة
حفظاً لعلم حاز صدري حفظه
حتى تركت الدهر وهو لما به
وصرفت عن صرف الزمان ملامتي
علماً بأن الحرص ليس بزائد
همم الفتي نكبت تبرح بالمني
فقطعت يا منصور نحوك نازعاً
فرضاك تأملي وقربك همتي

وأسى دموعي أن تفيض عليك
 لقد ضاع لي صدقُ الوفاء لديك
 مهارةُ النقا والشمسُ مُشْتَبِهَيْكَ
 لأن صار منسوبَ الصفات إليك
 لِمَطْعَمِهِ الموجودِ في شَفْتَيْكَ
 ولو نازعتنيها حمامةُ أَيْكَ
 لتمثال عَيْنَيْكَ وسالْفَتَيْكَ

سأمنعُ قلبي أن يحنَّ إليك
 أغدراً ولم أغدِرْ وخوفاً ولم أخُنْ
 بفعلك عيبَ الحسنِ عندي وإن غدت
 اصداً بوجهي عن سنا الشمسِ طالماً
 وأسفطعُ الشهدَ اللذيذَ مذاقه
 وأصرف عن ذكراكِ سمعي ومنطقي
 ولو عنَّ لي ظبيُّ الفِلا لاجتنبتهُ

ابن شهيد

١

خليلي عوجا بارك الله فيكما
 ولا تمنعاني أن أجود بأدمع
 فأقسم ما شمت الغداة وقودها
 ميادين أفراس الصبا ومراتع
 فلم أر أسراباً كأسرابها الدمي
 ولا كضلال كان أهدي لصبوتي
 وما حاج هذا الشوق إلا حمائم
 تغن فلا يبعد بذي الأيك عاشق
 أنا البحر لا يستوهن الخطب طاقتي
 عجبت لنفسي كيف ملكتها الهوى
 ولو أنني أنحت علي أكارم
 ولكن جردان الثغور رمينني
 تيمم قصدي النائبات فردها
 إذا طرقتة الحادثات أعارها
 أما وأبي الأعداء ما دفعتهم
 جزأهم بما حازوا من الجهل حلمه
 بدارتها الأولى نحي فناءها
 حواها الجوى لما نظرت جواءها
 وقد شمت ما راب الحمى وأساءها
 رتعت بها حتى ألفت ظباءها
 ولا ذئب مثلي قد رعى ثم شاءها
 ليالي يهيني الغرام خباءها
 بكيت لها لما سمعت بكاءها
 بكى بين ليل فاستحث غناءها
 وتأبى الحسان أن أطق لقاءها
 وكيف استفز الغايات إباءها
 ترضيت بالعرض الكريم جزاءها
 فأكرمت نفسي أن تريق دماءها
 فتى لم يشجع حين حان رياءها
 شبا فكرات قد أطال مضاءها
 يد سبقتهم يتقون عداها
 كريم إذا راء المكارم جاءها

أصفيحٌ شيمَ أم برقٌ بدا
هبَّ من مرقده مُنكسراً
يَسحُ النعسةَ من عيني رشاً
أوردتُه لطفاً آياته
فهو من دلِّ عراهُ زُبدةٌ
قلتُ : هبَّ لي يا حبيبي قِلةً
فانثى يهترُّ من منكبه
كلما كلمتي قبيلتهُ
كادَ أن يرجع من لثمي له
قال لي يلبُ : خذ لي طائراً
وإذا استنجزتُ يوماً وعدةُ
شربتُ أعطافهُ خمرَ الصبا
وإذا بتُّ به في روضةٍ
قامَ في الليلِ بجيدٍ أتلعُ
رشاً بل غادة مَمكورةُ
أححتُ من عَضتي في نهدها
فأنا المَجروح من عَضتها
ومكان عازبٍ عن جيرة
ذي نباتٍ بُلبلتُ أعرافهُ
تسبُّ الهضبةَ منه جبلاً
قلتُ إذا خيمنتُ فيه قاطناً

أم سنا المحبوبِ أوري أزنُدا
مُسبلاً للكمِّ مرخي للردا
صائدٌ في كلِّ يومٍ أسدا
صفوةَ العيشِ وأرعتهُ ددا
من صريحٍ لم تُخالطُ زبدا
تشف من عمك تبريح الصدى
قائلاً : لا ، ثم أعطاني اليدا
فهو إمّا قال قولاً رددا
وارتشافٍ الثغرَ منه أدردا
فتراني الدهرَ أجري بالكدى
قال لي يطلُّ : ذكرني غدا
وسقاه الحسنُ حتى عربدا
أغيداً يعرفون نباتاً أغيداً
ينفضُ اللثةَ من دمع الندى
عمت صباحاً بلبلٍ أسودا
ثم عَضتُ حرَّ وجهي عمدا
لا شفاني الله منها أبدا
أصدقاؤهم عينُ العدى
كعذارِ الشعرِ في الحدِّ بدا
وحدودَ الماءِ منه أبردا
وتلاقتني الأمانى سجدا

ورثي الله خوفي ساكناً
 جاداً من أصبحت في أيامه
 ملكاً يحسب عدلاً ملكاً
 ووالدي يحذر من خوفي الردي
 وإماماً أمّ فينا فهدي
 قمرأً بحملى منه فرقدنا
 ان زمان جاراً أو صرفاً عدداً
 مثل من يعشو إلى نار الهدى
 ليس من يعشو إلى نار القري

٣

ولما تملأ من سكره
 دنوت إليه على بعده
 أدباً إليه ديب الكرى
 وبت به ليلي ناعماً
 أقبل منه بياض الطلى
 فتام ونامت عيون العسس
 دنو رفیق درى ما التمس
 وأسمو إليه سمو النفس
 إلى أن تبسم تغر الغلس
 وأرشف منه سواد اللعس

ابن حزم الأندلسي

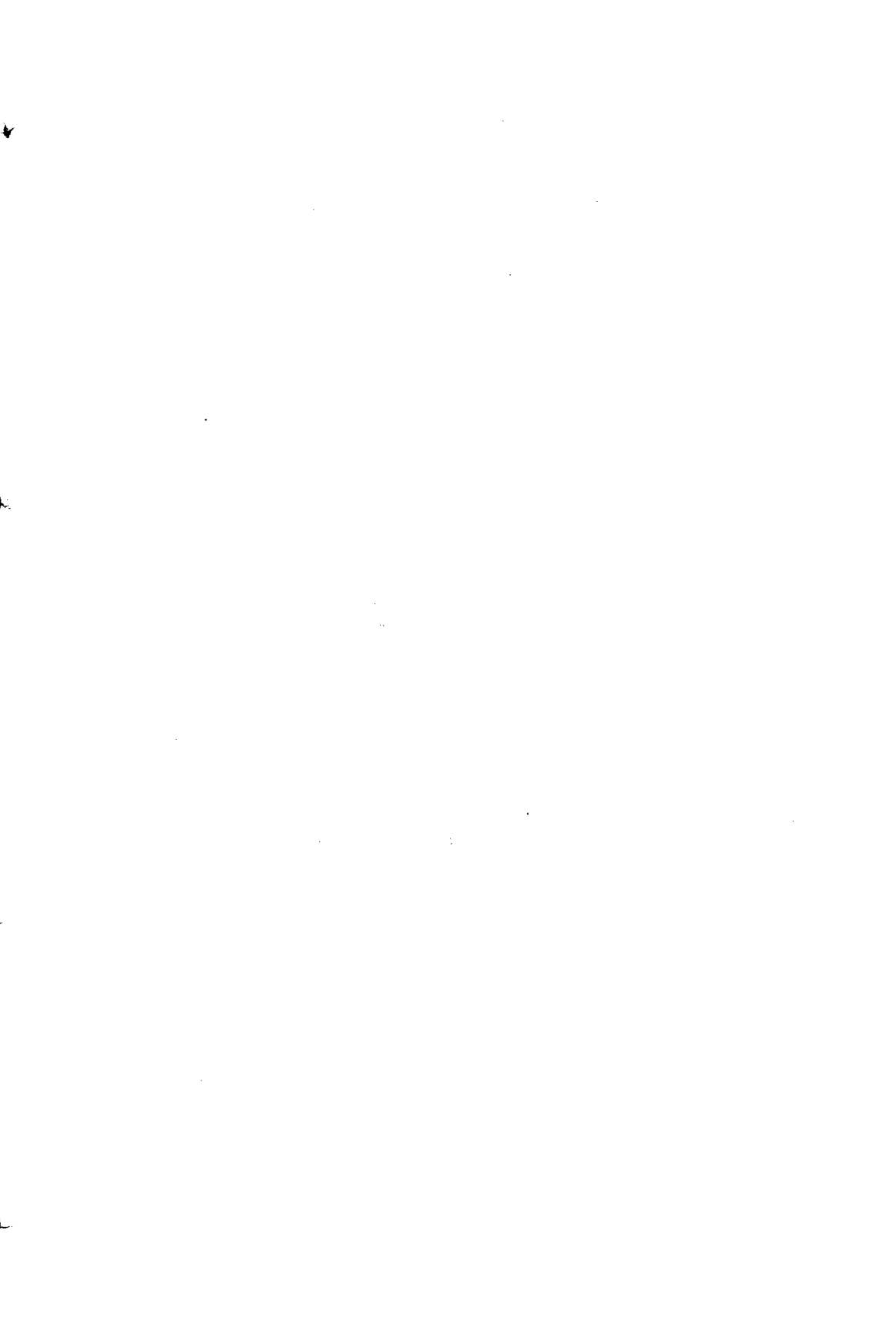
قال يخاطب قاضي الجماعة بقرطبة أبا المطرف رحمه الله من قصيدة

ألم يجاليني جلاءً مُجربٌ
أعيدك أن ترتابَ في أنني الذي
أمثلك يعشو عن مكاني ويمتري
أيخفي عليك البدرُ ليلة تيمه
وحاشاي أن يمتدَّ زهوٌ بمنطقي
ولكنَّ لي في يوسفٍ خيرَ أسوة
يقول - وقال الحقَّ والصدقَ - اني
فلو كُسي الفولاذُ حدةَ خاطري
ولو كان للنيران بعضُ ذكائه
وما اختصَّ علم دون علم بوجهي
ومالي عميمٌ لست أخشى فقاده
سموتُ بنفسي لا بمجدٍ هوت به
وإن شئتَ أخبارَ الدهورِ فلأنني
يسافرُ علمي حيث سافرتُ ظاعناً
أنا الشمسُ في جوِّ العلومِ منيرةٌ
ولو أنني من جانب الشرقِ طالعٌ
ولي نحوُ أكثافِ العراقِ صبابةٌ
فإن يُتزلَّ الرحمن رحلي بينهم

على أنه حقاً بي العالمُ الطب
أتى سابقاً والكل ينجرُّ أو يجبو
بأنني من أفلاكِ ذا الأدبِ القطبُ
ولم يستترْ عنك النيازكُ والشهبُ
وأن يستفزَّ الحلمَ من قولي العُجبُ
وليس على من بالنبي اتسَى ذنبُ
حفيظٌ عليم ما على صادقٍ عتبُ
تساوى لديه اللحم والحجر الصلبُ
وفاض عليها لجة البحر لم يخبُ
بلي مسرحي في كلِّها الواسع الخصبُ
بإنفاقه لا بل يزيدُ وينصبُ
من الزمن الغدَّار آلاته الحدبُ
أنا جامعُ التاريخ مذ نبت الهضبُ
ويصحني حيث استقلت بي النجبُ
ولكنَّ عيبي أن مطلعي الغربُ
لجدَّ على ما ضاعَ من ذكري النهبُ
ولا غرو أن يستوحش الكلف الصبُ
فحينئذٍ يبدو التأسفُ والكربُ

فكم قائلٍ أغفلته وهو حاضرٌ
هنالك يدري أن للبعد قصةً
فيا عجباً من غاب عنهم تشوقوا
وإن مكاناً ضاق عني لضيقٌ
وإن رجالاً ضيعوني لضيعٌ
وأطلب ما عنه نجيء به الكتبُ
وأن كسادَ العلم آفته القربُ
له ، ودنوُّ المرء من دارهم ذنبُ
على أنه فيح مهاميههُ سُهْبُ
وإن زماناً لم أنل خيصتهُ جَدْبُ

المراجع والفهارس



المراجع

- الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب (الجزء الأول) . نشر الأستاذ عبد الله عنان .
القاهرة ، ١٩٥٥ .
- الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم (١ - ٨) . مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٤٥ .
- أخبار الفناء والمغنين بالأندلس للدكتور إحسان عباس . مجلة الأبحاث ، السنة ١٦ ، الجزء
الأول ، آذار ١٩٦٣ .
- إعتاب الكتاب لابن الأثير (مخطوطة بدار الكتب المصرية) .
الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للسخاوي . ط . القاهرة .
- أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب . تحقيق الأستاذ أ. ليفي بروفنسال . ط . دار
المكشوف . بيروت ، ١٩٥٦ .
- ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي للدكتور عبد العزيز الأهواني . مجلة معهد
المخطوطات ، المجلد الثالث ، الجزآن الأول والثاني .
- البداية والنهاية في التاريخ لابن كثير (الجزء الحادي عشر) . ط . مصر ، ١٣٥٧ .
- بغية الملتبس للضبي . مطبعة روخس ، مجريط ، ١٨٨٤ .
- ربغية الوعاة للسيوطي . الطبعة الأولى ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٢٦ .
- بهجة المجالس لابن عبد البر (مخطوطة دار الكتب المصرية) .
- البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى (جزآن) . ط . بيروت ، ١٩٥٠ .
- البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى (الجزء الثالث) . تحقيق الأستاذ أ. ليفي
بروفنسال .
- تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية . ط . مجريط ، ١٨٦٨ .
- تاريخ الحكماء للقفطي . تحقيق الأستاذ جوليوس ليرت . ليسك ، ١٩٠٣ .
- تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس لابن الفرضي (١ - ٢) . ط . القاهرة ، ١٩٥٤ .

تاريخ عبد الرحمن الناصر لمجهول . تحقيق الأستاذين أ. ليفي بروفنسال وغرسية غومس .
ط . مدريد - غرناطة ، ١٩٥٠ .

تاريخ الفكر الأندلسي لآنخل بالثيا . ترجمة الدكتور حسين مؤنس . القاهرة ، ١٩٥٥ .
التيان (مذكرات الأمير عبد الله) . تحقيق الأستاذ أ. ليفي بروفنسال . دار المعارف
بمصر ، ١٩٥٥ .

تثقيف اللسان لابن مكّي (مخطوطة مراد ملاً رقم : ١٧٢٥) .
ترتيب المدارك للقاضي عياض (مخطوطة دار الكتب المصرية) .
التشبيهات من أشعار أهل الأندلس لابن الكتاني . تحقيق الدكتور إحسان عباس . دار الثقافة ،
بيروت ، ١٩٦٦ .

تعليق متقى من فرحة الأندلس لابن غالب (مخطوطة بمعهد المخطوطات بـ ^{البحرين} العربية) .
التقريب لحد المنطق لابن حزم . تحقيق الدكتور إحسان عباس . ط . بيروت ، ١٩٥٩ .
التكملة لابن الأبار (١ - ٢) . ط . القاهرة ، ١٩٥٥ .
تهذيب التاريخ الكبير لابن عساكر بعناية عبد القادر بدران (١ - ٥) . مطبعة روضة
الشام ، دمشق ، ١٣٢٩ - ١٣٣٢ .

جنوة المقتبس للحميدى . تحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي . القاهرة ، ١٩٥٢ .
جمهرة أنساب العرب لابن حزم . الطبعة الأولى ، تحقيق الأستاذ أ. ليفي بروفنسال . ط .
دار المعارف بمصر ، ١٩٤٨ .

جمهرة أنساب العرب لابن حزم . تحقيق الأستاذ محمد عبد السلام هارون . ط . دار المعارف
بمصر ، ١٩٦٢ .

الحلة السراء لابن الأبار (مخطوطة الأسكوريال رقم : ١٦٥٤) .
الحلة السراء لابن الأبار (١ - ٢) . تحقيق الدكتور حسين مؤنس . القاهرة ، ١٩٦٣ .
ديوان ابن درّاج القسطلي . تحقيق الدكتور محمود علي مكّي . دمشق ، ١٩٦١ .
ديوان أبي العتاهية . مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٨٨٦ .
الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام (١ - ١/٤) . ط . لجنة التأليف والترجمة
والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٩ - ١٩٤٥ .

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام (الجزء الثالث) (مخطوطة بغداد) .
ذكر بلاد الأندلس (مخطوطة الرباط رقم : ٨٥) .
رسائل ابن حزم . تحقيق الدكتور إحسان عباس . القاهرة ، ١٩٥٤ .
رسائل ابن حزم (مخطوطة شهيد علي رقم : ٢٧٠٤) .
الروض المعطار لمحمد بن عبد الله الحميري . ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ،
١٩٣٧ .

رياض النفوس للمالكي . تحقيق الدكتور حسين مؤنس . ط . القاهرة ، ١٩٥١ .
الريحان والريمان لابن الموعاني (مخطوطة الفاتح) .
شرح المختار من شعر بشار للتجبي . ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة .
شرح مقامات الحريري للشريشي . ط . القاهرة ، ١٣٠٠ .
الشعر الأندلسي لأميليو غرسية غومس . ترجمة الدكتور حسين مؤنس . مطبعة لجنة التأليف
والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٢ .

الصلة لابن بشكوال (١ - ٢) . ط . القاهرة ، ١٩٥٥ .
صورة الأرض لابن حوقل . ط . ليدن ، ١٩٣٨ .
طبقات الأطباء لابن جليل . تحقيق الأستاذ فؤاد سيد . نشر المعهد الفرنسي بالقاهرة ،
١٩٥٥ .

طبقات الأمم للقاضي صاعد . ط . مصر .
طبقات الأمم للقاضي صاعد . ط . المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩١٢ .
طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (١ - ٦) . الطبعة الأولى ، المطبعة الحسينية المصرية .
القاهرة ، ١٣٢٤ .

— طبقات النحويين واللغويين للزبيدي . تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم . ط .
القاهرة ، ١٩٥٤ .

طوق الحمامة لابن حزم . تحقيق الأستاذ حسن كامل الصيرفي . القاهرة ، ١٩٥٠ .
العقد لابن عبد ربه (١ - ٧) . ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٢ -
١٩٦٥ .

- عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (١ - ٢) . ط . المطبعة الرهية ، القاهرة ، ١٣٠٠ .
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (١ - ٢) . دار الفكر بيروت ، ١٩٥٦ .
- فجر الأندلس للدكتور حسين مؤنس . ط . القاهرة ، ١٩٥٩ .
- الفصل في الأهواء والملل والنحل لابن حزم (١ - ٥) . ط . القاهرة ، ١٣١٧ .
- فهرسة ابن خير . ط . سرقسطة ، ١٨٩٣ .
- قضاة قرطبة وعلماء إفريقية للخشني . ط . مصر ، ١٣٧٢ .
- قطعة من ديوان ابن حزم (مخطوطة بالمكتبة التيمورية) .
- لحن العامة للزبيدي (فلم محفوظ بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية) .
- المراقبة العليا للنباهي . تحقيق الأستاذ أ. ليفي بروفنسال . ط . دار الكاتب المصري .
- مسالك الأبصار وممالك الأمصار لابن فضل الله العمري (الأجزاء ٦ و ١٠ و ١١) (مخطوطة آيا صوفيا رقم : ٣٤٣٣) .
- المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية الكلبي . تحقيق الدكتور مصطفى عوض الكرم . الخرطوم ، ١٩٥٤ .
- مطمح الأنفس للفتح بن خاقان . ط . الجواثب ، ١٩٠٢ .
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب لابن عبد الملك المراكشي . ط . مصر : ١٣٢٤ .
- معجم البلدان لياقوت الحموي . ط . دار صادر ، بيروت .
- معجم الأدباء لياقوت الحموي (١ - ٢٠) . ط . مصر .
- المغرب من أخبار أهل المغرب لابن سعيد . تحقيق الدكتور شوقي ضيف . دار المعارف بمصر .
- المقتبس لابن حيان . تحقيق ملشور انطونية . باريس ، ١٩٣٧ .
- المقتبس لابن حيان . تحقيق الدكتور عبد الرحمن الحجي . دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٥ .
- المقدمة لابن خلدون . المطبعة التجارية بمصر .
- المكتبات في إسبانيا الإسلامية للأستاذ حوليان ريبيرا . ترجمة الدكتور جمال محمد محرز . مجلة معهد المخطوطات ، المجلد الرابع ، الجزآن الأول والثاني .
- نثار الأزهار لابن منظور . ط . الجواثب ، ١٢٩٨ .

- نفع الطيب للمقري (١ - ٤) . ط . بولاق ، ١٣٠٢ .
- نفع الطيب للمقري (١ - ٤) . تحقيق الأستاذ زينهارت دوزي ورفاقه . بريل . ليدن ،
١٨٥٥ - ١٨٥٩ .
- نفع الطيب للمقري (١ - ١٠) . تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد . القاهرة ،
١٩٤٩ .
- نقط العروس لابن حزم . فصله من مجلة كلية الآداب بالقاهرة ، المجلد ١٣ ، الجزء الثاني ،
ديسمبر ، ١٩٥١ (بتحقيق الدكتور شوقي ضيف) .
- نكت الهميان للصفدي . ط . المكتبة التجارية ، القاهرة ، ١٩١١ .
- الوافي بالوفيات للصفدي (الجزء الخامس) ، (مخطوطة أحمد الثالث) .
وفيات الأعيان لابن خلكان (١ - ٦) . تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد . القاهرة ،
١٩٤٨ .
- يتيمة الدهر للشعالبي (الجزء الأول) . ط . بيروت .

Hispano-Arabic Poetry, by Nykl. Baltimore, 1948.

فهرس عام

أ

- أحمد بن حبرون ، أبو عمر ٣٠٦
- أحمد بن حدير (الوزير صاحب المظالم) ٣٦٧
- أحمد بن حنبل ٣٥٨
- أحمد بن خالد ٢١٤
- أحمد بن رحيم ٦٣
- أحمد بن سعيد (والد الفقيه ابن حزم) (٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣٦٠ ، ٣٢٩)
- أحمد بن شعيب النسائي ٣٦٨
- أحمد بن عبد الله بن عمر (المعروف بابن الصفار) ٧٣
- أحمد بن عبد الملك بن هشام الإشبيلي ، أبو عمر (المعروف بابن المكوي) (٧١ ، ٣٦٠)
- أحمد بن غانم ٣٢
- أحمد بن فرج (صاحب كتاب المترين والقائمين بالأندلس) ٣٦٥
- أحمد بن قاسم البيهقي ٣١٣
- أحمد بن محمد بن أبي عبدة ، أبو العباس ١٨٩ ، ١٩٤
- ابن أمية الحجاري ٣٥٨
- أبان بن عثمان ٣٦
- ابن الأبار ٣٤ ، ٣٥ ، ١٨٢ ، ٢٣٠ ، ٣١٨
- إبراهيم بن أحمد الشيباني ، أبو اليسر ٥٢
- إبراهيم بن حجاج ١٥٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٩ ، ١٨٨
- إبراهيم بن سليمان الشامي ٥٢
- إبراهيم بن العباس الصولي ٦٩ ، ٣٣٠
- إبراهيم بن قيس ١٧٠
- إبراهيم بن محمد بن باز ٢٣ - ٢٤
- أبو إبراهيم (المشاور لدى المستنصر) (٣٢٧ ، ٣٢٨)
- ابن أبي زمنين ٨٠ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨
- ابن أبي شيبة ، أبو بكر ٢٩ ، ١٨٣ ، ٣٥٨
- ابن أبي الفياض ٩١
- ابن أبيض ٣٥
- أحمد بن أبان بن سيد ٦٤ ، ٦٨ ، ٣٦٢
- أحمد بن أبي طاهر ٣٥٤ ، ٣٦٣
- أحمد بن الأسعد (الملقب بصدام الكاتب) ٢٠٨

الأخطل ٦٥
 الأخش ٣٦٢
 إدريس بن ميم ٧٢
 إدريس بن اليمان ١١٥
 أذربيجان ٣٥٤
 اربد ابن الشريف الطليق ٢٢٨
 اربوتة ١٥
 الأردن ١٢
 اردون بن أذفونش ٦٧ - ٦٨
 ارسطوطاليس ٧٣ ، ١٤٧
 اربطاس ١٣
 ارقم بن عبد الرحمن (من بني ذي النون)
 ٢٠٥
 ارمانوس بن قسطنطين ٣٥١
 ارمنقذ ١٣٤
 ارمينية ٣٥٤
 ابن أزرقي (أو ابن ارزق) ٢٥٢
 اسبانية ٣٩
 استجة ١٩٢
 اسحاق (من رجال ابن حفصون) ٨٢
 اسحاق المنادي ١٥٤
 اسحاق الموصللي ٥٥ ، ٥٦
 اسحاق بن سلمة ٦٨
 اسحاق بن سلمة بن إسحاق القيني ٣٦٤
 أسد بن القرات ٣٥١

أحمد بن محمد بن أحمد بن سعيد (المعروف
 بابن الجصور الأموي) ٣١٣
 أحمد بن محمد بن زياد الأعرابي ٣٥ ، ٤٩
 أحمد بن محمد بن سالم التستري ٣٥
 أحمد بن محمد بن عبد الوارث ، أبو عمر
 (المعروف بابن أخي الزاهد) ٣١٤
 أحمد بن محمد بن فرج الجلياني (صاحب كتاب
 الحدائق) ٦٩ ، ٨٠ ، ٩٠ ، ٩١ ، ١٠٠ ،
 ١٠٦ ، ١٢٦ ، ١٧٤ ، ١٨٢ ، ٣٦٢ ،
 ٣٦٣ ، ٣٦٨ ، ٣٩٧
 أحمد بن محمد بن موسى الرازي (المؤرخ)
 ١٥٦ ، ٣٢٦ ، ٣٤٩ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤
 أحمد بن موسى بن حدير (صاحب السكة)
 ٢٩
 أحمد بن نصر ، أبو جعفر (شيخ بالقيروان)
 ٣١ ، ٣٢
 أحمد بن نصر ٦٩ ، ٧٠
 أحمد بن نصر (صاحب كتاب في الهندسة)
 ٣٦٦
 أحمد بن هشام القرطبي المحدث ٢٣
 أحمد بن وليد (المعروف بابن أخت عبدون)
 ٣٦
 أحمد بن يونس الحراني ٧٤
 ابن الأحمر ٧١
 اختبائة ٢٣

٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣٣٧ ،

٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٦٣

الأفوه الأودي ٣٣٩

إقريطش ٣٥٠ ، ٣٥١

الاقشتين (محمد بن عاصم النحوي) ٨٠ ،

١٨٥ ، ٣٢٦ ، ٣٦٤ ، ٣٦٨

اكشونية ١٧

ألبونت ٣٤٩

المرية ٢٠ ، ١٣٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٨١٠ ،

٣٠٩ ، ٣٤٢

الياس بن يوسف الطليطي ٣٥

ابن الإمام ٣٦ ، ١٢٠

امرؤ القيس ١٤٣ ، ١٤٩ ، ٢١٣ ، ٢٣٨ ،

٢٣٩ ، ٢٩٥ ، ٣٣٥ ، ٣٣٩

الأمين (الخليفة العباسي) ١٩

أمية بن زيد الكاتب ٣٢٧

ابن الأنباري ٣١٥

انيدوقليس ٣٣ ، ٣٤

أنس بن مالك ، أبو حمزة ٣٥٠ ، ٣٥٣ ،

الأهواز ٣٦٧

أوروبية ٣٤٢

الأوزاعي ٢٧

أوس بن حجر ٦٥

أيوب بن سليمان بن إسماعيل الطليطي ٣٥

أيوب بن فتح ٣٢

الأسدي الشاعر ، انظر : محمد بن سعيد بن
مخارق الأسدي

أسلم بن أحمد بن سعيد ٥٦

أسماء (في الشعر) ٢٧٩

إسماعيل بن إسحاق (القاضي) ٣٥٨

إسماعيل بن عبد الله الرعيبي ٣٧

إسماعيل بن القاسم البغدادي ، انظر : القالي ،

أبو علي

اشبونة ١٦١

إشبيلية ١٢ ، ١٤ ، ١٧ ، ٣٩ ، ٥٩ ، ٧٠ ،

١١٨ ، ١٥٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٨ ،

٢٧٦ ، ٣١٢

اشكمياط ٢٨٢

اشهب (صاحب مالك) ٢٨

أبو الأصبح القرشي ٢٨٦

أصبهان ٣٥٥

الأصمعي ٤٩ ، ١٥٥ ، ١٨٣ ،

أضحى بن سعيد ٣٥

ابن الأعرابي ، انظر : أحمد بن محمد بن زياد

الأعرابي

الأعشى ٦٥ ، ٢٣٩

أغلب بن شعيب ٣٦٨

إفريقية ٢٩ ، ٣٤٧ ، ٣٥٢ ، ٣٦٠ ،

أفلاطون ٧٣

أفلوطين ٣٣ ، ٣٤

ابن الأفلطي (إبراهيم بن محمد) أبو القاسم

ب

البصرة ٣٥٤	باب أبي المطرف ٢١٤
البصرة (بالمغرب) ٣٥٢	باجة ١٢ ، ١٥
بطروج ٣٥١	ابن باق ٢٥٥ ، ٢٥٦
بطلبوس ١٧ ، ١٧٢	بيشتر ٩٧
بغداد ١٩ ، ٣٩ ، ٥٥ ، ٦٦ ، ٧٢ ، ١٠٣ ،	بجاجة ٣٦
١٧١ ، ١٨٣ ، ٢٤٧ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ،	البحري ٤٧ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٢٩٥ ،
٣٦٣	٣٣٦
بقي بن مخلد ، أبو عبد الرحمن ٢٩ ، ٣٠ ،	بحر القلزم ٤٩
١٨٣ ، ١٨٨ ، ٣٥٧ ، ٣٦٨	البخاري : انظر : محمد بن إسماعيل البخاري
بكر الكناني (في المثل) ٨٢	بلنر (وقعة) ٩٤
بكر بن يحيى بن بكر ١٧	بديع الزمان الهمداني ١٤٨ ، ٢٩٣ ، ٣٢٩ ،
أبو بكر المرواني ٢٨١	٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨
أبو بكر ابن حزم ٣٣٤	البراجلة ١٥ ، ٩٧
أبو بكر ابن الفرضي ٢١٣	ابن برد الأصغر ، أبو حفص ٢٨١ ، ٢٨٣ ،
أبو بكر ابن نصر ١١١	٢٨٦ ، ٣٣١
أبو بكرة ٣٥٣	ابن برد الأكبر ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٢
بلاد المجوس (بلاد النورمان) ١٦١ ، ١٦٢ ،	البيسامي ٢٨٣
١٦٤	ابن بسام ٨٨ ، ١٢٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٣٠ ،
بلاط مروان ١٥٨	٢٣٣ ، ٢٥٩ ، ٢٨٧ ، ٣٣٤ ، ٣٣٩
بلاط مغيث ٣٠٨	بسطة ١٥
بلج بن بشر بن عياض القشيري ١٢ ، ١٤ ،	بشار بن برد ٤٧ ، ٥٩ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ،
بلنسية ١٥ ، ١٣٦ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٧ ،	٣٦٨
٢٧٠ ، ٣٠٩	ابن بشكوال ٢٣ ، ٣٨ ، ١٣٧ ، ٢٠٥ ، ٢١٣

بنبلونة ٨٦

بهجة (أو مهجة) ٥٣ . ٥٤

البيرة ١٢ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٨ ، ٦٨ ، ١٠٠

٨٠ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٣٤ ، ٣٦٤

ت

تاجلة ١٥

التجبي (شارح المختار من شعر بشار) ٥٩

تدمير ١٢ ، ١٥ ، ٢٧٠ ، ٢٨٢

تمام بن عامر النقي ١٠٦

تمام بن علقمة ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤

تمام بن غالب ، أبو غالب (المعروف بابن

التياني) ٣٦١

أبو تمام ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ،

١١١ ، ١١٢ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٤٨ ،

١٧٠ ، ١٧١ ، ١٨٠ ، ٢٠٢ ، ٢٥٨ ،

٢٦٠ ، ٢٦٤ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣٣٦ ،

٣٦٨ ، ٣٣٩

تود (أو نود) ١٦٣

تونس ٣٥٢

تبهرت ٣٥٢

ابن التياني ، انظر : تمام بن غالب

ث

ثابت (صاحب كتاب الفرق) ٣١٥

ثابت بن قاسم (النحوي الأندلسي) ٤٩ ،

٦٣ ، ٦٥

ثبير ٢٤٦

الثعالي ١٢٦ ، ١٨٠ ، ٢٥٩ ،

الثغر ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ٣٢٩ ، ٣٦٣ ،

ثهلان ٢٤٦

ج

- جابر بن حيان ٧٣
 جابر بن ليلى ٤٦ ، ٤٧
 الجاحظ ١٤٨ ، ١٤٩ ، ٢٩٣ ، ٣٢٩ ،
 ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ،
 ٣٦٩ ، ٣٣٨
 ابن الجارود ٣٥٨
 الجبال ٣٥٤
 الجبل (من قرطبة) ٣٢ ، ٣٤ ، ١٣٣ ، ١٧٨ ،
 جبل سمستان ١٥٤ ، ١٧٦
 جزيرة (غزوة) ٩٤
 جرجان ٣٥٤
 ابن الحرز ٣٢٦
 الجرفي ٣٦٢
 جريز ٤٤ ، ٥٥ ، ١٤٨ ، ٣٦٨
 الجزائر الشرقية ١٣٥ ، ٣٦١
 الجزيرة (من المشرق) ٢٠
 الجزيرة الخضراء ١٥ ، ٩٧ ، ١٥٦ ، ٢٤٦
- جعفر بن عثمان المصفي (الحاجب) ٩٢ ،
 ١٠١ ، ١٠٧ ، ١١٥ ، ١٨٢ ، ٢١١ ،
 ٢١٢ ، ٣٦٨ ، ٣١٥ ،
 أبو جعفر المنصور ٣٦٣
 جعونة بن الصمة الكلابي ، أبو الأجر ٤٤ ،
 ٤٥ ، ٤٨ ، ٣٦٨
 جميل بن معمر ٦٥
 ابن الجهم ٥٢
 جهور بن جهور ، أبو الحزم ٢٨٩
 جهور بن الضيف ١٢٢
 جهور بن عبيد الله بن أبي عبدة ٩٢
 ابن جواد ، أبو جعفر ٢٤٧
 الجوف ٣٦٣
 جيحان ٩٢
 جيان ١٢ ، ١٥ ، ١٦ ، ٣٦ ، ٨٤ ، ٩٨ ،
 ١٠٠ ، ١٩٣ ، ٢٣٧

ح

- حاتم (الطائي) ٢٦٤
 أبو حاتم (السجستاني) ٤٩
 الحاتمي ، أبو علي ١٤٨ ، ١٤٩
 الحاجب المصفي ، انظر : جعفر بن عثمان
 المصفي
 حامد الزجالي ١٧١ ، ١٧٢

حسان بن مالك بن أبي عبدة ، أبو عبدة

(الوزير) ٧٨ ، ٢٨٥ ، ٣١٤

حسانة ٤٦

الحسن البصري ١٤٨ ، ١٤٩ ، ٣٦٠

حسن بن قنون ١٠٤ ، ١٠٥

الحسن بن هاني ، انظر : أبو نواس

حسين بن عاصم ٣٦٤

حصن القصر ٣٠٩

حصن وضاح ١٥

ابن حصن ١٠٨

حصين بن عبد بن زياد ٦٠

الخطيبة ٥٥ ، ٦٥

ابن حفصون التائر ، انظر : عمر بن حفصون

ابن حفصون الفيلسوف (أحمد بن حكم) ٧٤

حفي العامرية (بنت المظفر) ٥٨

الحكم الربضي (الحكم بن هشام بن عبد

الرحمن الأمير الأموي) ١٨ ، ٢١ ، ٤٦ ،

٤٧ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٢ ، ٩٦ ،

١١٦ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٩

الحكم المستنصر (الحكم بن عبد الرحمن

الناصر) ١٧ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٦ ،

٢٩ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ،

٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٥ ،

٧٦ ، ٧٩ ، ٩٠ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ ،

١٣٧ ، ١٥٣ ، ١٧٦ ، ١٨٢ ، ١٩٣ ،

حبوس بن ماكسن الصنهاجي ١٣٥

حبيب العامري ٢١٠

حبيب بن إسماعيل بن عامر ، أبو الوليد

الخميري ١٠٦

حبيب بن أوس اللطائي ، انظر : أبو تمام

ابن حجاج التائر ، انظر : إبراهيم بن حجاج

الحجاري ١٧٣ ، ٢٩١

الحجاز ٢٨ ، ٣٢ ، ١٥٥

حذيفة (الصحابي) ٣٥٣

ام حرام بنت ملحان ٣٥٠ - ٣٥١

أبو حرشن (في المثل) ٨٢

حرقوص ١٧٨

ابن حزم (علي بن أحمد بن سعيد) أبو محمد

١٢ ، ١٤ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣١ ،

٣٤ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٨ ،

٥٧ ، ٥٨ ، ٦٨ ، ٧٢ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٤ ،

٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٥ ،

١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ٢٢٣ ،

٢٢٤ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٥٨ ،

٢٧٨ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٢٩٣ ،

٣٠٣ - ٣٢٢ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ،

٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ،

٣٤٧ ، ٣٧٠ ، ٤١٥

حسداي بن إسحاق (الطبيب) ٦٨

حسان بن ثابت ١٤٦

أبو حنيفة (الإمام) ٢٧ ، ٢٠٧ ، ٢١٩ ،

٣٥٥

أبو حنيفة الديثوري ٣١٥

حنين ٩٤

ابن حوقل ٢٠ ، ٢١ ،

حي بن عبد الملك ٣٤

ابن حيان المؤرخ ، أبو مروان ١٧ ، ٥٩ ،

٧٨ ، ١٠٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ،

١٣٨ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٦١ ، ١٧٣ ،

١٧٤ ، ١٨٠ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢٤٤ ،

٢٤٦ ، ٢٥٢ ، ٢٥٩ ، ٢٨٢ ، ٢٩٣ ،

٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣١٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ،

٣٣٣ ، ٣٦٤

أبو حيان الجبائي ٨٨

٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ،

٢١٢ ، ٢١٨ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٣٢٨ ،

٣٥٢ ، ٣٦٤

حكيم بن منذر بن سعيد ٢٩ ، ٣٦ ، ٦٤ ،

حمدونة بنت زوياب ٥٦

ابن حمديس ٢٣٢

حمزة بن الحسن الأصبهاني ٣٥٥

حمص ١٢

الحميدي (صاحب جذوة المقتبس) ٦٣ ،

١٦٤ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٨١ ، ١٨٢ ،

١٨٦ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢١٣ ،

٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٥١ ، ٢٨٧ ، ٣٠٤ ،

٣١٥ ، ٣١٨ ، ٣٣٢

ابن الحناط الأعمى ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ،

٢٩٠ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠

خ

الخصيب (بن عبد الحميد) ٢٤٠

خصيب (لغوي) ٢٤

أبو الخطار الكلبي ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ،

ابن خفاجة ١٠٦

ابن خلدون ٢٧ ، ٢٨ ، ٦٧ ،

خلف بن عباس الزهراوي ، أبو القاسم ٣٦٥

الخلال ٣٦٨

خارجة بن حذافة العدوي ٣٥٣

خالد بن سعد (محدث) ٦٩

خالد بن سعيد القرطبي ٢٩

خراسان ٤٤٧ ، ٣٥٤

الحشني ، انظر : محمد بن الحارث الحشني ،

محمد بن عبد السلام الحشني ، محمد بن

وضاح الحشني .

خليل بن إسحاق ٣٦٧
خليل بن عبد الملك بن كليب ٢٩
ابن خير ٣٩
خيران العامري ٢٦ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ٢٤٦ ،
٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٣٠٩

خلة (في المثل) ٨٢
خلوة ٢٠٦ ، ٢٠٧
خليفة بن خياط ١٨٣
الخليل بن أحمد ٤٩ ، ٦٨ ، ٨٨ ، ٢٩٣ ،
٣٣٧

د

دعبل ٥٢
دلابة ١٥
دمشق ١١ ، ١٢
ابن المدينة ٥٥
أبو دهب الجمحي ٥٥
الدورقي ١٨٣
دويرة (هر) ٩٥
ديار ربيعة ٣٦٧
ديار مضر ٣٦٧
الديباجي ٣٦٨
ديسقوريدس ٦٧
ديك تيس الجن (أحمد بن محمد الكتاني
الحياتي) ١٧٣

الداخل ، انظر : عبد الرحمن الداخل
دار ابن النعمان ٢٧٢
دانية ٧٤ ، ١٣٥ ، ٢٥٧ ، ٢٦١
داود الظاهري ، أبو سليمان ٢٩ ، ٣٦٨
ابن داود ، انظر : محمد بن داود الأصفهاني
ابن دحية ، أبو الخطاب ١٦١ ، ٣١٨
أبو الرداء ٣٥٣
ابن دراج القسطلتي (أحمد بن محمد بن دراج)
أبو عمر ٧٦ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٢٦ ، ١٤٨ ،
١٥٠ ، ١٨٢ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ - ٢٦٩ ،
٢٧٤ ، ٢٩٣ ، ٣٠٢ ، ٣١٥ ، ٣٢٩ ،
٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٦٨ ، ٤٠٧
ابن درستويه ٣٣٧

ذ

٢٩٩

ابن ذكوان ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٩٨ ،

ذو الرمة ٥٥ ، ٦٥ ، ١٨١ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ،

ر

الرصافة ٣١٣

الرازي (المؤرخ) ، انظر : أحمد بن محمد

رغد ٥٤

ابن موسى الرازي

رمادة ٢٠٥

الرباعي الشاعر ، انظر : محمد بن يحيى

الرباعي

الرمادي (يوسف بن هارون) أبو عمر ٦١

٨٩ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ١٠٩ ، ١١٦ ، ١٣٠ ،

الربض ١٨ ، ٩٦ ، ١٥٧ ،

١٨٢ ، ٢٠٥ - ٢٢٢ ، ٢٣١ ، ٤٠٣ ،

ابن الريب القروي ٨١

٤٠٤

ربيع القطان ٣١

رومانوس (امبراطور البيزنطيين) ٦٧

الربيع بن زياد ٣٥٤

ابن الرومي ٥٥ ، ١١٠ ، ١٢١ ، ١٢٥ ،

ردلف ١٧

١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٤٩ ، ٢٦٠ ، ٣١٩ ،

رسيس ٢٥

رويم بن أحمد ٣٦٨

الرشاش ٨٢

الرياشي ٤٩

ابن رشد ٥٩

الري ٣٥٤

الرشيد هارون ٧٨ ، ١٠٤ ،

ريّة ١٢ ، ١٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٣٦٣ ،

رشيد بن فتح الدجاج ٣٦

ز

١٣٠ ، ١٣٤ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢٢٦ ،

٢٢٧ ، ٢٣٠

الزهراوي (تلميذ المجريطي) ٧٤

الزهري ٣٦٠

زهير العامري ١٣٥ ، ٢٨١

زهير بن أبي سلمى ١٤٨

زهير بن مالك البلوي ٢٧

الزهيري ١٢١

زياد بن عبد الرحمن (المعروف بشبطون) ٢٨

زيادة الله بن علي الطيبي ٥٦ ، ٧٥

زيد بن ربيع الحجري ١٥٤

ابن زيد (الأسقف القرطبي) ٦٨

أبو زيد الأديب ١٧٩

ابن زيدون ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٢

الزاهرة ١١٢ ، ٢٣٠ ، ٣٠٨

زاوي بن زيري الصنهاجي ١٣٥ ، ٣٠٩

الزبيدي ٣٥ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ٧١ ،

٨٨ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٥٥ ، ١٧٩ ،

١٨٠ ، ٣١٥

ابن زرب (محمد بن يقي) القاضي ٣٥ ،

٣٦ ، ٣٧

زربوط (الطنبوري) ٥٧

زرقون (المغني) ٥٣

زرياب ١٩ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ،

٦١ ، ١٥٧ ، ١٧٤

ابن زريق البغدادي ٣٢٠

زكريا بن خطاب ٦٣

الزهراء ٢٦ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ١١٢ ، ١١٣

س

سحنون ٢٨ ، ٣١

سمر من رأى ٣٥٢

ابن السراج ٣١٥

سرقسطة ١٥ ، ١٣٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ،

٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧

السرنبائي ١٧

ساعدة بن بريم ٦٠

الساقيه ١٣٦

سالم (من أجداد ابن عبد ربه) ١٨٣

سبته ١٣٤

سجستان ٣٥٤

سجلنامه ٣٥٢

سكن بن سعيد ٨٠ ، ٣٢٦ ، ٣٦٥
 سليم (مولى المغيرة بن الحكم الرضي) ٥٤ ،
 ٦٠
 سليمان بن الأشعث السجستاني ٣٦٨
 سليمان بن الأعرابي ٣٢٧
 سليمان بن جلجل ٣٦٥
 سليمان بن عبد الرحمن الداخل ٤٥
 سليمان بن عبد الملك (الخليفة الأموي) ٣٥١
 سليمان بن هود ٢٥٣
 أبو سليمان المنطقي ٧٢
 أبو سليمان الهواري ٦٦
 ابن السمح (اصبح بن محمد بن السمح) أبو
 القاسم ٧٣ ، ٣٦٦
 السند ٣٥٤
 سهل بن هارون ١٤٨ ، ٢٩٣ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ،
 ٣٦٩ ، ٣٣١
 سوار بن حمدون القيسي ١٧ ، ٩٧ ، ٩٨
 سيويه ٨٨ ، ٣٣٧
 ابن سيده ١٣٦ ، ٣٦٢
 ابن سيّد ، انظر : أحمد بن أبان بن سيّد

أبو السري ٧٨
 ابن سريج (المغني) ٥٥
 سعاد (في المثل) ٨٢
 سعد بن ناشب ١٤٦
 سعيد بن أبي هند ٢٨
 سعيد بن جودي ١٧ ، ٩٢ ، ٩٨ ، ٩٩ ،
 ١٥٥ ، ١٧٦
 سعيد بن العاص المرادي ١٢٣
 سعيد بن عبد ربه ١٢٣ ، ١٥٤
 سعيد بن فتحون السرقسطي ، أبو عثمان
 (المعروف بالحمار) ٧٢ ، ٣٦٥
 سعيد بن كامل ٦٠
 سعيد بن محمد بن العاص المرواني ١٢٦
 سعيد بن محمد بن عبد ربه ١٨٥
 سعيد بن محمد بن فرج ١١٠
 سعيد بن منذر بن سعيد ٣٦
 ابن سعيد ٩٢ ، ١٦٣ ، ١٨٢ ، ٢٠٥ ، ٢١٢
 أبو سعيد (الفتي الجعفري) ٣١٣
 ابن السقاء ١٣٦
 ابن السكيت ٤٩

ش

ابن الشالية (عبيد الله بن أمية) ١٥٤ ، ١٥٥ ،
 ١٧٧ ، ١٧٦

شاطبة ٣١٠ ، ٣٤٢
 الشافعي ٢٩ ، ١٨٣ ، ٣١٢ ، ٣٥٥ ، ٣٦٠

ابن الشمر المنجم ٩٧ ، ١١٨ ، ١٥٣ ، ١٦٤ ،
 ٣٨٩
 شمس المعالي ، انظر : قابوس بن وشمكير
 الشمّاخ ٦٥
 شنت مرة ١٧
 شنت يعقوب (شنت ياغب) ١٦١ ، ٢٤٠ ،
 ٣٣٢
 شترين ٢٠٩
 ابن شهيد (أحمد بن عبد الملك) أبو عامر
 ، ٨٠ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٤٢ ،
 ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ، ٢٣٦ ،
 ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٣٠٢ ،
 ٣١٠ ، ٣١٩ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ،
 ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ،
 ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ،
 ٣٤٣ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٤١٢

الشام ٢٠ ، ٦٠ ، ١٠٥ ، ١٢٨ ، ٢٥٩ ، ٣٦٧ ،
 شانجة (ملك البشكنس) ٦١ ، ١٤٣ ، ٣٣٢ ،
 شانجة بن غرسية ٦٠ ، ٦١ ،
 ابن شانجة ٢٦٧
 ابن شبلاق الإشبيلي ١١٤
 شذونة ١٢ ، ١٥ ، ٣٦ ، ١٥٦ ، ١٦١ ،
 ابن الشرب ٢٧٧
 ابن شرف ٢٠٣ ، ٢٥٩ ،
 شريش ٨٢
 الشريشي ٣١٨
 الشريف الطليق (مروان بن عبد الرحمن بن
 مروان بن الناصر) أبو عبد الملك ٩١ ،
 ١٠٠ ، ١١٣ ، ١٨٢ ، ٢٢٣ ، ٢٣٥ ،
 ٣١٥
 الشطجيري ٧٠
 الشقندي ٢٢٩ ، ٢٥٩ ،
 شلب ٨٧ ، ٢٠٥

ص

صالح بن معافي ١٧٨
 أبو صالح (صديق ابن عبد ربه) ١٨٦ ، ١٩٧ ،
 صبح ٢٦
 صريع الغواني ، انظر : مسلم بن الوليد
 صعصعة بن سلام ٢٧

صاعد (القاضي) ٧٤ ، ٣١٥ ،
 صاعد بن الحسين الربيعي البغدادي ٧٧ ، ٩٤ ،
 ١١٠ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٥٠ ، ٢٦٠ ،
 ٣٠٨ ، ٣١٥ ، ٣٦٢ ،
 صالح بن عبد القدوس ١٤٦

الصمة التشريحي ٥٥
الصميل بن حاتم ٤٤
الصنوبري ٦٥
الصولي ، انظر : إبراهيم بن العباس الصولي
ابن الصيقل (محمد بن وهب) ٣٣

الصفدي ٣١٨
ابن الصفار (المؤلف) ٦٩
ابن الصفار ، انظر : أحمد بن عبد الله بن
عمر ، يونس بن مغيث
صفية بنت عبد الله الزبي ٢٦
صقلية ٧٢ ، ٨٨ ، ٣٥٠ ، ٣٥١

ض

الضحاك بن قيس ٢٧٠

ط

طروب ٢٥
طريف الروطي ٣٥
ابن طريف (مولى العبيدين) ٣٦١
طلياطة ١٦١
طليطلة ١٣ ، ١٧ ، ٣٢ ، ٣٩ ، ٧٠ ، ١٣٤ .
٢٩١ ، ١٦٢
أبو الطيب ، انظر : المتنبي

طارق بن زياد ١١ ، ١٠٦
طاهر بن محمد البغدادي (المعروف بالمهند)
١٠٣ ، ١٢٩
طبرستان ٣٥٤
الطبري (محمد بن جرير) ٣١٣ ، ٣٥٧
الطبي (ابن الطبي) ، أبو عبد الله ٢٨١ ،
٣٠٩ ، ٣١٣
طرفة ٣١٣ ، ٣٣٥

ظ

الظافر بالله ١٣٥

٢٠٦ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٢ ، ٣١٥ ،

٣٩٨ ، ٣٣٤

عبد الرحمن الأوسط (الثاني) ١٩ ، ٢٥ ،

٤٦ ، ٤٧ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٢ ، ١٠٦ ،

١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ،

٢١٢ ، ١٦٤

عبد الرحمن الداخل ١٣ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٨ ،

٤٥ ، ٥٣ ، ٩٠ ، ٩١ ، ١٥٧ ، ١٧٠ ،

٣٢٧

عبد الرحمن شنجول (ابن أبي عامر) ١٣٣ ،

٢٤٣ ، ١٨٢

عبد الرحمن الناصر ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ،

٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣١ ، ٥٠ ، ٥٧ ،

٦٣ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٤ - ٧٥ ،

٧٩ ، ٨٠ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ١٠٦ ،

١١٩ ، ١٢٠ ، ١٣٥ ، ١٥٣ ، ١٧٦ ،

١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ،

١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٠٦ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ،

٢٣٣ ، ٢٧٨ ، ٣٢٧

عبد الرحمن بن أبي الفهد ، أبو المطرف ٧٦ ،

١٤٢

عبد الرحمن بن أبي يزيد المصري ، أبو القاسم

٣١٣

عاج (جارية) ١٠٠

ابن عاصم (طبيب) ٢٨٣

أبو عامر ابن المظفر ٢٧٩

عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم القرطبية ٢٦

عبادة بن الصامت ، أبو الوليد ٣٥٠ ، ٣٥٣ ،

عبادة بن ماء السماء ٧٧ ، ٨٠ ، ٨٩ ، ١٣١ ،

١٤٢ ، ٣٦٢

عبّاس بن فرناس التاكرفي ٥٦ ، ٩٣ ، ٩٧ ،

١٢٢ ، ١٥٣ ، ١٧٣

عبّاس بن ناصح الجزيري ، أبو العلاء أو أبو

المعلّى ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٦٢ ، ١١٤ ،

١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ٣٨٨ ،

ابن عبّاس ، أبو جعفر (الوزير) ٢٨١ ،

٢٨٢ ، ٢٩٠ ، ٢٩٧

أبو العباس الطيحي ٥٠

ابن عبد البر ، انظر : يوسف بن عبد البر

عبد الحميد الكاتب ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٣٣٠ ،

٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨

بن عبد ربه (أحمد بن محمد بن عبد ربه) أبو

عمر ٥٨ ، ٦٣ ، ٦٨ ، ٨٠ ، ٨٩ ، ٩٧ ،

١٠٦ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ،

١٣١ ، ١٤١ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٦٤ ،

١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٣ - ٢٠٤ ،

عبد الرحمن بن أحمد العلي ٩٨ ، ٩٩
 عبد الرحمن بن أحمد بن بشر ٣٢١
 عبد الرحمن ابن زرياب ٥٦
 عبد الرحمن بن سلمة الكتاني ٣١٣
 عبد الرحمن بن عبد الملك بن إدريس الجزيري
 ١٠٢
 عبد الرحمن بن محمد التجيبي ٢٠٦
 عبد الرحمن بن مروان الخليقي ١٧ ، ١٧٢ ،
 ٣٦٣
 عبد الرحمن بن مروان بن الناصر ٢٢٣
 عبد الرزاق بن همام ٣٥٨
 عبد العزيز بن أبي عامر ٢٨٦
 عبد العزيز بن حسين القروي ١٠٤
 عبد العزيز بن حكم الأموي ٣٦
 عبد العزيز بن شعيب ٣٥١
 عبد الغني (الحافظ البصري) ٣٥٩
 عبد القاهر الكريزي ٣٥٤
 عبد القدوس بن عبد الوهاب ١٠٥
 عبد الله بن أحمد بن طالب التميمي ٣٥٥
 عبد الله بن حكم ٢٥٣
 عبد الله بن ربيع بن بنوش التميمي القاضي ،
 أبو محمد ٣١٤
 عبد الله بن رواحة ١٤٦
 عبد الله بن الزبير ٣٥٣
 عبد الله ابن زرياب ٥٦
 عبد الله بن عباس ٣٥٣
 عبد الله بن فرح ١٢٠ ، ٣٩٥
 عبد الله بن قاسم بن هلال ٣٦٨
 عبد الله بن كليب ١٢١
 عبد الله بن محمد (الأمير) ١٧ ، ١٨ ، ٦٣ ،
 ٩٢ ، ٩٧ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،
 ١٧٦ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٣٢٨
 عبد الله بن محمد الرجالي ١٩٠
 عبد الله بن محمد بن أبي عبدة ١٨٨
 عبد الله بن مسلمة ٧٦
 عبد الله بن هذيل التجيبي ٣٠٩
 أبو عبد الله الغابي ٥٠
 أبو عبد الله الفرصي (الكيميائي) ٢٨١
 عبد الملك بن إدريس الجزيري ١٠١ ، ١٠٣ ،
 ١٨٢ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٤٠٦
 عبد الملك بن جهور ١١٩ ، ٣٩٦
 عبد الملك بن سعيد المرادي ٣٦٨
 عبد الملك بن عبد الرحمن بن مروان بن الناصر
 (أخو الطليق) ٢٢٣
 عبد الملك بن مروان بن شهيد ، أبو مروان
 ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٩٦ ،
 ٢٩٧
 عبد الملك بن النصور بن أبي عامر ، انظر :
 المظفر عبد الملك بن المنصور
 ابن عبدوس ، انظر : محمد بن عبدوس

ابن عبدون ، انظر : محمد بن عبدون الجبلي
عبله (قرية) ٩٨

العبي الشاعر ، انظر : عبد الرحمن بن أحمد
العبي

عبيد الله ابن الشريف الطليق ٢٢٨

عبيد الله بن يحيى بن إدريس الخالدي ١٥٣

أبو عبيد (صاحب الغريب المصنف) ٣١٥

أبو عبيدة البلنسي (المعروف بصاحب القبلة)

٦٣

أبو عبيدة بن الجراح ٣٥٣

عبيد بن محمود الجبلي ٨٠ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ،

١٥٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ٣٢٦

أبو العتاهية ٥٢ ، ١٠٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٥ ،

العتي ٢٨ ، ٧١ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ١٧٣ ،

عثمان بن ربيعة ٨٠

عثمان بن سعيد الكناني ٨٠

عثمان بن المنفى التحوي ٤٩ ، ٥٠

أبو عثمان ابن إدريس (الوزير) ١٠٨

عجب ٢٥

العجفاء (مغنية) ٥٣

ابن عذراء ١٢٢

العراق ٦٠ ، ٦٦ ، ١٠٥ ، ١٢٨ ، ١٥٥ ،

٢٤٧ ، ٣٢١ ، ٣٦٨

عرفات ٢٦٥

عروة بن حزام ٥٥

عروة بن الورد ٦٥ ، ١٤٦

عزيز (مغنية) ٥٣

ابن عصفور الحضرمي ١٤٠

الطار (أبو محمد جابر) ٣١٨

عفير بن مسعود ١٥٤ ، ١٥٦

عقيل (صديق مالك) ٢٨٣

عقيل بن نصر ٥٦

العكبي ٩٧ ، ١٨٨

علقمة بن عبدة ٦٥

علم (مغنية) ٥٣

علون (مغن) ٥٣

علي بن أبي طالب ٣٥٣

علي بن حمود ١٣٤ ، ١٣٥ ، ٢٤٩

علي بن عباس الرومي ، انظر : ابن الرومي

علي بن محمد بن أبي الحسين القرطبي (صاحب

كتاب الفرائد في التشبيه) ٨٠ ، ٩٥ ، ١٠٧ ،

٢٣٠ ، ٣٦٣

أبو علي ابن الحسين بن علي الفاسي ٣١٣

عليّة بنت زرياب ٥٦

عمر (ابن عم هاشم بن عبد العزيز) ١٧٢

عمر بن أبي ربيعة ٥٥ ، ٢٩٥ ، ٣٣٩

عمر بن حفصون ١٧ ، ٢٢ ، ٨٢ ، ٩٧ ،

٩٨ ، ١٥٥ ، ١٧٦ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ٣٦٣

عمر بن الخطاب ١٤ ، ١٥٨

عمر بن شبة ٣٥٤

عمرو بن قميثة ٦٥
 أبو عمرو ابن العلاء ٣٥٩
 أبو عمرو ابن عمرو بن عبد الله ١٧١
 ابن عمّار (الشاهد) ٨٦
 ابن العميد ، أبو الفضل ١٢٦ ، ٢٥٠
 عنرة ١٤٦
 عون بن يوسف الطليطي ٣٥
 عياض (القاضي) ٣١١
 عيسى بن دينار ٢٨ ، ٣٥٧
 عيسى بن سعيد بن القطاع ، أبو الأصغ
 (الوزير) ٢٤٤
 عيسى بن قرمان (المعروف بالزبراقة) ١٢٣ ،
 ٢٠٨ ، ٢٠٩

عمرو بن شعيب ، أبو حفص (المعروف بابن
 الغليظ) ٣٥١
 عمرو بن عبد العزيز ١٨ ، ١٨٣
 عمرو بن قهليل ، أبو حفص ٥٦
 أبو عمر الحصار ٢٨٩
 أبو عمر ابن أبي عبدة ٢٨٢
 عمران بن حصين ٣٥٣
 عمران بن حطان ٥٢
 عمرو (أو أبو عمرو ، صديق ابن شهيد)
 ٢٨٧ ، ٢٨٦
 عمرو بن بحر ، انظر : الجاحظ
 عمرو بن العاص ٣٥٣
 عمرو بن عبد الله ٨٤

غ

٢٠٣ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٨ ،
 ٢١٩ ، ٢٦٠ ، ٣٠٢ ، ٣١٥ ، ٣٩٠
 الغسانية الشاعرة ٢٦
 غليار ١٥
 ابن الغليظ ، انظر : عمر بن شعيب
 غيلان ، انظر : ذو الرمة

الغازي بن قيس ٢٨
 غالبية بنت محمد ٢٦
 غرناطة ٢٠ ، ١٣٥ ، ٣٠٩ ، ٣١٠
 الغزال (يحيى بن حكم الجياني) ٥١ ، ٧٠ ،
 ٨٠ ، ١٠٠ ، ١٠٦ ، ١١٤ ، ١١٦ ،
 ١١٨ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٥٧ — ١٦٩ ،

ف

فرحون بن عبد الله بن عبد الواحد ٢٠٩ ، ٢١٠ ،
الفرّاء ٤٩
الفرزدق ٤٤ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٣٦٨
ابن الفرضي (عبد الله بن محمد بن يوسف)
أبو الوليد ٢٣ ، ٣٩ ، ٦٩ ، ٨٠ ، ١٣٧ ،
٢١٥ ، ٣١٣ ، ٣٥٩ ، ٣٦١
فضل (مغنية) ٥٣
ابن فطيس ١٣٨
فلسطين ١٢
فيلون الاسكندري ٣٣

فائق (مغنية) ٥٣
فارس ٣٠٤ ، ٣٦٧
فاطمة (محدثة) ٢٦
الفتح بن خاقان ٢٨٣
ابن فتح ٢٨١
فحص البلوط ٨٥ ، ٨٧ ، ٣٥١
فحص ذي رعين ١٥
الفرج (مدينة) ١٥٥
ابن فرج الجياني (صاحب كتاب الحدائق) ،
انظر : أحمد بن محمد بن فرج الجياني
أبو الفرج الأصبهاني ٦٦

ق

٣٦٠
قاسم بن عبد الواحد العجلي ١٥٤
قاسم بن عياض ٩٩
القاسم بن محمد (الأمير) ١٧٣
قاسم بن محمد (فقيه) ٣٦٨
قاسم بن محمد (المعروف بصاحب الوثائق)
٣٦١
قاسم بن نصير ٨٠ ، ١١٦
ابن القاسم (صاحب مالك) ٢٨

قابوس بن وشمكير ٢٩٣ ، ٣٣٠
قادس ١٦١
قاسم بن أصبغ ، أبو محمد ٦٣ ، ٦٧ ، ٢١٤ ،
٣٥٨ ، ٣٦٤
قاسم بن ثابت (النحوي) ٤٩ ، ٦٥ ، ٣٦٠
قاسم بن ثابت السرقسطي ٣٦٠
القاسم بن حمود ٢٧٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٠
قاسم ابن زرياب ٥٦
القاسم بن سلام ، أبو عبيد ٤٩ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ،

٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ،
٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٢ ،
٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ،
٣٦٣ ، ٣٦٤

قرعوس بن العباس ٢٨

قرونة ١٤ ، ٣٢٨

القزاز ٦٤

قسطلة ٢٣٧

القسططنينية ٦٧ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ٣٥١

قشالة ١٦٢

القطامي ٥٥ ، ٦٥

القفال ٣٦٨

ابن قليل البجاني ١١٢

ابن قلزم ١٥٤

قلعة يحصب ١٥

القلفاط (محمد بن يحيى) ، أبو عبد الله ٦٣ ،

١١٨ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٧٦ -

١٨١ ، ١٨٥

قلم (مغنية) ٥٣

قنبوط (الملهي) ٥٧

قنتيش (قطيش) (وقعة) ٥٧ ، ١٣٤ ، ١٣٧

قنسرين ١٢

ابن القوطية (محمد بن عمر بن عبد العزيز)

٦٥ ، ١٠٧ ، ٢١٥ ، ٣٦١

القيروان ٣١ ، ٨١ ، ٣٤٨ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣

قيس بن الخطيم ٢٩٥ ، ٣٣٥

القالي (اسماعيل بن القاسم) أبو علي ٤٣ ،

٤٨ ، ٥١ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٧٧ ، ١٠٣ ،

١٢٤ ، ١٨٢ ، ١٨٧ ، ٢٠٦ ، ٢٩٣ ،

٣١٥ ، ٣٥٤ ، ٣٦١ ، ٣٦٢

قبرس ٣٥٠

«قبة» القاضي (عمرو بن عبد الله) ١١٩ ،

١٧٠ - ١٧١

قبرة ٢٣

قتادة (المحدث) ١٢٨

ابن قتيبة ٤٩ ، ١٨٤

قدامة بن جعفر ١٤٧ ، ١٤٩

ابن القرشية (عبد العزيز بن المنذر) ٢١٠ ، ٢١١ ،

قرطبة ١١ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٩ ، ٢٠ ،

٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٩ ،

٤٤ ، ٥١ ، ٥٩ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٣ ،

٧٥ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩١ ، ٩٢ ،

٩٣ ، ٩٦ ، ١٠٣ ، ١١٨ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ،

١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ،

١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٩ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ،

١٥٨ ، ١٦٢ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ،

١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٧ ، ٢٠٥ ،

٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢٢٧ ، ٢٣١ ،

٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٧٠ ،

٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ،

٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ،

ك

الكرماني (تلميذ المجريطي) ٧٤	كاسا مونتيجا ٣٠٥
الكسائي ٤٩ ، ٣٦٢	ابن الكتاني (أستاذ ابن حزم) ، انظر : محمد
كعب بن مالك ١٤٦	ابن الحسن المذحجي
كفات ٢٥	ابن الكتاني (صاحب كتاب التشبهات)
الكندي (محمد بن يوسف بن يعقوب)	١٠٦ ، ١٣٢ ، ٢٣٠
أبو عمر ٦٦	كثير عزة ٦٥
الكوفة ٣٥٤	كرمان ٣٥٤

ل

ابن اللمائي ، أبو جعفر ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ،	لب أبو القاسم (وزير الناصر) ١١٩
٢٩٩ ، ٢٨٧	ليلة ١٥ ، ١٦ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣١٢
ليون ٩٥	لبنى ٢٦
	ليد ابن الشريف الطليق ٢٢٨

م

مالك بن علي القطني ٣٥٧	مارية أم إبراهيم (زوج الرسول) ٣٢
مبارك العامري ١٣٦ ، ١٣٨ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩	مالقة ٥٩ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٣١٠
الميرد ٣٦٢ ، ٣٦٨	مالك (صديق عقيل) ٢٨٣
المتني ١٢٦ ، ١٤٩ ، ١٩٥ ، ٢١٣ ، ٢٥٠ ،	مالك (المغني) ٥٥
٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٧ ، ٢٩٢ ،	مالك بن أنس ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٧١ ، ٣٥٨ ،
٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ،	٣٦٠ ، ٣٥٩

المثنى (٣٢)
 محمد بن الحسن المنحجي (المعروف بابن
 الكتاني ، أستاذ ابن حزم) ٢٤ ، ٧٢ ،
 ٣١٣ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦
 محمد بن داود الأصفهاني (صاحب كتاب
 الزهرة) ٦٩ ، ٣٤١ ، ٣٦٣
 محمد بن ربيب ٢٨٦
 محمد بن زياد (القاضي) ٢٥
 محمد بن الزيات ٣٣٠
 محمد بن سحنون ٣٥٥ ، ٣٦٨
 محمد بن سعيد الميورقي ٣١١
 محمد بن سعيد بن جرج (الفقيه) ٣١٣
 محمد بن سعيد بن مخارق الأسدي ٩٨ ، ٩٩
 محمد بن سعيد بن نبات ٣١٣
 محمد بن شخيص ١٠٤ ، ١١٣ ، ٣٦٨
 محمد بن طرخان ٦٦
 محمد بن عاصم النحوي ، انظر : الاقشطين
 محمد بن عامر ، أبو عامر ٣١٠
 محمد بن العباس ، أبو الحسين ٦٥
 محمد بن عبد الرحمن (الأمير) ١٨ ، ٣٠ ،
 ٥٢ - ٥٣ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١٠٠ ،
 ١٥٧ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،
 ١٧٤ ، ١٨٧
 محمد بن عبد الرؤوف ، أبو عبد الله ٨٠ ، ٣٢٦
 محمد بن عبد السلام الحشني ٦٣ ، ١٨٣

٣٤٠ ، ٣٦٣ ، ٣٦٨
 ابن المثنى النحوي ، انظر : عثمان بن المثنى
 النحوي
 مجاهد العامري ، أبو الجيش ٧٤ ، ١٣٥ ،
 ٢٥٧ ، ٢٧٥ ، ٣٦١
 ابن مجاهد الاستجي ١٠٥
 محمد (من بني قسي) ١٧
 محمد بن أبي الحسين (اللغوي) ٦٨
 محمد بن أبي عيسى ٥٧
 محمد بن أحمد بن الحداد المصري ٣٦٠
 محمد بن أحمد بن قادم ١٢٥
 محمد بن أحمد بن يحيى بن مفرج القاضي ٣٦٠
 محمد بن إدريس ٢٢٤
 محمد بن إسحاق ، أبو بكر ٣١٠ ، ٣٤٧
 محمد بن إسحاق الزاهد ، أبو عبد الله ٣٠٦ ،
 ٣٠٩
 محمد بن إسحاق السليم (القاضي) ٧١
 محمد بن إسماعيل البخاري ٣٦٨
 محمد بن إسماعيل ، أبو عبد الله (الملقب
 بالحكيم) ٦٣ ، ١٧٩
 محمد بن أفلح ٢٠٨ ، ٢٠٩
 محمد بن جهور ١٧٢
 محمد بن الحارث الحشني ٦٩ ، ٨٤ ، ٨٥ ،
 ٨٦ ، ٣٢٨ ، ٣٦٤
 محمد بن حزم بن بكر التنوخي (المعروف بابن

محمد بن عبد الله الغازي ٤٩
محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ٣٦٨
محمد بن عبد الله بن عمر بن خير القيسي ٣٦
محمد بن عبد الله بن قاسم ، أبو عبد الله ٣٤٩
محمد بن عبد الملك بن أيمن ٣٥٨ ، ٢١٤
محمد بن عبدوس ٣٦٨ ، ٣٥٥
محمد بن عبدون الجبلي ٧٢ ، ٧٤
محمد بن عبدون القيرواني ، أبو العباس ٣٥٥
محمد بن عبيد الله بن أبي عبيدة الليثي ١٨٥
محمد بن عقيل الفرباني ٣٦٨
محمد بن فضل الله بن سعيد ٣٦
محمد بن القاسم بن شعبان ، أبو إسحاق ٦٦
محمد بن محمود القبري الضرير ٨٨
محمد بن مسعود البجائي ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧
محمد بن مسلمة ٢٣
محمد بن مفرج الماعفري (المعروف بالفقي) ٣٦
محمد بن موسى العقيلي البغدادي ٣٦٠
محمد بن موهب القبري ٢٦
محمد بن ميمون القرشي ٢٥٧
محمد بن هشام الأموي ٨٠
محمد بن وضاح الحشني ٣١ ، ٤٣
محمد بن يقي بن زرب ، انظر : ابن زرب
(القاضي)
محمد بن يحيى الرباعي ٤٨ ، ٥٠ ، ٧٢ ،
٣٦٨

محمد بن يحيى بن عمر بن لبابة ٣٦١
محمد بن يوسف ، أبو عبد الله التاريخي الوراق
٣٥٢ ، ٦٥
أبو المخشبي (عاصم بن زيد) ٤٥ ، ٤٦
المدينة ٣٢ ، ٥٣ ، ٥٧
المدينة (وقعة) ٩٨
المرتضى (عبد الرحمن بن محمد من نسل
الناصر) ١٣٥ ، ٢٤٨ ، ٣٠٩
مرج راهط (وقعة) ٢٧٠
مرسية ١٣٥ ، ٣٦١
مروان بن الناصر ٢٢٣
أبو مروان ابن أبي عيسى ٢٩
مريم بنت أبي يعقوب الفيضولي ٢٦
مزاحمة بنت مزاحم الثقفي ١٥٥
مزنة ٢٦
المزني بن إبراهيم ٣٦٨
المستظهر (عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار
الأموي) ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٣١٠
المستعين (سليمان بن الحكم) ٥٧ ، ٦٠ ،
٩١ ، ٩٧ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ،
٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٧٥
المستكفي ٢٧٨ ، ٢٨٢
المستنصر ، انظر : الحكم المستنصر
ابن مسرة (محمد بن عبد الله بن مسرة) أبو
عبد الله ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٨ ، ٣٦٩

محمد بن عبد الله بن عمر بن خير القيسي ٣٦
محمد بن عبد الله بن قاسم ، أبو عبد الله ٣٤٩
محمد بن عبد الملك بن أيمن ٣٥٨ ، ٢١٤
محمد بن عبدوس ٣٦٨ ، ٣٥٥
محمد بن عبدون الجبلي ٧٢ ، ٧٤
محمد بن عبدون القيرواني ، أبو العباس ٣٥٥
محمد بن عبيد الله بن أبي عبيدة الليثي ١٨٥
محمد بن عقيل الفرباني ٣٦٨
محمد بن فضل الله بن سعيد ٣٦
محمد بن القاسم بن شعبان ، أبو إسحاق ٦٦
محمد بن محمود القبري الضرير ٨٨
محمد بن مسعود البجائي ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧
محمد بن مسلمة ٢٣
محمد بن مفرج الماعفري (المعروف بالفقي) ٣٦
محمد بن موسى العقيلي البغدادي ٣٦٠
محمد بن موهب القبري ٢٦
محمد بن ميمون القرشي ٢٥٧
محمد بن هشام الأموي ٨٠
محمد بن وضاح الحشني ٣١ ، ٤٣
محمد بن يقي بن زرب ، انظر : ابن زرب
(القاضي)
محمد بن يحيى الرباعي ٤٨ ، ٥٠ ، ٧٢ ،
٣٦٨

٥٨ ، ٧٨ ، ١١٠ ، ١٣٨ ، ١٨٢ ، ٢١٢ ،

٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٦٨ ، ٢٧٣ ، ٢٨٨ ،

٣٠٨ ، ٣١٨

معاذ (صحابي) ٣٥٣

معاذ الشعباني ١٥٩ ، ١٦٠ ،

معاوية بن أبي سفيان ٣٥٣

معاوية بن الشبانسي ١٨٥

معبد (الغني) ٥٥

المعتد هشام بن محمد (من نسل الناصر)

٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٣ ، ٢٩٠ ، ٣٠١ ،

٣١٩

ابن المعتز ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ،

المعتضد بن عباد ٣١٠

المعتلي يحيى بن حمود ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ،

٢٧٨

المعيطي أبو مروان ٧١ ، ٣٦٠ ،

مغيث ١١

ابن مغيث (القاضي) ٦٤

المغيرة بن حبناء ٦٥

المغيرة بن الحكم الرضي ٥٤ ، ٥٥ ،

أبو المغيرة ابن حزم ٢٨٣ ، ٣١٠ ، ٣١٨ ،

٣٢٩ ، ٣٣٣

ابن المفلح (المفلح ؟) أبو الحسن ٣٦٨

مقبرة أم سلمة ٢٩٠

مقدم بن معافى القبري ٩٩ ، ١٥٤ ، ١٨٢ ،

مسعود بن سليمان بن مفلت ، أبو الخيار ٣١٢

ابن مسعود ٣٥٣

مسلم بن أحمد بن أبي عبيدة ١٢١ ، ١٨٤ ،

مسلم بن الحجاج النيسابوري ٣٦٨

مسلم بن الوليد (صريع الغواني) ٥٠ ، ٥٥ ،

٢٠١ ، ٢٩٣ - ٢٩٤ ، ٣٣٩

مسلمة بن أحمد المجريطي ، أبو القاسم ٧٣ ،

٧٤ ، ٣٦٦

مسلمة بن محمد (الأمير) ١٧٠

ابن مسلمة (الوزير لدى المنصور) ٢٧٣

ابن مسلمة ، أبو عامر (صاحب الارتياح

بوصف الراح) ١٠٦ ، ١٨١ ،

المسيب بن علس ٥٤ ، ٥٥ ،

مصاييح ٥٦ ، ٥٨ ، ١٩٤ ،

المصحفي ، انظر : جعفر بن عثمان المصحفي

مصر ١٢ ، ٢٠ ، ٣٩ ، ٦٠ ، ٦٦ ، ٦٨ ،

١٣٧ ، ١٥٥ ، ١٨٣ ، ٣٥٥ ،

مصعب بن عمران ٢٣

مصعب بن الفرضي ٢٣ ، ٢٠٥ ، ٣١٣ ،

المطرف المرواني ٢٥٨

مطرف بن عيسى الغساني ٨٠

المطرف بن محمد (الأمير) ٥٧

مظفر العامري ١٣٦ ، ١٣٨ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ،

مظفر الكاتب السرقسطي ٢٥٧

المظفر عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر ١٧ ،

٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ،
٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ،
٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٨٨ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ،
٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٤ ، ٣٢٥ ، ٣٣٢ ، ٣٦٤

منفعة (جارية) ٥٦

المنية ٢٤

منية الرصافة ٩١

منية المغيرة ٢٧١ ، ٢٧٢

منية النعمان ٢٧١

المهدي (محمد بن عبد الجبار الأموي) ٩١ ،

١٣٣ ، ١٣٤ ، ٢٤٥ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ،

المؤمن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر

١٤١ ، ٢٥٧ ، ٢٧٩

موسى بن حدير (الحاجب) ٣٦٧

موسى بن نصير ١١

الموسطة ١٥

الموصلي (صاحب كتاب أخبار مصر) ٣٥٥

مؤمن بن سعيد ، أبو مروان ٤٩ ، ١١٨ ،

١١٩ ، ١٢٠ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٧٠ -

١٧٥ ، ٢٠٣

مؤنس الكاتب ٢٠٨

المؤيد هشام ، انظر : هشام المؤيد

مبورقة ٣١٠ ، ٣١١

مي (صاحبة ذي الرمة) (في الشعر) ١٨١ ،

٢٣١

ابن المقفع ١٤٨ ، ٢٩٣ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ ،

٣٣١ ، ٣٣٥

المقري ٨٤ ، ٢١١ ، ٢٢٣ ، ٢٣٤ ، ٣١٠

ابن مقيم (الزامر) ٥٧

ابن المكوي ، انظر : أحمد بن عبد الملك بن

هشام الإشبيلي

ملحان ٧٢

منت لشم ٣٠٥

المتلون (غزوة) ١٩١ ، ١٩٣

متيشة ١٥

منذر بن سعيد البلوطي ، أبو الحكم (القاضي)

٢٩ ، ٦٨ ، ٣٣١ ، ٣٥٨ ، ٣٦٨

المنذر بن محمد (الأمير) ٦٣ ، ٩٣ ، ١٠٠ ،

١٨٨

المنذر بن الناصر ٢٠٨

منذر بن يحيى التجيبي (الأول) ١٣٤ ،

١٣٨ ، ٢٤٢ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ،

٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٦٤

المنذر بن يحيى بن منذر التجيبي (الثاني) ٢٥٣

منصور (الغفي) ٥٥

المنصور بن أبي عامر ١٧ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٥٩ ،

٧٢ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٩٢ ، ٩٣ ،

٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١١١ ،

١١٢ ، ١٣٧ ، ١٤١ ، ١٨٢ ، ٢١١ ،

٢١٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣٧ ،

ن

ابن النغالة اليهودي ٣١٠
 نقفور ٣٢٠ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥
 نقولا (الراهب) ٦٧
 نكور ٣٥٢
 النكوري (الزامر) ٥٧
 أبو نواس ٤٧ ، ٤٩ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ،
 ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٤٨ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ،
 ١٦٩ ، ٢١٨ ، ٢٣٢ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ،
 ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ،
 ٣٣٦ ، ٣٣٩

لنايفة الجعدي ٦٥
 لنايفة الذيباني ٦٥ ، ٣٣٩
 نابل (الثائر) ١٧
 الناصر ، انظر : عبد الرحمن الناصر
 نافع (صاحب القراءة) ٣٥٩
 أبو النجم ٦٥
 نصر (القي) ٨٦
 نصيب ٥٥
 النظام ٣٢٢
 ابن النظام ١٠٧
 نعم (جارية ابن حزم) ٣٠٧ ، ٣١٨

هـ

٣١٥ ، ٤٠١
 هرم بن سنان ٤٥
 هرويس (هروشيوش) ٦٧
 هشام بن عامر ٣٥٣
 هشام بن عبد الرحمن الداخل ١٨ ، ٢٣ ،
 ٢٥ ، ٢٨ ، ٤٥ ، ١٥٧
 هشام بن عبد الملك ٦٥
 هشام المؤيد (بن الحكم بن الناصر) ١١ ،
 ٦٠ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٨٢ ،

هاشم بن عبد العزيز ٨٤ ، ٩٢ ، ١٠٠ ، ١٧٠ ،
 ١٧٣ ، ١٧٢
 ابن هانيء ٤٣ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٣٥٤
 هبيرة الفزاري ٣٥١
 ابن هذيل (يحيى بن هذيل بن عبد الملك بن
 هذيل) أبو بكر الكفيف ٨٠ ، ١٠٨ ،
 ١١٢ ، ١٣٠ ، ١٨٢ ، ١٨٧ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،
 ٢١٤ ، ٢١٧ - ٢١٦ ، ٢٢٢ ، ٢٣١ ،

المواري ٢٤
ابن الهيثم ٣٦٥

٢٠٨ ، ٢٤٠ ، ٣٠٨
الممداني (أستاذ ابن حزم) ٣١٢

و

وضيح بن عبد الأعلى ٥٩
ابن ولاد ٦٨ ، ١٨٣
وليد بن حيزون ٦٧
أبو الوليد الباجي ٢٦ ، ٣٠ ، ٣١٠ ، ٣١١
أبو الوليد الزجاجي ٢٨٦ ، ٢٨٩
ابنا وهب ٣٣٠
وهران ٣٥٢

وادي آش ١٥
وادي الحجارة ١٥٥ ، ٣٥٣
وادي سليط (غزوة) ٩٣
وادي شوش ٨٤
ابن وحشية ٧٣
الوضاح بن زراح ٢٧٠
ابن وضاح ٢٩ ، ١٨٣

ي

يحيى بن منذر بن يحيى التجيبي ٢٥٣ ، ٢٥٥ ،
٢٥٦
يحيى بن يحيى الليثي ٢٧ - ٢٨
يخامر الشعباني (القاضي) ١١٨ ، ١٥٩
يزيد (مولى ليزيد بن أبي سفيان) ٣٠٤
يزيد ابن الشريف الطليق ٢٢٨
يزيد بن طلحة ٣٢٨
يعيش بن سعيد بن محمد الوراق ٧١
اليمن ٣٦٧

يحيى بن إبراهيم بن مزين ، أبو إسحاق ٣٥٧
يحيى بن أحمد بن عبد ربه ، أبو بكر ١٨٦
يحيى بن إسحاق (الوزير) ٣٦٥
يحيى بن حبيب ١٦٢ ، ١٦٥
يحيى بن حزم ، أبو بكر ٢٨٤
يحيى بن حكم الجبلي ، انظر : الغزال
يحيى بن السمينة ٣٦٧
يحيى بن معمر (الأمير) ٨٤
يحيى بن معين ٢٩

يوسف بن هارون الرمادي . انظر : الرمادي

أبو يوسف (صاحب الخراج) ٣٥١

يونس بن مغيث (المعروف بابن الصفار)

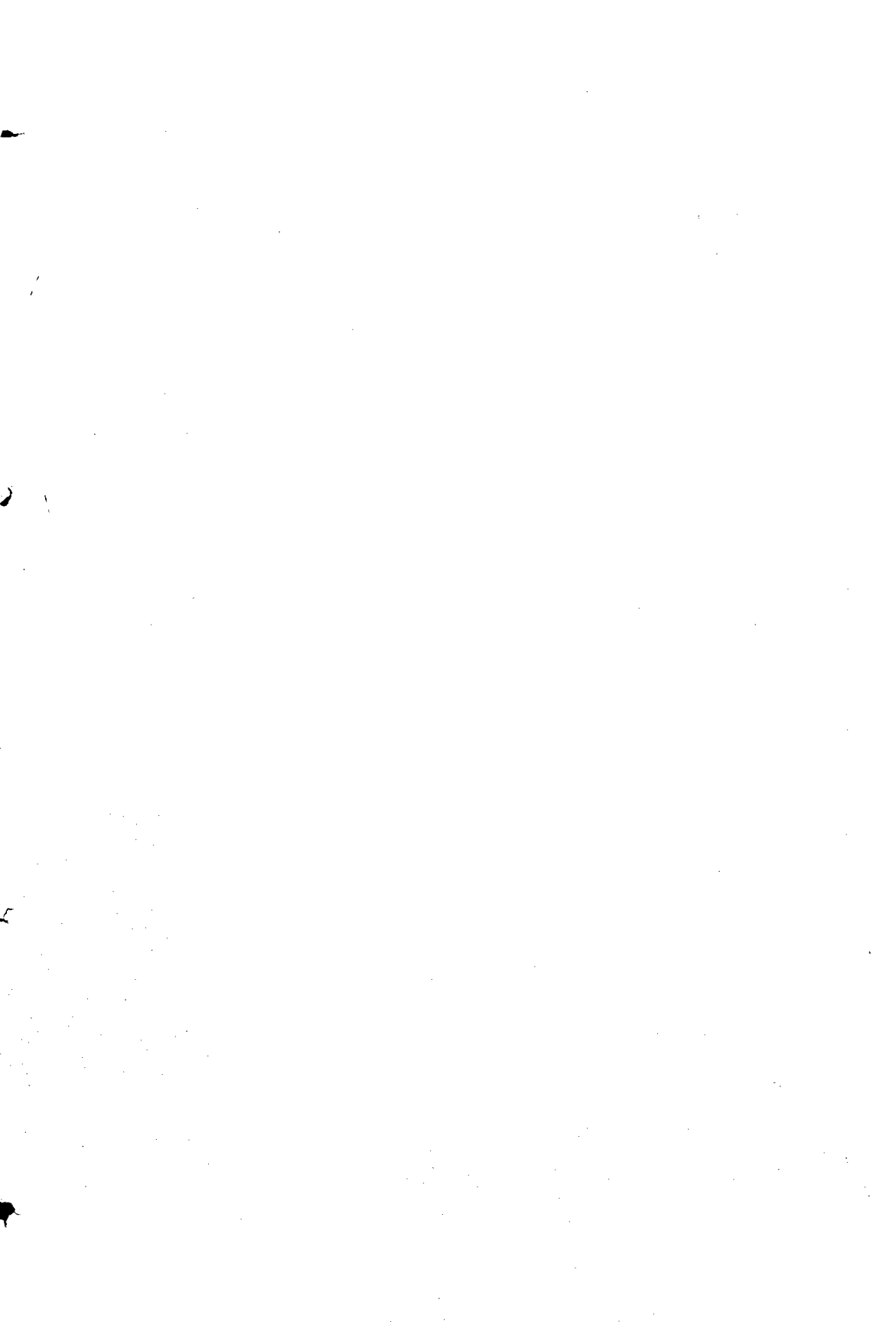
٣١٣

يوسف بن سليمان الكاتب ٣٢٦

يوسف بن عبد البر ، أبو عمر ١٣٦ . ٢٠٥ .

٢١٣ . ٣٥٩

يوسف بن عبد الرحمن القهري ٤٤



فهرس المحتويات

٥	هذه الطبعة الثانية
٧	مقدمة الطبعة الأولى
١٠	الدولة الأموية بالأندلس

مقدمة عامة

١١	١ - المهاجرون إلى الأندلس وعملية الاستيطان فيها
١٦	٢ - مدى سيادة قرطبة في الفترة الأموية وسياسة الحكام الأمويين عامة
١٩	٣ - نمو قرطبة وازدهارها الحضاري
٢١	٤ - تضاؤل الروح العسكرية العربية
٢٣	٥ - الطابع الريفي للحياة الأندلسية
٢٤	٦ - تميز الحياة الاجتماعية بالمسؤولية والتدبير
٢٥	٧ - المرأة الأندلسية
٢٧	٨ - المذاهب في الأندلس
٣١	٩ - بيان لمذهب ابن مسرة
٣٨	١٠ - التعليم في الأندلس

الشعر الأندلسي في هذا العصر

٤٣	١ - العوامل المؤثرة في نشأة الشعر الأندلسي
٤٨	أ - طبقة المؤدبين وأثرها في نشأة الشعر
٥٣	ب - الغناء وأثره في نشأة الشعر
٦٢	ج - النهضة الثقافية وأثرها في نشأة الشعر

- ٢ - مجالات الشعر الأندلسي ومظاهره الكبرى ٩٠
- أ - الشعر في ظل الحياة السياسية ٩٢
- ١ - الصراع الخارجي
- ٢ - الصراع الداخلي
- ٣ - الشعر والعصية
- ٤ - نقد الحكم القائم
- ٥ - الشعر في مقامات الوفود والأعياد
- ب - الشعر والارتياح إلى الطبيعة ١٠٦
- ج - الشعر وموضوع الحمر ١١٣
- د - الشعر والزهد ١١٦
- هـ - الشعر والفكاهة والسخرية ١١٨
- و - ثورة الشعر على الثقافات الجديدة ١٢١
- ز - السمات العامة للشعر الأندلسي في هذا العصر ١٢٤
- ٣ - الفتنة البربرية وآثارها في الشعر والأدب ١٣٣
- أ - قصة الفتنة بإيجاز ١٣٣
- ب - آثارها في التخريب ١٣٦
- ج - آثارها في انتشار العلم ١٣٧
- د - البكاء على قرطبة ١٣٨
- هـ - نمو التراجم الذاتية والنقد ١٤٠
- ١ - ابن شهيد والنقد ١٤٢
- ٢ - ابن حزم والنقد ١٤٥
- الشعراء الأندلسيون في هذا العصر
- ١ - شعراء فترة الإمارة ١٥٣
- أ - يحيى الغزال ١٥٧
- ب - مؤمن بن سعيد ١٧٠
- ج - محمد بن يحيى القلظاط ١٧٦

١٨٢	٢ - شعراء عصر الخلافة
١٨٣	أ - ابن عبد ربه
٢٠٥	ب - الرمادي
٢٢٣	ج - الشريف الطليق
٢٣٦	٣ - الشعراء المتأثرون بالفتنة
٢٣٧	أ - ابن درّاج القسطلي
٢٧٠	ب - ابن شهيد
٣٠٣	ج - ابن حزم

النثر الأندلسي في هذا العصر

٣٢٥	١ - صورة موجزة لوضع النثر
٣٣٤	٢ - التوابع والزوابع
٣٤١	٣ - طوق الحمامة

ملحقات

٣٤٧	١ - رسالة ابن حزم في فضل الأندلس
٣٧٠	٢ - قطعة من شعر ابن حزم
٣٨٨	٣ - منتخبات شعرية متنوعة

المراجع والفهارس

٤١٩	المراجع
٤٢٤	فهرس عام
٤٥٣	فهرس المحتويات